جامعة البحرين

كلية الآداب

قسم اللغة العربية
والدراسات الإسلامية

الإعجاز البياني في آيات الطبيعة

أطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة (الماجستير)
في (اللغة العربية وآدابها)

إعــــداد:

حسن فتحي أحمد الشهري

الرقم الجامعي: 20104439

إشــــراف:

أ. د. عدنان بن محمد زرزور

(أستاذ)

جامعة البحرين

مملكة البحرين

ديسمبر/2015م

صفحة الاعتماد من قبل لجنة التحكيم

جامعة البحرين
كليـة الآداب
قسم اللغة العربية و الدراسات الإسلامية
برنامج ماجستير: اللغة العربية وآدابها

نوقش الطالب حسن فتحي أحمد الشهري الرقم الجامعي ٢٠١٠٤٤٣٩ في الأطروحة التي استكمل بها متطلبات الحصول على درجة الماجستير في برنامج: اللغة العربية وآدابها، وعنوان الأطروحة:

الإعجاز البياني في آيات الطبيعة

وذلك في يوم الأربعاء الموافق ٩/ديسمبر/٢٠١٥م

وتوصي اللجنة بمنحه درجة الماجستير/ أو الدكتوراه بتقدير: ممتاز (A)

(لجنة المناقشة)

الاسم		التوقيع
١.أ.د/ عدنان محمد زرزور	مشرفـا	
٢.أ.د/ إبراهيم عبدالله غلوم	ممتحنا داخليـا	
٣. أ.د/ حسن جاد عبدالجواد طبل	ممتحنا خارجيا	

ملخص الرسالة

قد اختلف العلماء في وجوه إعجاز القرآن الكريم، ولكنَّهم يكادون يتفقون على وجوده، والإعجاز الذي وقع به التحدي بياني صرف، فالقرآن الكريم لا يعجز عن خطاب الإنسان في أي عصر، وفي الوقت ذاته لا يحمِّله أكثر مما يُطيق. ومع تطور العلم، واتساع مدارك الإنسان، وظهور الاكتشافات الحديثة في الكون والطبيعة والإنسان، فإنَّ القرآن الكريم لم يتعارض مع أي حقيقة ثابتة علمياً، بل قد جاءت فيه إشارات تعطي دلالة واضحة أنَّه من عند الله، فاتسعت ألفاظه ومعانيه، وتعددت دلالاته، فلم يصدم فهوم السابقين، ولم يناقض علوم اللاحقين، وكان الإعجاز البياني ظاهراً في ذلك، لأنَّه لا يقدر على التعبير بهذه الكيفية إلا ربُّ البشرية سبحانه وتعالى. ومن الآيات القرآنية التي يتجلى فيها هذا الأمر آيات الطبيعة، وهي تكوِّن نسبة ليست بالبسيطة بالنسبة لموضوعات القرآن الكريم وآياته؛ لما فيها من دلالة على مقاصد القرآن الكريم الكبرى. والتعبير القرآني خطاب يتسم بالدقة والإحكام للمفردات والتراكيب، كما أنَّه يبثُّ الحياة في مكونات الطبيعة باستخدام أسلوب التصوير الفني. ويظهر الإعجاز البياني في آيات الطبيعة بجلاء في السياق القرآني؛ وقد تبينَّ من خلال هذه الدراسة أنَّ السياقات القرآنية في آيات الطبيعة أحد ثلاثة سياقات هي: سياق الخلق، وسياق التسخير، وسياق الاستدلال. ومن المؤكد أنَّ القرآن الكريم لا تفنى عجائبه، ولا يستأثر أحد من الخلق أو عصر من العصور بمعرفة أسراره، واكتشاف مكنوناته، فيُظهر الله لمن يشاء من عباده في كل عصر ما يشاء من ذلك، ولا معقب لحكمه.

الإهـــــــداء

أهدي هذا العمل إلى مُشعِل الجذوةِ في خلدي ..

الذي كان معي كفرسي رهان..

الذي ترجَّل عن جواده قبل إتمام الشوط..

فأسلم الروح لباريها ..

ويوماً ما سنسلمها كما أسلمتها..

إلى روحك يا صديقي أبا حسن .. (محمد بن مهدي العمري)

طبت حياً وميتاً يا صديق..

قائمة المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
اعتماد لجنة المناقشة	أ
ملخص الرسالة	ب
الإهداء	ج
قائمة المحتويات	د
مقدمة	ح
الفصل الأول **مقدمات في الإعجاز البياني**	
المبحث الأول: الإعجاز والبيان لغةً واصطلاحاً	٢
أولا: الإعجاز لغة	٢
ثانياً: البيان لغةً	٦
ثالثاً: الإعجاز البياني اصطلاحاً	٩
رابعاً: مصطلحات قريبة من مصطلح الإعجاز	١٠
المبحث الثاني: إعجاز القرآن .. نشأة المصطلح وحقيقته	١٤
أولا: نشأة مصطلح إعجاز القرآن	١٤
ثانياً: أشهر المهتمين بإعجاز القرآن	١٥
ثالثاً: مناط إعجاز القرآن	٢٢
رابعاً: آيات التحدي	٢٩
المبحث الثالث: بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي	٣٣
أولا: المقصود بالإعجاز العلمي أو التفسير العلمي	٣٣
ثانياً: هل نسميه إعجازاً علمياً أو تفسيراً علمياً؟	٣٤
ثالثاً: ضوابط التفسير العلمي	٣٨
الفصل الثاني **الدقة والإحكام للمفردات والتراكيب**	
المبحث الأول: عادات القرآن في آيات الطبيعة	٥٣

أولا: عادات القرآن في اختيار كلمة دون مرادفها	٥٣
ثانياً: عادات القرآن في إفراد الكلمة وجمعها	٥٨
ثالثاً: عادات القرآن في التقديم والتأخير	٧٠
المبحث الثاني: التكثيف في آيات الطبيعة	٧٩
أولا: المشترك اللفظي في آيات الطبيعة	٨٠
ثانياً: جوامع الكلم في آيات الطبيعة	٨٣
ثالثاً: الإيجاز في آيات الطبيعة	٨٧
المبحث الثالث: الصدق الدلالي في آيات الطبيعة	٩٢
المبحث الثالث: اختلاف القراءات في آيات الطبيعة	٩٦
الفصل الثالث **المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة**	
المبحث الأول: اختلاف الآيات المتشابهة في المفردات	١١٤
أولا: إيثار صيغة الكلمة بالاسم في موضع وبالفعل في آخر	١١٤
ثانياً: تعريف لفظ في موضع وتنكيره في موضع آخر	١١٧
ثالثاً: إفراد لفظ في موضع وتثنيته أو جمعه في موضع آخر	١٢١
رابعاً: تذكير لفظ في موضع وتأنيثه في موضع آخر	١٢٥
خامساً: اختيار اللفظ بإبدال كلمة بكلمة	١٢٧
المبحث الثاني: اختلاف الآيات المتشابهة في التراكيب	١٤٧
أولا: التقديم والتأخير	١٤٧
ثانياً: الذكر والحذف	١٤٩
ثالثاً: اختلاف التركيب بما قد يوهم التناقض	١٥٤
رابعاً: اختلاف التذييل	١٥٨
الفصل الرابع **التذييل في آيات الطبيعة**	
المبحث الأول: التذييل بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى	١٦٥
النوع الأول: التذييل باسم مفرد أو بصفة مفردة	١٦٥
النوع الثاني: التذييل باسمين مقترنين أو صفتين مقترنتين	١٦٩

المبحث الثاني: التذييل بقوله (إن في ذلك لآيات)	١٨٦
المبحث الثالث: التذييل بالاستفهام	١٩٤
المبحث الرابع: التذييل بحرف (لعلّ)	٢٠٣
المبحث الخامس: تذييلات أخر	٢١٠
الفصل الخامس **التصوير الفني في آيات الطبيعة**	
المبحث الأول: التصوير الفني: مفهومه وسماته وقواعده	٢١٣
أولاً: مفهوم التصوير الفني	٢١٣
ثانياً: رائد نظرية التصوير الفني	٢١٦
ثالثاً: هل أضافت نظرية التصوير شيئاً للنقد الأدبي؟	٢١٨
رابعاً: سمات التصوير الفني في القرآن	٢١٩
خامساً: قواعد وطرق التصوير الفني في القرآن	٢٢٠
المبحث الثاني: التخييل الحسي في آيات الطبيعة	٢٢٢
أولاً: التخييل بالتشخيص	٢٢٢
ثانياً: التخييل بالحركة	٢٢٦
المبحث الثالث: التجسيم الفني في آيات الطبيعة	٢٣٠
المبحث الرابع: التناسق الفني في آيات الطبيعة	٢٣٧
أولاً: التناسق الفني في الصور المتقابلة	٢٣٩
ثانياً: التناسق الفني في الإيقاع	٢٤٣
ثالثاً: التناسق الفني بوحدة الرسم	٢٤٥
رابعاً: التناسق الفني في إطار الصورة	٢٤٧
خامساً: التناسق الفني في مدة العرض	٢٤٨
الفصل الخامس **السياق في آيات الطبيعة**	
المبحث الأول: مفهوم السياق القرآني وفوائده وخصائصه وضوابطه	٢٥٤
أولاً: السياق لغةً واصطلاحاً	٢٥٤
ثانياً: الفرق بين النظم والسياق والمناسبة	٢٥٥

ثالثاً: فوائد السياق القرآني	٢٥٧
رابعاً: خصائص السياق القرآني	٢٦٠
خامساً: ضوابط السياق القرآني	٢٦٣
المبحث الثاني: السياقات القرآنية في آيات الطبيعة	٢٦٨
أولاً: سياق الخلق والإبداع	٢٦٨
ثانياً: سياق التسخير والانتفاع	٢٧٥
ثالثاً: سياق الاستدلال والإقناع	٢٨١
المبحث الثالث: إدماج السياقات واشتراكها في آيات الطبيعة	٢٨٩
أولاً: إدماج السياقات الثلاثة واشتراكها	٢٩٠
ثانياً: إدماج سياق التسخير مع سياق الاستدلال واشتراكهما	٢٩٣
ثالثاً: إدماج سياق الخلق مع سياق الاستدلال واشتراكهما	٢٩٤
المبحث الرابع: اختلاف التعبير القرآني باختلاف السياق	٢٩٦
أولاً: التعبير عن السماوات والأرض واختلافه باختلاف السياق	٢٩٦
ثانياً: التعبير عن الليل والنهار واختلافه باختلاف السياق	٣١١
ثالثاً: التعبير عن الريح والرياح واختلافه باختلاف السياق	٣١٤
رابعاً: التعبير عن الماء النازل من السماء واختلافه باختلاف السياق	٣١٦
خاتمة بالنتائج والتوصيات	٣٢٠
قائمة المراجع والمصادر	٣٢٣

مُقَدِّمَة

الحمد لله منزل الكتاب، الذي خصه بالجلال والجمال والكمال، والصلاة والسلام على خير الأنام، وعلى آله وصحبه الكرام، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وبعد، فإنَّ البشرية لم تعرف في تاريخها كتاباً محكماً قد فصلت آياته كالقرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وإنَّ الله –جل شأنه– قد جعله معجزة نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– الدالة على صدقه، ولما كان –عليه الصلاة والسلام– خاتم الأنبياء والمرسلين، كانت معجزته خالدة تتعاقب على إدراكها الأجيال جيلاً بعد جيل إلى قيام الساعة، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله فلن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً، فطُلب منهم أن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه–ولو كانت مفتريات، أو بمثل سورة منه، فلمَّا عجزوا عن ذلك كان ذلك دليلاً أنَّه ليس من كلام البشر، وأنه تنزيل من العليم الخبير، فاتصف القرآن بالإعجاز، ثم أصبح موضوع الإعجاز محلَّ نظر المهتمين بالقرآن الكريم، والدارسين له، لا يستأثر بإدراكه جيل دون جيل، ولا يحيط بجميع أسراره عصر دون عصر.

وأهمية الموضوع تنبثق من أهمية الأمر المدروس، وتشرف بشرفه، وموضوع هذه الرسالة **(الإعجاز البياني في آيات الطبيعة)**، فهو مرتبط بكتاب الله، وليس علم أشرف من العلم به، فهو جدير بأن تسطر فيه الصحف، وتفنى من أجله الأعمار، وتبذل فيه الأموال، حتى إذا وقف العبد ليوم السؤال، وسئل عن عمره، وماله، وعلمه، كان خير جواب له أن يقول: بُذلتْ جميعاً في تعلُّم وتعليم كتابك! وإعجاز القرآن بجوانبه المتعددة بحث قديم، ولكنه متجدد، وإن كان هناك من ينكر الإعجاز ومنهم من ينكر بعضه، فإنه لا يُظن أنَّ أحداً له علم بالعربية ينكر الجانب البياني في القرآن الكريم؛ فإنَّه يتبوأ المقام الأعلى، والمرتبة الأسنى في الفصاحة والبلاغة.

أمَّا **الأسباب التي دعت لاختياره** فمنها: رغبة الباحث في نيل الشرف بتدبر كتاب الله وتأمل آياته، ثم إن عبادة التفكر من أَجَلِّ العبادات. وهذا البحث يجمع بين التفكر في آيات الله المتلوة في القرآن الكريم، وآياته المبثوثة في الكون الفسيح، وفي عصرنا هذا رأى كثير من الناس أنَّ إعجاز القرآن ينصرف عن بلاغته وبيانه إلى ما أودعه الله فيه من دلائل بيّنة على أنَّه من عند الله، وهو ما يسمى بالإعجاز العلمي أو التفسير العلمي؛ وذلك لبعد الناس عن أسباب الفصاحة والبلاغة، ولمواكبة ما يستجد من علوم هذا العصر، وهذه الرسالة على أنَّ موضوعها لا يعالج

قضايا التفسير العلمي، وليس هو محورها، إلاَّ أنَّه يبين في مواضع كيف كان التعبير القرآني متسعاً لذلك، فالتفسير العلمي دليل على الإعجاز البياني، أو بعبارة أخرى: فقد هدتنا الكشوف العلمية الحديثة عن الطبيعة والإنسان إلى البحث عن سمات بيانية إضافية أو جديدة في هذا الإعجاز البياني.

والمنهج المتبع في هذه الرسالة هو المنهج الوصفي التاريخي، فكان أول ما صنع الباحث أن اقتنى مصحفاً خُصص لهذا البحث، وخُتم ختمة خاصة، جُمعتْ فيه الآيات التي تحدثت عن مكونات الطبيعة، ثم تمت مقارنتها بالخطة المسبقة للبحث، فأُضيف، وحُذف، وأُدمج، حسبما يقتضيه هدف الرسالة، فكان على صورته هذه التي يُرجى من الله سبحانه أن يتقبلها بقبول حسن، وينبتها نباتاً حسناً، وأن يكتب لها القبول عند من يطلع عليها. ولا تهدف هذه الرسالة لاستقصاء جميع المفردات لمكونات الطبيعة، ولكنها تهدف لوصف قضية الإعجاز البياني وبيانها، حسبما ظهر للباحث في آيات الطبيعة. وقد اعتمد الباحث في دراسته على قراءة حفص عن عاصم إلا ما احتِيج فيه إلا قراءة أخرى في بعض المباحث، وقد تم بيان ذلك في موضعه.

إنَّ **قضية البحث أو مشكلته** تكمن في الأسئلة الآتية: ما هي السمات الخاصة أو الإضافية للتعبير القرآني في آيات الطبيعة؟ وكيف كان القرآن الكريم وما يزال صالحاً لخطاب الإنسان في كل عصر؟ وما الفرق بين التعبير القرآني في آيات الطبيعة والتعبير القرآني في غيرها من آيات الأحكام مثلاً، أو القصص القرآني؟ والمأمول أن تكون النتائج التي خرج بها البحث تجيب عن هذه الأسئلة.

وقد واجهت الباحثَ بعضُ **الصعوبات في هذا البحث** منها: رهبة الخوض في الموضوع، والتردد في ذلك كثيراً، خاصةً وأنَّه قول في كتاب الله، وأيّ سماءٍ تُظِلُّ، وأيّ أرض تُقِلُّ إذا قيل في كتاب الله بغير علم، لذا فقد حرص الباحث ألَّا يقول بقول فيه إلا ولديه شفيع من أقوال العلماء، ولو من طرف خفي، ومن الصعوبات: كثرت ما كتب عن الإعجاز البياني، وفي الوقت ذاته قلته في موضوع البحث، فما تزال الدراسات مستمرة زاخرة بها الساحة العلمية في مجال الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ولكن آيات الطبيعة بوجه خاصة يندر تخصيصها بدراسة، وأكثر ما يتطرق لها في باب التفسير العلمي، فكان أن جُمِعَ ما تفرق في المراجع التي تهتم بالإعجاز البياني حسب الاستطاعة، ولم يكن سبيل للتغلب على هذه الصعوبات وغيرها إلا بالصبر والصلاة، وبذل الجهد بعد تفويض الأمر لله من قبل ومن بعد.

أمّا **الدراسات السابقة** لهذا البحث فإنَّ موضوع إعجاز القرآن موضوع لم ينقطع التأليف فيه منذ القرن الثالث الهجري، فمن "إعجاز القرآن أن يظلَّ مشغلة الدارسين العلماء جيلا بعد جيل، ثم يبقى أبداً رحب المدى سخي المورد، كلما حسب جيلٌ أنَّه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح عالياً يفوت طاقة الدارسين"، وسيأتي عرض لبعض ذلك في الفصل الأول من هذا البحث، ومن الرسائل العلمية التي جعلت الإعجاز البياني موضوعاً لها: (الإعجاز البياني في بعض آيات الأحكام)، دراسة قدمها: ساسي عمار؛ لنيل درجة الماجستير، و(الإعجاز البياني عند أبي بكر الباقلاني)، دراسة قدمها: حسن العمال؛ لنيل درجة الدكتوراه، و(الإعجاز البياني في دراسات بنت الشاطئ)، دراسة قدمتها: مريم محمد إبراهيم الرقيق؛ لنيل درجة الماجستير، و(إعجاز النظم القرآني في آيات التشريع النظرية والتطبيق)، دراسة قدمتها روضة عبدالكريم فرعون؛ لنيل درجة الماجستير، (التصوير البياني في آيات الأمن والخوف)، رسالة قدمتها زينب بنت عبد اللطيف الكردي؛ لنيل درجة الماجستير. ولم يجد الباحث –حسب حدود علمه– دراسة مختصة بالإعجاز البياني في آيات الطبيعة، ويمكن أن تُضمَّ هذه الدراسة إلى تلك الدراسات؛ لتكون موسوعة للإعجاز البياني في القرآن الكريم، على أن تصاغ على نسق متقارب، فتمثل منظومة متكاملة تخدم هذا الموضوع الجدير بالاهتمام.

وقد قُسِّمَ البحث إلى ستة فصول جُعلتْ على النحو الآتي:

– الفصل الأول: مقدمات في الإعجاز البياني، كانت كالتمهيد للدخول في البحث، فاحتوى ثلاثة مباحث: الإعجاز والبيان لغة واصطلاحاً، وإعجاز القرآن نشأة المصطلح وحقيقته، وبين التفسير العلمي والإعجاز العلمي.

– ثم الفصل الثاني: الدقة والإحكام للمفردات والتراكيب في آيات الطبيعة، وقد اشتمل على أربعة مباحث: عادات القرآن، والتكثيف، والصدق الدلالي، واختلاف القراءات.

– ثم الفصل الثالث: المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة، وفيه مبحثان: اختلاف الآيات المتشابهة في المفردات، واختلافها في التراكيب.

– ثم الفصل الرابع: التذييل في آيات الطبيعة، وفيه خمسة مباحث، التذييل بأسماء الله وصفاته، والتذييل بقوله (إن في ذلك لآيات)، والتذييل بالاستفهام، والتذييل بحرف (لعل)، وتذييلات أخر.

– ثم الفصل الخامس: التصوير الفني في آيات الطبيعة، وفيه أربعة مباحث بدأت بمبحث: التصوير الفني مفهومه وسماته وقواعده، وهو كالمدخل للمباحث التالية له، وهي: التخييل الحسي، ثم التجسيم الفني، ثم التناسق الفني.

- ثم الفصل السادس: السياق في آيات الطبيعة، وفيه أربعة مباحث بدأتها بمبحث: مفهوم السياق وفوائده وخصائصه وضوابطه، وهو كالمدخل للمباحث التالية له، وهي: السياقات القرآنية في آيات الطبيعة، ثم إدماج هذه السياقات واشتراكها، ثم اختلاف التعبير باختلاف السياق.
- ثم كانت الخاتمة بأهم نتائج البحث.

أخيراً .. أتقدم بخالص شكري وامتناني لأصحاب الفضل الذين كانوا خير عون لي لإتمام هذا العمل، ابتداءً بشيخي الفاضل **الأستاذ الدكتور/ عدنان بن محمد زرزور** الذي أخذ بيدي منذ وضع خطة هذا البحث واختيار عنوانه إلى منتهاه، ولم يثنه عن ذلك ما حدث من عقبات، وكذلك **الأستاذ الدكتور/ علي بن محمد نور المدني** الذي جعلني كابن له بتواضعه، وتفانيه في تقديم العون والمساعدة والمشورة، وجميع أساتذتي الأكارم، ولا أنسى أمي التي لم يفتأ لسانها عن الدعاء لي بالتوفيق، ويداها تمتدان كنخلتين باسقتين لا يثنيهما عن انتصابهما إلى السماء شيء، والشكر موصول لكل من ساهم بأي شيء في دفعي إلى الأمام تحفيزاً وتشجيعاً، فلأولئك جميعاً مني الشكر الجزيل، ولهم من الله الأجر العظيم.

حسن بن فتحي بن أحمد الشهري

١٠ محرم ١٤٣٦هـ

الخبر-السعودية

الفصل الأول

مقدمات في الإعجاز البياني

- المبحث الأول: الإعجاز والبيان لغةً واصطلاحاً.

- المبحث الثاني: إعجاز القرآن نشأة المصطلح وحقيقته.

- المبحث الثالث: بين الإعجاز علمي والتفسير علمي.

الفصل الأول
مقدمات في الإعجاز البياني

• المبحث الأول: الإعجاز والبيان لغةً واصطلاحاً.

عنوان هذا البحث: (الإعجاز البياني .. في آيات الطبيعة) وفيه حذف مقدر فالأصل أن يكون: إعجاز القرآن البياني في آيات الطبيعة؛ ولأنَّ الإعجاز علم مختص بالقرآن فقد حُذف لفظ "القرآن الكريم" من العنوان إيجازاً، فالمحذوف معلوم لا يلتبس به غيره، كما أنَّ لفظ الآيات بعده توضح ارتباط العنوان بالقرآن الكريم. وهنا نقف على تعريف لمصطلحي العنوان وهما: الإعجاز، والبيان.

▪ أولاً: الإعجاز لغة:

قال ابن منظور (المتوفى سنة٧١١هـ) –رحمه الله–: (العَجْزُ: **نقيض الحَزْم**، عَجَز عن الأَمر يَعْجِزُ وعَجِزَ عَجْزاً، ورجل عَجِزٌ وعَجُزٌ: عاجِزٌ. وعَجَّز فلانٌ رَأْيَ فلان إِذا نسبه إِلى خلاف الحَزْم كأَنه نسبه إِلى العَجْز. والعَجْزُ **الضعف**، تقول: عَجَزْتُ عن كذا أَعْجِز. والمَعْجِزَةُ والمَعْجَزَة: العَجْزُ. قال سيبويه (المتوفى سنة ١٨٠هـ) –رحمه الله–: هو المَعْجِزُ والمَعْجَزُ، الكسر على النادر والفتح على القياس لأَنه مصدر).[١]

والعَجْزُ: الضعف، تقول عَجَزْتُ عن كذا أَعْجِز، وفي حديث عمر –رضي الله عنه–: (ولا تُلِثُّوا بدار مَعْجِزَة) أَي: لا تقيموا في موضع تَعْجِزُون فيه عن الكسب، وقيل بالثَّغْر مع العيال. والمَعْجِزَةُ، بفتح الجيم وكسرها، مفعلة من العَجْز: عدم القدرة.[٢]

وفي حديث عبدالله بن عمر –رضي الله عنهما–: (كلُّ شيءٍ بِقَدَرٍ حتى العَجْزُ والكَيْسُ)[٣]، وقيل: أَراد بالعَجْز ترك ما يُحبُّ فعله بالتَّسويف وهو عامّ في أُمور الدنيا والدين.[٤] وفي حديث أبي

---

(١) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، مادة (عجز) ج٥/ ص٣٦٩.

(٢) انظر: المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: علي بن حسن الحلبي الأثري، دار ابن الجوزي، الدمام–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ص٥٩٤ .

(٣) الحديث رواه مسلم، عن طاووس بن كيسان قال: أدركتُ ناسًا من أصحابِ رسولِ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ– يقولون: كلُّ شيءٍ بقدَرٍ. قال وسمعتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ يقول : قال رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ– " كلُّ شيءٍ بقدَرٍ. حتى العجزُ والكَيسُ. أو الكَيسُ والعَجْزُ ". انظر: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، كتاب٤٦: (القدر)، باب٤: (كل شيء بقدر)، الحديث رقم: (٢٦٥٥)، ج٤/ ص٢٠٤٥.

(٤) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ص٥٩٥.

هريرة –رضي الله عنه– حديث الجنة: (مالي لا يدخلني إلا سقط الناس وعَجَزُهم)[١]، جمع عاجز، كخادم وخدم، يريد العاجزون في أمور الدنيا.[٢]

وقال ابن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥هـ) –رحمه الله–: العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضَّعف، والآخر على مؤخَّر الشيء. فالأصل الأول: العَجْزُ ويدل على الضَّعف نقول: عَجَزَ عن الشيء، ويَعْجِزُ عنه عَجْزاً، فهو عاجزٌ، أي: ضعيف، ولا يقال: عَجِزَ إلا إذا عظمت عجيزته. والأصل الثاني: يدل على مؤخر الشيء نقول: عَجُزَ، والجمع أعجاز، فيقال: عَجُز الأمر، وأعجاز الأمور. والعجيزة: عجيزة المرأة خاصة إذا كانت ضخمة.[٣] وجاء جمع "عجز" على "أعجاز" في معلقة امرئ القيس قوله:

فقلتُ له لمّا تَمطّى بجوزِهِ * وأردفَ أعجَازاً وناء بِكَلْكلِ**[٤]

قال شارح الديوان: (وأردف أعجازاً تابع أواخره بأوائله).[٥] ويقابل العجز الصدر، فالصدر أول الشيء والعجز آخره، ومنه سمي الشطر الأول من البيت الشعري صدراً، وسمي شطره الآخر عجزاً. وعَجَّز الشاعرُ: جاء بعَجُز البيت.[٦]

- **وجذر الكلمة (عجز) مثلث الوسط فيأتي (عَجَز، وعَجُز، وعَجِز):**

فعَجَزَ يَعْجِزُ عَجْزاً فهو عاجز من باب ضَرَبَ يَضْرِبُ، ومن باب سَمِعَ يَسْمَعُ معناه: ضعف عن الشيء، ولم يقدر عليه. وعَجُزَ يَعْجُزُ عَجْزَاً وعُجوزاً من باب كَرُمَ يَكْرُمُ، ومن باب نَصَرَ يَنْصُرُ معناه: صارتْ عجوزاً. وعَجِزَ يَعْجَزُ عَجَزاً من باب فَرِح يَفْرَحُ، معناها: عَظُمتْ عَجيزَتُها أي عَجُزُها.[٧]

---

(١) رواه مسلم، وللحديث روايات عدة منها: (تحاجَّتِ النَّارُ والجنَّةُ فقالتِ النَّارُ: أوثرتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرينَ، وقالتِ الجنَّةُ: فما لي لا يدخلني إلَّا ضعفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهم وعجزُهم، فقال اللَّهُ للجنَّةِ: أنتِ رحمتي أرحمُ بِكِ من أشاءُ من عبادي، وقالَ للنَّارِ أنتِ عذابي أعذِّبُ بِكِ من أشاءُ من عبادي، ولِكلِّ واحدةٍ منكم ملؤُها، فأمَّا النَّارُ فلا تمتلئُ فيضعُ قدمَه عليها فتقولُ: قَطْ قَطْ فَهنالِك تمتلئُ، ويزوي بعضُها إلى بعضٍ)، وفي رواية: (احتجَّتِ الجنَّةُ والنَّارُ)، انظر: صحيح مسلم، كتاب٥١: (الجنة وصفة نعيمها وأهلها)، باب١٣: (النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء)، الحديث رقم: (٢٨٤٦)، ج٤/ ص٢١٨٦.

(٢) انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ص٥٩٥.

(٣) انظر: أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، مادة(عجز) ج٢/ ص٢٢١.

(٤) تمطى بجوزه: تمدد بجسده، ويروى: (تمطى بصلبه)، وهو ظهره. انظر: ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه: الأستاذ مصطفى عبدالشافي، شرحه حسن السندوبي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الخامسة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص١١٧.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (عجز) ج٥/ ص٣٦٩.

(٧) انظر: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، باب الزاي فصل العين مادة (عجز)، ج٢/ ص٢٥٩.

➤ **أمَّا الإعجاز** فإنه مصدر للفعل الرباعي (أعجز) زيد على جذره الثلاثي همزة للتعدية، قال ابن فارس:(وعندما يقال: أعجزني فلان، إذا عَجَزْتُ عن طلبه وإدراكه)[١]. ويقال أَعْجَزْتُ فلاناً إذا أَلفَيْتَه عاجِزاً. وأَعْجَزَه الشيءُ: عَجَزَ عنه. والتَّعْجِيزُ: التَّثْبِيط، وكذلك إذا نسبته إلى العَجْز. وعَجَّزَ الرجلُ وعاجَزَ: ذهب فلم يُوصَل إليه.[٢]

وقال الزمخشري(المتوفى سنة ٥٣٨هـ) –رحمه الله–: (طلبته فأعجز وعاجز إذا سبق فلم يدرك. وإنه ليعاجز إلى ثقة. وفلانٌ يعاجز عن الحق إلى الباطل أي يميل إليه ويلتجئ .. وبنو فلان يركبون أعجاز الإبل إذا كانوا أذلاء أتباعاً لغيره، أو يلقون المشاق لأن عَجُز البعير مركبٌ شاقٌ .. ومن المستعار: ثوب عاجز: قصير .. وشرب فلانٌ العجوز وهي الخمر المعتَّقة).[٣]

والمُعْجِزَةُ: أمرٌ خارقٌ للعادةِ يُظهره اللهُ على يد نبيّ تأييداً لنبوَّتهِ. وما يُعجز البشر أن يأتوا بمثله.[٤]

➤ **مادة (عجز) واشتقاقاتها في القرآن الكريم:**

وردت مادة (عجز) في القرآن الكريم ستاً وعشرين مرة، على ست صيغ في خمس وعشرين آية من إحدى وعشرين سورة[٥]:

فجاءت بصيغة الفعل الماضي (عَجَزَ) بفتح الجيم في موضع واحد وذلك في قصة ابني آدم قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾[٦]، (أَعَجزْتُ) في الآية: الهمزة فيها للاستفهام وعَجَزْتُ بفتح العين والجيم، وجاءت في قراءة بكسر الجيم(أَعَجِزْتُ) وهي لغة شاذة في عجز.[٧]

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة(عجز)، ج٢/ ص٢٢١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (عجز)، ج٥/ ص٣٦٩.

(٣) محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، مادة(عجز) ج١/ ص٦٣٥.

(٤) إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية–الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، إستانبول–تركيا، الطبعة الثانية: ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، مادة(عجز) ج٢/ ص٥٨٥.

(٥) محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى:١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، مادة (عجز)، ص٤٤٦.

(٦) سورة المائدة، الآية:٣١.

(٧) انظر: محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، ب ط، ب ت، ج٦/ ص١١٧.

وجاءت بصيغة الفعل المضارع (يُعْجِز، نُعْجِزَ، يعجزون) في أربعة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾[٣].

وجاءت وصفاً (عجوز) في أربعة مواضع منها قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾[٤].

وجاءت بصيغة الجمع (أعجاز) في موضعين منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [٥].

وجاءت على صيغة اسم الفاعل من الفعل الرباعي (عَاجَزَ) مجموع جمع مذكر سالم (معاجزين) في ثلاثة مواضع منها قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[٦]، قيل: معناه ظانّين أنَّهم يُعْجِزُوننا لأَنَّهم ظنوا أنَّهم لا يُبعثون وأنَّه لا جنة ولا نار، وقيل: مُعاجزين معاندين وهو راجع إلى الأوّل، وقرئت (مُعَجِّزين)، وتأْويلها: أنَّهم يُعَجِّزُون من اتبع النبي–صلى الله عليه وسلم– ويُثَبِّطُونهم عنه وعن الإيمان بالآيات وقد أَعْجَزهم. وقيل (مُعاجِزِينَ): أَي يُعاجِزُون الأَنبياءَ وأَولياءَ الله، أَي يقاتلونهم ويُمانِعُونهم؛ لِيُصَيِّروهم إِلى العَجْزِ عن أَمر الله، وليس يُعْجِزُ اللهَ –جل ثناؤه– خَلْقٌ في السماء ولا في الأَرض ولا مَلْجَأَ منه إِلا إِليه.[٧]

كما جاءت بصيغة اسم الفاعل من الفعل الرباعي (أَعْجَزَ) على المفرد (معجز)، والجمع (معجزين)، وذلك في اثني عشر موضعاً، منها قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي

---

(١) سورة فاطر، الآية:٤٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الجن، الآية: ١٢.

(٤) سورة هود، الآية: ٧٢.

(٥) سورة القمر، الآيتان: ١٩–٢٠.

(٦) سورة سبأ، الآية: ٥.

(٧) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (عجز)، ج٥/ ص٣٦٩–٣٧٠.

(٨) سورة الأحقاف، الآية: ٣٢.

﴿ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾[1]، وما أَنتم بمُعْجِزِين في الأَرض ولا في السماء؛ قال الفراء (المتوفى سنة ٢٠٧هـ) –رحمه الله–: (يقول القائل: كيف وصفهم بأَنهم لا يُعْجِزُونَ في الأَرض ولا في السماء، وليسوا في أَهل السماء؟ فالمعنى –والله أعلم– ما أَنتم بمُعْجِزِينَ في الأَرض ولا من في السماء بمُعْجِزٍ، وهو من غامض العربية للضمير الذي لم يظهر في الثاني)[2]، وقيل: معناه –والله أَعلم– ما أَنتم بمُعْجِزِين في الأَرض ولا لو كنتم في السماء، وقيل: معناه ما أَنتم بمُعْجِزِين في الأَرض ولا في السماء، أَي لا تُعْجِزُوننا هَرَباً في الأَرض ولا في السماء، وقول الفراء أَشهر في المعنى، ولو كان قال: ولا أَنتم لو كنتم في السماء بمُعْجِزِينَ لكان جائزاً، ومعنى الإِعْجاز الفَوْتُ والسَّبْقُ، يقال: أَعْجَزَني فلان أَي فاتني؛ ومنه قول الشاعر:

فَذاكَ ولم يُعْجِزْ من الموتِ رَبَّه * ولكن أَتاه الموتُ لا يَتَأَبَّقُ**[3]

ويقال: أَعْجَزَني فلان إِذا عَجَزْتَ عن طلبه وإِدراكه.[4]

▪ ثانياً: البيان لغةً:

قال ابن فارس: (الباء والياء والنون أصلٌ واحدٌ، وهو بُعْدُ الشيء وانكشافُه. فالبين الفراق، يقال بَان يبين بيناً وبينونة... وبان الشيء وأبَانَ إذا اتضح وانكشف، وفلانٌ أبين من فلانٍ أي أوضح كلاماً منه).[5]

قال ابن منظور: والبَيانُ ما بُيِّنَ به الشيءُ من الدلالة وغيرِها. وبانَ الشيءُ بَياناً: اتَّضَح، فهو بَيِّنٌ، والجمع أَبْيِناءُ، مثل هَيِّنٍ وأَهْيِناء، وكذلك أَبانَ الشيءُ فهو مُبينٌ؛ قال الشاعر:

لو دَبَّ ذَرٌّ فوقَ ضاحِي جلدِها * لأَبانَ من آثارِهِنَّ حُدورُ**[6]

والبَيانُ الفصاحة واللَّسَن، وكلامٌ بيِّن: فَصيح، والبَيان الإفصاح مع ذكاء قال: البَيان إظْهار المقصود بأَبلغ لفظٍ، وهو من الفَهْم وذكاءِ القلْب مع اللَّسَن، وأَصلُه الكَشْفُ والظهورُ.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٢.

(٢) يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، عالم الكتب، بيروت– لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٢/٣١٥.

(٣) يتأبق: يختفي ويتستر، والبيت للأعشى. انظر: ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق: محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، ب ط، ب ت، ص٢١٧.

(٤) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (عجز)، ج٥/ ص٣٧٠.

(٥) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (بين)، ج١/ ص١٦٩.

(٦) البيت لعمر بن أبي ربيعة، والذر: صغار النمل، ودبيبه: سيره، وضاحي جلدها: ما برز منه وظهر، وأبان: ظهر، وآثارهن: أي آثار قوائم الذر، والحدور: الورم، وهذه كناية عن ترفعها وتنعمها. انظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، شرحه وقدم له: عبد أ.علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص١٤٤.

وفي الحديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنَّه قال: (إنّ من البيان لسِحْراً، وإنّ من الشّعر لحِكَماً)(١)، قيل: معناه أنَّ الرجُلَ يكونُ عليه الحقُّ، وهو أَقْوَمُ بحُجَّتِه من خَصْمِه، فيَقْلِبُ الحقَّ ببَيَانِه إلى نَفْسِه، لأَن معنى السِّحْر قَلْبُ الشيءِ في عَيْنِ الإنسانِ وليس بِقَلْبِ الأَعيانِ.

وقيل: معناه أنَّه يَبْلُغ من بَيانِ ذي الفصاحة أنَّه يَمْدَح الإنسانَ فيُصدَّق فيه حتى يَصْرِفَ القلوبَ إلى قولِه وحُبِّه، ثم يذُمّه فيُصدّق فيه حتى يَصْرِفَ القلوبَ إلى قوله وبُغْضِهِ، فكأَنه سَحَرَ السامعين بذلك، وهو وَجْهُ قوله: (إن من البيانِ لسِحْراً).(٢)

➤ **مادة (بيّن) واشتقاقاتها في القرآن الكريم:**

جاءت مادة (بيّن) فيما يزيد على المائتين وخمسين موضعاً من كتاب الله، وذلك دون النظر إلى الظرف (بَيْنَ). جاءت بصيغة الفعل (بَيّنَ، وتُبَيّنَ، ويُبَيّنَ، وتَسْتَبِينَ...) منها قوله تعالى: ﴿

---

(١) روى البخاري جزءاً من متن الحديث عن عبدالله بن عمر –رضي الله عنهما– ولفظ البخاري: أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: **(إن من البيان لسحرا، أو إن بعض البيان سحر)**. انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم–وسننه وأيامه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، الحديث رقم (٥٧٦٧)، كتاب: الطب، باب: إن من البيان سحرا، ج٤/ ص٤٩.

غير أن ابن منظور في اللسان أورد الحديث مروياً عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، وقد وجدت ابن كثير–رحمه الله– قد أورد الحديث عن ابن عباس في "البداية والنهاية" ولفظه: عنِ ابنِ عبَّاسٍ قال جلسَ إلى رَسولِ اللَّهِ –صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ– قَيسُ بنُ عَاصِمٍ، والزِّبْرِقانُ بنُ بَدْرٍ، وعَمرُو بنُ الأهتَمِ التَّميمِيُّونَ، ففَخَرَ الزِّبْرِقانُ فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ أنا سَيِّدُ تَميمٍ، والمطاعُ فيهم والمجابُ، أَمنعُهمْ مِنَ الظُّلْمِ، وآخُذُ لَهمْ بِحقوقِهِمْ، وهَذا يعلَمُ ذَلكَ –يعني عَمرَو بنَ الأهتمِ– قال عمرُو بنُ الأهْتمِ: إنَّهُ لشَديدُ العارِضَةِ، مانِعٌ لجانِبِهِ، مُطاعٌ في أَدْنَيهِ، فقال الزِّبرِقانُ: واللَّهِ يا رسولَ اللَّهِ لقَد عَلِم مِنِّي غيرَ ما قال، وما مَنَعَهُ أن يتكلَّمَ إلَّا الحسَدُ. فقال عمْرُو بنُ الأهتَمِ: أنا أحسُدُكَ فوَاللَّهِ إنَّكَ للَئيمُ الخَالِ، حديثُ المالِ، أحمقُ الوالِدِ، مُضَيَّعٌ في العشيرَةِ. واللَّهِ يا رسولَ اللَّهِ لقد صَدقْتُ فيما قُلتُ أوّلاً، وما كَذَبتُ فيما قُلتُ آخِرًا، ولكنّي رَجلٌ إذا رَضيتُ قلتُ أحسَنَ ما علِمتُ، وإذا غَضِبتُ قلتُ أقبحَ ما وَجدتُّ، ولقدْ صَدقتُ في الأولى والأُخرَى جميعًا. فقال رسولُ اللَّهِ –صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ–: **(إنَّ من البيانِ لَسِحْرًا)**. قال ابن كثير: وهذا إسناده غريب جدا. انظر: إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق هيئة بإشراف الناشر، مكتبة المعارف، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م، ج٥/ ص٤٥.

وزيادة **(وإن من الشعر لحكما)** كما أوردها ابن منظور في اللسان رواها الهيثمي–رحمه الله– في "مجمع الزوائد" عن أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي، ولفظه: كنا عند النبي –صلى الله عليه وسلم– فقدم عليه وفد بني تميم عليهم قيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم، والزبرقان بن بدر، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– لعمرو بن الأهتم: ما تقول في الزبرقان بن بدر. فقال: يا رسول الله مطاع في أنديته، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره. فقال الزبرقان: يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما وصفني به، ولكنه حسدني. فقال عمرو: والله يا رسول الله إنه لزمن المروءة، ضيق العطن، لئيم الخال، أحمق الولد. والله يا رسول الله ما كذبت أولاً، ولقد صدقت آخراً، ولكني رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: **(إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما)**. انظر: علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، كتاب: الآداب، باب: البيان وتشقيق الكلام، الحديث رقم (١٣٢٨٧) ج٨/ ص١٤٩.

(٢) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (بين) ج١٣/ ص٦٧-٦٩.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾[1].

وجاءت وصفاً (بَيِّنٌ، وبَيِّنَةٌ، ومُبَيِّنة، ومبين، ومستبين..) ومنها قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾[2].

واستيفاء كل الآيات في ذلك أمر يطول، ولكن تجدر الإشارة إلى ما له علاقة وثيقة بالمبحث، فقد جاءت كلمة (البيان) في ثلاثة مواضع من كتاب الله وهي قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾[4].

روى ابن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠هـ) –رحمه الله– عن ابن عباس –رضي الله عنهما– في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ قال: تبيانه بلسانك[5]. وفي قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾[6]، قال: كان تبيانه للناس عامة وهدى وموعظة للمتقين خاصة.[7]

كما جاءت بالمصدر (تبيان) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾[8] والتِّبْيان مصدرٌ، والمصادر إنَّما تجيء على (التَّفْعال) بفتح التاء، مثال التَّذْكار والتَّكْرار والتَّوْكاف، ولم يجيءْ بالكسر إلا حرفان وهما التِّبْيان والتِّلْقاء.[9]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٥.

(٣) سورة الرحمن، الآيات: ١ – ٤.

(٤) سورة القيامة، الآيات: ١٦ – ١٩.

(٥) انظر: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبدالله التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٢٣/ ص٥٠٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٧) انظر: المرجع نفسه، ج٦/ ص٧٤.

(٨) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٩) ابن منظور، لسان العرب، مادة (بين)، ج١٣/ ص٦٧.

وجاء لفظ (التبيان) في حديث حجاج آدم وموسى-على نبينا محمد وعليهما الصلاة والسلام-: (أَعطاكَ اللهُ الألواح فيها تِبْيانُ كلِّ شيءٍ)[١] أي كشْفُه وإيضاحُه، وهو مصدر قليل لأَن مصادرَ أَمثاله بالفتح.[٢]

ومما له صلة بالمبحث ما جاء في قصة موسى وفرعون في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾[٣]، قال ابن جرير-رحمه الله-: (ولا يكاد يبين الكلام من عِيّ لسانِه).[٤]

▪ ثالثاً: الإعجاز البياني اصطلاحاً:

قال علي الجرجاني (المتوفى سنة ٨١٦هـ) -رحمه الله- في كتابه "معجم التعريفات": (الإعجاز في الكلام هو أن يُؤدّى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق).[٥]

من هذا ومما سبق من تعريف لغوي للإعجاز وللبيان يمكن أن يُتوصل به إلى **تعريف للإعجاز البياني** للقرآن الكريم فيقال: **هو العجز وعدم القدرة على معارضة القرآن، والقصور عن الإتيان بمثله في لفظه ونظمه وبيانه وبلاغته، مع توفر الملكة البيانية لدى المعارضين، وقيام الداعي إلى المعارضة، وهو استمرار التحدي، وتقرير الله سبحانه لعجز الإنس والجن في كل زمان ومكان عن ذلك ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً.**[٦]

قال الرافعي (المتوفى سنة ١٣٥٦هـ) -رحمه الله-: (وإنما العجز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف

---

(١) الحديث رواه مسلم، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (احتجَّ آدمُ وَ موسى عليهما السَّلام عندَ ربِّهما، فحجَّ آدمُ موسَى، قالَ موسَى: أنتَ آدمُ الَّذي خلقَكَ اللَّهُ بيدِهِ، ونفخَ فيكَ من روحِهِ، وأسجدَ لَكَ ملائِكَتَهُ، وأسكنَكَ في جنَّتِهِ، ثمَّ أَهَبطتَ النَّاسَ بخطيئتِكَ إلى الأرض. فقالَ آدمُ: أنتَ موسَى الَّذي اصطفاكَ اللَّهُ برسالتِهِ، وبِكَلامِهِ **وأعطاكَ الألواحَ فيها تِبيانُ كلِّ شيءٍ**، وقرَّبَكَ نجيًّا، فبِكَم وجدتِ اللهِ كتبَ التَّوراةَ قبلَ أن أُخلقَ؟ قالَ موسَى: بأربعينَ عامًا. قالَ آدمُ: فَهَل وجدتَ فيها: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)؟ قالَ: نعم. قالَ: أفتلومُني على أن عَمِلْتُ عملًا كتبَهُ اللَّهُ عليَّ أن أعملَهُ قبلَ أن يخلقَني بأربعينَ سنةً!) قالَ رسولُ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ-: (فَحجَّ آدمُ موسى). انظر: صحيح مسلم، كتاب٤٦: (القدر)، باب٢: (حجاج آدم وموسى عليهما السلام)، الحديث رقم: (٢٦٥٢)، ج٤/ ص٢٠٤٣.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ص٩٩.

(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٥١ - ٥٢.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج٢٠/ ص٦١٣.

(٥) علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات (قاموس لمصطلحات وتعريفات علم الفقه واللغة والفلسفة والمنطق والتصوف والنحو والصرف والعروض والبلاغة)، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة-مصر، ب ط، ب ت، ص٣٠.

(٦) انظر: صلاح عبدالفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٧.

على تراخي الزمن وتقدمه؛ فكأن العالم في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغةً ما بلغت، فيصير من الأمر المعجز إلى ما يشبه في الرأي مقابلة أطول الناس عمراً بالدهر على مداه كله).(١)

إن القرآن الكريم الذي جعله الله –جل وعلا– خاتم الكتب المنزل على خاتم الرسل محمد– صلى الله عليه وسلم– هو المعجزة الخالدة، وإن الله يخاطب به الثقلين إلى يوم الدين، ولذا فإنه من الراجح ألاّ يستقل جيل من الأجيال، أو عصر من العصور بتقديم نظرية أو رأي يفسر إعجاز القرآن من كل وجه، مع التسليم بأن الإعجاز الذي وقع به التحدي كان وجهه بيانياً أو بلاغياً صرفاً.(٢)

▪ رابعاً: مصطلحات قريبة من مصطلح الإعجاز:

إنَّ مادة (عجز) قد وردت في القرآن كما سبق، إلا أنَّ "الإعجاز" و"المعجزة" لم يردا في القرآن الكريم أو السنة النبوية بهذين اللفظين وبما لهما من دلالة، ولكنَّ (المعجزة) –بمعنى البرهان أو الدليل على نبوة سائر الأنبياء– عُبر عنها في القرآن الكريم بالكلمات أو المصطلحات الآتية:

➤ الآية:

قال ابن فارس: (الآية هي العلامة، وهذه آيةٌ مَأْيَاةٌ كقولك: علامة مَعْلَمَة.. وأصل: أأية بوزن أعْية، مهموز همزتين، فخففت الأخيرة فامتدت).(٣) قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾(٤)، قال ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤هـ) –رحمه الله–: (أي حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ أي معجزة خارقة ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ﴾ أي ليصدقنها، ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك عن الآيات تعنتاً وكفراً وعناداً لا على سبيل الهدى والاسترشاد، إنَّما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء جاءكم بها، وإن شاء ترككم..)(٥). وجاء ذكر (الآية) دلالة على معجزة نبي الله صالح –عليه السلام– قال تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص١٣٩.

(٢) عدنان زرزور، علوم القرآن وأعجازه وتاريخ توثيقه، دار الأعلام، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ج٢/ ص٤٦٤.

(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (أيي)، ج١/ ص٩٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

(٥) اسماعيل ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، راجعه ونقحه: الشيخ خالد محمد محرم، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج٢/ ص١٥٣.

قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾[1]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾[3]، قال ابن جرير –رحمه الله–: (يقول الله –تعالى ذكره–: وقال هؤلاء المشركون الذين وصف صفتهم في الآيات قبل: هلاَّ يأتينا محمد بآية من ربه، كما أتى قومَه صالحٌ بالناقة، وعيسى بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص...)[4].

كما قد جاء لفظ (الآيات) للدلالة على معجزات موسى التسع في قوله تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾﴾[5].

➤ البيّنة:

كما جاء وصف معجزة صالح –عليه السلام– بأنها (آية) جاء كذلك وصفها بأنها (بيّنة)، واجتمعت الكلمتان في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾﴾[6].

وكذلك جاء وصف معجزات موسى –عليه السلام– بأنها بينة قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[7]. وأخبر عنه –عليه السلام– فقال تعالى:

---

(١) سورة هود، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣٣.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج١٦/ ص٢١٨.

(٥) سورة النمل، الآيتان: ١٢–١٣.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٧) سورة الأعراف، الآيات: ١٠٤–١٠٨.

﴿ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

وجاءت كلمة البينة في مجادلة قوم هود له، فقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[2]. كما جاءت في سياق الحديث عن آيات الرسل عموماً فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[3]. وقال تعالى مخبراً عن عيسى بن مريم –عليهما السلام–: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[4]. وفي جدال الكفار مع النبي –صلى الله عليه وسلم– قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾[5]، قال ابن كثير –رحمه الله– في قوله تعالى: ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ أي بالحجج والبراهين.[6]

➤ **البرهان:**

قال تعالى مخاطباً نبيه الكليم –عليه السلام–: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[7]، قال ابن عطية (المتوفى سنة ٥٤٦هـ) رحمه الله: (برهانان : حجتان ومعجزتان).[8]

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٠.

(٤) سورة الصف، الآية: ٦.

(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ١٨٣–١٨٤.

(٦) تفسير ابن كثير، ج١/ ص٣٨٢.

(٧) سورة القصص، الآية: ٣٢.

(٨) عبدالحق ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٤/ ص٢٨٧.

➤ **السلطان:**

قال تعالى مخبراً عن موسى –عليه السلام–: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠ ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ ﴾[٢]، روى ابن جرير في تفسيره عن مجاهد (المتوفى سنة ١٠٣هـ) رحمهما الله: (قوله: ﴿ فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ قال: السلطان المبين: البرهان والحجة).[٣]

فهذه مصطلحات قرآنية قريبة من مفهوم المعجزة والإعجاز، وكون مصطلح "الإعجاز" و"المعجزة" لم يرد في القرآن الكريم فإنَّ هذا لا يعني أنَّ استخدامه لا يجوز، أو أنَّه بدعة[٤]، فالقرآن الكريم آية وسلطان وبرهان (معجز)، ذلك أن الله تحدى الخلق أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك فأصبح معجزاً، فالإعجاز مقرون بالتحدي، بل إنَّ الإعجاز ثمرة للتحدي، تحداهم فعجزوا، فسميت آية النبيّ معجزة.[٥] وسبب عجزهم أنَّ (الكلام مرآة لقائله، وكل كلام على مثال قائله يكون، واستناداً إلى هذا المفهوم نقول: إنَّ كمال القرآن كلاماً يأتي من كمال منزله، وإنَّ نقص اللسان كلاماً يأتي من نقص حامله).[٦]

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٣٨–٤٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآيات: ١٠–١١.

(٣) جامع البيان، للطبري، ج١٣/ ص٦١١.

(٤) انظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص٢٣.

(٥) انظر: عدنان زرزور: بين مفهوم المعجزة وإعجاز القرآن "نظرات نقدية"، حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد ١٧، عام ١٩٩٩م، ص١٥ وما بعدها.

(٦) منذر عياشي، القرآن والتلقي من الإعجاز والمجاز إلى الأسطورة والخرافة، عالم الكتب الحديث، إربد–الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص١٥٩. وللأمانة العلمية: فإنَّ هذا النص المقتبس من الدكتور منذر –حفظه الله– سيق هنا لبيان سبب الإعجاز مع أنَّ الدكتور منذر ساقه لنفي الإعجاز والتحدي، بل هو يَعدُّ ذلك (ابتداعاً في الدين، وتبخيساً للإنسان، وفساداً في العلم)، وقد بيَّن وجهة نظره واستدل لها، ومن قال: إنَّ التحدي لا يكون إلاَّ بين متساويين، وتنزيه الله –سبحانه– يقتضي نفي ذلك.

إلاَّ أنَّ التسليم بالمقدمات لا يقتضي بالضرورة التسليم بالنتائج، ومما يمكن قوله هنا: إنَّ المؤمنين بأنَّ القرآن تنزيل من الله تعالى يعلمون علم اليقين أنَّه يستحيل على البشر الإتيان بمثله، ولكنَّ التحدي بأن يأتوا بمثله هو للذين يقولون أنَّ محمداً –صلى الله عليه وسلم– تقوَّله، أو افتراه، أو أملاه عليه أحد، فإنَّ كان ذلك كذلك فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. وآيات التحدي -كما سيأتي- واضح فيها الخطاب للمنكرين للقرآن. –والله تعالى أعلم وأحكم-

***

- ## المبحث الثاني: إعجاز القرآن .. نشأة المصطلح وحقيقته.

"من إعجاز القرآن أن يظلَّ مشغلة الدارسين العلماء جيلا بعد جيل، ثم يبقى أبداً رحب المدى سخي المورد، كلما حسب جيلٌ أنَّه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح عالياً يفوت طاقة الدارسين"(١).

- ### أولاً: نشأة مصطلح إعجاز القرآن:

من خلال المبحث السابق اتضح أنَّ مصطلح (إعجاز القرآن) لم يرد في القرآن الكريم(٢)، كما أنَّه لم يرد في الأحاديث النبوية أو في أقوال الصحابة والتابعين–رضوان الله عليهم أجمعين–، فلم يظهر هذا المصطلح ويتداول في المؤلفات المتعلقة بالقرآن وعلومه إلا بعد منتصف القرن الثالث الهجري، وأول من طرحه المتكلمون من المعتزلة. وأشهر من تكلم فيه **النظام** (المتوفى سنة ٢٢٠هـ) –رحمه الله–، والجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥هـ) –رحمه الله–، **وللجاحظ** رسالة أو كتاب مفقود –مع بالغ الأسف على فقده– قد ألّفه في إعجاز القرآن وهو المسمى "**نظم القرآن**"(٣)، وابن النديم (المتوفى سنة ٣٨٥هـ) –رحمه الله– قد ذكره في كتابه "الفهرست"، تحت عنوان: "الكتب المؤلفة في معانٍ شتى من القرآن".(٤)

ولعلَّ أول كتاب له علاقة بإعجاز القرآن **لعلي ابن ربَّن الطبري**(٥) مولى المتوكل(٦)، وهو كتاب: "**الدين والدولة**" في الدفاع عن الإسلام وإثبات النبوة للرسول –صلى الله عليه وسلم–، أورد فيه براهين على نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم–، وجعل الباب السادس(٧) منه للقول بأنَّ القرآن

---

(١) عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف، القاهرة–مصر، الطبعة الثالثة، ب ت، ص١٧.

(٢) (إعجاز القرآن) باعتباره مصطلحاً لم يرد في القرآن، ولكن وردت ألفاظ تدل على نفس المعنى كما تبين في المبحث السابق.

(٣) انظر: نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق، مؤسسة الرسالة، لبنان–بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٤٠.

(٤) انظر: محمد بن إسحاق ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ب ط، ب ت، ص٥٧.

(٥) في مقدمة السيد أحمد صقر لكتاب إعجاز القرآن للباقلاني عندما تطرق لمسألة التأليف في إعجاز القرآن كان أول ما ذكر: علي بن ربن وكتابه: (الدين والدولة). انظر: محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت، ص٧.

(٦) لم يذكر المؤرخون تاريخاً محدداً لولادة أو وفاة ابن ربن الطبري –رحمه الله–، ولكنَّه اشتهر بمولى المتوكل (المتوفى سنة ٢٤٧هـ).

(٧) انظر: ذكر نعيم الحمصي أنه جعل الباب السابع منه لذلك، فلمَّا رجعت للكتاب وجدته الباب السادس منه، فلعله سبق قلم.

معجزة النبوة، فأسماه: "في أمية النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنَّ الكتاب الذي أنزله الله عليه وأنطقه به آية للنبوة".[١]

إلا أنَّ أول كتاب يحمل عنوانه هذا المصطلح هو كتاب "**إعجاز القرآن**" **لمحمد بن يزيد الواسطي** (المتوفى سنة ٣٠٦هـ) -رحمه الله-، ذكره ابن النديم في الفهرست[٢]، **والإمام عبدالقاهر الجرجاني**(المتوفى سنة ٤٧١ أو ٤٧٤هـ) -رحمه الله- قد بلغ من إعجابه بهذا الكتاب أن شرحه في كتابين: "**المقتضب في شرح كتاب الواسطي في الإعجاز**"، و"**المعتضد في شرح كتاب الواسطي**" الأول مختصر، والثاني مطول، ولكن كتاب الواسطي وشرحي الجرجاني له مفقودة كلها.[٣]

▪ ثانياً: أشهر المهتمين بإعجاز القرآن:

إنَّ استقصاء كل من ناقش فكرة إعجاز القرآن من المتقدمين والمتأخرين أمر يطول، وقد لا يخدم البحث، ولكن تجدر الإشارة إلى أشهرهم:

فمن المتقدمين الإمام **أبو الحسن الرماني** (المتوفى سنة ٣٨٦هـ) -رحمه الله-، له رسالة بعنوان "**النكت في إعجاز القرآن**"[٤] أصلَّ فيها لعلم البلاغة، بوصفه تأصيلاً لإعجاز القرآن، وذكر فيها أنَّ وجوه إعجاز القرآن تظهر في سبع جهات، وهي: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة. وقد تبنى فكرة النظام في القول بالصرفة[٥]-التي تولى الرد عليها تلميذه الجاحظ-، والرماني -رحمه الله- رأى أنَّ البلاغة ثلاث طبقات: أعلاها معجز وهي بلاغة القرآن، وعرَّف البلاغة بأنها: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وقسَّمها إلى عشرة أقسام، هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان، ثم شرح ذلك وفسره تفسيراً وافياً، ثم عاد لبيان وجوه الإعجاز، وختم رسالته

---

(١) انظر: علي بن سهل بن ربن الطبري، الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٩٨-١٠٧.

(٢) انظر: ص٥٧.

(٣) انظر: نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن، ص٤٥. وانظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص٩٣.

(٤) انظر: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام: تحقيق، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة-مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م، ص٧٣-١١٣.

(٥) القول بالصرفة: أي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة. وبهذا يكون الصرف هو المعجز لا القرآن نفسه. انظر: السيوطي، الاتقان، ج٥/ ص١٨٧٩-١٨٨٠.

ببيان أنَّ القرآن لما أعجز بلغاء العرب أن يأتوا بمثله كان من هم دونهم في البلاغة والبيان أعجز عن ذلك.[1]

وللإمام **أبي سليمان الخطابي** (المتوفى سنة ٣٨٨هـ) –رحمه الله–، رسالة بعنوان "**بيان إعجاز القرآن**"، بدأها بعرض للأقوال التي قيلت قبله في وجوه الإعجاز، وناقش تلك الأقوال، وله ردود لطيفة على القائلين بالصرفة، وهو يرى أنَّ إعجاز القرآن بلاغي بياني، وإنَّما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور منها: أنَّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء وأوضاع اللغة العربية والحوامل لها، وأنَّ فهومهم لا تدرك جميع معاني الأشياء، ولا تستوفي معارفهم جميع وجوه النظوم؛ فالخطابي –رحمه الله– يرى أنَّ الكلام الفصيح يقوم على أعمدة ثلاثة هي من القرآن الكريم في غاية الشرف والفضيلة، وهذه الأمور الثلاثة يوضحها بقوله: (وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم)[2]، فجمع بين اللفظ والمعنى والنظم، **وهذه العبارة تعد "من اللبنات الأولى لنظرية النظم**"[3]. ثم يصرح برأيه في الإعجاز بقوله: (واعلم أنَّ القرآن إنَّما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني)[4]. كما أضاف أمراً لإعجاز القرآن وهو تأثيره في النفوس يقول: (قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وهو صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس؛ فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه... ومصداق ما وصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[5]...).[6]

كما أنَّ الإمام **أبو بكر الباقلاني** (المتوفى سنة ٤٠٣هـ) –رحمه الله– ألَّف كتاباً بعنوان "**إعجاز القرآن**" وهو أول من ألف كتاباً شاملاً في إعجاز القرآن، قال محققه السيد أحمد صقر: (وهو أعظم كتاب أُلِّفَ في الإعجاز إلى اليوم، وإن كره ذلك بعض المتعصبين)[7]، والإمام الباقلاني –حمه الله– قسّم كتابه إلى فصول، بدأها ببيان أنَّ نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم– بُنيت على

---

(١) انظر: مقدمة السيد أحمد صقر لكتاب إعجاز القرآن للباقلاني، ص١١–١٢.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، ص٢٧.

(٣) هذه الفكرة مقتبسة من إحدى محاضرات (إعجاز القرآن) للدكتور عدنان زرزور.

(٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، ص٢٧.

(٥) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٦) المرجع نفسه، ص٧٠.

(٧) مقدمة السيد أحمد صقر لكتاب إعجاز القرآن للباقلاني، ص٦٧. وعلى عظم قدر الباقلاني –رحمه الله– في العلماء، وعظيم مكانة كتابه في الإعجاز إلا أن التعميم بهذا الصورة ليس من النقد الموضوعي، وقد نقد الرافعي كتاب الباقلاني فكان مما قال: (وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ: "لم يكشف عمَّا يلتبس في أكثر هذا المعنى")، ثم قال: (وبالجملة فقد وضع ما لم يكن يمكن أن يوضع أوفى منه في عصره). انظر: الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص١٥٢-١٥٤.

معجزة القرآن، واستدل على ذلك، ثم بيَّن وجه دلالة معجزة القرآن على نبوة النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأفاض في الرد على القائلين بالصرفة، ثم جعل الفصل الثالث في جملة وجوه إعجاز القرآن، استهله بما ذُكر قبله من أنَّ أوجه إعجاز القرآن ثلاثة؛ الأول: ما تضمنه من الإخبار عن الغيوب، والثاني: إخباره عن الأمم السابقة مع أمية النبي–صلى الله عليه وسلم– وعدم اطلاعه على كتب من سبقه، أمَّا الوجه الثالث من إعجاز القرآن والذي توسع الإمام الباقلاني في شرحه وبيانه فهو: نظم القرآن وأسلوبه وبلاغته وبيانه، ثم أتبعه بفصول يشرح فيها أوجه إعجاز القرآن ويفصَّل فيها، ويذكر آراءه ويناقش آراء غيره.(١) ومن الدارسين من رأى أنَّ الإمام الباقلاني أسس للنقد الموضوعي للنص الأدبي، ولفت الأنظار إلى إمكانية تذوق سورة كاملة للوقوف على مواطن الجمال فيها، أو قصيدة متكاملة، أو خطبة تامة.(٢)

ثم جاء الإمام **عبدالقاهر الجرجاني** صاحب نظرية النظم في إعجاز القرآن ومتزعمها، ونظرية النظم نظرية عميقة تتابع على توضيحها وكشفها عدد من العلماء حتى استوت هذه النظرية على سوقها، وآتت أكلها على يد الإمام عبدالقاهر الجرجاني، وإن كان قد سبقه إلى القول بها غيره، ولعل أول من سبق إلى نظرية النظم هو الجاحظ، وقد سبق الحديث إلى أنَّه ألّف كتاباً في إعجاز القرآن أسماه: "نظم القرآن"، أشار إليه في بعض كتبه ولكنه مفقود(٣)، كما تنبه الخطابي لنظرية النظم في مقولته الشهيره التي وردت آنفاً(٤). فلما جاء الإمام الجرجاني وألّف كتابه الشهير "**دلائل الإعجاز**" بَيّنَ هذه النظرية، واستشهد لها ومثَّل، وناقش من سبقه كالقاضي عبدالجبار المعتزلي (المتوفى سنة ٤١٥هـ) وغيره.

ورأى الجرجاني أنَّ الوصف الذي صار به القرآن معجزاً (ينبغي أن يكون وصفاً قد تجدد بالقرآن، وأمراً لم يوجد في غيره، ولم يعرف قبل نزوله)(٥)، ثم ينفي أن يكون في الكلمات المفردة، أو في ترتيب الحركات والسكنات، أو في المقاطع والفواصل، أو في الاستعارة، ويعلل عدم كونه في هذه الأشياء؛ تمهيداً للقول بأن إعجاز القرآن إنَّما هو قائم في النظم القرآني. ويوضح الجرجاني مقصده من نظرية النظم في أكثر موضع من كتابه "دلائل الإعجاز" فيقول: (معلوم أنَّ النظم ليس

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٦٨-٨٨.

(٢) انظر: شذى جرار، موازنة بين مذهبي الباقلاني والجرجاني في كتابيهما إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز، منشورات أمانة عمان، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص١٩٢.

(٣) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٤٨٠، وانظر: الحمصي، فكرة إعجاز القرآن، ص٥٧.

(٤) المقصود بالعبارة قوله: (وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم).

(٥) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة–مصر، ب ط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٣٨٦.

سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض)[١]، ويقول في موضع آخر: (ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنك تُرتبُ المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك)[٢]، ويمكن أن نعبر عن نظرية النظم بأنَّها "الروح التركيبية للنص"[٣]، ويلخص سيد قطب (المتوفى سنة ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م) -رحمه الله- "نظرية النظم" عند عبد القاهر بقوله: (أنَّ ترتيب المعاني في الذهن هو الذي يقتضي ترتيب الألفاظ في العبارة، وأنَّ اللفظ لا مزية له في ذاته، وإنما مزيته في تناسق معناه مع معنى اللفظ الذي يجاوره في النظم - أي تنسيق الكلمات والمعاني بحيث يبدي النظم جمال الألفاظ والمعاني مجتمعة - وأنَّ الجمال الفني رهين بحسن النسق، أو حسن النظم، كما أنَّه لا اللفظ منفرداً موضع حكم أدبي، ولا المعنى قبل أن يعبّر عنه في لفظ، وإنما هما باجتماعهما في نظم يكونان موضع استحسان أو استهجان)[٤].

والإمام عبدالقاهر الجرجاني -رحمه الله- قد عوّل على دراسة فلسفة النحو التي تكشف عن مواطن الجمال في النصوص الأدبية عامة والنص القرآني بخاصة، من خلال نظرية النظم[٥]، والجدير بالذكر أنَّه استطاع أن يولد من رحم الإعجاز آفاق لم تكن لعلم البلاغة، وأن ينتقل بنظرية النظم إلى حيز جديد في النقد الأدبي.

وإضافة إلى كتاب الإمام عبدالقاهر الشهير "دلائل الإعجاز" فله رسالة في الإعجاز كذلك اسمها "**الشافية**" وقد قام محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام بتحقيقها وجمعها مع رسالتي الرماني والخطابي في كتاب واحد سُمي "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن". كما سبق وأن ورد أنَّ للجرجاني شرحين المعتضد والمقتضب على كتاب الواسطي، وكلها مفقودة -مع شديد أسفنا عليها-، وقد كان هذان الشرحان المفقودان مقدمة لكتابيه المشهورين دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة.[٦]

وهؤلاء الأئمة الأربعة من مدارس واتجاهات أربعة، فالإمام الرماني من مدرسة المعتزلة، والإمام الخطابي من مدرسة المحدِّثين من أهل السنة، والإمام الباقلاني من مدرسة المتكلمين من

(١) المرجع نفسه، ص٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥٤.

(٣) هذه العبارة مقتبسة من الدكتور عدنان زرزور، من إحدى محاضراته في إعجاز القرآن.

(٤) سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة-مصر، الطبعة العاشرة، ٢٠١٠م، ص١٤٣.

(٥) شذى جرار، موازنة بين مذهبي الباقلاني والجرجاني، ص١٩٢.

(٦) ذكر نعيم الحمصي في معرض حديثه عن الجرجاني وجهوده في إعجاز القرآن أنَّ هذين الشرحين كانا على كتاب الخطابي. انظر: ص٨٦. ولعله وَهِمَ في ذلك لأنَّه ذكر أنَّهما شرحان لكتاب الواسطي قال فيه: (والذي مهد للجرجاني السبيل إلى تأليف كتاب "دلائل الإعجاز" تأليف محمد بن يزيد الواسطي في هذا الموضوع، وهو مفقود الآن. وقد بدأ الجرجاني بشرحه شرحاً صغيراً لمس عدم كفايته، فشرحه شرحاً كبيراً في كتاب سماه "المعتضد"، فلما ظهر له أنه مقصر عن الغاية التي يريدها ألّف "دلائل الإعجاز" بعده ...)، انظر: ص٤٥.

الأشاعرة، والإمام الجرجاني أشعري ولكنه أيضاً من مدرسة البلاغيين والأدباء.[1] وقد نجحوا – رحمهم الله جميعاً– في ترتيب قضاياهم؛ فينتهون من المقدمات إلى النتائج بيسر، ثم يحاجّون بطريقة مقبولة.[2] ولم يمنعهم تعدد مشاربهم من أن يبني أحدهم على ما بناه الآخر، **فالنقد لا يقتضي بالضرورة النقض.**

واستمر العلماء والدارسون يبحثون في جوانب إعجاز القرآن، ولم يخلُ عصر من بحوث ودراسات في هذه القضية الثرية، منهم من يضيف جديداً، ومنهم من يعيد ويزيد فيما قيل قبله.

ومن المهتمين بإعجاز القرآن من المعاصرين **مصطفى صادق الرافعي**، وله كتاب قد قسمه إلى قسمين، قسم جعله لإعجاز القرآن، والقسم الآخر جعله للبلاغة النبوية، عرض في القسم الأول لقضية الإعجاز بالنقد والتحليل، وقد كان مؤلَفه هذا مبحثاً من مباحث كتابه الكبير "تاريخ آداب العرب"، ثم أفرده ليكون كتاباً مستقلاً يسهل الانتفاع به، ومما يذكر للرافعي أنَّه قرر نظرية "النظم الموسيقي للقرآن الكريم" فوضحها ومثل لها خير تمثيل.

وقد جعل الرافعي قاعدة لهذه النظرية من الحروف وأصواتها، ثم الكلمات وحروفها، ثم الجمل وكلماتها يقول: (ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إنَّ الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة ..).[3] ثم مثل على ذلك بأمثلة منها كلمة (النذر) في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ﴾[4].

وقد ضَمّنَ سيد قطب –رحمه الله– "فكرة النظم الموسيقي" في نظريته "نظرية التصوير الفني" وهي ما سُمي بالإيقاع والجرس، والفصل الخامس من هذا البحث خُصص للتصوير الفني.

---

(١) الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص٩٧.

(٢) انظر: محمد بركات حمدي أبوعلي، دراسات في الإعجاز البياني، دار وائل، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص١٣٧.

(٣) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص٢٢٧.

(٤) سورة القمر، الآية: ٣٦.

والدكتور محمد عبدالله دراز (المتوفى سنة ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م) -رحمه الله- عرض في كتابه "النبأ العظيم" لذلك فيما قال عنه: "نظرتان في القشرة السطحية للفظ القرآني" **الأولى:** الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته، **والثانية:** الجمال التنسيقي في رصف حروفه وتأليفها من مجموعات مختلفة مؤتلفة. قال في الجمال التوقيعي: (ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنَّه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر. وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقي ولا في الشعر. ذلك أنَّك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً، وشطراً شطراً، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهباً متقارباً، فلا يلبث سمعك أن يمجّها، وطبعك أن يملّها، إذا أُعيدت وكُررت عليك بتوقيع واحد. بينما أنت من القرآن أبداً في لحنٍ متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة يأخذ منها كلّ وترٍ من أوتار قلبك بنصيب سواء. فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد)[(١)].

ويقول في الجمال التنسيقي: (فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً، فطرقتْ سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة. فاجأتك منه لذةٌ أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس، وآخر يحتبس عنده النفس. وهلم جرّا)[(٢)].

كما تحدث الشيخ محمد الزرقاني (المتوفى سنة ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م) -رحمه الله- عنها ضمن حديثه عن خصائص أسلوب القرآن فيما أسماه (مسحة القرآن اللفظية)، ورأى أنَّها تتجلى في أمرين هما: نظام القرآن الصوتي، وجمال القرآن اللغوي.[(٣)] ولا تختلف كثيراً عما ذكره الدكتور محمد دراز ويشتركان في كثير من الأفكار، وإن كان طرح دراز أشمل وأعمق وربما أسبق.[(٤)]

ثم جاء **سيد قطب** فقدم نظرية التصوير في كتابه "التصوير الفني في القرآن" وشرحها ومثَّل عليها ثم دعمها بمزيد من التمثيل في كتابه "في ظلال القرآن" وقبله في كتاب "مشاهد القيامة في القرآن"، وكان سيد -رحمه الله- يهدف إلى تأليف سلسلة بعنوان : (مكتبة القرآن الجديدة) إلى إعادة عرض القرآن الكريم واستحياء الجمال الفني الخالص فيه كما تلقاه العرب أول نزوله وجذبوا إليه

---

(١) محمد عبدالله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة، الدوحة-قطر، بدون رقم الطبعة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٣.

(٣) انظر: محمد عبدالعظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٢/ ص١٩١.

(٤) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٥١٤.

أجمعون. وقد أصدر من هذه السلسلة ثلاثة كتب هي: التصوير والمشاهد والظلال، وعدل عن البقية.

ويمكن تلخيص نظرية التصوير التي قدمها سيد قطب بأنها بث الحياة والروح في النص؛ ليصبح مشهداً مرئياً، وليس كلاماً مكتوباً فحسب. إنَّها الحياة .. لا حكاية الحياة !! إنَّها كما ذكر في ختام كتابه: (وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق من التناسق والاتساق: فمن نظم فصيح، إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل، إلى لفظ معبّر، إلى تعبير مصور، إلى تصوير مشخص، إلى تخييل مجسِّم، إلى موسيقى منغمة، إلى اتساق في الأجزاء، إلى تناسق في الإطار، إلى توافق في الموسيقى، إلى تفنن في الإخراج .. وبهذا كله يتم الإبداع، ويتحقق الإعجاز).[١] وقد خصص الفصل الخامس من هذا البحث للتصوير الفني في آيات الطبيعة.

وهناك تكامل بين نظرية النظم عند الإمام عبدالقاهر الجرجاني، ونظرية التصوير الفني عند سيد قطب، وسيد قد اطلع على نظرية النظم ودرسها بعناية، وقال عن الجرجاني: (ولقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها)[٢] ويوضح الأستاذ الدكتور/ عدنان زرزور هذا التكامل بينهما فيقول: (ولعل الأمر الذي انتهى إليه سيد في شأن الإعجاز بالتصوير –إن صح هذا التعبير– يوضح بعض جوانب نظرية عبدالقاهر الجرجاني، ويضيف إليها ويملأ فراغاتها! لا أنَّه يلغيها ويعفي عليها، أو بعبارة أخرى: إنَّ نظرية عبدالقاهر في (النظم) تتسع لنظرية (التصوير) أو لهذا الباب من أبواب الإعجاز ...).[٣]

ومن المعاصرين الذين اهتموا بالإعجاز –وبالإعجاز البياني على وجه التحديد– **بنت الشاطئ عائشة عبدالرحمن** (المتوفاة سنة ١٤١٩هـ–١٩٩٨م) رحمها الله، ومن ذلك كتابها: "الإعجاز البياني، ومسائل ابن الأزرق .. دراسة قرآنية لغوية وبيانية"، وقد كانت تعتمد الدراسة الاستقرائية لألفاظ القرآن وصيغه، وهي ترى أنَّ إعجاز القرآن –وإن كان يفوت كل محاولة لتحديده– فإنَّه يقوم على أسلوب القرآن المنقطع النظير واستعماله الفريد للغة العربية، وما في ذلك من دقة المعنى وصدقه وعمقه.[٤]

ومنهم كذلك الشيخ **محمد متولي الشعراوي**(المتوفى سنة ١٤١٩هـ–١٩٩٨م) –رحمه الله– في خواطره وتفسيره للقرآن الكريم، والدكتور **فاضل بن صالح السامرائي** في مؤلفاته وبرامجه

---

(١) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة–مصر، ب ط، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص١٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٣.

(٣) عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٥٠٦.

(٤) انظر: عائشة عبدالرحمن، الإعجاز البياني، ص١٤٠، وانظر: عيسى بلاّطه، إعجاز القرآن الكريم عبر التاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص٢٦.

التلفزيونية، ويحمد للشعراوي والسامرائي أنَّهما ساهما في نقل الإعجاز البياني من دائرة التنظير إلى دائرة التطبيق، فاستكملوا مسيرة البحث والدراسة لجوانب الإعجاز البياني.

▪ ثالثاً: مناط إعجاز القرآن وحقيقته:

تاريخ إعجاز القرآن ممتدٌ مع تاريخ الثقافة العربية، وقد خاض فيه كثيرٌ من العلماء الأجلاء، منهم من أصاب فحاز الأجرين، ومنهم من حاز أجر اجتهاده ولا يضيع عند الله بذله، وهنالك مقدمات إذا سلمنا بها فإنه قد تتبين لنا حقيقة إعجاز القرآن ومناطه، وهي مقدمات أربع:

➤ المقدمة الأولى: التفريق بين الإعجاز والمعجزة.(١)

إنّ الله –جل جلاله– ما أرسل نبياً أو رسولاً إلا وأرسل معه ما يكون دليلاً على صدق نبوته، وهي ما سماها القرآن آيات النبوة، والتي اصطلح العلماء على تسميتها "بالمعجزات"(٢)، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾(٣)، فأرسل مع صالح –عليه السلام– الناقة، ومع موسى –عليه السلام– تسع آيات إلى فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾(٤)، وأيد عيسى بآيات امتن الله بها عليه فقال: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾(٥)، وقد كان لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم– شيء من هذه الآيات كما في انشقاق القمر وغيرها.

والذي يميز هذه الآيات والمعجزات أنَّها: جاءت حسية خارقة للعادة، مخالفة لما يألفه الناس من السنن الكونية أو البشرية، كما أنَّها تاريخية أي أنَّها وقعت في زمن النبي الذي جاء بها

---

(١) انظر: عدنان زرزور: بين مفهوم المعجزة وإعجاز القرآن "نظرات نقدية"، حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد ١٧، عام ١٩٩٩م، ص١٥ وما بعدها.

(٢) انظر: (دلائل نبوة الأنبياء) من كتاب: محمد ابن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: عبدالله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج١/ ص١٤٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥.

(٤) سورة النمل، الآيتان: ١٢ – ١٤.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

وشاهدها المعاصرون له، ثم أصبحت تحكى وتروى للأجيال التالية، ولكن هذه الأجيال اللاحقة لم ترَ هذه الآيات ولم تلامسها، ثم إنَّ هذه الآيات والمعجزات لم تكن مقرونة بالتحدي، فهذه صفات المعجزة.

قد يعترض أحد فيقول: أليس في عصا موسى -عليه السلام- مع سحرة فرعون شيء من التحدي؟ أقول: بأن موسى -عليه السلام- جاء بهذه الآية وغيرها من الآيات من عند الله تصديقاً لرسالته وتأييداً لنبوته، فلما رأوا الآيات قال الملأ من قوم فرعون ما هذا إلا سحر فلنأتينه بسحر مثله، فالتحدي وقع منهم ولم يقع من موسى -عليه السلام- وقد حكى الله هذا الحوار فقال -عز من قائل-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾[1]، وقال في موضع آخر: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ٥٨﴾.[2]

أما إعجاز القرآن فإنه مقرون بالتحدي كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾[3]، وغيرها من آيات التحدي -وسيأتي إيرادها-.

ولمّا كان محمد -صلى الله عليه وسلم- خاتم الأنبياء والمرسلين، كان دليل نبوته معجزة باقية خالدة إلى يوم الدين، تقيم الحجة على الأجيال جيلاً بعد جيل إلى قيام الساعة، فإعجاز القرآن ليس معجزة تاريخية شهدها المعاصرون لزمن النبوة ثم حكيت لمن جاء بعدهم فحسب، بل هي مستمرة يشهدها كل جيل، وفي قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾[4]، والتعبير بصيغة المضارع (لا يأتون) دلالة على الاستمرارية والاستقبال.

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٠٤ -١١٢.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٥٧ -٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ - ٢٤.

(٤) سورة الإسراء، ٨٨.

فإعجاز القرآن متضمن للمعجزة، ولكن ليست كل معجزة متضمنة الإعجاز، والإعجاز مختص بالقرآن دون غيره من معجزات الأنبياء.

➤ المقدمة الثانية: التفريق بين الوحي والإعجاز.

إنَّ الله –سبحانه وتعالى– أنزل كتبه على رسوله، وجعل الإيمان بها جزءاً من الإيمان به، لا يكتمل إيمان أحد حتى يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويؤمن بالقدر خيره وشره. وهذه هي أركان الإيمان كما تبينها كتب العقائد(1)، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ ﴾(2)، وكما جاء في حديث جبريل المشهور ومنه: قال: قال: فأخبرني عن الإيمان. قال:(أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)(3).

ومع إيماننا بكل الكتب السماوية، وإيماننا بأنَّها وحي من الله أوحى به إلى رسله، إلا أنَّ كونها وحي لا يعني أنَّها تحمل في ذاتها إعجازاً، فالتوراة التي أنزلت على موسى، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، والزبور الذي أنزل على داود –عليهم السلام– لم تكن معجزة في ذاتها قال محمود شاكر (المتوفى سنة ١٤١٨هـ–١٩٩٧م) –رحمه الله–: (ولا أظن قائلاً يستطيع القول: إنَّ التوراة والإنجيل والزبور كتب معجزة، بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن، من أجل أنَّها كتب منزلة من عند الله، ومن البين أنَّ العرب قد طُولبوا أن يعرفوا دليل نبوة رسول الله، ودليل صدق الوحي الذي يأتيه بمجرد سماع القرآن نفسه، لا بما يجادلهم به حتى يلزمهم الحجة في توحيد الله، أو

---

(1) انظر: (أركان الإيمان) من كتاب: محمد بن صالح ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، دار ابن الجوزي، الدمام – السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ، ج١/ ص٥٤.

(2) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(3) الحديث رواه مسلم، عن عبدالله بن عمر –رضي الله عنهما– قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب، قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: **(الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)** قال: صدقت. قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه! قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: **(أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)** قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: **(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك)**. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: **(ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)** قال: فأخبرني عن أمارتها. قال: **(أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان)**. قال ثم انطلق، فلبثت مليا، ثم قال لي: **(يا عمر! أتدري من السائل؟)** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **(فإنه جبريل. أتاكم يعلمكم دينكم)**. انظر: صحيح مسلم، كتاب١: (الإيمان)، باب١: (بيان الإسلام والإيمان والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه)، الحديث رقم: (٨)، ج١/ ص٣٦.

تصديق نبوته، أو بمعجزة كمعجزات إخوانه من الأنبياء مما آمن على مثله البشر، وقد بيّن الله في غير آية من كتابه أنَّ سماع القرآن يقتضيهم إدراك مباينته لكلامهم، وأنه ليس من كلام البشر، بل هو من كلام رب العالمين وبهذا جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[١]).[٢]

فالإعجاز صفة زائدة على كون القرآن وحياً من كلام الله سبحانه وتعالى فالمعجز لا يكون إلا وحياً، ولكن الوحي قد لا يكون معجزاً.[٣]

➤ **المقدمة الثالثة: التفريق بين إعجاز القرآن ودلائل النبوة.**

إنّ القرآن الكريم قد بلغ حدّ الإعجاز لكل من يسمعه أو يقرؤه، حتى عجز الثقلان أن يأتوا بمثله، أو بمثل جزء منه –عشر سور أو سورة واحدة– ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً، فإعجاز القرآن دليلٌ على صحة نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم– وأنه نبي مرسل من عند الله يوحى إليه، ولكن دلائل النبوة جميعها ليس فيها دليل على أنَّ القرآن معجز.

ودلائل النبوة بابٌ من أبواب علم التوحيد، وليست من دلائل الإعجاز، وإن كان إعجازُ القرآن واحداً من هذه الدلائل. إنَّ عدداً ممن تصدى لمسألة إعجاز القرآن قد عرض لدلائل النبوة وإثبات صحة نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم– متخذاً ذلك وسيلة إلى إثبات إعجاز القرآن وتقريره، ولوكان العكس لكان الأمر سليماً، أي أن يتخذ إثبات إعجاز القرآن وسيلة إلى إثبات النبوة، وذلك كان للخلط بين إعجاز القرآن ودلائل النبوة ولذا قال محمود شاكر –رحمه الله–: (إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله سبحانه، لا يكون منها شيء يدل على أنَّ القرآن معجز ... فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، وأما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن).[٤]

➤ **المقدمة الرابعة: الإعجاز مرتبطٌ بالقرآن وليس بشيء خارج عنه.**

أنزل الله – سبحانه وتعالى– التوراة على موسى –عليه السلام– وجعل دليل نبوته وبرهان صدقه معجزات من مثل العصا التي يلقيها فتصبح حية تسعى، أو يده التي يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء وغيرها، وأنزل الله الإنجيل على عيسى –عليه السلام– وجعل دليل نبوته

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٢) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية مشكلات الحضارة، تقديم محمد عبدالله دراز ومحمود محمد شاكر، دار الفكر، دمشق–سوريا، الطبعة الرابعة: ١٩٨٧م، من مقدمة الأستاذ محمود محمد شاكر، بعنوان: فصل في إعجاز القرآن، ص٢٥.

(٣) عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٤٧٤.

(٤) محمود شاكر، مقدمة كتاب (الظاهرة القرآنية)، ص٢٥.

وبرهان صدقه أنَّه يكلم الناس في المهد وكهلاً، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، ويحي الموتى بإذن الله، والأمر الذي يُلحظ هنا أنَّ معجزات هؤلاء الأنبياء جاءت مفصولة عن دعوتهم مستقلة عنها. أما نبينا الكريم –عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم– فقد أنزل الله عليه القرآن وجعل معجزته الكبرى هي القرآن نفسه، فإعجاز القرآن –كما يبدو من تركيبه الإضافي– أنَّه غير مفصول أو مستقل عن دعوة النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– فالقضية وبرهانها شيء واحد.(١)

وابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨هـ) –رحمه الله– يؤكد هذه القضية فيقول: (أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المُدَّعى وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة؛ لاتحاد الدليل والمدلول فيه)(٢). ويستدل على ذلك بقول الرسول –صلى الله عليه وسلم–: (ما من نبيٍّ من الأنبياءِ إلَّا وقد أوتيَ من الآياتِ ما مثلِهِ آمنَ عليه البشرُ، وإنَّما كان الَّذي أوتيتُهُ وحيًا أُوحِيِ إليَّ. فأنا أرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعًا يومَ القيامةِ).(٣)

وبالاتفاق على هذه المقدمات تتبين حقيقة إعجاز القرآن ومناطه، فإنَّ إثبات إعجاز القرآن لا يكون بإثبات دلائل النبوة أو المعجزات أو خصائص الوحي، وإن كان القرآن هو في ذاته وحياً، ومعجزة كبرى، ودليلاً من أهم دلائل النبوة.

كما أنَّ حقيقة إعجاز القرآن ليست في الصرفة، أي أنَّ الله قد صرف البلغاء من العرب عن معارضة القرآن والإتيان بمثله مع قدرتهم على تلك المعارضة؛ لأن الإعجاز حينئذٍ لن يكون في القرآن نفسه، بل في المنع أو المانع، ولكان عجبهم ليس من بلاغة القرآن! بل كان الأوجب أن يعجبوا من تعذر ذلك عليهم بعد أن كان في مقدورهم معارضته.(٤)

كما أنَّ الإعجاز الذي وقع به التحدي للأنس والجن في كل زمان ومكان لم يكن بمضامين القرآن، فليس في "الأخبار الغيبية" التي جاء بها وأخبر أنَّها ستقع في المستقبل فوقعت كما أخبر،

---

(١) عدنان زرزور: بين مفهوم المعجزة وإعجاز القرآن، ص١٧-١٩.

(٢) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، اعتناء ودراسة: أحمد الزعبي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت–لبنان، ب ط، ب ت، ص١٢٥.

(٣) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة، مع اختلاف في متنه اختلافاً يسيرا لا يؤثر على معناه ولفظ البخاري: (ما من الأنبياءِ نبيٌّ إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله أُومن –أو آمنَ– عليهِ البشرُ، وإنَّما كان الَّذي أوتيتُهُ وحيًا أوحاهُ اللهُ إليَّ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعًا يومَ القيامةِ). انظر: صحيح البخاري، الحديث رقم(٧٢٧٤)، باب: قول الرسول–صلى الله عليه وسلم– "بعثت بجوامع الكلم"، ج٤/ ص٣٥٩.

(٤) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٤٧٨.

وليس الإعجاز في "التكامل التشريعي" من أحكام وشريعة إنسانية تصلح لكل زمان وكل مكان، كما أنَّه ليس في "الحقائق العلمية" التي تحدث عنها القرآن وأشار إلى جوانب منها لم يكتشفها الناس إلا بعد أمد طويل من تنزل القرآن، وإن كانت كل هذه الأمور تعد دليلاً قاطعاً على أنَّ القرآن الكريم مصدره من العزيز العليم سبحانه فإنَّها لا تحمل حقيقة الإعجاز الذي وقع به التحدي.[1]

والذي ذهب إليه أغلب العلماء المحققين والدارسين لإعجاز القرآن أنَّ **حقيقة إعجاز القرآن الذي وقع به التحدي كان وجهه بيانياً صرفاً، أي أنَّ القرآن الكريم يحمل في بيانه وأسلوبه الدليل الكافي على أنَّه ليس من كلام البشر** بغض النظر عن مضامينه السامية، وقد أدرك العرب في زمن تنزل القرآن ذلك فلم يعارضوه ليس لأنَّ قدرتهم على البيان سلبت فجأة، بل لأنَّهم أدركوا البون الشاسع بين كلام الله وكلام البشر. وعندما سمع الوليد بن المغيرة القرآن من النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (والله لقد سمعت من محمدٍ آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلوا وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته...)[2].

واستدل الجاحظ على أنَّ إعجاز القرآن بياني بأنَّ الله قد أعفى المتحدَين بالقرآن من المضامين بقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾[3]، فقال: (وهو[4] في ذلك يحتج بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه –إن كان كاذباً– بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها، وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً! فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، فقال: فهاتوا مفتريات. فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلَّفه. ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه، ويزعم أنَّه قد عارض وقابل وناقض. فدلَّ ذلك العاقل على عجز القوم .. لأن سورةً واحدةً وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال .. فمحال –أكرمك الله– أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البين، مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشدُّ الخلق أنفةً، وأكثرهم مفاخرةً، والكلام سيّدُ عملهم، وقد

---

(١) انظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص١٠٥ وما بعدها.

(٢) أورده السيوطي انظر: جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية– الشؤون العلمية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة–السعودية، ب ط، ١٤٢٦هـ، ج٥/ ص١٨٧٦.

(٣) سورة هود، الآية: ١٣.

(٤) الضمير يعود في كلام الجاحظ إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم–.

احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر).[1] ومن الكتّاب من ذهب إلى أنَّ الجاحظ كان يقول بالصرفة في بعض أقواله[2]. وقد يكون هذا غريباً مع ما كتبه في رسالته (نظم القرآن) كما يدلُّ وصفه هو لهذه الرسالة، يقول عنها: (... فكتبت لك كتاباً أجهدتُ فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان؛ فلم أدع فيه مسألة لرافضيّ، ولا لحديثيّ، ولا لحشوي، ولا لكافر مُبَاد، ولا لمنافقٍ مقموع، ولا لأصحاب "النظام"، ولمن نجم بعد "النظام" ممن يزعم: أنَّ القرآن حق وليس تأليفه بحجة، وأنَّه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة؛ فلما ظننتُ أنِّي قد بلغت أقصى محبتك، وأتيت على معنى صفتك أتاني كتابك تذكر أنَّك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن، وإنَّما أردتَ الاحتجاج لخلق القرآن، وكانت مسألتك مبهمة... فكتبت لك أشق الكتابين وأثقلهما، وأغمضهما معنى، وأطولهما طولا).[3]

كما يلفت سيد قطب –رحمه الله– إلى أمر مهم قد يغيب عمن رأى الإعجاز في شيء غير الوجه البياني منه فقال: (بعض الباحثين في مزايا القرآن ينظر إلى القرآن جملة ثم يجيب، وبعضهم يذكر غير النسق الفني للقرآن أسباباً يستمدها من موضوعاته بعد أن صار كاملاً: من تشريع دقيق صالح لكل زمان ومكان، ومن إخبارٍ عن الغيب يتحقق بعد أعوام، ومن علوم كونية، في خلق الكون والإنسان. ولكن البحث على هذا النحو إنَّما يثبت المزية للقرآن مكتملاً. فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم ... أنَّ هذه السور القلائل قد سُحر العرب بها منذ اللحظة الأولى.. يجب إذن البحث عن "منبع السحر في القرآن" قبل التشريع المحكم، وقبل النبوءة الغيبية، وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشمل هذا كله. فقليل القرآن الذي كان أيام الدعوة الأولى كان مجرداً من هذه الأشياء التي جاءت فيما بعد..).[4]

وقد ذهب إلى هذا الرأي الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي، وجعل عنوان كتابه دالاً على فكرة التفريق بين الإعجاز البياني والدلائل التي تثبت صدق الوحي وأنَّه من عند الله، فوسمه بهذا

---

(١) أورده السيوطي بهذا النص في الإتقان، انظر: ج٥/ ص١٨٧٧. وللجاحظ كلام قريب جداً من هذا، جاء في رسالته: (حجج النبوة)، انظر: عمرو بن بحر الجاحظ، حجج النبوة (ضمن مجموعة رسائل الجاحظ)، تحقيق: علي أبو ملحم، دار الهلال، بيروت–لبنان، الطبعة الأخيرة، ٢٠٠٢م، ج٣/ ص١٥٣–١٥٥.

(٢) انظر: عبدالكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين–دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م، ص١٧٦. وانظر: أحمد جمال العمري، مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، دار المعارف، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت، ص٦٦.

(٣) عمرو بن بحر الجاحظ، خلق القرآن (ضمن مجموعة رسائل الجاحظ)، تحقيق: علي أبو ملحم، دار الهلال، بيروت–لبنان، الطبعة الأخيرة، ٢٠٠٢م، ج٣/ ص١٦٦. ويعزز ذلك ما قاله في كتاب العثمانية: (وفرقٌ ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه... فإذا عرفَ صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام، ثم لم يكتفِ بذلك حتى يعرف عجزَه وعجز أمثاله عن مثله...). انظر: عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب العثمانية، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجبل، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص١٦.

(٤) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص١٧.

العنوان: (إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني)، كما ناقش من خلط بين هذين الأمرين، ورأى أنَّ الإشكال الذي حصل عند كثير من الدارسين -والمعاصرين منهم بشكل خاص- أنَّهم أخذوا كل دليلٍ يدل على أنَّ القرآن كلام الله فجعلوه وجهاً من وجوه الإعجاز، وأغفلوا معنى الإعجاز اللغوي والاصطلاحي، ولعلهم غفلوا كذلك عن سياق آيات التحدي، ويقرر أنَّ مضامين القرآن لم تكن موضوع التحدي، ولا تصلح أن تكون وجوهاً للإعجاز.(١)

وقد كان لقضية إعجاز القرآن أثرها البين في الأدب والنقد والبلاغة، ومن ذلك: التقنين لوجوه حسن العبارة، والحرص على الدقة في استعمال المفردات اللغوية للدلالة على المعاني التي تقال فها، كما كان لها أثرها الذي لا يخفى على جزئيات التعبير -المفردات والتراكيب-، وعلى البناء الكلي أو الصياغة الكلية للأعمال الأدبية.(٢)

▪ رابعاً: آيات التحدي:

من أدل شيء على إعجاز القرآن الكريم آيات التحدي، وهي في غير ما موضع من كتاب الله، واضحة بينة صريحة في التحدي للبشر المنكرين للقرآن وأنه تنزيل من عند الله، بل للإنس والجن جميعاً، وهو تحدٍ قائم مستمر إلى يوم القيامة، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّ آيات التحدي جاءت متدرجة، أي: أنَّ الله تحدى العرب أولاً أن يأتوا بمثل القرآن في نظمه وبيانه فقال-تعالى-: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾(٣)، فعجزوا عن ذلك، وسجل عليهم عجزهم عن الإتيان بمثله حتى ولو كان الإنس والجن بعضهم لبعض ظهيراً: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾(٤) .

ثم تدرج معهم فتحداهم أن يأتوا بعشر سور فقال -عز من قائل-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ

---

(١) انظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص١٠٩.

(٢) انظر: أحمد سيد محمد عمار، نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي الحديث، دار الفكر، دمشق-سوريا، ب ط، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٨٤.

(٣) سورة الطور، الآية: ٣٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[1]، وإنما قال (مفتريات) إزاحة لعللهم وقطعاً لأعذارهم فعجزوا.

ثم ردهم من العشر إلى سورة واحدة من مثله؛ مبالغةً في التعجيز لهم فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾[2]، وكرر عليهم ذلك فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[3]، وسجل عليهم أنهم لم يفعلوا في السابق، ولن يفعلوا في المستقبل، مع أنَّ اللغة لغتهم والكلام كلامهم، فعجزوا عن هذه المعارضة مع توفر كل أسبابها ودواعيها وانتفاء موانعها.[4]

والقول بأن آيات التحدي جاءت بهذا التدرج المرحلي مع المكذبين للقرآن من الأكثر إلى الأقل قولٌ عقلي مقبول، وهو يفترض أنَّ نزول آيات التحدي كان بهذا الترتيب: آيات سورة الطور، ثم آيات سورة هود، ثم آيات سورة يونس، وأخيراً آيات سورة البقرة.

إلا أنَّ مِن الدارسين مَن رأى أنَّه قول مرجوح؛ لأنَّ هذا الأمر لا يدل عليه نقلٌ صحيح برواية عن أحد الصحابة الذين شهدوا نزول القرآن، وعرفوا السابق منه واللاحق له، فلم نجد رواية صحيحة على هذا الترتيب، ورأوا أنَّ القول الراجح في آيات التحدي أنَّها ليست متدرجة على هذا النحو، وأن التحدي كان مقصوداً بذاته، يستوي في ذلك كلُّ القرآن وبعضه، وأن هناك ملابسات صاحبت نزول كل آية من آيات التحدي، وهذه الملابسات هي التي حددت مقدار التحدي، والأهم من ذلك كله أنَّ هؤلاء الذين تحدوا بالقرآن وببعضه عجزوا أن يأتوا بمثله أو بمثل بعضه.[5]

والذي يلحظ في آيات التحدي أنَّه يورد لفظ (مثله) فيها جميعاً: ففي سورة الطور﴿بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾، وفي سورة هود﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾، وفي سورة يونس﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾، وفي سورة البقرة ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ والمقصود بلفظ (مثله) مثل بيان القرآن في لفظه ونظمه؛ لأنه قال في سورة هود "مفتريات"، قال الجرجاني –رحمه الله-: (والافتراء إذا وصف به الكلام فإنه لا يرجع إلى اللفظ

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١٣-١٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٩.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ – ٢٤.

(٤) انظر: محمد بن عبدالله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة –مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج٢/ ص١١٠.

(٥) انظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص٦١.

والنظم، وإنما يرجع إلى المعنى.. وإذا لم يرجع إلا إلى المعنى وجب أن يكون المراد: إن كنتم تزعمون أنَّي قد وضعتُ القرآن وافتريته وجئت به من عند نفسي؛ ثم زعمتُ أنَّه وحيٌ من الله؛ فضعوا أنتم عشر سور وافتروا معانيها كما زعمتم أنَّي افتريت معاني القرآن).(١)

إن آية سورة البقرة –وهي سورة مدنية– قد أعطت حكماً جازماً بأنهم لم يعارضوا القرآن فيما مضى ولو لبعضٍ منه، كما أعطت حكماً جازماً بأنهم لن يعارضوه في المستقبل، ولا يقطع بهذا الحكم الجازم إلا الله العليم الخبير، الذي خلق البشر ويعلم طاقاتهم وقدراتهم، وأنَّ الإتيان بمثل هذا القرآن أو مثل بعضه أمر لا يقدر عليه أحد من الخلق.

ويُختم هذا المبحث بأمور تلخص ما ذكر، وتكشف وجه "إعجاز القرآن"، وتحدد معناه الذي يفهم منه عند إطلاق هذا المصطلح، والتي كما قال الأستاذ محمود شاكر: (لا غنى لدارسٍ عن معرفتها وهي:

- الأمر الأول: أنَّ قليل القرآن وكثيره في شأن الإعجاز سواء.
- الأمر الثاني: أنَّ الإعجاز كائنٌ في رصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من كل نظم وبيان في لغة العرب، ثم في سائر لغات البشر، ثم بيان الثقلين جميعاً، إنسهم وجنهم متظاهرين.
- الأمر الثالث: أنَّ الذين تحداهم بهذا القرآن قد أُوتوا القدرة على الفصل بين الذي هو من كلام البشر، والذي ليس من كلامهم.
- الأمر الرابع: أنَّ الذين تحداهم به كانوا يدركون أنَّ ما طُولبوا به من الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله مفتريات، هو هذا الضرب من البيان الذي يجدون في أنفسهم أنَّه خارج من جنس بيان البشر.
- الأمر الخامس: أنَّ هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثله مطابقاً لمعانيه، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه، من كل معنى أو غرض، مما يعتلج في نفوس البشر.
- الأمر السادس: أنَّ هذا التحدي للثقلين جميعاً إنسهم وجنهم متظاهرين، تحد مستمر قائم إلى يوم الدين.
- الأمر السابع: أنَّ ما في القرآن من مكنون الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله

(١) عبدالقاهر الجرجاني، الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز والقول في الصرفة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة–مصر، ب ط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، (ملحقة بكتاب: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر)، ص٦١٧. وانظر: الرسالة نفسها ضمن كتاب: (ثلاث رسائل في الإعجاز تحقيق: محمد خلف الله وزميله)، ص١٥٠.

يعد دليلاً على أنَّه من عند الله تعالى، ولكنه لا يدل على أنَّ نظمه وبيانه مباينٌ لنظم كلام البشر وبيانهم، وأنَّه بهذه المباينة كلام رب العالمين، لا كلام بشرٍ مثلهم).[١]

بهذه الأمور وبما سبق يكون قد اتضح (أنَّ الإعجاز الذي وقع به التحدي –وهو المراد من الإعجاز عند الإطلاق بالطبع – كان وجهه بيانياً صرفاً).[٢]

***

(١) محمود شاكر، مقدمة كتاب (الظاهرة القرآنية)، ص٣٠.

(٢) عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٤٧٥.

• المبحث الثالث: بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي.

يكاد يكون الاجماع منعقداً بين علماء الأمة حول وجود إعجاز القرآن، ولكنَّهم اختلفوا في حقيقة هذا الإعجاز ووجوهه، **فالاختلاف في وجوهه وليس في وجوده**. ومن العلماء المتقدمين ومن المتأخرين كذلك من رأى الإعجاز مقتصراً على الوجه البياني منه فقط، ومنهم من أدخل فيه وجوهاً متعددة بعضها متعلق بمضامين القرآن وموضوعاته؛ إمَّا تجوزاً في المصطلح، أو خلطاً في المفهوم.

ومن تلك الوجوه ما يُسمى: **بالإعجاز العلمي**: ويقصد به الإشارات العلمية التي جاء بها القرآن عن الكون والطبيعة والإنسان ودقائق العلم التجريبي، **والإعجاز الغيبي**: ويقصد به ما جاء في القرآن من أخبار الأمم السابقة أو الأخبار المستقبلية والتي وقعت كما أخبر عنها، وكذلك **الإعجاز التشريعي**: أي أنَّه جاء بأسمى شريعة للإنسان وأكملها لجوانب حياته فتصلح لكل مكان وكل زمان، ومنهم من أضاف إلى ذلك وجوها مثل: الإعجاز العددي، والإعجاز الموسيقي، والإعجاز الحركي، والإعجاز النفسي، والإعجاز الطبي، بل إنَّ من الفضلاء من جعل الإعجاز في القرآن والسنة وسيرة النبي–صلى الله عليه وسلم–، على أنَّ إعجاز القرآن كما هو واضح من تركيبه الإضافي مختص بالقرآن الكريم.[١]

وبما أنَّ هذا البحث متعلق بآيات الطبيعة والإعجاز البياني فيها، فإنه سيتقاطع مع كثير من النصوص والآيات التي كانت شواهد لما يسمى بالإعجاز العلمي أو التفسير العلمي، ومن هنا كان المستحسن أن يُبحث ما يتعلق بهذا الأمر لمحاولة الكشف عن المراد بهذين المصطلحين وأيهما أصح هل يقال عنه: إعجاز علمي؟ أم يُسمى تفسيراً علمياً؟ وهل له من ضوابط أو شروط؟

▪ أولاً: المقصود بالإعجاز العلمي أو التفسير العلمي:

عند محاولة إيجاد تعريف للإعجاز العلمي فإننا لا نجده يختلف كثيراً عن تعريف التفسير العلمي، فالاختلاف على التسمية أكثر من كونه على المفهوم، وإن كان للتسمية تأثيرٌ على المفهوم في بعض الجوانب.

والذي يُلحظ أنَّ كلا المصطلحين مرتبط بوصفه بالعلم، **والعلم** مرادف للفهم والمعرفة، قال الجرجاني في التعريفات: (العلم: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع .. وقيل: هو إدراك الشيء على ما هو به)[٢]، والعلوم أنواع فمنها العلوم الشرعية وهي العلوم المرتبطة بالقرآن والسنة مما

---

(١) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٤٧٥، وانظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص١٠٥.

(٢) الجرجاني، معجم التعريفات، ص١٣٠.

يُصلح حال المسلم في علاقته بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بما يحيط به، ويدخل فيها علوم القرآن مما يتصل بهدايته وإعجازه وتفسيره وأحكامه. ونوع آخر من العلوم هي مما يتصل بحياة الإنسان من علوم كونية ومعارف وصنائع وفنون، كعلم الهندسة، وعلم الحساب، والاقتصاد، والاجتماع، والطبيعة، والكيمياء، والنبات، وطبقات الأرض، ونحوها.. وهذا النوع الأخير هو المقصود بالوصف في مصطلح التفسير العلمي والإعجاز العلمي.(١)

ويمكن تعريف **التفسير العلمي** بأنَّه: التفسير الذي يتحدث عن الاصطلاحات والحقائق العلمية في القرآن. أو أن يقال: هو الذي يحاول فيه المفسر فهم عبارات القرآن في ضوء ما أثبته العلم، والكشف عن سر من أسراره، لأنَّه تضمن هذه المعلومات العلمية الدقيقة التي لم يكن يعرفها البشر وقت نزول القرآن، فدلَّ ذلك على أنَّه ليس من كلام البشر، ولكنه من عند الله خالق القوى والقدر.(٢)

ولو بُحثَ عن **تعريف للإعجاز العلمي** كما يراه القائلون به لم يكن بعيداً عن هذا التعريف، فالدكتور عبدالله المصلح (الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة) وكذلك الدكتور عبدالمجيد الزنداني قد ذهبا إلى تعريف الإعجاز العلمي بأنه: إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–(٣).

▪ ثانياً: هل نسميه إعجازاً علمياً أو تفسيراً علمياً؟

ذهب بعض المهتمين ببيان ما في القرآن من حقائق ومعلومات ومعارف علمية إلى تسمية هذا الباب (إعجازاً علمياً) وأنه أولى من تسميته (تفسيراً علمياً) وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أنَّ الإعجاز العلمي خاص بما يتعلق بالتوفيق بين الحقائق الشرعية والحقائق الكونية، والتفسير العلمي يتناول النظريات والإشارات الضمنية.

ثانياً: أنَّ الإعجاز العلمي متفق عليه بين أهل التفسير، والتفسير العلمي مختلف فيه، بل إنَّ من العلماء من يحرمه.

---

(١) انظر: أحمد عمر أبو حجر، التفسير العلمي للقرآن في الميزان، دار المدار الإسلامي، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م، ص٧٠.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص٧٢.

(٣) عبدالله بن عبدالعزيز المصلح، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه، ب ن، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص٢٢.

ثالثاً: أنَّ التفسير العلمي -إذا لم تراعَ ضوابطه وشروطه- يكون سبباً في وقوع الخطأ في فهم كتاب الله تعالى لسعة مجاله.

وهذه الأمور قد اشتملت على لَبس في بعض جوانبها، ويمكن الرد على ذلك بما يأتي:

أولاً: افتراض أنَّ الإعجاز العلمي متعلق بالتوفيق بين الحقائق الشرعية والحقائق العلمية، وأنّ التفسير العلمي متعلق بالنظريات التي لم تثبت، وهذا غير مُسلّم به؛ لأنّه لا يوجد ما يمنع من تعلق التفسير العلمي بالحقائق العلمية دون الفرضيات والنظريات التي لم يثبتها العلم باعتبارها حقيقة علمية، كما أنَّ الواقع يشهد بأنَّ بعض من يقولون بالإعجاز العلمي ربطوا بعض الآيات بنظريات لم يثبتها العلم التجريبي فوقعت منهم أخطاء، ولَيٌ لأعناق النصوص لتوافق ذلك التوجه وعَدُّوا ذلك إعجازاً علمياً.

ثانياً: افتراض أنَّ الإعجاز العلمي متفق عليه غير صحيح، فمن العلماء من يرفض هذا المصطلح؛ وذلك لأنه يجعل الإعجاز متعلقاً بالمضامين، بينما هو متعلق ببيان القرآن ولفظه، وقد بينا ذلك في المبحث السابق(١). ومن الباحثين من أضاف الإعجاز إلى السنة النبوية(٢)، ومن المعلوم أنَّ الإعجاز -كما هو بيّن من تركيبه الإضافي- مضاف للقرآن دون غيره من سائر كلام المخلوقين، حتى كلام سيد البلغاء والفصحاء -عليه الصلاة والسلام-.

ثالثاً: أنَّ فهم الآيات القرآنية الكريمة وفق الحقائق العلمية الحديثة اجتهاد ممن يتصدى لذلك -مع التأكيد على ضرورة ألاّ يتصدى لذلك إلا من كان أهلاً له- إلا أنَّ هذا الاجتهاد مُعرّضٌ للخطأ وعندما نُسمي ذلك تفسيراً علمياً فإن الخطأ هنا ينسب إلى المفسر والمجتهد، أمَّا إذا أسميناه إعجازاً علمياً للقرآن فإن الخطأ سيكون منسوباً إلى القرآن وهذا أمرٌ باطلٌ بلا شك. أنَّ وصف ذلك بأنه إعجاز علمي هو في الحقيقة وصف لهذا التفسير للقرآن بأنه تفسير معجز لأن هذا اجتهاد من المفسر في فهم هذه الآيات، بينما الإعجاز وصف للقرآن نفسه، وليس لتفسيره.(٣)

قال الرافعي -رحمه الله-: (ذلك وأن من أدلة إعجاز هذا الكتاب أن يخطئ الناس في بعض تفسيره على اختلاف العصور، لضعف وسائلهم العلمية ولقصَر حبالهم أن تعلقَ بأطراف السماوات أو تحيطَ بالأرض، ثم تصيب الطبيعة نفسها في كشف معانيه؛ فكلما تقدم النظر، وجمعت العلوم، ونازعت إلى الكشف والاختراع، واستكملت آلات البحث، ظهرت حقائقه الطبيعية ناصعة حتى كأنه

(١) انظر: الفقرة الثالثة: (مناط إعجاز القرآن وحقيقته) من المبحث الثاني في هذا الفصل.

(٢) وهذا واضح من اسم الهيئة: (الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة)!!

(٣) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٣٩٣.

غاية لا يزال عقل الإنسان يَقطَعُ إليها، حتى كأن تلك الآلات حينما توجَّه لآيات السماء والأرض توجه لآيات القرآن أيضاً ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1]).[2]

رابعاً: أنَّ بحث ذلك في باب الإعجاز فيه خلط بين علم التفسير وعلم الإعجاز، يقول الأستاذ محمود شاكر: (وغاية التفسير -كما ينبغي أن يُعلم- إنّما هو بيان معاني ألفاظه مفردة، وجملة مجتمعة، ودلالة هذه الألفاظ والجمل على المباني، سواء في ذلك آيات الخبر والقصص، وآيات الأدب وآيات الأحكام، وسائر ما اشتلت عليه معاني القرآن. وهو أمر عن "إعجاز القرآن بمعزل". أمَّا الأمر المرتبط بالشعر الجاهلي، أو بقضايا الشعر جميعاً، والمتصل بأساليب الجاهلية وغير الجاهلية، وأساليب العربية وغير العربية وموازنتها بأسلوب القرآن، فهو "علم إعجاز القرآن"، ثم "علم البلاغة")[3].

خامساً: أنَّ الآيات التي جاء الحديث فيها متوافقاً مع الحقائق العلمية لم تشمل سور القرآن كلها، ومن المعلوم أنَّ القدر المعجز من القرآن كأقصر سورة منه[4]. (فلو كان القرآن معجزاً بسبب اللفتات العلمية المتفرقة في ثنايا آياته لكان كثير من سور القرآن التي تخلو من مثل هذه الإشارات بعيدة عن الإعجاز، ولم يقل بذلك أحد حتى القائلين بالإعجاز العلمي؛ لأن قليل القرآن وكثيره معجز).[5]

سادساً: أنَّ تسمية ذلك بالإعجاز فيه إغفال لمفهوم الإعجاز المرتبط بالتحدي، فالمقصد من وراء التحدي، وتقرير عجزهم هو إثبات أنَّ القرآن كلام الله وليس كلام البشر، فعجزهم عمّا تُحدوا به يثبت أنَّه كلام الله ومن ثم يلزمهم بالإيمان به.

والسؤال هنا: هل القرآن يتحدى العالم اليوم أن يأتوا بمثل هذه الحقائق العلمية؟ ولم يستطيعوا ولذا جعل هذا الوجه أحد وجوه الإعجاز؟

وعلى سبيل التمثيل: أخبر الله في القرآن الكريم عن الجنين في بطن أمه، وأنه في ظلمات ثلاث، قال تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦ ﴾[6]، فيقال لعلماء العالم من الجاحدين للقرآن أو الكافرين بدينه: إنَّ القرآن يتحداكم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٢) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص١٢٨.

(٣) محمود شاكر، مقدمة كتاب (الظاهرة القرآنية)، ص٢٤.

(٤) انظر: السيوطي، الاتقان، ج٥/١٨٩٦. وذهب بعض العلماء إلى أن القدر المعجز من القرآن: هو كأقصر سورة أو أطول آية. انظر: عدنان زرزور، في علوم القرآن، (الملاحظة الرابعة)، ج٢/ ص٦٣٣.

(٥) انظر: أبو حجر، التفسير العلمي للقرآن في الميزان، ص١٣١.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٦.

بأن تأتوا بمثل هذا العلم وأن توجدوا هذه الظلمات الثلاث. أنَّهم بالتأكيد لن يعجزوا عن ذلك، بل قد تم تصوير الرحم والجنين وأصبح كل شخص يمكنه الاطلاع على ذلك. فأين هو الإعجاز؟ إذن فلا يطلب منهم الإتيان بمثله كما طلبت آيات الإعجاز والتحدي.(١)

ومن المعلوم أنَّه لا أحد من القائلين بالإعجاز العلمي يقول بهذا، ولكن إطلاق مصطلح الإعجاز على هذا الوجه يحمل في طياته هذا المعنى! ومن المعلوم أنَّهم إنَّما يقصدون أنَّ القرآن سبق إلى هذه الحقيقة، لذا فإن هذا يُعد دليلاً على أنَّ القرآن من عند الله، وأنَّ محمداً –صلى الله عليه وسلم– رسول الله حقاً، فما كان لنبي أمي في ذلك العصر أن يأتي بمثل هذه الحقائق ويسبق إليها.

ثم هناك أمر مهم: هو أنَّ هذه الحقائق في أغلبها هي من اكتشاف علماء الغرب من الكفار، فإذا أثبتوها وحققوها، قيل لهم: هذا موجود في كتاب الله، وبدأت المحاولات لإثبات ذلك لهم، وفي ذلك من التبعية والتخلف عن الركب ما لا يخفى على ذي عينين، إنَّ هذا الوجه لا يُعدَّ وجهاً من وجوه إعجاز القرآن، بقدر ما يُعدُّ وجهاً من وجوه عجز المسلمين اليوم عن اللحاق بقافلة العلم والتقدم، مما جعلهم عالة على الأمم الأخرى. وإن كان ذلك لا يقلل من جهود المهتمين بهذا الباب في الدعوة إلى الإسلام وبيان فضائله.

سابعاً: وقد يبرر البعض التسمية بالإعجاز العلمي: أنَّ السليقة العربية لم تعد كما كانت صافية نقية، والتذوق البلاغي والأدبي قد شابه ما شابه من تدني المستوى عن المطلوب، وأنَّ الإعجاز العلمي أولى اليوم لمحاجّة المعاندين والمكذبين، فهو من سعة الأفق لهذا الدين وتجدده.

والجواب عن ذلك من وجهين: الأول: أنَّه لا يوجد ما يمنع من الدعوة إلى الإسلام ومحاجّة المكذبين بما في القرآن من حقائق علمية على أنَّها تفسير علمي ودليل من أدلة ثبوت صحة القرآن وصحة النبوة، دون وجود ضرورة لتسمية ذلك: إعجازاً.

والأمر الآخر: أنَّ ثبوت العجز على أهل السليقة الصافية النقية الذين تحداهم القرآن وهم أرباب البلاغة والفصاحة، يثبت العجز على من جاء بعدهم، وعلى غيرهم من العجم الذين لا يحسنون فنون العربية. (٢)

وأخيراً .. فمن الممكن القول بأن هذا التوافق والانسجام بين آيات الله الشرعية وحقائق العلم الكونية مرده إلى الإعجاز البياني، فآيات الكون والطبيعة لها سمات بيانية خاصة انفردت بها، فقد عبر الله عن هذه الحقائق بأسلوب هو غاية في البلاغة والبيان، فلم يتعذر فهمه على السابقين، ولم

---

(١) انظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص١١٤.

(٢) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن وإعجازه، ج٢/ ص٥١٥.

يتناقض معناه مع ما جدَّ من علم اللاحقين.[1] وإن المقصد الذي يهدف له هذا البحث هو بيان هذا الأمر –والدعاء لله جل جلاله أن يعين على ذلك وأن يفتح ويمد بعلمه الذي لا يحيط به أحد من خلقه–.

▪ ثالثاً: ضوابط التفسير العلمي:

وإن كان الباحث يميل إلى ما ذهب إليه العلماء المحققون من ترجيح استخدام مصطلح (التفسير العلمي)، وأنَّه أولى من مصطلح (الإعجاز العلمي) للأسباب التي وردت في الفقرة السابقة، فإنَّه ولاشك –سواء سمي بهذا أو بذاك– لابد من إدراك والتزام الضوابط التي تحكم محاولة النظر في الآيات القرآنية التي اشتملت على حقائق علمية وعلوم ومعارف إنسانية.

ويمكن تقسيم هذه الضوابط إلى قسمين، القسم الأول: هي شروط وضوابط عامة يجب التزامها لكل مفسر، يريد بيان آيات الله للناس، مهما كان توجهه في التفسير، وهذه الضوابط قد بينتها كتب أصول التفسير، وأسهب فيها العلماء المتخصصون في ذلك. والسيوطي (المتوفى سنة ٩١١هـ) –رحمه الله– قد أفرد له جزءاً من كتابه (الاتقان) جعله في "معرفة شروط المفسر وآدابه"[2]، وليس المجال لبسطها في هذا البحث.[3]

والقسم الثاني: شروط وضوابط خاصة متعلقة بالتفسير العلمي، أنَّ (التزام هذه الضوابط يساعد كذلك على إنهاء الخلاف الفكري بين المؤيدين لموضوع التفسير العلمي والمعارضين له؛ لأن جوهر الخلاف بينهم يرجع سببه إلى تلك المظاهر الارتجالية التي لا يصدر أصحابها عن منهج صحيح)[4]، وهذه الضوابط يمكن إجمالها على النحو الآتي:

أولاً: إدراك حقيقة هي غاية في الأهمية أكّد القرآن عليها في غير ما موضع منه، **وهي أنَّ القرآن الكريم جاء ليكون كتاب هداية وإرشاد للبشرية**، وقد أنزله الله ليكون رحمة للعالمين، وهدىً للمتقين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ

---

(١) انظر: المرجع السابق، ج٢/ ص٣٩٣.

(٢) انظر: السيوطي، الاتقان، ج٦/ ص٢٢٧٤.

(٣) من تلك الضوابط معرفة مصادر التفسير الصحيحة: كتفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وتفسير القرآن بأقوال الصحابة، وهذا ما يسمى بالتفسير بالمأثور، ويقابله التفسير بالرأي –وبعض العلماء لا يجيزه– ومن يجيزه يشترط فيه الإلمام بعلوم الآلة من النحو والصرف والبلاغة وأصول الدين وغير ذلك من شروط التفسير العامة.

(٤) وجدت الدكتور المصلح في هذه العبارة مؤيداً للتفسير العلمي مع أنه يرجح التسمية بالإعجاز العلمي. انظر: عبدالله المصلح، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص٣٠.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٩.

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾[1]، وقد أدرك مؤمنو الجن الذين استمعوا للقرآن أنَّه كتاب هداية فأخبروا قومهم بذلك لمّا ولّوا إليهم منذرين قال تعالى حكاية على لسانهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[2]، إنَّ القرآن الكريم لم يتنزل من السماء ليكون مرجعاً في الفلك أو الهندسة، أو أي علم من العلوم والمعارف الدنيوية، إنَّه جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، فلابد أن ندرك مجال القرآن ووظيفته[3]، لا كما يفعل المتحمسون له أن يلتمسوا فيه تلك العلوم، أو كما يفعل الطاعنون فيه أن يلتمسوا مخالفته لتلك العلوم، (إنّ كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله، أنَّ مجاله النفس الإنسانية والحياة الإنسانية. وإن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه؛ وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته).[4]

ثانياً: الاعتقاد الجازم بأنه لا تعارض بين آية قرآنية كريمة وحقيقة علمية ثابتة؛ ذلك أنَّ مُنزل هذه الآيات القرآنية هو سبحانه خالق هذه الآيات الكونية، فلا تعارض بين كتابه المسطور وكتابه المنظور، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[5].

إنه من الاستحالة بمكان أن تتصادم الحقائق القرآنية والحقائق العلمية؛ لأنهما من مشكاة واحدة، وإن ما يفترضه بعض الجهال أو المغرضين من وجود تعارض أو تصادم بينهما مرده إلى سوء الفهم والإدراك، أو سوء النية والمقصد، فلا يليق بخالق الكون –سبحانه عما يصفون– أن يخلق شيئاً على صورة ما ثم يخبرنا في كتابه العزيز بخلاف ذلك : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ

(١) سورة النمل، الآيتان: ١–٢.

(٢) سورة الأحقاف، الآيتان: ٢٩–٣٠.

(٣) يقول الشيخ نديم الجسر: (إنَّ الشريعة المحمدية، بل وسائر الشرائع المنزلة، إنما يُقصد منها بيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى، واعتقاد وجوده، واتصافه بصفات الكمال، وإلى كيفية عبادته، وإلى الأحكام التي تُوصل العباد إلى انتظام المعاش وحسن المعاد. وأمَّا تعريفهم بمباحث العلوم الكونية، من كيفية خلق العالم، والنواميس القائمة فيه، وغير ذلك، فإنَّه ليس من مقاصد الشرائع؛ بل تلك معارف يتوصلون إليها بعقولهم؛ والشرائع لا تلتفت إليها... ولا تعني بتفاصيلها، وتكتفي بذكر شيء مجمل من أمرها، على قدر ما يكون له دخل في مقاصدها الأصلية... ليكون ذكر ذلك دليلاً عقلياً للناس على وجود إله خالق قادر عليم حكيم). انظر: نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المكتب الإسلامي، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص٢١٠–٢١١

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة–مصر، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج١/ ص١٨١.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

﴿١٤﴾[1]، وقد يكون مرد سوء الفهم لكون النص ليس قطعي الدلالة، أو ما يظن أنَّها حقيقة علمية ليست كذلك، أمَّا تعارض نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة مع حقيقة علمية ثابتة لا مجال لتبديلها وتغييرها فهو أمر متعذر.

ثالثاً: ألاّ يفسّر القرآن إلا باليقينيات العلمية والحقائق الثابتة[2]، التي ارتقت من درجة الفروض أو النظريات العلمية إلى مقام اليقينيات، والتي لا يتطرق إليه التبديل والتغيير. فينبغي أن نبعد ساحة التفسير العلمي عن الفرضيات والنظريات العلمية التي لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية، ففي ذلك من الإساءة إلى تلقي كتاب الله من حيث يقصد الإحسان؛ لما يورث من شعور في حال بطلان النظرية من تشويش واهتزاز، وكتاب الله العزيز منزه عن ذلك، فإنه:﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[3]. لذا يحسن التفريق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية:

- فالنظرية العلمية: (افتراض أو تخمين أو ظن، يَرِد على ذهن عالم من العلماء في الفلك أو الجولوجيا أو البيولوجيا، نتيجة لظاهرة رآها، أو تجربة قام بها، أو ملاحظة وقف عليها، أو حدث أراد تفسيره، فيظن أنَّ تفسير ذلك على ما انقدح في ذهنه، ويقدم ذلك الافتراض أو التخمين للقراء، ويبقى كلامه في دائرة الافتراض، ويسمى نظرية أو فرضية علمية .. ثم يحكم العلماء لها أو يحكمون عليها).[4]
- والحقيقة العلمية: (المفهوم الذي تجاوز المراحل الفرضية، والدراسات النظرية، حتى أصبح ثابتاً مجمعاً عليه من قبل كافة العلماء المختصين، كتمدد المعادن بالحرارة، وانكماشها بالبرودة، وتبخر الماء عند درجة مئوية تحت الضغط الجوي العادي، وتجمده عند درجة الصفر المئوي...).[5]

فإذا وُجدت إشارات صريحة صحيحة لحقيقة علمية ثابتة بالأدلة الحسية والبراهين المادية فلا بأس من تفسير الآية بها والتوفيق بين معنى الآية والحقيقة العلمية.

وسيد قطب –رحمه الله– يرى أنَّه لا توجد حقيقة علمية قاطعة في البحث الإنساني يقول: (إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية مطلقة. أمَّا ما يصل إليه البحث الإنساني –أياً كانت الأدوات المتاحة له– فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة؛ وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٢) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٤٠٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٤) الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص٣٨٩.

(٥) عبدالله المصلح، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص٢٨.

وأدواتها .. فمن الخطأ المنهجي –بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته– أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية. وهي كل ما يصل إليه العلم البشري! هذا بالقياس إلى "الحقائق العلمية" والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى "علمية"...)[1].

ومن الصعب القول بأنَّه لا توجد حقيقة علمية ثابتة –كما يُفهم من كلام سيد قطب الآنف– ولكن ربما يمكن تفسير مقصد سيد –عليه رحمة الله– بما أورده "موريس بوكاي" من التفريق بين الفعل القائم موضوع الملاحظة وشرح حقيقة هذا الفعل أو نظريته، فشرح الحقيقة قد يتغير أمَّا الفعل القائم فإنه ثابت، ومثال على ذلك: إثبات دوران الأرض حول الشمس، ودوران القمر حول الأرض يبقى فعلاً واقعاً قائماً، وهذا ما لن يرجع فيه أبداً، ولكن قد يمكن في المستقبل تحديد المدارات بشكل أحسن. فيمكن تعريف سمات الفعل القائم بشكل أفضل حسب ما يسمح التقدم العلمي بتحليل أحسن للأمور.[2]

رابعاً: معجزات الأنبياء والأمور الخارقة للعادة التي نصت عليها الآيات القرآنية يجب ألاّ تفسر بتلك الحقائق العلمية، فهذا الموضوع لا يمكن إقحامه في باب التفسير العلمي. ذلك أنَّ موضوع التفسير العلمي لآيات الكون والطبيعة يصب في باب السنن والقوانين الكونية، بينما موضوع المعجزات هو خروج على هذه السنن والقوانين ومخالفة لها، ومن هذا نجد أنَّ موضوع التفسير العلمي وموضوع معجزات الأنبياء والأمور الخارقة للعادة هما موضوعان متباينان.

إنَّ إهمال هذا الأمر يكشف خطأ من فسّر حمل مريم بعيسى –عليهما السلام– بكونها خنثى، مع أنَّ الله –جل جلاله– قد بين أنَّه جعل ذلك آية للعالمين، وإذا سلمنا جدلاً بذلك فكيف يكون تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[4]. جاء من شرح ذلك بأن الصعق الذي حصل لموسى –عليه السلام– هو صعق كهربائي!

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١/ ص١٨٢.

(٢) انظر: موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم –دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة–، مكتبة مدبولي، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م، ص١٥٤–١٥٥.

(٣) سورة آل عمران، آية ٥٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

وكذا من زعم بأن اختراع الطائرات في هذا العصر قد سبق إليه العصر السليماني، استناداً على معجزة سليمان -عليه السلام- في تسخير الله الرياح له: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾[١].

والمقصد أنَّ التفسير العلمي وموضوعاته ينبغي أن تكون بمعزل عن الآيات التي تتحدث عن معجزات الله التي أعطاها للأنبياء والرسل تصديقاً لهم ولرسالتهم، فلا يقحم هذا مع ذاك إذا أُريد التوفيق بين حقائق العلم التجريبي الحديث مع الحقائق الكونية الطبيعية التي اشتملت عليها الآيات القرآنية الكريمة.[٢]

خامساً: لا يجوز تفسير القرآن باصطلاحات أو اختراعات حادثة بعد نزوله. وهذه مسلمة من مسلمات أصول التفسير، فلا يجوز التفسير لمجرد أنَّ لفظاً قرآنياً صار فيما بعد عنواناً على مخترعٍ حديث؛ لأن ذلك يفضي إلى التبديل والتحوير في معاني القرآن، وقد يؤول بها إلى الإبطال والإلغاء.

فلا يقبل أنْ يُقال: أنَّ اختراع السيارة -المعروف في زمننا الحاضر- كان معروفاً في زمن يوسف -عليه السلام- استناداً على قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[٣].

وقد ذهب بعض الكتّاب المعاصرين إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾[٥] فيه دلالة على أنَّ اختراع "الغواصات" قد عرف قبل عصرنا الحديث، فورود مفردة "غواص" أو "يغوصون" لا تكفي للدلالة على وجود هذا المخترع في زمن سليمان -عليه السلام-، والأعظم من ذلك أنَّه تم تفسير مفردة قرآنية بمخترع حادث بعد نزول القرآن الكريم، وهذا ما لا ينبغي.[٦]

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٢.

(٢) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٤٠٩-٤١٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٩.

(٤) سورة ص، الآية: ٣٧.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٨٢.

(٦) انظر: المرجع السابق، ج٢/ ص٤١١-٤١٢. وانظر: مساعد بن سليمان الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، الدمام–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ص٥٣٩.

سادساً: موافقة اللغة، بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي. وهذه لا تقوم على الحدس والتخمين، بل لابد من الرجوع إلى كتب اللغة المعتمدة لمعرفة دلالة المفردة، واستعمالها في كلام العرب وشعرهم.[(١)]

ومن الأمثلة الجيدة في هذا كلمة (علق) في الآيات التي تناولت خلق الإنسان، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾[(٢)]، فالعلم الحديث يوافق الكلمة القرآنية موافقة دقيقة في دلالتها اللغوية وحقيقتها العلمية، يقول الدكتور مراد هوفمان: (إنَّ تصوير القرآن الكريم لحمل المرأة، في سورة العلق -الآية الثانية- قبل ألف وأربعمائة عام، والذي يؤيده العلم الحديث تأييداً تاماً، تصويرٌ مذهل .. فتشبث الخلية -بويضة الأنثى والحيوان المنوي معاً- وعلوقها بجدار الرحم، واتخاذها قراراً مكيناً لها، إعجاز[(٣)] بيّنه القرآن قبل العلم الحديث بأكثر من ألف وأربعمائة عام. لقد استغلق فهم هذه الكلمة على المفسرين حتى عهد قريب، واليوم وفي ضوء اكتشافات علم الأجنة الحديث استقر فهم (العلق) فهماً علمياً صحيحاً، فكان القول الفصل المبين لصدق الوحي).[(٤)]

سابعاً: عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة، وإنما إبقاء تلك الدلالة مفتوحة، تحتمل كل ما يتفق مع معناها. فالكلمة العربية لها دلالاتها الحقيقية واستعمالاتها المجازية[(٥)] كما جاءت في لغة العرب في شعرهم ونثرهم، وقد تكون المفردة القرآنية من قبيل المشترك اللفظي[(٦)]، فإذا وجدت حقيقة علمية تؤيد إحدى هذه الدلالات الصحيحة فلا حرج من حمل المعنى عليها وترجيح هذه الدلالة، ولكن لا نحصر المعنى على هذه الدلالة فحسب، بل نبقيها مفتوحة تحتمل كل ما يتفق مع الدلالات الأخرى، فلا يحكم ببطلانها أو فسادها. فالدلالة المرجحة قد تكون إحدى وجوه دلالات الآية، ولا أعلم بمراد الله في كتابه من الله -جل جلاله-. ومن ذلك جاءت قاعدة التفسير: (أن النص إذا دلَّ على معنيين صحيحين لا يتنافيان حُمل عليهما جميعاً)[(٧)]. ولابن تيمية

---

(١) انظر: فضل حسن عباس وسناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ب ن، ب ط، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص٢٧٢.

(٢) سورة العلق، الآية: ٢.

(٣) استخدام مصطلح (الإعجاز) في هذا الموضع قد لا نسلم به؛ لما ورد في المبحث السابق، إلا إذا قصد منه الإعجاز البياني في اختيار كلمة (العلق)، فإن أريد منه سبق القرآن إلى هذه الحقيقة فيمكن وصفه بالمعجزة، لا بالإعجاز، فالمعجزة فيها دلالة على صدق الوحي، كما أورد المؤلف في ختام كلامه هذا.

(٤) مراد هوفمان، الإسلام كبديل، مكتبة العبيكان، الرياض-السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٤٢.

(٥) بعض العلماء ينكر وجود المجاز في القرآن. انظر: عبدالعظيم المطعني، المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع عرض وتحليل ونقد، مكتبة وهبة، القاهرة-مصر، ب ط، ب ت، ج٢/ ص٦١٧ وما بعدها.

(٦) المشترك اللفظي: هو كل كلمة لها عدة معانٍ حقيقة غير مجازية. أو هو اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل اللغة. انظر: عبدالعال سالم مكرم، المشترك اللفظي في الحقل القرآني، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٩.

(٧) محمد بن صالح ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، محمد بن صالح ابن عثيمين، دار الهداية، تعز-اليمن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ج٢/ ص٧.

(المتوفى سنة ٧٢٨هـ) –رحمه الله– قول قريب من ذلك عندما تحدث عن اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد في تفسير السلف يقول: (ومن التنازع الموجود عنهم: ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين: إمَّا لكونه مشترَكاً في اللغة... وإما لكونه متواطئاً في الأصل، لكن المراد به أحد النوعين .. فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالتها السلف وقد لا يجوز ذلك)(١).

ثامناً: ألاَّ يخالف التفسير العلمي شيئاً من صريح آيات الله أو صحيح أحاديث رسول الله– صلى الله عليه وسلم–.(٢) ولذا ينبغي جمع الآيات الكريمة، والقراءات المتواترة، والأحاديث الصحيحة الثابتة في القضية موضوع البحث للتفسير العلمي، ذلك أنَّه لا ينبغي الأخذ بتفسير يعارضه نص صريح أو عقل صحيح، والقرآن الكريم يؤيد بعضها بعضاً، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾(٣).

وكما أنَّه يتعذر أن يتعارض كتاب الله –عز وجل– بعضه مع بعض، فإنه كذلك يتعذر أنْ يتعارض كتاب الله مع ما أخبر به المُبلغ عنه–صلى الله عليه وسلم– فيما صح وثبت عنه، فإن كان كتاب الله وحياً أوحاه الله، فإن كلام نبيه –صلى الله عليه وسلم– كذلك وحيٌ يوحى، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾(٤)، وفيما يرويه المقدام بن معد يكرب–رضي الله عنه–قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم–: (ألا إنِّي أُتيتُ الكتاب ومثله معه)(٥).

تاسعاً: موافقة سياق الآيات، فلا يكون السابق للآية أو اللاحق لها متجافٍ مع المعنى المفسر لها(٦). فإن الآية في كتاب الله تتناسب مع ما سبقها وما لحق بها، والمقطع من السورة يأخذ بزمام ما قبله وما بعده، وكل سورة لها رابط يربطها بالسورة التي تليها والسورة التي تسبقها؛ إنَّه تنزيلٌ من عليم حكيم.

قال–تعالى–: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾(٧)، هذه الآية استدل بها بعضهم على دوران الأرض، فقالوا: إنَّ مرور الجبال

---

(١) أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص٥٠.

(٢) انظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص٢٧٢، وانظر: عبدالله المصلح، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص٣١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٤) سورة النجم، الآيات: ١ –٤.

(٥) الحديث رواه أبو داود في سننه، وأحمد بن حنبل في مسنده، وصححه الألباني. انظر: محمد ناصرالدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، الحديث رقم(٢٦٤٣)، ج١/ ص٥١٦.

(٦) انظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص٢٧٢.

(٧) سورة النمل، الآية: ٨٨.

مرّ السحاب هو كناية واضحة على دوران الأرض حول محورها؛ لأن الغلاف الهوائي للأرض الذي يتحرك فيه السحاب مرتبط بالأرض بواسطة الجاذبية، وحركته منضبطة مع حركة الأرض، وكذلك حركة السحاب فيه، فإذا مرّت الجبال مر السحاب كان في ذلك إشارة ضمنية إلى حركة الأرض[١]، فالآية (تشير إلى دوران الأرض حول محور الشمس؛ لأنَّ الجبال جزء من الأرض).[٢]

ولكن هذا الفهم لا يستقيم مع سياق الآية، فالآية جاءت في سياق أهوال يوم القيامة، قال -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[٣]، فليس في الآية دليل على دوران الأرض.

ولا يفهم من هذا أنَّ الآية أو القرآن ينفي دوران الأرض فإنَّها حقيقة علمية ثابتة، فالإشكال ليس في قضية (دوران الأرض أوكرويتها)، وإنَّما الإشكال يكمن في الاستدلال عليه بهذه الآية وإهمال السياق القرآني، ففي القرآن الكريم أدلة على هذه الحقيقة غير هذه الآية ومن ذلك قوله تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾[٤].

عاشراً: الحذر من تسفيه آراء سلف الأمة من أهل التفسير وغيره[٥]؛ فقد تأخذ النشوة بعض من يتناول التفسير العلمي في القرآن، فيجد من تفاسير السلف ما يتعارض مع ما يذهب إليه، فيدعوه ذلك إلى التشنيع أو التجهيل والتسفيه لمن خالفه من السابقين أو اللاحقين، أو بعبارة أدقّ: لمن لم يقل به أو يتنبه إليه من السابقين -وما كان له أن يقف على المدلول العلمي للآية أو الآيات-، وهذا مرفوض حتى وإن كان التفسير العلمي يتناول حقيقة علمية ثابتة، فإن كان يتناول نظرية علمية -لم ترتقِ إلى أن تكون حقيقة علمية- فإن الأمر في هذه الحالة أشنع.

وهذا لا يعني الجمود والاقتصار على آراء السلف فحسب دون إعمال العقل وتجديد الفكر؛ فالقرآن الكريم خطاب للبشرية في كل عصر، والله -جل جلاله- يفتح على كل جيل بما شاء من فهم كتابه العزيز، ويكشف لهم من علمه الذي لا يحيط به أحد من خلقه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

---

(١) انظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص٢٨٦.

(٢) نت: هارون أحمد محمد: الجبال أسرار وإعجاز، (بحث علمي) منشور على موقع: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تاريخ الدخول (٦-١-٢٠١٣م) على الرابط الآتي:

http://www.eajaz.org/index.php/Scientific-Miracles/Earth-and-Marine-Sciences/345-Mountains

(٣) سورة النمل، الآيتان: ٨٧ -٨٨.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٥.

(٥) انظر: عبدالله المصلح، الإعجاز العلمي في القرآن، ص٣٤.

خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[1]، والمقصد من ذلك مراعاة الأدب مع أهل الفضل من علماء الأمة، والاستنان بقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[2].

ومن أمثلة وصور التفسير العلمي المردود الذي لا يُقبل؛ لمخالفته ما تقدَّم من ضوابط، ما ذهب إليه بعضهم في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾[3] من تفسير ذلك بأنَّه غزو الفضاء والصعود إلى الكواكب، ومنه تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾[4] أنَّه الأقمار الصناعية وغزو الفضاء كذلك، ومنه تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾[5] بأنَّ المقصود استخراج الفحم الحجري، ومنه تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾[6] أنَّها الطائرات الحربيَّة[7]، ومنه تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾[8] بأنَّ المقصود استخراج البترول والغاز والمعادن وغيرها، وكذلك تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾[9] بأنَّه اليوم الذي تظهر فيه الطائرات وقاذفات القنابل، ومنه القول بأنَّ (الميكروبات) نوع من الملائكة، وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾[10]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٣) سورة الرحمن، الآيات: ٣٣-٣٥.

(٤) سورة النمل، الآية: ٨٢.

(٥) سورة الأعلى، الآية: ٤.

(٦) سورة المرسلات، الآيتان: ١-٢.

(٧) انظر: السيد الجميلي، الإعجاز العلمي في القرآن، دار الهلال، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، ص٣٩.

(٨) سورة الزلزلة، الآيتان: ١-٢.

(٩) سورة المعارج، الآية: ٨.

(١٠) سورة الرعد، الآية: ٤١.

﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1] فسَّر بعضهم إنقاص الله للأرض بتفسيرات لا تتلاءم مع السياق القرآني. فكلُّ هذا اجتهادات –بل تخرصات– في التفسير العلمي لا تقبل.[2]

فإذا رُوعيت هذه الضوابط والشروط للتفسير العلمي؛ فإنّه أحرى ألا يقع المفسر فيما وقع فيه كثير من الباحثين المعاصرين، الذين انحرفوا فيه عن الصواب، فوقعوا في أخطاء شنيعة عندما أخلوا بهذه الضوابط، فحاولوا ربط فهومهم للوحي بنظريات وفروض غير صحيحة. فكانت الإساءة من حيث أرادوا الإحسان –غفر الله لنا ولهم–.

***

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٤.

(٢) أبو حجر، التفسير العلمي للقرآن في الميزان، ص٤١٩-٤٤٤.

الفصل الثاني

الدقة والإحكام للمفردات والتراكيب في آيات الطبيعة

- المبحث الأول: عادات القرآن في آيات الطبيعة.

- المبحث الثاني: التكثيف في آيات الطبيعة.

- المبحث الثالث: الصدق الدلالي في آيات الطبيعة.

- المبحث الرابع: اختلاف القراءات في آيات الطبيعة.

الفصل الثاني

الدقة والإحكام للمفردات والتراكيب في آيات الطبيعة

إنَّ الله –سبحانه وتعالى– لم يخلق شيئا في كونه الفسيح عبثاً بلا فائدة، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[1]، كما أنه –سبحانه– لم يجعل في كتابه العزيز لفظاً لغواً لا يؤدي معنىً أو يضيف دلالة، فكل ما في كتابه المسطور وكتابه المنظور جعل لفائدة يقتضيها، وهدف يحققه.

ولمَّا تنزل القرآن الكريم أبهر العرب بدقة ألفاظه وتناسبها مع مقتضى الحال، فلا تجد في لغة العرب كلمة هي أحسن منها في موضعها من كتاب الله، مما أعجزهم وأعجز الخلق جميعاً أن يأتوا بمثله، قال ابن عطية –رحمه الله–: (والصحيح أنَّ الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامّة[2] فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، [و]كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام).[3]

وقد كان البلغاء والفصحاء من أدباء العرب وشعرائهم يتنافسون في تخيّر مفردات كلامهم مما يتناسب مع الغرض الذي يرومونه، كما أن النقّاد كانوا يعيبون على الشاعر أن يأتي بلفظ لا يؤدي غرضاً ويسمون ذلك "حشواً".

وأصل الحشو: أن يكون المقصد من إيراد الكلمة إصلاح الوزن أو تناسب القوافي إن كان الكلام منظوماً، وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان منثوراً، من غير معنى تفيده أكثر من ذلك .. وكل كلمة وقعت هذا الموقع من التأليف فلا تخلو من قسمين:

القسم الأول: ألّا يكون لها أثر في الكلام، بل دخولها فيه كخروجها منه، كقول أبي تمام:

جَذَبْتُ نَداهُ غُدْوَةَ السَّبْتِ جَذْبَةً * فَخَرَّ صَرِيعاً بيْنَ أيْدي القَصَائِدِ**[4]

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٦–١٧.

(٢) الجَمُّ والجمم: الكثير من كل شيء وفي التنزيل ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الفجر، الآية: ٢٠]. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (جمم)، ج١٢/ص١٠٤.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج١/ص٥٢.

(٤) ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج١/ص٢٣٧.

لأن قوله: (غدوة السبت) حشو لا يحتاج إليه ولا تقع فائدة بذكره، وأي فرق بين أن يقع عطاؤه في يوم السبت أو غيره من الأيام، فهذا حشو لا فائدة في ذكره إلا ليصح الوزن، وهو عيب في هذه الصناعة.

والقسم الثاني: أن يكون لها أثر في الكلام. وإذا كانت مؤثرة فهي على ضربين، أحدهما: أن تؤثر في الكلام نقصاً وفي المعنى فساداً. مثاله قول أبي الطيب يمدح كافور:

تَرَعْرَعَ المَلِكُ الأستاذُ مُكْتَهِلاً * قَبلَ اكتِهال أديباً قَبلَ تأديبِ**[١]

لأن قوله: (الأستاذ) بعد الملك نقص له كبير، وبين تسميته له بالملك والأستاذ فرق واضح، فالأستاذ قد وقع هاهنا حشواً ونَقَصَ به المعنى؛ إذ كان الغرض في المدح تفخيم أحوال الممدوح وتعظيم شأنه لا تحقيره وتصغير أمره. وهذا الضرب من الحشو أسوأ من القسم الذي سبق؛ لأنه أضاف معنى فاسداً.

والضرب الثاني: أن تفيد فائدة مختارة يزداد بها الكلام حسناً وطلاوة، وهو محمود؛ لأنه يفيد فائدة مختارة. ومثال الكلمة التي تقع حشواً وتفيد معنىً حسناً قول أبي الطيب:

وتَحْتَقِرُ الدّنْيَا احتِقَارَ مُجَرِّبٍ * يَرَى كلَّ مَا فيهَا –وحاشاكَ– فَانِياً**[٢]

لأنّ **(حاشاك)** ها هنا لفظة دخلت لكمال الوزن، لأنك إذا قلت (احتقار مجرب يرى كل ما فيها فانياً) كان كلاماً صحيحاً مستقيماً، فقد أفادت مع إصلاح الوزن دعاءً حسناً للممدوح في موضعه.[٣]

فالكلمة التي لا تضيف معنى هي في الشعر ضَعف وقصور، وهي في النثر أشد ضَعفاً وقصوراً، ولذا فإنَّه لا يوجد في كتاب الله العزيز كلمة جاءت حشواً بلا فائدة، ومن قال بأن بعض ألفاظ القرآن الكريم جاءت لمجرد مراعاة الفاصلة أو استقامة النظم الموسيقي فحسب فقد جانب الصواب، فكتاب الله بناءٌ محكم كما وصفه الحكيم الخبير بقوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾[٤]، وكلُّ مفردة قرآنية جاءت في موضعها الأنسب والأليق بها ولا تؤدي كلمة أخرى في العربية مؤداها فضلاً عن كونها حشواً.

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرحه وضبطه: علي العسيلي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٣٥١.

(٢) ديوان المتنبي، ص٣٤٧.

(٣) انظر: عبدالله بن محمد ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٤٦ وما بعدها.

(٤) سورة هود، الآية: ١.

وابن جرير الطبري –رحمه الله– في ترجيحه للأقوال في معنى "لا" من قوله تعالى:﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[١] قال: (وإنما قلنا هذا الصواب؛ لِما قد مضى من دلالتنا قبل على أنّه غير جائز أن يكون في كتاب الله شيء لا معنى له، وأن لكل كلمة معنىً صحيحاً، فيتبين بذلك فساد قول من قال: "لا" في الكلام حشو لا معنى لها)[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾﴾[٣] زعم بعضهم[٤] أن الفاصلة القرآنية في هذه الآية ﴿عَضُدٗا﴾ جاءت مراعاة للفواصل التي سبقت والفواصل السابقة (موعدا–أحدا–بدلا)، باعتبار أن الأصل أن يقال: أعضاداً بالجمع، فعدل إلى الإفراد لتتوافق الفواصل، واعتبار أن ذلك مراعاة للفاصلة دون تناسبها مع المعنى فيه مجانبة للصواب، فإن اختيار كلمة ﴿عَضُدٗا﴾ مفردة هو الأليق من جهة الإحكام اللفظي للآية، كما أنها هي الأنسب من جهة الإحكام المعنوي لها، ويتبين ذلك من خلال إنعام النظر[٥] الذي يفضي إلى التدبر الذي لأجله أُنزل القرآن الكريم[٦]، فإن المضلين جميعاً هم من الهوان والعجز في موضع يستغني عنهم المولى سبحانه، فواحدهم في ذلك كشأنهم مجتمعين، كما أن جميعهم كشأن واحدهم، فالله سبحانه مستغنٍ عن خلقه جميعاً، وخلقه مفتقرون إليه جميعاً، فما أشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، ولم يكن أحد من هؤلاء المضلين معيناً له في شيء حتى يتكبر عن عبادته والخضوع له، ابتداءً من سيدهم إبليس إلى أدناهم منزلة وكلهم دني.[٧] فالأصل هو أن يؤتى بالكلام متناسباً مع مقتضى الحال، واختيار كلمة (عضدا) مفردة هو الأصل لمناسبتها للمقام.[٨]

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

(٢) جامع البيان، ج١٠/ ص٨٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥١.

(٤) ممن ذهب إلى ذلك ابن سيده، وقد نقله عنه الزركشي ونصه: (وإنما أفرد ليعدل رؤوس الآي بالإفراد)، انظر: البرهان، ج١/ص٦٤. وقال مثل ذلك ابن منظور في لسان العرب في مادة (عضد)، ج٣/ص٢٩٣.

(٥) قال ابن منظور في اللسان: (أَنْعَمَ النظرَ في الشيء أي: أطال الفكرة فيه). انظر: مادة (نعم) ج١٢/ ص٥٨٦. وقال في مادة: (معن): (أمعنتم في كذا بالغتم). ج١٣/ ص٤٠٩.

(٦) لقوله تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩].

(٧) قال الزمخشري في هذه الآية: (﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ بمعنى: وما كنت متخذهم عضداً أي: أعواناً فوضع المضلين موضع الضمير ذماً لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟). انظر: محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل عبدالجواد وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج٣/ص٥٩٢.

(٨) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ص٥٤٤.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[١] قال الفراء-رحمه الله-: وإنما ثنَّاهما هنا لأجل الفاصلة؛ رعاية للتي بعدها على هذا الوزن، والقوافي تحتمل في الزيادة والنقصان ما لا يحتمله سائر الكلام.[٢] فأنكر عليه ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦هـ) -رحمه الله- وقال: (وهذا من أعجب ما حُمل عليه كتاب الله. ونحن نعوذ بالله من أن نتعسَّف هذا التعسُّف، ونجيزَ على الله -جلَّ ثناؤه- الزيادة والنقص في الكلام لرأس آية. وإنما يجوز في رؤوس الآي: أن يزيد هاءً للسكت.. أو ألفا.. أو يحذف همزةً من الحرف... لأنَّ هذا لا يزيل معنىً عن جهته، ولا يزيد ولا ينقص. فأمَّا أن يكون الله وعد جنتين فنجعلهما جنة واحدة من أجل رؤوس الآي فمعاذ الله! وكيف يكون هذا: وهو -تبارك اسمه- يصفهما بصفات الاثنين، قال: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾[٣].. ولو أن قائلاً قال في خزنة النار: إنهم عشرون، وإنَّما جعلهم تسعة عشر لرأس الآية[٤]... ما كان هذا القول إلا [كقول] الفراء!).[٥]

وهذا الفصل يحاول الكشف عن الدقة والإحكام وحسن الانتقاء للفظ القرآني في آيات الطبيعة، والذي يُسهم في الكشف عن الإعجاز البياني فيها، وذلك من خلال المباحث الآتية..

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) أورده الزركشي بهذا النص في البرهان، انظر: ج١/ ص٦٥. ونص كلام الفراء: (وقوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ذكر المفسرون: أنهما بستانان من بساتين الجنة، وقد يكون في العربية: جنة تثنيها العرب في أشعارها... وذلك أن الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان، فيحتمل ما لا يحتمله الكلام). انظر: معاني القرآن، ج٣/ ص١١٨.

(٣) سورة الرحمن، الآيات: ٤٨-٥٠.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة المدثر، الآيات: ٢٦-٣٠].

(٥) عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تفسير غريب القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ب ط، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٤٤٠-٤٤١.

• المبحث الأول: عادات القرآن في آيات الطبيعة.

إنَّ للقرآن الكريم عادات في نظمه وكَلِمِه عرفها المفسرون وأشاروا إليها، ومن ذلك قول بعض المفسرين: (كل كأس في القرآن فالمراد بها الخمر)[١]، ومن عادات القرآن كذلك ما حكاه الجاحظ –رحمه الله– في قوله: (في القرآن معانٍ لا تكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس).[٢] ومما لا يكاد يفترق في القرآن النفع والضر، والسماء والأرض، ومنها أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبه ببشارة.[٣]

ومن عادات القرآن في أساليبه أن يخبر عن اليوم الآخر بالفعل الماضي، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾[٥] قال الزمخشري: (جيءَ به ماضياً على عادة الله في أخباره)[٦].

يمكن القول أن عادات القرآن هي خصوصيات القرآن الكريم في استعمال الألفاظ مما يدل على أن التعبير القرآني بهذه الصورة مقصود ولم يأتِ عرضاً، وقد دل على ذلك التزامه بهذا في أغلب المواضع.

ومن عادات القرآن في آيات الطبيعة ما يأتي:

▪ أولاً: عادات القرآن في اختيار كلمة دون مرادفها:

مما يميز اللغة العربية –لغة القرآن– أنها لغة غنيّة بالمفردات والتراكيب، فالمعنى الواحد يُعبر عنه بأكثر من لفظ وبأساليب وتراكيب متعددة، ومع هذا التنوع في التعبير عن المعنى الواحد

(١) رواه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم –رحمه الله–. انظر: جامع البيان، ج١٩/ ص٥٣١. وأورده ابن عاشور في تفسيره، ونسبه لابن عباس –رضي الله عنهما–. انظر: محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ب ط، ١٩٨٤م، ج١/ ص١٢٤.

(٢) انظر: عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ب ط، ب ت، ج١/ ص٢١.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١/ص١٢٤.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١.

(٥) سورة الصافات، الآيات: ٥٠–٥٦.

(٦) الزمخشري، الكشاف، ج٥/ ص٢١١.

إلا أنَّ هناك فروقاً بين كل منها، وفي ذلك ألّف أبو هلال العسكري (المتوفى بعد سنة ٣٩٥هـ) – رحمه الله– كتابه الشهير: "الفروق اللغوية".

والترادف: هو (أن يدلّ لفظان مفردان فأكثر دلالة حقيقية، أصيلة، مستقلة، على معنى واحد، باعتبار واحد، وفي بيئة لغوية واحدة)[١]، وظاهرة الترادف في اللغة بصفة عامة، وفي القرآن بصفة خاصة هي من مسائل الخلاف عند علماء اللغة وعلماء التفسير، فقد ذهب بعض العلماء إلى القول بأنه لا ترادف في اللغة، وبعضهم ذهب إلى نفي الترادف في القرآن مع وجوده في اللغة.

ولعل من أوائل من تطرق لهذه الظاهرة سيبويه–رحمه الله– إذ قال: (اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ... فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلس وذهب. واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذهب وانطلق. واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة. وأشباه هذا كثير)[٢]، وعبارة سيبويه هذه أشارت إلى أكثر من ظاهرة لغوية، من المتباين، والمترادف، والمشترك اللفظي[٣].

ورأى أبو هلال العسكري–رحمه الله– نفي الترادف في اللغة وعلى ذلك بنى كتابه: (الفروق في اللغة)، قال: (كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغةٍ واحدةٍ فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني فَضْلاً لا يُحتاجُ إليه).[٤]

وذهب ابن تيمية –رحمه الله– إلى القول: (إنَّ الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر، وإما معدوم، وقلّ أن يعبَّر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه)، ورأى أن ذلك من إعجاز القرآن فقال بعد ذلك: (وهذا من أسباب إعجاز القرآن).[٥]

وممن نفى الترادف في القرآن الكريم الإمام الراغب الأصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٢هـ) – رحمه الله– وقد عزم على تأليف كتاب يبين فيه الفروق الغامضة بين الألفاظ المترادفة، فقال في مقدمة كتابه المفردات: (وأُتبع هذا الكتاب –إن شاء الله تعالى ونسأ في الأجل– بكتاب يُنبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، وما بينها من الفروق الغامضة، فبذلك يعرف

---

(١) محمد نورالدين المنجد، الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق–سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٣٥.

(٢) سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ب ت، ج١/ ص٢٤.

(٣) انظر: المنجد، الترادف في القرآن الكريم، ص٣٠.

(٤) أبوهلال الحسن بن عبدالله العسكري، الفروق في اللغة، تحقيق: جمال عبدالغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص١٢.

(٥) مقدمة في أصول التفسير، ص٥١.

اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته، نحو ذكره القلب مرة، والفؤاد مرة، والصدر مرة).[١]

وقد يطلق الترادف بمعنى التقارب، ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[٢]، فكلمة (ردف لكم) بمعنى: اقترب ودنا.[٣] فقد يطلق على المتقارب أنه مترادف، مثل جلس وقعد، فهما متقاربان، والفرق أنَّه يقال لمن كان قائماً: اقعد، ولمن كان نائماً أو ساجداً: اجلس، حُكي ذلك عن الخليل بن أحمد، وقال أبو عبدالله بن خالويه-رحمه الله-: دخلت يوماً على سيف الدولة بن حمدان، فلمَّا مَثَلْتُ بين يديه قال لي: اقعد، ولم يقل: اجلس، فتبيَّنت بذلك اعتلاقَه بأهداب الأدب، واطِّلاعه على أسرار كلام العرب.[٤]

وقد يطلق على صفات الشيء المتعددة أنها مترادفات، روي أنه حضر جماعة من أهل اللغة بمجلس سيف الدولة بحلب، وفيهم ابن خالويه، فقال: أحفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسم أبو علي الفارسي، وقال: ما أحفظ له إلا اسماً واحداً، وهو السيف، قال ابن خالويه: فأين المهند، والصارم، وكذا وكذا؟ فقال أبو علي: هذه صفات.[٥]

➢ إنَّ من عادات القرآن في آيات الطبيعة: استعمال لفظ (الغيث) في الماء النازل من السماء إذا كان في معنى الرحمة، أما إذا جاء في معنى العذاب فإنه يستعمل لفظ (المطر)، روى البخاري -رحمه الله- عن سفيان بن عيينه -رحمه الله-أنه قال: (ما سمى الله مطراً في القرآن إلا عذاباً، وتسميه العرب الغيث)[٦]، ولعل هذا خاص بالقرآن الكريم، فإن العرب في كلامهم يستعملون (المطر) في الموضعين، وقد يكون على سبيل التقريب، وقد أشار ابن منظور إلى فرق لطيف بين المفردتين فقال في الغيث: (المطر والكَلأُ؛ وقيل: الأَصلُ المطر، ثم سُمِّي ما يَنْبُتُ به غَيْثاً).[٧] وقال في المطر: (الماء المنسكب من السَّحابِ)[٨]، فيفهم من ذلك أن الماء النازل من السماء إذا

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ب ط، ب ت، ص٦.

(٢) سورة النمل، الآية: ٧٢.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج١٨/ ص١١٣.

(٤) القاسم بن علي الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١١٩-١٢٠.

(٥) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى بك وآخرين، دار التراث، القاهرة-مصر، الطبعة الثالثة، ب ت، ج١/ ص٤٠٥.

(٦) انظر: صحيح البخاري، كتاب٦٥: التفسير- سورة الأنفال، باب٣: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، بعد الحيث رقم: (٤٦٤٧)، ج٣/ ص٢٣٢.

(٧) لسان العرب، مادة (غيث)، ج٢/ ص١٧٥.

(٨) المرجع نفسه، مادة (مطر)، ج٥/ ص١٧٨.

أُنبت به سمي غيثاً. وقيل: لا يقال أُمْطِرَ إلاّ في العَذاب[1]. وقال الراغب الأصفهاني: (قيل: إنَّ مَطَرَ يقال في الخير، وأمْطَر في العذاب)[2].

وقد جاءت مادة (غيث) في ستة مواضع من كتاب الله[3]، ثلاثة مواضع باسم الغيث، اثنان منهما في معنى الرحمة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾[5]، أما الثالث ففي قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾[6]، فاستعمل الغيث؛ لأنَّ الماء الذي نزل من السماء أنبت، وهو وإن كان في ذم الدنيا وأنها متاع زائل، فإنَّه تشبيه لحال ابتهاج الناس بها فناسب ذلك لفظ الغيث، لذا قال بعده: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ والمقصود بالكفَّار هنا: الزرَّاع، لأن الكفر الستر والتغطية، وهم يسترون البذر في الأرض[7].

وجاء بصيغة الفعل في ثلاثة مواضع كذلك، منها قوله تعالى حكاية عن يوسف –عليه السلام– في تأويله لرؤيا الملك: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾[9]، وإن كان المقصود بها هنا الاستغاثة أي: طلب الغوث، فإنَّه جعل من ضمن الغوث الذي أمدهم به أن أنزل عليهم ماء يطهرهم به ويثبت به الأقدام فقال بعدها: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[10]، والموضع الأخير قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (مطر)، ج٢/ ص٥١٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة (مطر)، ص٤٧٠.

(٣) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، مادة (غيث)، ص٥٠٧.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٨.

(٥) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٦) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٧) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٥/ ص٢٦٧.

(٨) سورة يوسف، الآية: ٤٩.

(٩) سورة الأنفال، الآية: ٩.

(١٠) سورة الأنفال، الآية: ١١.

فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾[1]، قال الراغب الأصفهاني: يستغيثوا (يصحُّ أن يكون من الغيث ويصحُّ أن يكون بمعنى الغوث، وكذا يغاثوا يصحُّ فيه المعنيان)[2]، وإن كانت الآية في معنى العذاب فإنَّه هنا يحكي حالهم وهم يطلبون الرحمة.

أما مادة (مطر) فقد جاءت في تسعة مواضع[3]، وجميعها جاءت في معنى العذاب أو الأذى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَاۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[9]، أما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾[10] فإنهم وإن أرادوا الغيث إلا أن الآية في معنى العذاب.

بقي موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[11]، والآية ليست في معنى العذاب ولكنها في معنى الأذى وهذا بيّن صرحت به الآية.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة (غوث)، ص٣٦٧.

(٣) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، مادة (مطر)، ص٦٦٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٨٤.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

(٦) سورة هود، الآية: ٨٢.

(٧) سورة الحجر، الآية: ٧٤.

(٨) سورة الفرقان، الآية: ٤٠.

(٩) سورة الشعراء، الآية: ١٧٣، وأيضاً سورة النمل، الآية: ٥٨.

(١٠) سورة الأحقاف، الآية: ٢٤.

(١١) سورة النساء، الآية: ١٠٢.

قال الجاحظ –رحمه الله–: (وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحقُّ بذلك منها .. وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث).[1]

▪ ثانياً: عادات القرآن في إفراد الكلمة وجمعها:

➢ من عادات القرآن في آيات الطبيعة: استخدام (الريح) بصيغة المفرد في معنى العذاب والنقمة، فإذا جاءت بصيغة الجمع(الرياح) فإنها تأتي في معنى الرحمة والنعمة، روي عن أُبَيّ بن كعب –رضي الله عنه– أنَّه قال: (كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمةٌ، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب)[2].

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنَّه قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا هاجت ريحٌ استقبلها بوجهِهِ، وجثا على ركبَتَيْهِ، ومدَّ يدَيه، وقال: (اللهمَّ إنِّي أسألُك من خيرِ هذه الريحِ، وخير ما أُرسلتْ به، وأعوذُ بكَ من شرِّها وشرِّ ما أُرسلتْ به، اللهمَّ اجعلها رحمةً، ولا تجعلها عذاباً، **اللهمَّ اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً**)[3].

ولعل من حكمة ذلك: أنَّ التعبير عنها بصيغة الجمع يفهم منه تعدد مهابها واختلاف صفاتها وتنوع منافعها، فإذا هاجت الريح واندفعت من جهة قابلتها ريح معاكسة لها فكسرت سورتها وبأسها، فينشأ من بينهما ريح طيبة ينفع الله به البلاد والعباد، فمن ذلك جاءت بصيغة الجمع في مواضع الرحمة، أما إذا أفردت فيفهم منه أنَّها تهبُّ من وجهة واحدة مندفعة لا معارض لها ولا دافع، فتأتي دفعة واحدة قوية لا فترة بين هبَاتها.[4]

وقد جاءت (الرياح–والريح) في القرآن الكريم في تسعةٍ وعشرين موضعاً[5]، جاءت بصيغة الجمع في عشرة مواضع جلُّها في معنى الرحمة والامتنان، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) البيان والتبيين، ج١/ ص٢٠.

(٢) وهذا الحكم غير مطّرد فقد جاءت مفردة في غير العذاب وسيأتي بيانه، والأثر أورده السيوطي في الاتقان عن ابن أبي حاتم، انظر: ج٤/ ص١٢٩٥. وقال المحقق له: (أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره لسورة البقرة، وفي إسناده إسحاق بن محمد المسيبي ضعيف، كما في التهذيب لابن حجر، وكذا في الإسناد مبهمان لم يسميا، ورجاله بين ثقة وصدوق). انظر: الحاشية رقم (١) من كتاب الاتقان للسيوطي، ج٤/ ص٩٩٦.

(٣) رواه الطبراني في الكبير، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (فيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح). وأورده السيوطي في الجامع الصغير، وقال: حديث حسن، وضَعَّفَهُ الألباني وقال: ضعيف جداً. انظر: محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، الحديث رقم (٤٤٦١)، ص٦٤٦.

(٤) انظر: الزركشي، البرهان، ج٤/ ص١٠. وانظر: السيوطي، الاتقان، ج٤/ ص١٢٩٥.

(٥) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (روح)، ص٣٢٦.

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾[9]، وهذه المواضع التسعة التي جاءت فيها الرياح بصيغة الجمع كلها تحمل معنى الرحمة والمنة من المولى –جل جلاله–.

بقي الموضع العاشر مما جاءت فيه الرياح بصيغة الجمع وقد جاء في موضع لا يحمل معنى الرحمة أو العذاب وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[10]، فهذا تشبيه لحال الحياة الدنيا وسرعة زوالها وهوانها، بحال الزرع عندما يصبح هشيما، وناسب الجمع في هذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.

(٥) سورة النمل، الآية: ٦٣.

(٦) سورة الروم، الآية: ٤٦.

(٧) سورة الروم، الآية: ٤٨.

(٨) سورة فاطر، الآية: ٩.

(٩) سورة الجاثية، الآية: ٥.

(١٠) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

الموضع دون المفرد لأن الرياح تتعدد مهابها فتُقلِّب الهشيمَ، وهذا أنسب في تصوير هوان أمره حيث تغدو به الريح يمنة ويسرة، كما قال المتنبي:

كَريشَةٍ فِي مَهبِّ الرِّيحِ سَاقِطَةٍ * لا تَسْتَقِرُّ على حَالٍ مِن القَلَقِ**(١)

وجاءت (الريح) بصيغة المفرد في تسعةَ عشرَ موضعاً، وأغلبها جاء في معنى الوعيد أو العذاب ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾(٧)، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾(٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾(٩)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾(١٠)، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾(١١)، وفي جميع هذه المواضع معنى الوعيد والعذاب واضح بيّن، أمّا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ

---

(١) ديوان المتنبي، ص١٨٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٦٩.

(٥) سورة الحج، الآية: ٣١.

(٦) سورة الروم، الآية: ٥١.

(٧) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٨) سورة الأحقاف، الآية: ٢٤.

(٩) سورة الذاريات، الآية: ٤١.

(١٠) سورة القمر، الآية: ١٩.

(١١) سورة الحاقة، الآيتان: ٦-٧.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾[1]، فهي وإن كانت في معنى الامتنان على المؤمنين فإنَّها كانت عذاباً على الأحزاب المشركين، فاقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم حتى انقلبوا خائبين.

وقد خرج عن قاعدة: (أنَّ إفراد الريح يأتي في معنى العذاب) قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾[2].

وقد ذُكر في توجيه ذلك أنَّه من جانبين: لفظي ومعنوي؛ فمن الجانب اللفظي: أنَّ قوله: (بريح طيبة) فيها مقابلة لِما بعدها من قوله: (ريح عاصف) فقابل الإفراد الإفراد، وخصص الأولى بوصفها أنها طيبة، وخصص الثانية بوصف (عاصف)، وبهذا خرج إيهام الاشتراك بين الريح المحمودة والمكروهة، أما الجانب المعنوي: فهو أنَّ من تمام الرحمة في هذا الموضع أن تكون ريحاً واحدة، فإذا اختلفت الرياح على الفلك غرق، وكان سبباً في هلاك مَن فيه، فلم تجمع الريح هنا مع أنها في معنى الرحمة والامتنان؛ لأن هذا الموضع مما لا يحمد فيه تعدد المهاب.[3]

ومن اللطائف ودقة الإحكام للمفردة في القرآن الكريم في هذه الآية: أنَّ كلمة (الريح) مما يجوز تذكيرها ويجوز تأنيثها[4]، وقد جاءت في هذه الآية مرة مؤنثة وأخرى مذكرة، يدل على ذلك

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٣) انظر: الزركشي، البرهان، ج٤/ ص١١. وانظر: السيوطي، الاتقان، ج٤/ ص١٢٩٥. وانظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٢/ ص٤١٢. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، القسم الثاني من ج٨/ ص١٧٩.

(٤) وُصِفت الريح في كتاب الله بوصف مذكر في موضع ومؤنث في آخر، مع أن الوصف واحد فقال تعالى: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾؛ سئل عنها المبرد (المتوفى سنة٢٨٦هـ) –رحمه الله– فقال: (كل ما ورد من هذا الباب فلك أن ترده إلى اللفظ تذكيراً، ولك أن ترده إلى المعنى تأنيثاً؛ وهذا من قاعدة أن اسم الجنس تأنيثه غير حقيقي، فتارة يُلْحَظُ معنى الجنس فيُذَكَّر، وتارة يُلْحَظُ معنى الجماعة فيؤنَّث). أورده الزركشي في البرهان. انظر: ج٣/ ص٣٦٨. وفي كتاب المبرد كلام قريب مما نقله الزركشي. انظر: محمد بن يزيد المبرد، المذكر والمؤنث، تحقيق: رمضان عبدالتواب وصلاح الدين الهادي، دار الكتب، بدون مكان النشر، ١٩٧٠م، ص٨٦ و ص١١١.

وقال أبو بكر بن الأنباري (المتوفى سنة ٣٢٨هـ)–رحمه الله–: (الريح على وجهين: الريح من الرياح المؤنثة، والريح: الأَرَج والنشر، وهما حركتا الريح مذكر). انظر: محمد بن القاسم الأنباري، المذكر والمؤنث، تحقيق: محمد عبدالخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث بوزارة الأوقاف المصرية، القاهرة–مصر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج١/ص٢٥٦.

وقال ابن جني (المتوفى سنة ٣٩٢هـ)–رحمه الله–: (الريح: مؤنثة، وكذلك جميع أسمائها نحو: الجنوب، والشمال). انظر: عثمان بن جني، المذكر والمؤنث، تحقيق: طارق نجم عبدالله، دار البيان العربي، جدة– السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٦٩.

وقال ابن سيده (المتوفى سنة ٤٥٨هـ)–رحمه الله–: (الريح: نسيم الهواء أنثى، والجمع: أرواح... وأرياح... والكثير رياح). انظر: علي بن إسماعيل الأندلسي (ابن سيده)، المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ب ط، ب ت، ج٩/ص٨٣.

الوصف؛ ففي الأولى وصف مؤنث (طيبة)، وفي الثانية وصف مذكر (عاصف)؛ فلعل ذلك لأن المراد بالأولى الرحمة فناسبها التأنيث، والمراد بالثانية العذاب فناسبه التذكير. وروى البخاري – رحمه الله– في الأدب المفرد عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (الريحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، تأتِي بالرَّحْمَةِ والعذابِ، فلا تسبُّوها، ولكن سلُوا اللهَ من خيرَها، وتعوذوا باللهِ مِنْ شرِّهَا).[1] أمَّا قوله تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[2]، فقيل: تحمل على ما حملت عليه الآية السابقة من الجانب المعنوي، وقيل: إنَّها على القاعدة؛ لأن سكون الريح يُعدّ عذاباً على أهل السفن فيظللن رواكد على ظهره.[3]

وفي تسخير الريح لسليمان ذكرت مفردة في جميع مواضعها قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾[6]، ذلك أن تسخير الريح العاتية فيه دلالةٌ على قدرة الله –جل جلاله– فإنه سبحانه لا يعجزه شيء، كما فيه امتنان على نبيه سليمان–عليه السلام–، (وهي تجري بأمره أو تعصف

---

(١) انظر: محمد بن اسماعيل البخاري، الأدب المفرد، اعتنى به: حبيب محمد طه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، باب٢٩٨: لا تسبوا الريح، الحديث رقم (٧٤١)، ص١٥٥. وصحَّحه الألباني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، دار الصديق، الجبيل– السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، الحديث رقم (٥٥٥/ ٧٢٠)، ص٢٦٧. وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته، الحديث رقم (٣٥٦٤)، ج١/ ص٦٦٦.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٣.

(٣) نقله السيوطي عن ابن المنير(المتوفى سنة ٦٨٣هـ)–رحمه الله– ، غير أن كلام ابن المنير المالكي لا يحمل المعنى الذي أراده السيوطي –رحمه الله– ونصُّ كلام ابن المنير: (وهم يقولون: إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذاباً، بخلاف الرياح. وهذه الآية تخرم الإطلاق، فإن الريح المذكورة هنا نعمة ورحمة؛ إذ بواسطتها يسير الله السفن في البحر، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه، أما اطراده فلا) انظر: أحمد بن المنير الإسكندري المالكي، الانتصاف من الكشاف، المذيل في حاشية الكشاف للزمخشري، ج٥/ ٤١٤. بينما قال السيوطي: قال ابن المنير: (إنه على القاعدة؛ لأن سكون الريح عذابٌ وشدةٌ على أصحاب السفن). انظر: الاتقان، ج٤/ ص١٢٩٦. ويبدو لي أن السيوطي نقله من الزركشي دون الرجوع لكتاب ابن المنير مما أحدث هذا الاختلاف. انظر: البرهان، ج٤/ ص١١.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٨١.

(٥) سورة سبأ، الآية: ١٢.

(٦) سورة ص، الآية: ٣٦.

في حقوله وهي متصلة)[١].كما أنَّ استعمال (الريح) مفردة مع سليمان-عليه السلام-؛ لأن الله سخّرها لسليمان يتصرف بها كيف يشاء، فيأمرها بنفع من يشاء، والإضرار بمن يشاء.[٢]

بقي موضعان جاءت فيهما الريح مفردة، ولكنّهما على معنى لا علاقة له بهذا المبحث، الأول قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾[٣]، وريح يوسف هنا بمعنى: رائحة يوسف. قال القرطبي (المتوفى سنة ٦٧١هـ)-رحمه الله-: (﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ أي: أشمُّ؛ فهو وجود بحاسة الشمّ)[٤]. والموضع الآخر قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[٥]، قال ابن جرير -رحمه الله-: المراد به في هذا الموضع: (وتذهب قوتكم وبأسكم فتَضْعُفوا، ويدخلكم الوهن والخلل)[٦].

- ومن عادات القرآن في آيات الطبيعة: أنَّه حيث جاء ذكر الأرض في القرآن الكريم فإنها تأتي مفردة، ولم تأت بصيغة الجمع، قال الجاحظ-رحمه الله-: (ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنَّه .. إذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض على أرضين .. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون[٧] من الألفاظ ما هو أحقُّ بالذكر وأولى بالاستعمال).[٨]

ولمَّا أراد الجمع عدل عن ذلك إلى ما يدلّ على الجمع دون لفظ الجمع، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ﴿١٢﴾﴾[٩]، فجمع السماء على سماوات، ولم يجمع الأرض، وهذا من عادات القرآن وخصوصيات استعماله للألفاظ، وإلا فإنه يصح جمع أرض على أراضين كما في الحديث الصحيح

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٢/ ص٤١٢.

(٢) تنسب بعض المواقع المهتمة بالبلاغة القرآنية هذا التوجيه للدكتور فاضل السامرائي، ولم يعثر الباحث عليها في كتبه المتوفرة لديه. وانظر: أحمد عبدالعزيز السكندري: الفرق بين كلمة ريح ورياح في القرآن الكريم، مقال منشور على موقع ملتقى أهل التفسير، تاريخ الدخول: (٣١-١٢-٢٠١٤م) على الرابط الآتي:

http://vb.tafsir.net/tafsir40657/#.VKRVsNKsVe8

(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٤.

(٤) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج٩/ ص١٧٠.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٦) جامع البيان، ج١١/ ص٢١٤.

(٧) لعلها: (لا ينتقون)، ولكن أُبقيت كما هي؛ لأنَّها هكذا في تحقيق عبدالسلام هارون.

(٨) البيان والتبيين، ج١/ ص٢٠.

(٩) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (مَن ظَلَمَ قِيدَ شبرٍ مِن الأرضِ طُوِّقَه مِن سبعِ أَرَضِينَ).[(١)]

قال الزركشي (المتوفى سنة ٧٩٤هـ) –رحمه الله– في ذلك: وحكمة ذكر الأرض مفردة أنها بمنزلة السُّفل والتحت، ولكن وصف بها هذا المكان المحسوس.. فلا معنى لجمعها كما لا يجمع الفوق والتحت، والعلو والسفل؛ فإن قُصِدت الأرض الموطوءة وعُينت قطعة محدودة منها خرجت عن معنى السفل الذي هو في مقابلة العلو، فجاز أن تثنى إذا ضُمَّ إليها جزء آخر. ومنه قوله –صلى الله عليه وسلم–: (طوقه من سبع أرضين) .. كما أن الأرض لا نسبة لها مقابل السماوات وسعتها.[(٢)]

وقيل في توجيه ذلك أنَّه من جانبين: **جانب لفظي**؛ فلا يخفى ما في كلمة (أرضون، أو أرضين) من ثقل، لذا عدل عنه في الآية، و(لو جمعوا أرضاً على قياس جموع التكسير، لقالوا: آرُض كأفلُس، أو آرَاض كأجمال، أو أُرُوض كفلوس، فاستثقلوا هذا اللفظ؛ إذ ليس فيه من الفصاحة والحسن والعذوبة ما في لفظ السماوات، وأنت تجد السمع ينبو عنه بقدر ما يستحسن لفظ السماوات، ولفظ السماوات يلج في السمع بغير استئذان لنصاعته وعذوبته، ولفظ الآراضي لا يأذن له السمع إلا على كره)[(٣)]، **وجانب آخر معنوي**؛ هو أن الأرض دار الدنيا الفانية، ولم يذكر الله الدنيا إلا مقللا لها ومحقراً من شأنها، والدنيا بالنسبة للآخرة كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (واللهِ! ما الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا مِثْلُ ما يَجعلُ أحدكُمْ إصبعَهُ هذهِ في اليمّ. فلينظرْ بِمَ يَرجِعُ؟)[(٤)]، ولعله لذلك لم تجمع كلمة الأرض في القرآن الكريم، فالجمع فيه معنى من التعظيم.[(٥)]

➢ ومن ذلك جمع السماوات في مواضع وإفرادها في مواضعَ أُخر، و(السماوات) بالجمع جاءت في مائة وتسعين موضعاً، و(السماء) بالإفراد جاءت في مائة وعشرين موضعاً[(٦)]، ومَردُّ ذلك إلى أنَّه إذا أريد الوصف المطلق للسماء من العلو والارتفاع أو الجهة، فإن التعبير القرآني

---

(١) رواه البخاري ومسلم، انظر: صحيح البخاري، كتاب٤٦: المظالم والغصب، باب ١٣: إثم من ظلم شيئاً من الأرض، الحديث رقم (٢٤٥٣)، ج٢/ ص١٩٣. وانظر: صحيح مسلم، كتاب٢٢: (المساقاة)، باب٣٠: (تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها)، الحديث رقم: (١٦١٢)، ج٣/ ص١٢٣٢.

(٢) البرهان، ج٤/ ص٦.

(٣) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق: علي العمران، إشراف: الشيخ بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة– السعودية، ب ط، ب ت، ج١/ ٢٠٠.

(٤) رواه مسلم عن المستورد بن شداد الفهري، انظر: صحيح مسلم، كتاب٥١: (الجنة وصفة نعيمها وأهلها)، باب١٤: (فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة)، الحديث رقم: (٢٨٥٨)، ج٤/ ص٢١٩٣.

(٥) انظر: عبدالفتاح لاشين، صفاء الكلمة من أسرار التعبير في القرآن، دار المريخ، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٢٢.

(٦) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (سمو)، ص٣٦٢–٣٦٦.

يأتي بها مفردة (السماء)، وإذا كان المراد ذوات السماوات بأعدادها وبمن فيها جاءت بالجمع.[1] لذا قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[2]، وكذلك قوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾[3]،

فالمراد في هذه المواضع السماوات بذواتها كما دلَّ على ذلك العدد، وفي التسبيح جاءت السماوات مجموعة لأن المقصود السموات بذواتها وبمن في كل واحدة منها، وذلك كقوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[5]، بينما في الإخبار عن نزول الماء يأتي ذكر السماء مفردة لأن المراد الجهة ووصف العلو وليست السماء بذاتها، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾[7]، وهو كذلك في جميع الآيات التي أخبرت عن إنزال الماء من السماء[8].

قال الزركشي –رحمه الله–: (وإذا أُريد الوصف الشامل للسموات وهو معنى العلو والفوق أفردته كالأرض، بدليل قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم

(١) انظر: عبدالفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص١٢٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦.

(٤) الآية: ١، من سورة الحديد والحشر والصف.

(٥) الآية: ١، من سورة الجمعة والتغابن.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.

(٧) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٨) من ذلك الآية: ٢٢ من سورة البقرة، والآية: ١١ من سورة الأنفال، والآية: ٣٢ من سورة إبراهيم، والآية: ٢٢ من سورة الحجر، والآيتان: ١٠و٦٥ من سورة النحل، والآية: ٥٣ من سورة طه، والآية: ٦٣ من سورة الحج، والآية: ١٨ من سورة المؤمنون، والآية: ٤٨ من سورة الفرقان، والآية: ٦٠ من سورة النمل، والآية: ٦٣ من سورة العنكبوت، والآية: ٢٤ من سورة الروم، والآية: ١٠ من سورة لقمان، والآية: ٢٧ من سورة فاطر، والآية: ٢١ من سورة الزمر، والآية: ١١ من سورة الزخرف، والآية: ٩ من سورة ق، وفي كل هذه المواضع أخبر عن إنزال الماء من السماء بإفراد السماء.

﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾[1]، فأفرد هنا لمَّا كان المراد الوصف الشامل، وليس المراد سماء معينة)[2].

و(السماء) مفردةً تستعمل في القرآن الكريم على معنيين، **الأول:** أن يراد منها واحدة السماوات، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾[3]، **والمعنى الثاني:** أن تطلق السماء ويراد منها كل ما علا فتشمل السماوات السبع، والسحاب، والجو، والغيث كقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾[4]، أي: يرسل الغيث عليكم مدراراً[5]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾[6]، أي: فليمدد بحبل إلى السقف[7]. وبهذا فإن (السماء) أشمل وأعم من (السماوات)؛ لأنه إذا كانت (السماء) بمعنى كل ما علاك شملت السماوات وكل ما علا وارتفع، لذا فإن التعبير القرآني استعمل (السماء) مفردةً في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤﴾[8]، واستعملها مجموعة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾[9]؛ لأنَّه لمَّا كان القول أعمّ وأشمل من السر استعمل السماء مفردة؛ فهي أعمّ وأشمل من السماوات.[10]

➢ ومن عادات القرآن الكريم في الجمع والإفراد في آيات الطبيعة: أنَّه عند اقتران الظلمات والنور تأتي الظلمات بصيغة الجمع أما النور فإنه يأتي مفرداً، وذلك كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾[11]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ

(١) سورة الملك، الآيتان: ١٦-١٧.

(٢) البرهان، ج٤/ ص٧.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٤) سورة هود، الآية: ٥٢.

(٥) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١٢/ ص٤٤٤.

(٦) سورة الحج، الآية: ١٥.

(٧) انظر: المرجع نفسه، ج١٦/ ص٤٧٨.

(٨) سورة الأنبياء، الآية: ٤.

(٩) سورة الفرقان، الآية: ٦.

(١٠) انظر: فاضل بن صالح السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، عمان-الأردن، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٤٣.

(١١) سورة الأنعام، الآية: ١.

يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾[2]، والظلمات والنور في هذه الآيات يجوز أن تكون بمعناها الحقيقي، أي: الظلمات والنور في الكون، ويجوز أن يراد منها المعنى المجازي، أي: الهداية والضَّلال، أو الكفر والإيمان[3]، ويشهد للمعنى المجازي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[4].

وإذا كان النور هو الحق، والظلمات هي الباطل، فإنَّ في ذلك دلالة على أنَّ طريق الحق واحد، أما طريق الباطل فهو متعدد ومتشعب. ومن لطيف التعبير القرآني أنه في آية سورة البقرة وَحدَّ ولي المؤمنين فقال: (الله ولي الذين آمنوا)، عندما أفرد النور، وجمع أولياء الكافرين، عندما جمع الظلمات، فقال: (والذين كفروا أولياؤهم) ولم يقل: والذين كفروا وليهم الطاغوت، مع أنَّ لفظ الطاغوت مفرد؛ لتعدد أوليائهم.[5] قال الفخر الرازي: (لقائل أن يقول: لمَ ذكر الظلمات بصيغة الجمع، والنور بصيغة الواحد؟ فنقول: أمَّا من حمل الظلمات على الكفر والنور على الإيمان، فكلامه ههنا ظاهر، لأن الحق واحد والباطل كثير، وأما من حملها على الكيفية المحسوسة، فالجواب: أن النور عبارة عن تلك الكيفية الكاملة القوية، ثم إنها تقبل التناقض[6] قليلاً قليلاً. وتلك مراتب كثيرة. فلهذا السبب عبر عن الظلمات بصيغة الجمع).[7]

➢ ومن لطيف الجمع في آيات الطبيعة وحكمة الاختيار له بما يناسب المعنى ما يُرى في جمع سنبلة على سنبلات وسنابل، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٢) سورة فاطر، الآيتان: ١٩-٢٠.

(٣) انظر: محمد بن عمر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ج١٢/ ص١٥٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٥) الزركشي، البرهان، ج٤/ ص١٢.

(٦) أظنّ أنَّ الصحيح: (ثم إنَّها تقبل التناقص) بالصاد، وأنَّ ذلك تصحيف، ومما يؤيد ذلك أنه قال قبل ذلك: (أنَّ الظلمة عبارة عن عدم النور عن الجسم الذي من شأنه قبول النور، وليست عبارة عن كيفية وجودية مضادة للنور)، ولم أُعدّل في النص حرصاً على نقله كما هو، ثم إنّه إنْ كان الصحيح: تناقص أو تناقض فإن ذلك لا يؤثر في الفكرة التي سيقت من أجلها المقولة، أي: فكرة تعدد الظلمات ووحدة النور.

(٧) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج١٢/ ص١٦٠.

ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾[١]، وقال في موضع آخر: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[٢]، ويلحظ هنا أنه في الأولى جاء بالمعدود (تمييز العدد) بصيغة جمع التكسير (سنابل)، وهو جمع يدل على الكثرة على وزن (فَعَالِل)، وهو من صيغ منتهى الجموع، أما في الثانية فقد جاء به على جمع المؤنث السالم(سنبلات)، وهو يدل على القلة.[٣] مع أن العدد في الآيتين متفق: (سبعة)!

وتوجيه ذلك: أن الآية من سورة البقرة سيقت في مقام التكثير والمضاعفة لأجر الصدقة، فناسب معها أن يُؤتى بجمع يدل على الكثرة، أما الآية من سورة يوسف فلا مقتضى للتكثير فيها فجاء الجمع على ما يناسب العدد، فالسبعة قليل، فجاء الجمع في كل آية بما يناسب المقام[٤]، مما يدل على أن الألفاظ في القرآن الكريم مقصودة في اختيارها حسب ما يتناسب مع الموضع الذي سيقت فيه.

➢ ومن عادات القرآن الكريم: جمع الآيات وإفرادها حسب ما يقتضيه المقام، قال الزركشي –رحمه الله– ضمن قاعدة فيما ورد في القرآن مجموعاً ومفرداً، والحكم في ذلك: (ومنها: جمع "الآيات " في موضع وإفرادها في آخر، فحيث جمعت فلجمع الدلائل، وحيث وحدت فلوحدانية المدلول عليه).[٥]

ومما جاء من هذا في آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[٦]، فيُلحظ في هذه الآيات القرآنية أنه في الأولى والثالثة جاء بالآية مفردة فقال: (إن في ذلك لآية..)، وفي الوسطى جاء بها جمعاً فقال: (إن في ذلك لآيات)؛ ذلك أن ما ذكر في الآية الأولى والثالثة يرجع إلى ما نَجَمَ من الأرض، فذلك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٦.

(٣) الجمع السالم أولى بالقليل؛ لقربه من التثنية القريبة من الواحد. انظر: ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١/ ص٢٠١.

(٤) انظر: الزركشي، البرهان، ج٤/ ص٢٢. وانظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص٤٠.

(٥) البرهان، ج٤/ ص١٤.

(٦) سورة النحل، الآيات: ١٠–١٣.

كله تابع لها، فهو تعبير عن حالة واحدة هي: حالة الإنبات وحالة الذرء في الأرض، فناسب الإفراد معهما فقال: (إن في ذلك لآية..). أما ما ذكر في الآية الوسطى فراجع إلى أحوال مختلفة هي: أحوال الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم المسخرات، وكل واحد من ذلك له نظامه الخاص به، كما أن بعضها أعراض كالليل والنهار، وبعضها أجرام كالشمس والقمر والنجوم، فجاء معها ما يناسب ذلك فقال: (إن في ذلك لآيات..).(١)

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٢)، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾(٣)، فجُمعت الآيات في الموضع الأول من سورة الروم فقال: (إن في ذلك لآيات..)، أما في سورة النحل فجاءت مفردةً فقال: (إن في ذلك لآية..)! ذلك أنه في سورة الروم عدد آياته فقال: (ومن آياته يريكم البرق..)، ثم قال: (وينزل من السماء ماء فيحيي..)، فجاء ذكر آية البرق وآية إنزال الغيث وإحياء الأرض، وآية البرق وإن كانت آية مرتبطة بإنزال الغيث فإنَّه قد يأتي برق ولا يعقبه غيث وهذا مشاهد فهما آيتان مستقلتان، ولذا جاءت الآيات جمعاً: (إن في ذلك لآيات..)، أما في سورة النحل فجاء الاعتبار بإنزال الماء وحده فجاءت الآية مفردة: (إن في ذلك لآية..)(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾(٥)، أفرد الآية في قوله: (إنَّ في ذلك لآية ..) مع أنه ذكر قبلها سقيا اللبن من بطون الأنعام، ثم ما يتخذ

---

(١) انظر: محمد بن عبدالله الأصبهاني المشتهر "بالخطيب الإسكافي"، درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطباعتها(٣٠)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٢/ ص٨٢١-٨٢٤. والشوكاني -رحمه الله- رأى في ذلك تكلفاً قال: (ولا يخلو كل هذا من تكلف، والأولى أن يقال: إن هذه المواضع الثلاثة التي أفرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار وللإفراد باعتبار، فلم يجرها على طريقة واحدة افتناناً وتنبيهاً على جواز الأمرين وحسن كل واحد منهما). انظر: محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ب ط، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ج٢/ ١٢٠٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ٦٥.

(٤) انظر: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ب ط، ب ت، ج٢/ ص ٣٠١-٣٠٢.

(٥) سورة النحل، الآيات: ٦٦-٦٩.

من الثمرات من سكر ورزق حسن، وليس ذلك صنفاً واحداً! ووجه ذلك: أنَّه في ذكر سقيا اللبن سبقها بقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ فكأنَّه قال: لكم في ذلك آية، فاستغني عن الإشارة إليه بما تقدم فيها من ذكر العبرة، فتكون الإشارة بقوله: (إن في ذلك ..) لِما يتخذ من الثمرات وهو صنف واحد لذا أُفردت الآية ولم تُجمع.(١) أمَّا الآية القرآنية التالية في ذكر النحل فأُفردت الآية أيضاً ولم تجمع؛ لأنَّ المشار إليه حال النحل فناسبه الإفراد.(٢)

▪ ثالثاً: عادات القرآن في التقديم والتأخير:

إنَّ المفردة في القرآن الكريم وفي اللغة العربية لها دلالتها الأولية، ثم إذا أُكتنفت في تركيب ما صار لها دلالة ثانية، ثم إذا ما طرأ على التركيب تقديم أو تأخير أو غيره أعطى دلالة ثالثة، وذلك من جوانب إعجاز النظم القرآني، وخصائص اللغة العربية. وقضية التقديم والتأخير من الأمور التي كانت سبباً في امتناع الترجمة الحرفية للقرآن الكريم، لأن المعاني التي يحملها لا يمكن ترجمتها حرفياً.(٣)

فالفعل (عَبَدَ) يحمل معنى الحدث، وهو العبادة مرتبط بالزمن الماضي، فإذا جاءت في تركيب كقولنا: (نعبد الله) حملت دلالة الفعل وهو الحدث وفاعله ومن وجهت له العبادة وهو الله – جل جلاله–، فإذا طرأ التقديم عليه كقولنا: (إياك نعبد)، فإن ذلك يعطي دلالة ثالثة وهي الاختصاص بقصر العبادة وحصرها لله وحده لا شريك له، فكأنه قال: لا نعبد إلا الله.(٤)

ولأنَّ التقديم والتأخير له أثر بالغ في النظم قال الإمام عبدالقاهر الجرجاني عنه: (هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعةٍ، ويفضي بك إلى لطيفةٍ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مَسْمَعُهُ، ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك، أنْ قُدِّم فيه شيء، وحُوِّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكان).(٥)

والأغلب في التقديم أن المقدم يكون له مزيد اهتمام من المتكلم، لذا قال سيبويه في حديثه عن الفاعل والمفعول: (كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإنْ كانا جميعاً

---

(١) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج٢/ ص٨٤٩–٨٥٠.

(٢) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج٢/ ص: ٣٠١–٣٠٢.

(٣) انظر: منير المسيري، دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم – دراسة تحليلية، مكتبة وهبة، القاهرة– مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١٠٣ وما بعدها.

(٤) انظر: السيوطي، الاتقان، ج٤/ ص١٥٧٧، وانظر: فاضل بن صالح السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، عمان–الأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٤١.

(٥) دلائل الإعجاز، ص: ١٠٦.

يهمانهم ويعنيانهم)[1]. وقد نبه الإمام عبدالقاهر إلى وجوب النظر في سبب تلك العناية فقال: (وقد وقع في ظنون الناس أنَّه يكفي أنْ يقال: "إنَّه قدم للعناية، ولأنَّ ذكره أهم"، من غير أن يُذكر: من أين كانت تلك العناية؟ وبمَ كان أهم؟).[2] والسيوطي -رحمه الله- جعل التقديم والتأخير الوجه الحادي عشر من وجوه إعجاز القرآن[3]، وبيَّن أن الاهتمام والعناية هي الحكمة الإجمالية للتقديم، أما أسبابه وأسراره فقد ظهر له منها في القرآن ما يزيد على عشرة أنواع: هي التبرك، والتعظيم، والتشريف، والمناسبة لسياق الكلام، والحث والتحضيض على المقدم، وسبق المتقدم زماناً أو تكليفاً أو غيره، والسببية، والكثرة، والترقي من الأدنى إلى الأعلى، والتدلي من الأعلى إلى الأدنى، ونقل غيرها مثل: كونه أدلّ على القدرة وأعجب، وإفادة الحصر والاختصاص، وقد مثَّل على كل نوع منها بمثال أو أكثر من كتاب الله.[4]

➢ إنَّ من عادات القرآن الكريم في التقديم والتأخير في آيات الطبيعة: تقديم الليل على النهار، فقد اجتمعا في اثنين وخمسين موضعاً من كتاب الله[5] قدم الليل على النهار في أغلبها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ١٢﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ٤٤﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾[9]،، وفي افتراض سرمدية الليل أو سرمدية النهار قدم الليل، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ

---

(١) كتاب سيبويه (باب الفاعل الي يتعداه فعله إلى مفعول)، ج١/ ص٣٤.

(٢) دلائل الإعجاز، ص: ١٠٨.

(٣) انظر: جلال الدين السـيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق:أحمد شـمس الدين، دار الكتب للعلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج١/ ص١٢٨.

(٤) انظر: المرجع نفسه، ج١/ ص١٣٠- ١٣٥، وانظر: الاتقان، ج٤/ ص: ١٤٠٢-١٤١١.

(٥) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (ليل)، ص٦٥٦، ومادة (نهر)، ص٧٢٠ .

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

(٨) سورة النور، الآية: ٤٤.

(٩) سورة الحديد، الآية: ٦.

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.[1]

وقيل في الحكمة من تقديم الليل على النهار في أغلب المواضع: أن الليل أسبق في الإيجاد والخلق من النهار ولذا قدم[2]، ولذلك فإنه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾[3] بدأ بالليل قبل النهار لأن الليل هو أسبق من النهار وجوداً وخلقاً، ولأن النهار إنما وجد بعد خلق الأجرام؛ وقبلها كانت الدنيا ظلاماً دامساً، ثم إنَّ الليل والنهار معاً أسبق من خلق الذكر والأنثى، وخلق الذكر أسبق من خلق الأنثى، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[4]، فجاء ترتيب الآيات على ترتيب الخلق: الليل أولاً، ثم النهار، ثم الذكر، ثم الأنثى.[5]

وقيل في التفسير العلمي: إنَّ الأصل في الكون الظلام، ولا يوجد النور إلا بانعكاسه في الغلاف الجوي على الأرض، (ذلك أن الإنسان إذا اخترق الغلاف الجوي للأرض وجد نفسه في ظلام دامس وليل مستديم، ولم تُرَ الشمس إلا كبقية النجوم التي نراها في الليل، فالنهار الذي نعرفه نحن لا يتعدى حدود الغلاف الجوي؛ فإن تجاوزناه كنا في ظلام لا يعقبه نهار، وقد أشار إلى ذلك القرآن إشارة عجيبة في قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[6]، فجعل النهار كالجلد الذي يُسلخ، وأما الليل فهو الأصل وهو الكل، فشبّه الليل بالذبيحة والنهار جلدها، فإن سلخ الجلد ظهر الليل، فجعل النهار غلافاً والليل هو الأصل، وقال: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[7]، أي لو مكنّاهم من الصعود إلى السماء لانتهوا إلى ظلام وقالوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، .. ولا يزال الناس يكتشفون من مظاهر إعجازه الشيء الكثير).[8]

---

(١) سورة القصص، الآيات: ٧١-٧٣.

(٢) انظر: الزركشي، البرهان، ج٣/ ٢٤٠، وانظر: السيوطي، معترك الأقران، ج١/ ص١٣٣.

(٣) سورة الليل، الآيات: ١-٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ١.

(٥) انظر: فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص١٦٤ .

(٦) سورة يس، الآية: ٣٧.

(٧) سورة الحجر، الآيات: ١٤-١٥.

(٨) فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص٧-٨.

وقد جاء تقديم النهار على الليل في مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ ﴾[1]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ ﴾[2]، وفي هذا أمر بالصلاة وإقامتها، والصلوات الخمس تبدأ بصلاة الصبح، فيكون أول عمل للمسلم إذا أصبح الصلاة يبدأ بها يومه، ويكون آخر عمله إذا أمسى صلاة العشاء، فيختم يومه بالصلاة أيضاً[3]، فالصلاة -كما هو معلوم- مرتبطة بحركة الشمس، لذلك قدم النهار على الليل، ومما يعزز ذلك أنه لمَّا أمر بالتسبيح ولم يذكر الصلاة جاء على عادة القرآن في تقديم الليل على النهار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾[4].

وقُدِّم النهار على الليل كذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ ﴾[5]، على خلاف ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ ﴾[6]، قال ابن عاشور (المتوفى سنة ١٣٩٣هـ) -رحمه الله-: (وابتدئ في هذه السورة بذكر الليل ثم ذكر النهار عكسَ ما في سورة الشمس؛ لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدة، وهي سادسة السور وأيَّامئذٍ كان الكفر مخيماً على الناس إلا نفراً قليلاً، وكان الإسلام قد أخذ في التجلي، فناسب تلك الحالة بالإشارة إلى تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار، ويتضح هذا في جواب القسم بقوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[7])[8]، وهذا توجيه بعيد، وربطه بأسباب تاريخية غير مقنع، وأقرب من ذلك أن يقال: أن تقديم النهار على الليل جاء في سورة الشمس ليتسق مع تقديم الشمس وابتداء السورة بها، فقابل تقديم الشمس تقديم النهار، وقابل تأخير القمر تأخير الليل.[9] كما أنَّ القمر يتلو الشمس فبدأ بالشمس، ثم إن دورة الأرض حول نفسها - في تعاقب الليل والنهار- تجعل النهار يجلي الشمس.. وليس العكس. وقد اختلف المفسرون في الضمير المؤنث في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ إلى أي شيء يعود؟ قيل: إلى الظلمة؛ لأنَّ

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٢/ ص١٧٩.

(٤) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٥) سورة الشمس، الآيات: ١-٤.

(٦) سورة الليل، الآيتان: ١-٢.

(٧) سورة الليل، الآيات: ٤-١١.

(٨) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٣٧٨.

(٩) انظر: إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ج٢٢/ ص٧٠-٧١.

النهار يجلي الظلمة، وقيل: عائد إلى الأرض؛ لأنَّ النهار يضيء الأرض فيجليها، والظاهر أنه عائد إلى الشمس[1]؛ لأنَّ الضمير يعود إلى أقرب مذكور، والمهتمون بالتفسير العلمي وجدوا في ذلك إعجازاً؛ لأنّ طبقة النهار –أو ما يسمى بالغلاف الجوي– هو ما يجلي الشمس، ولا يتجلى ضوء الشمس إلا بانعكاسه على طبقة النهار.[2]

➢ وقد اجتمع ذكر الشمس والقمر في القرآن الكريم في واحدٍ وعشرين موضعاً[3] والأغلب في ذلك تقديم الشمس على القمر؛ لأنَّ (القمر مظلم وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه)[4]، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥﴾[5].

ولم يتقدم القمر على الشمس إلا في موضعين، الأول في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾[6]، وهذا جاء في سياق محاجَّة إبراهيم لقومه من عبدة النجوم والكواكب، فبدأ بالكوكب ثم القمر ثم الشمس وهي الأكبر والأنور، فناسب تقديم القمر على الشمس في المحاجَّة ليكون في ذلك ترقٍ من الأدنى إلى الأعلى، فيكون في ذلك قطع بنفي الربوبية عن الكواكب والنجوم مع الملاطفة وإبعاد الخصم عما يوجب العناد.[7] أمَّا الموضع الثاني فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾[8]، قال الزركشي–رحمه الله–: (فيحتمل وجهين: مناسبة رؤوس الآي، أو أنَّ انتفاع أهل السماوات به أكثر.. ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ لما كان نوره يضيء إلى أهل السماء).[9] وفي هذا التوجيه تكلّف بيّن.[10]

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٣٦٦.

(٢) انظر: عبدالدائم الكحيل: النهار يجلي الشمس، موقع الكحيل للإعجاز العلمي، تاريخ الدخول (٤–١–٢٠١٥م) على الرابط الآتي: http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-10-20/64-2010-02-19-11-42-02

وانظر: زغلول النجار: الإعجاز في علوم الأرض– والنهار إذا جلاها، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تاريخ الدخول (٤–١–٢٠١٥م) على الرابط الآتي:

http://www.quran-m.com/firas/arabicold/print_details.php?page=show_det&id=77

(٣) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (شمس)، ص٣٨٧.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٩/ ص٢٠٤.

(٥) سورة يونس، الآية: ٥.

(٦) سورة الأنعام، الآيتان: ٧٧–٧٨.

(٧) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٧/ ص١٦٠–١٦١.

(٨) سورة نوح، الآية: ١٦.

(٩) البرهان، ج٣/ ص٢٥٩–٢٦٠.

(١٠) لم يجد الباحث توجيهاً يطمئن إليه لهذا التقديم فيما توفر له من مراجع، ولم يفتح الله عليه بشيء فيه، والله أعلم بمراده.

➢ وقريب من تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور، فإذا كان الليل أسبق من النهار؛ فإن الظلمات أسبق من النور؛ كما أنَّ النور وجود والظلام عدم، والعدم أسبق[1]، وقد اجتمع ذكرهما في اثني عشر موضعاً من كتاب الله، تقدم ذكر الظلمات على النور فيها جميعاً إلا موضعين[2]، حتى في المواضع التي فيها ما يدلّ على النور أو ما هو من ملازمه قدم الظلمات عليه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[3]، فالبرق فيه إضاءة ونور فقدمت الظلمات عليه.

أمَّا الموضعان اللذان قُدِّم فيهما النور على الظلمات، فالأول قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[4]، وقد اقتضى المقام تقديم النور هنا؛ لأنه قال: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ ﴾، وجاء ذلك في تشبيه نور المنافقين الزائل وهو في حقيقته ظلمة، وقد قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ وإذهاب نورهم عودة لهم في الظلمات. والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[5]، وتقديم النور على الظلمات في قوله: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾؛ لأنَّه قد سبقها تقديم الظلمات على النور في قوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾، فهي مقابلة لها.

➢ ومن عادات القرآن الكريم في التقديم والتأخير: تقديم السماء على الأرض، وقد اجتمع ذكر السماء والأرض في مائتين وتسعة وثلاثين موضعاً، وجُلّ تلك المواضع تقدَّم فيها ذكر السماء أو السماوات على الأرض، ولم تتقدم الأرض على السماء إلا في تسعة عشر موضعاً.[6]

ومن حكمة تقديم السماء على الأرض: (أن غالب ما تذكر السماوات والأرض في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته، ومعلوم أن الآيات في السماوات أعظم منها في الأرض؛ لسعتها وعظمها وما فيها من كواكبها وشمسها وقمرها وبروجها وعلوها، واستغنائها عن عمد تقلها، أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها، ولهذا أمر

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ ص٥٩.

(٢) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (ظلم)، ص٤٣٨-٤٣٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٦) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (أرض)، ص٢٧.

-سبحانه- بأن يرجع الناظر فيها البصر كرة بعد كرة، ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض).[1]

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾[2]، في الأولى قدم الأرض على السماوات، فقال: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي الثانية قدَّم السماوات على الأرض، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ﴾، فبدأ بالأرض في الأولى؛ لأنَّ المقام مقام تعجيز للشركاء عن الخلق والشراكة، وأمر الأرض أيسر من أمر السماء فبدأ بالأرض؛ لأنَّها أقرب إليهم، ومبالغة في بيان عجزهم؛ لأنَّ من عجز عن أيسر الأمرين فهو عن أعظمهما أعجز، وفي الثانية قدم السماوات إشارة إلى عظيم قدرته -سبحانه-؛ لأن خلقها أكبر من خلق الأرض ومن قدر على إمساك الأعظم كان على إمساك الأصغر أقدر. وقبل هذه الآيات من السورة نفسها قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾[3]، فقدم السماوات على الأرض؛ لأنَّ علم ما في السماوات أعمّ وأشمل وأكثر من علم ما في الأرض، فكان تقديمها أدلّ على صفة العالمية.[4]

ومن لطيف التقديم والتأخير بين السماء والأرض ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾[5]، فقدم الأرض على السماء في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنَّه لمَّا كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر، وإعلامهم أنَّه -سبحانه- عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنَّه لا يغيب عنه منها شيءٌ؛ اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء. وفي موضع آخر شبيه به قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ

---

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١/ ص١٣٠ .

(٢) سورة فاطر، الآيتان: ٤٠-٤١.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٨.

(٤) انظر: الزركشي، البرهان، ج٣/ ص٢٨٥-٢٨٦.

(٥) سورة يونس، الآية: ٦١.

ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾[1]، فقدم السماوات على الأرض في قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لأنَّ هذا وقع ضمن قول الكفار: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ فقدم السماوات هنا؛ لأنَّ السَّاعة إنَّما تأتي من قبل السماء وهي غيب فيها، قال ابن القيم (المتوفى سنة ٧٥١هـ) –رحمه الله–: (ولهذا قدّم صعق أهل السماوات على أهل الأرض عندها فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[2]، فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار ما يشهد أنه كلام الله! وأن مخلوقاً لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبداً).[3]

➢ ومن ذلك ما يُلحظ من جمال الترتيب في تقديم شيء وتأخير آخر، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[4]. فقد جاء الترتيب على النحو الآتي: ابتدأ التعبير القرآني بذكر خلق الإنسان من المني ولفت النظر إليه، ثم لفت النظر إلى الحرث والزرع، ثم إلى الماء، ثم إلى النار. فقدم ذكر مبدأ خلق المتنعم بهذه النعم أولاً؛ لأنَّها خلقت له ، ولأنَّه هو المعني بالخطاب، ثم أتبعه بذكر الأكل من الحرث والزرع، وقدمه على الشرب الماء؛ لأن الشرب للاستمراء وليس أولياً في الغذاء وقد جاء تالياً للأكل في أغلب المواضع، كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[6]، وأما النار فهي متمِّمَة وليست مدعَّمَة كالأكل والشرب، فلها منافع من الإنضاج والإسخان والإضاءة، فلم تكن من الأهمية في الرُّتبة التي فيها الأكل والشرب فجاءت متأخرة عنها، ويعزّز ذلك وصف النار بأنَّها متاع، وذلك

(١) سورة سبأ، الآية: ٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٣) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١/ ص١٣١.

(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٥٨–٧٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

(٦) سورة الطور، الآية: ١٩.

من بديع التقديم والتأخير في آيات الطبيعة. ثم إنَّه عَقِبَ آية خلق الإنسان قال: ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وعَقِبَ آية الماء قال: ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾، ومناسبة ذلك: أنَّ آية بداية خلق الإنسان تذكر بالبعث والنشور كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾[1]، فختمها بالتذكُّر، أما آية الماء فمستدعية للشكر عليها، فلو شاء لجعل عذوبة الماء أجَاجاً فلا يُنتفع به في شرب أو سقيا زرع، فوجب الشكر عليها فختمها بذلك.[2]

***

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

(٢) ابن الزبير، ملاك التأويل، ج٢/ ص٤٦٦.

• المبحث الثاني: التكثيف في آيات الطبيعة.

تميَّز التعبير القرآني بأن ألفاظه ذات دلالات مكثفة، وكما ورد في الأثر بأن (القرآن حمَّالٌ ذو وجوه)[١]، وإن صحَّ هذا الأثر فإنَّ ذلك لسعة المفردة وتكثيف العبارة فيه، فالقرآن يحمل في تعبيره أكثر من معنى، قال الزركشي –رحمه الله: (وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن؛ حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقل؛ ولا يوجد ذلك في كلام البشر).[٢]

ولعل من حكمة ذلك: أنَّ القرآن جمع أصول العلم، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٣]، ثم إنَّ الخطاب القرآني ممتدٌ إلى قيام الساعة، لذا كان في ألفاظه من السعة، وفي عباراته من التكثيف ما يجعله صالحاً لذلك.

والتكثيف: مصدر من الفعل كَثَّفَ يكثِّفُ، والكثيف: الثخين الغليظ، والكثافة: الكثرة والالتفاف.[٤] وقال ابن فارس: (الكاف والثاء والفاء أصلٌ صحيح يدلُّ على تراكب شيء على شيءٍ وتجمع، يقال: هذا شيء كثيف)[٥].

والمقصود بالتكثيف هنا: هو اختزان اللفظ أو الأسلوب لدلالات متعددة، ومنبع التكثيف قدرة اللفظ على حمل معاني كثيرة.[٦] فهو **اقتصاد في اللفظ وتوسع في الدلالة**. والتكثيف ليس اختصارا فقط، بل هو اختصارٌ في سبيل العمق والإطناب[٧].

ويحصل التكثيف في العبارة بآليات متعددة منها: استعمال الألفاظ المشتركة، وتوظيف جوامع الكلم في التعبير، والإيجاز بنوعيه إيجاز القصر وإيجاز الحذف، والإيحاء، وغيرها .. وهذا

---

(١) أورد السيوطي –رحمه الله– هذا الأثر عن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– يوصي به ابن عباس –رضي الله عنهما– في محاجّته للخوارج، قال ابن عباس له: (يا أمير المؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل)، قال: (صدقت، ولكن **القرآن حمَّالٌ ذو وجوه**، تقول ويقولون، ولكن حاجّهم بالسنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً). وقد أورده السيوطي في الوجه التاسع والثلاثين: (معرفة الوجوه والنظائر) وقال: أخرجه ابن سعد، قال المحقق للإتقان: (لم أقف عليه فيما بحثت). انظر: الاتقان، ج٣/ ص٩٧٧

(٢) البرهان، ج١/ ص١٠٢

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٤) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (كثف)، ج٩/ ص٢٩٦.

(٥) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (كثف)، ج٢/ ص٤٣٥.

(٦) انظر: أحمد محمد دعسان، التكثيف البلاغي في القرآن الكريم–جزء عمّ دراسة أسلوبية، دار المأمون، عمّان– الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٤.

(٧) انظر: محمد حسن عبدالله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة– مصر، ب ط، ب ت، ص١٣٠.

المبحث يحاول أن يكشف عن الإعجاز البياني في آيات الطبيعة من خلال التكثيف وذلك في الجوانب الآتية:

- **أولاً: المشترك اللفظي في آيات الطبيعة:**

والمشترك اللفظي كما يعرّفه أهل الأصول: (هو اللفظ الواحد الدَّال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة).[1]

قال ابن عاشور –رحمه الله–: (ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنَّه يَرِدُ فيه استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معانٍ إذا صلُح المقام بحسب اللغة العربية لإرادة ما يصلح منها، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما، وبذلك تكثر معاني الكلام مع إيجاز، وهذا من آثار كونه معجزة خارقة لعادة كلام البشر، ودالة على أنه منزل من لدن العليم بكل شيء والقدير عليه..).[2]

ووجه الإعجاز البياني في المشترك اللفظي: أنَّ الآية الكريمة على أي معنى من المعاني المشتركة فسّرت أو حملت فإنها كذلك، أو فإنَّ العلم يدل على هذا المعنى، أو ينتهي إليه، أو لا يخالفه أو يناقضه بحال.

واختلاف العلماء في المشترك اللفظي قديم منهم من أنكر وقوعه، ومنهم من أثبته، فمن أنكره اعتمد على أنَّه ليس من الحكمة أنْ يقع المشترك اللفظي في كلام العرب؛ لأنَّه يُلبس، وفي ذلك تعميم وتغطية لا إبانة، معتمدين على القول بأنَّ اللغة توقيفية، وقيل: إنَّه لا يقع المشترك اللفظي إلا في لفظة تؤدي معنيين مختلفين كل الاختلاف، ليس بينهما أدنى علاقة. أمَّا من أجازوا وقوع المشترك اللفظي في اللغة فاستدلوا بالوضع اللغوي وأنَّ اللغة غير توقيفية، وأنَّ الألفاظ محدودة والمعاني تتوالد.[3]

قال السيوطي: (والأكثرون أيضاً على أنَّه واقعٌ، لنقل أهل اللغة ذلك في كثير من الألفاظ. ومن الناس من أوجب وقوعه– قال: لأنَّ المعاني غير متناهية، والألفاظ متناهية فإذا وُزِّع لزم الاشتراك .. وذهب بعضهم إلى أنَّ الاشتراك أغلب؛ لأن الحروف بأسرها مشتركة بشهادة النحاة، والأفعال الماضية مشتركة بين الخبر والدعاء، والمضارع كذلك، وهو أيضاً مشترك بين الحال والاستقبال، والأسماء كثيرٌ فيها الاشتراك)[4]. وابن تيمية –رحمه الله– جعل المشترك اللفظي من

---

(١) انظر: السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج١/ ص٣٦٩.

(٢) التحرير والتنوير، ج١/ ص١٢٣.

(٣) انظر: عبدالعال سالم مكرم، المشترك اللفظي، ص:١٢وما بعدها.

(٤) المزهر في علوم اللغة، ج١/ ص٣٦٩-٣٧٠.

المتشابه فقال: (والأسماء المشتركة في اللفظ هي من المتشابه، وبعض المتواطئة أيضاً من المتشابه، ويسميها أهل التفسير: الوجوه والنظائر، وصنفوا كتب الوجوه والنظائر، فالوجوه: في الأسماء المشتركة، والنظائر: في الأسماء المتواطئة)[1].

ومن أمثلة المشترك اللفظي لفظ (العين) فإنها تطلق على عدة معانٍ منها: العين الناظرة لكل ذي بصر، والعين الذي تبعثه يتجسس الخبر، والعين الجارية النابعة من عيون الماء، والعين السحاب ما جاء من ناحية القبلة، وعين الشمس صَيْخَدُها[2] المستدير، والعين المال العتيد الحاضر.. وغير ذلك.[3]

➢ من المشترك اللفظي في آيات الطبيعة: قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾[4]، فلفظ (النجم): مفرد النجوم التي في السماء، وهو أيضاً كل ما نبت على وجه الأرض مما ليس له ساق، والمعنيان صحيحان لأنَّ الكائنات جميعاً يصدق عليها السجود لله[5]، كما دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٩﴾[6]، ومن الجمال البياني: أنَّ هذا اللفظ المشترك كان رابطاً وثيقاً بين الآيتين؛ فتفسيره بمعنى نجم السماء يناسب ما سبقه من ذكر للشمس والقمر، وتفسيره بنجم النبات يناسب ما بعده من ذكر للشجر.

➢ ومما قد يُعدّ من المشترك اللفظي في آيات الطبيعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾[7]، فإنَّه لفظ واحد يطلق على معنيين الأول: إقبال الليل، والثاني: إدباره. ونقل ابن عطية عن المبرد –رحمهما الله–: أن الله –تعالى– أقسم بإقبال الليل وإدباره معاً.[8] وقال ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٠٦هـ) –رحمه الله–: (عسعس الليل: إذا أقبل بظلامه وإذا أدبر فهو من

(١) أحمد ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، دار عالم الكتب، الرياض–السعودية، ب ط، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ج١٣/ ص٢٧٦.

(٢) قال ابن منظور: (والصَّيْخَدُ: عين الشمس). انظر: لسان العرب، مادة (صخد)، ج٣/ ص٢٤٤.

(٣) قال ابن فارس: (العين والياء والنون أصلٌ واحد يدلُّ على عضو به يبصر وينظر، ثم يشتق منه، والأصل في جميعه ما ذكرنا) ثم أورد المعاني أعلاه. انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (عين)، ج٢/ ص٢٠٤.

(٤) سورة الرحمن، الآيتان: ٥–٦.

(٥) انظر: إبراهيم بن السري الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٥/ ص٢٩٢.

(٦) سورة النحل، الآية: ٤٩.

(٧) سورة التكوير، الآية: ١٧.

(٨) المحرر الوجيز، ج٥/ ص٤٤٤.

الأضداد)[١]. وقال ابن كثير –رحمه الله–: (وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة "عسعس" تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصحُّ أن يراد كل منهما والله أعلم)[٢].

وبهذا يكون الفعل (عسعس) يفيد حالتي الليل من الإقبال والإدبار، وهما من مظاهر قدرة المولى –جل جلاله– إذ يعقب الظلام الضياء، ويعقب الضياء الظلام، لذا كان إيثار هذا اللفظ المشترك لِما يفيده من تكثيف للمعنى.[٣]

وهناك من رأى أنَّهما يرجعان إلى شيءٍ واحد، فقال الزجاج –رحمه الله–: (يقال عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس إذا أدبر، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، هو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره)[٤]، وقال الراغب الأصفهاني –رحمه الله–: (﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي أقبل وأدبر وذلك في مبدأ الليل ومنتهاه، فالعَسْعَسَةُ والعِساسُ رِقَّةُ الظلام، وذلك في طرفي الليل)[٥]، قال الألوسي –رحمه الله– معلقاً عليه: (فهو من المشترك المعنوي عنده وليس من الأضداد)[٦]. إلا أنَّ السياق يرجح معنى الإدبار.

➢ ومن أمثلة المشترك اللفظي في آيات الطبيعة: قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ٧٢ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ٧٣﴾[٧].

وتطلق المقوي ويراد بها الداخل في القَواء[٨] وهي القفر الخالي، كما تطلق على الجائع؛ لأنَّ جوفه أقوى، أي: خلي من الطعام، وبهذا تكون هذه الكلمة (المقوي) من المشترك اللفظي، على أنَّ المعنيين يجتمعان في معنى واحد هو الخلاء، فالأرض القفر هي خالية من العمران والسكان، والجائع بطنه خالٍ من الطعام، قال الراغب الأصفهاني–رحمه الله–: (وسمِّيت المفازة

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ص٦١٥.

(٢) تفسير ابن كثير، ج٤/ ٤٣٤.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص١٥٤.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، ج٥/ ص٢٩٢.

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة (عسعس)، ص٣٣٤.

(٦) روح المعاني، ج٣٠/ ص٥٨. الأضداد قد تعتبر نوعاً من المشترك؛ لأنَّ المشترك يتَّحد فيه اللفظ ويختلف فيه المعنى، والأضداد كذلك إلا أن المعنيين متضادَّين. انظر: فاضل بن صالح السامرائي، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٨٣ وص٨٨.

(٧) سورة الواقعة، الآيات: ٧١-٧٣.

(٨) قال ابن عاشور: (قَواء بفتح القاف والمد). انظر: التحرير والتنوير، ج٢٧/ ص٣٢٧. وفي المفردات للراغب الأصفهاني: (قِوَاء) مضبوطة بكسر القاف. انظر: مادة (قوى)، ص٤١٩.

قِواء، وأقوى الرجل: صار في قواء أي قفر، وتُصُوِّر من حال الحاصل في القفرِ الفقرُ، فقيل: أقوى فلانٌ، أي: افتقر، كقولهم: أرمل وأترب).[1]

قال الزمخشري –رحمه الله–: (المقوين: الذين ينزلون القواء وهي القفر، أو الذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام، يقال: أقويت من أيام، أي: لم آكل شيئاً).[2]

(فإيثار هذا الوصف في هذه الآية ليجمع المعنيين؛ فإنَّ النار متاع للمسافرين يستضيئون بها في مناخهم، ويصطلون بها في البرد، ويراها السائر ليلاً فيهتدي إلى مكان النُّزَّل، فيأوي إليهم، ومتاع للجائعين يطبخون بها طعامهم في الحضر والسفر ... واختير هذان الوصفان؛ لأنَّ احتياج أصحابهما إلى النار أشدُّ من احتياج غيرهما).[3]

والتعبير القرآني قدَّم في الآية كون النار تذكرةً على كونها متاعاً؛ ليدلَّ وينبه على أنَّ الفائدة الأخروية أهم وأولى من الفائدة الدنيوية.[4]

➢ والمشترك اللفظي قد يكون في الحروف أيضاً، ومما جاء منه في آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾[5]، فالحرف (من) في قوله: (من برد) لابتداء الغاية بلا خلاف، أمَّا في قوله: (من جبال) فقيل: أنَّ فيها ثلاثة أوجه، وكذلك قوله: (من برد) قيل: فيها أربعة أوجه.[6] والأوجه الثلاثة في قوله: (من جبال)؛ الأول: أنها لابتداء الغاية؛ فيكون الجار والمجرور بدل اشتمال من قوله: (من السماء)، والثاني: أنَّها للتبعيض؛ فيكون الجار والمجرور في محل نصب مفعول الإنزال، والتقدير: وينزل بعض جبال، والوجه الثالث: أنها صلة (زائدة)، والتقدير: وينزل من السماء جبالاً. أمَّا الأربعة أوجه التي في قوله: (من برد) فهي الثلاثة المتقدمة، ويضاف إليها وجه رابع: هو أنَّها لبيان الجنس، والتقدير: وينزل من السماء بعض جبال التي هي البرد.[7]

(١) المرجع نفسه.

(٢) الكشاف، ج٦/ ص٣٧.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧/ ص٣٢٧.

(٤) تفسير الفخر الرازي، ج٢٩/ ص١٨٥.

(٥) سورة النور، الآية: ٤٣.

(٦) انظر: زيد بن علي مهارش: صور من المشترك اللفظي في القرآن الكريم وأثرها في المعنى، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد الرابع والخمسون، محرم ١٤٣٣هـ، ص٢١٧-٢١٨.

(٧) انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار ابن كثير، دمشق-سوريا، الطبعة السادسة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج٥/ ص٢٩٣ .

- **ثانياً: جوامع الكلم في آيات الطبيعة:**

إنَّ الله –جل جلاله– قد بعث محمداً –صلى الله عليه وسلم– بجوامع الكلم، ففي الصحيحين عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: (بُعثتُ بجوامع الكلم)[(١)]. قال الزهري[(٢)] –رحمه الله–: (وبلغني أن جوامع الكلم أن الله يجمع الأمور الكثيرة التي كانت تُكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين، ونحو ذلك)[(٣)].

قال ابن رجب –رحمه الله–: (فجوامع الكلم التي خُصَّ بها النبي –صلى الله عليه وسلم– نوعان، أحدهما: ما هو في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾[(٤)]، قال الحسن: لم تترك هذه الآية خيراً إلا أمرت به، ولا شراً إلا نهت عنه. والثاني: ما هو في كلامه –صلى الله عليه وسلم–، وهو منتشرٌ موجود في السنن المأثورة عنه –صلى الله عليه وسلم–. وقد جمع العلماء جموعاً من كلماته –صلى الله عليه وسلم– الجامعة).[(٥)]

وقال ابن حجر –رحمه الله–: (وحاصله أنَّه –صلى الله عليه وسلم– كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني، وجزم غير الزهري بأنَّ المراد بجوامع الكلم القرآن، بقرينة قوله: (بُعثتُ)، والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني).[(٦)]

---

(١) رواه البخاري ومسلم، ولمسلم رواية أخرى فيها: (وأوتيت جوامع الكلم). انظر: صحيح البخاري، كتاب٥٦: (الجهاد والسير)، باب١٢٢: (قول النبي صلى الله عليه وسلم: نصرت بالرعب مسيرة شهر)، الحديث رقم:(٢٩٧٧)، ج٢/ ص٣٥٣، وأيضاً في كتاب٩٦: (الاعتصام بالسنة)، باب١: (قول النبي صلى الله عليه وسلم: بعثت بجوامع الكلم)، الحديث رقم: (٧٢٧٣)، ج٤/ ص٣٥٩. وانظر: صحيح مسلم، كتاب: (المساجد ومواضع الصلاة)، الحديث رقم: (٥٢٣)، ج١/ ص٣٧١.

(٢) وفي البخاري: (قال أبو عبدالله: ..) ولم يصرح باسم الزهري غير أن ابن رجب صرح به في مقدمة كتابه (جامع العلوم والحكم)، وابن شهاب الزهري أحد رواة هذا الحديث في سند البخاري له، غير أن كنيته أبوبكر، قال ابن حجر: (ووقع في رواية كريمة (قال محمد) قيل: هو البخاري نفسه.. والذي يظهر لي أن الصواب ما عند كريمة فإن هذا الكلام ثبت عن الزهري واسمه: محمد بن مسلم، وقد ساقه البخاري هنا من طريقه فيبعد أن يأخذ كلامه فينسبه لنفسه. وكأن بعضهم لما رأى (وقال محمد) ظن أنه البخاري فأراد تعظيمه فكناه فأخطأ. انظر: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: الشيخ عبدالعزيز بن باز، ومحمد فؤاد عبدالباقي، دار السلام، الرياض– السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج١٢/ ص٥٠١.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب٩١: (التعبير)، باب٢٢: (المفاتيح في اليد)، الحديث رقم: (٧٠١٣)، ج٤/ ص٣٠٢.

(٤) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٥) عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ–١٩٩١م، ج١/ ص٥٥.

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١٣/ ص٣٠٤.

فجوامع الكلم: ألفاظ قليلة تدل على معانٍ كثيرة.[1] ومما سبق يتضح أنَّ القرآن الكريم يُوصف بأنَّه جوامع الكلم، والحديث النبوي يوصف بذلك أيضاً، وهذا بيّن لأنّنا نرى الكتب التي تُعنى بتفسير معاني القرآن ومقاصده أضعاف أضعاف ألفاظه، وكذلك الأحاديث النبويّة.

ومن أمثلة جوامع الكلم في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2]، فقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ هذه الجملة استوعبت كل شيء على قلة ألفاظها، قال عنها أبو هلال العسكري –رحمه الله–: (كلمتان استوعبتا جميع الأشياء على غاية الاستقصاء)[3].

- ومن جوامع الكلم في آيات الطبيعة: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[4]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾[5]. فتوظيف كلمتي (يلج، ويخرج) قد استوعب جميع المخلوقات المتصلة بالأرض وأحوالها، كما أن توظيف (ينزل، ويعرج) قد استوعب جميع المخلوقات المتصلة بالسماء وأحوالها، ولم يذكر ما يدبّ على سطح الأرض، وما يجول في أرجاء السماء! ذلك أنَّه لا يخرج عن الحالات التي ذُكِرت، فهو إمَّا أن يلج في الأرض أو يخرج منها، أو ينزل من السماء أو يعرج فيها، ثم إنَّ الذي يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها يعلم ما يدبّ ويجول فيهما، ولمَّا كان من جملة ذلك أحوال وأعمال الناس، ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، ففيه حضٌّ للمؤمنين بطلب أسباب الرحمة والمغفرة، وتعريض بالمشركين أنْ يتوبوا عن شركهم فتشملهم الرحمة فيغفر لهم.[6] فهذا من جوامع الكلم؛ لأنَّه لو شرع أحدٌ في تفصيل ذلك لكتب فيه مطولات ولا يُحصي ذلك إلا الله، ففي كل لحظة يلج في الأرض ويخرج منها وينزل من السماء ويعرج فيها ما لا عدد له ولا حصر من الأحياء والأشياء والأمطار

---

(١) عبدالعزيز بن محمد السحيباني، جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض– السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٣١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٣) الحسن بن عبدالله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة– مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ، ص١٧٦.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٢.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٦) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢/ ص١٣٧–١٣٨.

والأشعة والنيازك والشهب والملائكة والأقدار والأسرار من المنظور والمستور مما لا يحصيه إلا الله، (والنص القصير يشير إلى هذه الحركة الدائبة التي لا تنقطع، وإلى هذه الأحداث الضخام التي لا تحصى)(١).

ولا يخفى ما يكمن من جمال في اللفظ والمعنى بالطباق بين الفعل يلج ويخرج، وكذلك بين ينزل ويعرج، وكذلك المقابلة بين قوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾، والترتيب البديع في البدأ بالفعل (يلج) بالنسبة للأرض، وفي الثانية بدأ بالفعل (ينزل) بالنسبة للسماء، وكلهما اتجاههما إلى الأسفل، وبالمقابل ثنى بالفعل (يخرج) في الأولى، وثنى بالفعل (يعرج) في الثانية، وكلهما اتجاههما إلى الأعلى.

➢ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾(٢)، وقريب منه قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾(٤). فإن إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي قليل اللفظ ولكنه استوعب مدلولات كثيرة، منها إخراج الشجر والنبات من الحب، وإخراج الحب منه، وإخراج البيض من الدجاج وغيره، وإخراج الفراخ من البيض، وخلق الإنسان من النطفة، وخلق النطفة من الإنسان، ليس ذلك فحسب بل حتى في الأمور المعنوية غير الحسية، كإخراج المؤمن من صلب الكافر(٥)، وإخراج الرجل البليد من صلب الرجل الفطن ، والعكس كذلك(٦) .. وهي أمور تفوق الحصر.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦/ ص٣٤٨١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣١.

(٤) سورة الروم، الآية: ١٩.

(٥) من ذلك ما روي أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط -رضي الله عنها- لما هاجرت إلى المدينة جاء أخواها يرومان ردها إلى مكة حسب شروط الهدنة في صلح الحديبية، فقالت: يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فأخشى أن يفتنونني في ديني ولا صبر لي، فقرأ النبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾، ونزلت آية الامتحان فلم يردها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليهما وكانت أول النساء المهاجرات إلى المدينة بعد صلح الحديبية. (أورده ابن عاشور في التحرير والتنوير بهذا النص، ج٢١/ ص٦٨)، وأورد ابن كثير جزءاً منه في تفسيره لسورة الممتحنة. انظر: ج٤/ ص٣١٥. وكذلك القرطبي في تفسيره. انظر: ج١٨/ ص٤١.

(٦) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٩/ ص٤٢٣، وانظر: تفسير ابن كثير، ج٣/ ص٤٠٠. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١/ ص٦٨.

- ومن جوامع الكلم في آيات الطبيعة: وصف الأرض بأنها (ذلول) في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[١]، فهذا الوصف جمع معانٍ كثيرة، فمن دلالات ذلك أنها منقادة يسهل الوطء عليها، كما يسهل حفرها وشقها[٢]، وكذلك الحرث والزرع والبناء عليها وغيره، (والذلول من الدواب المنقادة المطاوعة، مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد، فعول بمعنى فاعل، يستوي فيه المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾[٣]، فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقتها تشبيهاً بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة..)[٤]. فالأرض ليست عدوة للإنسان، بل إنَّها فوق التسخير منقادةٌ له، وفي الثقافة الإسلامية لا مجال للحديث عن قهر الأرض، أو قهر الطبيعة، أو الكفاح ضدها؛ فالأرض والإنسان كلاهما عبدٌ لله.

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[٥]، قال الزمخشري -رحمه الله-: (﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله).[٦] وفي ذلك من التهويل والتعظيم ما لا يخفى.

▪ ثالثاً: الإيجاز في آيات الطبيعة:

أورد الجاحظ -رحمه الله- في البيان والتبيين: أن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- قال لصُحار بن عياش العبدي: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز؟ قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ. فقال له معاوية: أوكذلك تقول يا صحار؟ قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين، ألاَّ تُبطئ ولا تُخطئ.[٧] وقال المفضَّل الضّبيّ: قلت لأعرابيٍ منا: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عَجْز، والإطناب في غير خَطَل. وسُئلَ المفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.[٨]

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٢) انظر: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، بدائع التفسير، جمعه يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الدمام-السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ج٤/ ص٤٩٤.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٧١.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢٩/ ص٣١.

(٥) سورة طه، الآيتان: ٧٧-٧٨.

(٦) الكشاف، ج٤/ ص٩٩.

(٧) انظر: البيان والتبيين، ج١/ ص٩٦.

(٨) انظر: المرجع السابق، ج١/ ص٩٧.

وقد جعل الرمّاني –رحمه الله– البلاغة على عشرة أقسام، وأول قسم أورده الإيجاز. ثم بين أن الإيجاز على قسمين: إيجاز قصر[(١)]، وإيجاز حذف، فإيجاز الحذف: إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام، وإيجاز القصر: بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف.[(٢)]

قال الباقلاني –رحمه الله–: (فأما الإيجاز فإنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى، فيأتي باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة).[(٣)]

ولمَّا كان إيجاز القصر متداخلاً مع الفقرة السابقة من (جوامع الكلم) أُقتصر هنا على إيجاز الحذف، وأمثلته في كتاب الله كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾[(٤)]، أي لكان هذا القرآن، فحذف جواب الشرط إيجازاً، لِمَا في ظاهر الكلام من دلالة عليه[(٥)]، والحذف هنا ليس لمجرد الاختصار[(٦)] بل للحذف أسرار بلاغية، منها تقرير عظمة القرآن وإعجازه، فإن الحذف يكون في مواضع لإرادة التهويل والتعظيم أو التهديد، قال الزمخشري–رحمه الله–: (﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ جوابه محذوف، كما تقول لغلامك: لو أني قمت إليك، وتترك الجواب)[(٧)]. وحذف جواب (لو) جاء في كلام العرب كما في قول امرئ القيس:

فَلَوْ أَنَّها نَفْسٌ تَموتُ جَمِيعةً * وَلكِنَّها نَفْسٌ تَساقَطُ أَنْفُسَا**[(٨)]

أي: فلو أنها نفس تموت جميعة لهان عليَّ ذلك.

---

(١) قال صاحب بغية الإيضاح (القصر: بكسر القاف وفتح الصاد، وإن كان المشهور فتح القاف وسكون الصاد، وكثرة المعاني مع قصر الألفاظ تأتي من كون اللفظ لا يقتصر على دلالة واحدة، بل تتنوع دلالته ويدل بالتضمين والالتزام على أكثر مما يدل عليه بالمطابقة). انظر: عبدالمتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة– مصر، بدون رقم الطبعة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٢/ ص١٠٤.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني والجرجاني، ص٧٦-٧٧.

(٣) محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، ص٢٦٢.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٥) انظر: تفسير القرطبي، ج٩/ ص٢٠٩.

(٦) قال الخطيب القزويني: (وإما جواب الشرط، وهو ضربان، أحدهما: أن يحذف لمجرد الاختصار) ومثل عليه بالآية من سورة الرعد، وقال الشارح: (هذه نكتة لفظية). انظر: بغية الإيضاح، ج٢/ ص١٠٨.

(٧) الكشاف، ج٣/ ص٣٥٢.

(٨) فلو أنها نفس: يريد نفسه. تموت جميعة: يعني مرة واحدة، ولكن المرض يأخذ منها شيئاً فشيئاً، وقيل معناه: أنَّ موته موت كثير ممن يعيشون في كنفه وتحت رعايته، وقبله قوله: (**وَلَوْ أَنَّ نَوماً يُشترى لاشتريْتهُ *** قليلاً كتغميض القطا حيث عرّسا**) انظر: ديوان امرئ القيس، ٨٧.

ثم إنَّ الحذف جعل للنص دلالات محتملة، فذكر المفسرون في تأويل المحذوف أكثر من وجه، فقيل التقدير: لو أن قرآناً سيرت به الجبال.. لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير، ونهاية في الإنذار والتخويف، وقيل: لو أن قرآناً سيرت به الجبال.. لما آمنوا به ولا تنبهوا عليه(١). وقال الدكتور فاضل السامرائي: إنَّ جواب الشرط هنا لا يستلزم تقديراً معيناً(٢).

والحذف في موضعه أبلغ من الذكر؛ لأن الفكر يذهب في تقديره كل مذهب، ولو ذُكر المحذوف لاقتصرت الدلالة على ذلك(٣)، **ففي إيجاز الحذف: تكثيفٌ للمعنى وتوسيعٌ للدلالة مع اقتصاد في اللفظ.**

➢ ومن إيجاز الحذف في آيات الطبيعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾(٤)، فإنَّ مفعول فعل (يَغْشَى) محذوف، هل يغشى الأرض، أم يغشى النهار، أم يغشى الشمس؟ إنَّ التعبير القرآني أطلق المعنى وجعله يحوي كل المعاني المحتملة، لذا كان الحذف هنا أبلغ.(٥) قال ابن عاشور: (وحذف مفعول "يغشى" لتنزيل الفعل منزلة اللازم؛ لأن العبرة بغشيانه كل ما تغشاه الظلمة)(٦). وحين يهتدي الناس بعد قرون إلى أحد هذه المفعولات (علمياً) يكون التعبير القرآني قد أشار إليه، أو اتسع له، وقد فُهِم القرآن في كل عصر بحسب ما وَهَبَ الله لأهله من معطيات.

فإن قيل: فلمَ لم يحذف المفعول في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾(٧)، ذلك أن ذكر المفعول هنا وهو الضمير أولى من حذفه، وليس ذلك لمجرد الفاصلة القرآنية وتناسبها فحسب، بل أيضاً لأن السورة هي سورة الشمس، وهذه الأقسام المتعددة لها ارتباط بها، فعلاقة ضحى الشمس بها وعلاقة القمر والنهار والليل بالشمس أيضاً مقصود في هذا القسم، لذا لم يحذف المفعول هنا، وقيل: الضمير يعود إلى الأرض أو الدنيا(٨).

➢ ومما قد يدخل في الإيجاز أن يُختار من الأجناس أو الأنواع ما يكون أعمّ وأشمل في بابه، ومثال ذلك في آيات الطبيعة: أنَّ التعبير القرآني يختار من الفواكه النخيل والأعناب، ويخصها

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٣/ ص٣٥٢. وانظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٣/ ص٣١٣. وانظر: تفسير الفخر الرازي، ج١٩/ ص٥٤.

(٢) انظر: فاضل بن صالح السامرائي، الجملة العربية تأليفها وأقسامها، دار الفكر، عمان– الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م، ص٨٧.

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٧٧.

(٤) سورة الليل، الآية: ١.

(٥) انظر: فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص١٦٣.

(٦) التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٣٧٩.

(٧) سورة الشمس، الآيات: ١–٤.

(٨) انظر: عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة– مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص٣٢٣. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٣٦٨.

بالذكر من سائر الفواكه، كقوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ ﴾[4]. ذلك أن ثمرة النخيل والأعناب هي ألذُّ طعماً وأحلى مذاقاً، والتمر والعنب يعدان قوتاً وفاكهةً، كما أنَّهما أعمُّ نفعاً فيحملان إلى أماكنَ بعيدة –وبخاصة قبل تيسر المواصلات–، ويمكن الاستفادة منهما على هيئات مختلفة ولا يلحقه الفساد إلا بعد زمن كالتمر والزبيب.[5]

وقد جاء ذكر لغير تلك الفاكهة في مواضع منها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ ۞وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[7]،وقوله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ ﴾[9].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩١.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٣٢.

(٥) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢٦/ ص٦٧.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٨) سورة النحل، الآية: ١١.

(٩) سورة عبس، الآيات: ٢٦-٣١.

وهذه المواضع لم تخلُ من ذكر النخيل والأعناب؛ لِما تقدم من عظيم نفعها، ثم ذكر غيرها كالرمان والزيتون وغيره، لأنَّ ذلك مقصود في المقام الذي جاءت فيه من بيان الفواكه والثمار، فقد قال في الأنعام: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وقال في النحل: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وفي ذلك من الامتنان ما لا يخفى، وفي سورة عبس قُصد النظر في ذلك، بل جاء الأمر به فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾[١]، فهذا من حكمة ذكر هذه الأنواع في هذه المواضع.[٢] أمَّا قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾[٣]، فالكلام فيه عن الجنة.

***

(١) سورة عبس، الآية: ٢٤.

(٢) انظر: المرجع السابق.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٦٨.

• المبحث الثالث: الصدق الدلالي في آيات الطبيعة.

إنَّ القرآن الكريم أصدق كتاب عرفته البشرية، ولذا كان بيان ذلك من آياته الأُوَل فقال – عز من قائل–: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾[1]، فهو كتابٌ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾[2]، وذلك جلي في آيات الطبيعة، فرغم أنَّه قد مضى على تَنَزُّلِه أربعة عشر قرناً فإنَّه قد عبَّر عن تلك الآيات الكونية بعبارة غاية في الدّقة لم تصدم الأقوام الذين تنزَّل بين ظهرانيهم بتلك الحقائق التي لم يعهدوها، وكذلك لم يتعارض مع ما جَدَّ من علوم للبشرية، ومَرَدُّ ذلك إلى إعجازه البياني الفريد، وهو قبل ذلك كله تنزيل من العليم الخبير، الذي أحاط علمه بما كان وبما سيكون فلا يغيب عن علمه شيء.

فمن السمات التي يتسم به التعبير القرآني في جميع آياته وفي آيات الطبيعة بوجه خاص سمة الصدق الدلالي: فالمفردة القرآنية والتعبير القرآني غاية في الدلالة على المقصود، وصدق القائل –سبحانه–: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[3]، والقائل –جل شأنه–: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[4].

والصدق الدلالي للقرآن الكريم قد تنبه له الدكتور موريس بوكاي في مقارنته للقرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث يقول عن القرآن: (إنه يحتوي أيضاً على تأملات عديدة خاصة بالظاهرات الطبيعية، وبتفاصيل توضيحية تتفق تماماً مع معطيات العلم الحديث، وليس هناك ما يعادل ذلك في التوراة والإنجيل ... وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ).[5]

➢ ومن أمثلة الصدق الدلالي في آيات الطبيعة: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾[6]، إنَّ اختيار الوصف للشمس بأنَّها ضياء، وللقمر بأنَّه نور يدلُّ على الدقة الإحكام للمفردة القرآنية، ونرى شيئاً مثيلاً لذلك في وصف الشمس بالسراج، أو تشبيهها به، وبالمقابل

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١-٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٢.

(٥) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم دراسة في ضوء المعارف الحديثة، ص١٤٧ وص١٥٢.

(٦) سورة يونس، الآية: ٥.

وصف القمر بأنَّه منير، كما قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾[1]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾[2]، بل زاد على وصفه بالسراج بأنْ وصف السراج بأنَّه وهَّاج في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾[3].

إنَّ الضياء والنور من المتقاربات في الدلالة، قال أبو هلال العسكري -رحمه الله- في الفرق بينهما: (الضياء ما يتخلل الهواء من أجزاء النور فيَبْيَضُّ بذلك، والشاهد أنَّهم يقولون: ضياء النهار، ولا يقولون: نور النهار، إلا أن يعنوا الشمس فالنور الجملة التي يتشعب منها، والضوء: مصدر ضَاءَ يَضُوْءُ ضَوْءًا، يقال: ضَاءَ وأَضَاءَ، أي: ضَاءَ هو وأَضَاءَ غيرَه).[4]

والضوء: ما كان من ذات الشيء المضيء، والنور: ما كان مستفاداً من غيره. وعليه جرى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ ولمَّا امتنَّ الله على الخلق بأنْ جعل الليل والنهار متعاقبين ولم يجعل أحدهما سرمداً قال في افتراضية سرمدية الليل: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[5]، فقال: (بضياء)، ولم يقل: بنور.

والشمس والقمر كلاهما يعطي نوراً، ولكن النظرة الأعمق تتطلب التفريق بين الاثنين؛ فالشمس تعطي ضياء، والقمر يعطي نوراً. ومن الفروق بين الضياء والنور أنَّ الضياء تصحبه حرارةٌ ودفءٌ، أمَّا النور فهو إنارةٌ حليمة، ولذلك يسمى نور القمر: النور الحليم؛ فلا تحتاج إلى ظلٍّ تتقي به حرارته، لكن الشمس تحتاج إلى ظلٍّ أو مظلة؛ لتقيك حرارتها. فالحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتياً من المضيء مثل الشمس. أمَّا القمر فضوؤه غير ذاتي فهو يكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه، فهو مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فتعكسه. فالقمر يضيء بغيره، أمَّا الشمس فهي تضيء بذاتها. لذلك قال الحق -سبحانه-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾.[6]

وكلمة (ضِيَاء) إمَّا أن تُعتبر مفرداً مثل: صام صياماً، وقام قياماً، وضاء ضياءً، وإما أن تُعتبر جمعاً، مثل حوض حياض، ومثل: روض رياض، فتكون ضياء جمع ضوء. وعلى اعتبار

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦١.

(٢) سورة نوح، الآية: ١٦.

(٣) سورة النبأ، الآية: ١٣.

(٤) الفروق في اللغة، ص٥٦٩.

(٥) سورة القصص، الآية: ٧١.

(٦) انظر: محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، ب ط، ١٩٩٧م، ج٩/ ص٥٧٣٨.

أنَّها مفرد فإنَّه يتوجه إلى المعنى العام للضياء، أمَّا على اعتبار الجمع فإنَّه بعد أن تم تحليل ضوء الشمس، وُجِدَ أنَّه مكون من سبعة ألوان هي ألوان الطيف وهذا يصدق على اعتبار أن الضياء جمع. ووصفت الشمس بأنها سراج، والسراج يعطي الضوء والحرارة، وهو وصف مناسب للشمس.(١)

والنُّور أعمُّ من الضياء، فالضياء: نور ساطع قوي، وهو مشتق من الضوء، فالضياء أقوى من الضوء، أما النور: فهو مشتق من النار وهو الشعاع، لذا فإنَّ النور يصدق على الشعاع الضعيف وعلى الشعاع القوي، ومن ذلك فضياء الشمس نور، ولكن نور القمر ليس بضياء، قال ابن عاشور –رحمه الله–: (هذا هو الأصل في إطلاق هذه الأسماء، لكن يكثر في كلام العرب إطلاق بعض هذه الكلمات في موضع بعض آخر بحيث يعسر انضباطه)(٢). والقرآن الكريم جاء بلغة العرب، وقد وظَّف اللغة خير توظيف، وهذا مما أعجزهم عن أن يأتوا بمثله.

إنَّ القرآن الكريم يخص كلاً من الشمس والقمر بصفات غير مسألة الحجم، فالشمس سراج وضياء، أي: أنها مصدر للضوء، والقمر منير وهذا وصف لا يؤدي مؤدى سابقه، إن اختيار هذا الوصف لكل منهما يدلُّ على أنَّهما ليسا من طبيعة واحدة.(٣) وهذا مظهر من مظاهر الصدق الدلالي في آيات الطبيعة، وقد نتج ذلك عن دقة اختيار المفردة القرآنية.

- ومن ذلك استخدام الفعل: (يكوّر) في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾(٤)، فلم يقل: يبسط الليل ويبسط النهار! ولو قيل ذلك لاقترب من المراد، غير أنَّ الصدق الدلالي في آيات الطبيعة استدعى أن يعبِّر بهذا التعبير ليوافق الصورة الحقيقة لذلك، فالمراد من تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل: أن يأخذ الليل والنهار صورة مخصوصة من الإحاطة بالأرض إحاطة اللفافة على الكرة، أو كتكوير العمامة على الرأس، بطريقة يتعاقب فيها الليل والنهار بعضهما على بعض، ويلحظ هنا استخدام الفعل المضارع (يكور)؛ ليدلَّ ذلك على تجدد هذا الأمر وتكرره، ولاستحضار حالة التكوير وآثار ذلك.(٥)

---

(١) المرجع السابق.

(٢) التحرير والتنوير، ج١١/ ص٩٤.

(٣) يقول الدكتور موريس بوكاي: (وصف الشمس والقمر في التوراة لا يعدو أنهما منيرين مع إضافة أن الشمس أكبر حجماً من القمر). انظر: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، ص١٨٦.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٥.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٣/ ص٣٢٨. وانظر: عبدالفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص٨٥.

➢ ومن ذلك ما جاء في التعبير عن المشرق والمغرب بالمفرد وبالمثنى وبالجمع في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾[3]، وفي كل ذلك صدق دلالي سيأتي بيانه في الفصل التالي.[4]

وكل حقيقة علمية ثابتة تحدث عنها القرآن الكريم يصلح أن تكون مثالاً لهذا المبحث، وفيما ذكر دلالة على المقصود، والمهتمون بالتفسير العلمي أو ما يسمى بالإعجاز العلمي في القرآن قد بسطوا القول في ذلك.

***

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٧.

(٣) سورة المزمل، الآية: ٩.

(٤) انظر: فصل المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة، المبحث الأول: اختلاف الآيات المتشابهة في المفردات، ثالثاً: إفراد لفظ في موضع وتثنيته أو جمعه في موضع آخر.

• المبحث الرابع: اختلاف القراءات في آيات الطبيعة.

أُنزل القرآن الكريم على سبعة أحرف، فله قراءات متعددة تتكامل فيما بينها ولا تتعارض، فهو اختلاف تنوع وليس اختلاف تضادّ، فإن الأخير محال أن يوصف به كتاب الله، وقد قال –سبحانه–: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾(١).

ولعل أشهر ما يستدلُّ به على تعدد الأحرف والقراءات ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– قال: سمِعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرَأُ سورةَ الفُرقانِ في حياةِ رسولِ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم–، فاستمَعتُ لقراءتِه، فإذا هو يَقرَأُ على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقرِئْنيها رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم–، فكِدتُ أُساوِرُه في الصلاةِ، فتصبَّرتُ حتى سلَّم، فلبَّبتُه بردائِه فقلتُ: مَن أقرَأك هذه السورةَ التي سمِعتُك تَقرَأُ؟ قال: أقرَأنيها رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم–، فقلتُ: كذَبتَ، فإنَّ رسولَ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم– قد أقرَأنيها على غيرِ ما قرَأتَ، فانطلَقتُ به أقودُه إلى رسولِ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم–، فقلتُ: إني سمِعتُ هذا يَقرَأُ بسورةِ الفُرقانِ على حروفٍ لم تُقرِئْنيها، فقال رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم– : (أرسِلْه، اقرَأْ يا هشامُ). فقرَأ عليه القراءةَ التي سمِعتُه يَقرَأُ، فقال رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم–: (كذلك أُنزِلَتْ). ثم قال: (اقرَأْ يا عُمَرُ). فقرَأتُ القراءةَ التي أقرَأني، فقال رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم–: (كذلك أُنزِلَتْ، إنَّ هذا القرآنَ أُنزِل على سبعةِ أحرُفٍ، فاقرَؤوا ما تيسَّر منه).(٢)

ومن هذا الحديث يتضح أنَّ الأحرف السبعة هي وجوه أداء اللفظ القرآني، وليس المقصود بها سبع لغات أو لهجات من لهجات العرب أو من لغات غيرهم، يؤكد ذلك أنَّ عمر بن الخطاب وهشام بن الحكم –رضي الله عنهما– كلاهما من قريش لهما لهجة ولغة واحدة.(٣) فالمراد بالسبعة أحرف في الحديث: سبعة وجوه، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾(٤)، قال ابن قتيبة: (أراد سبحانه وتعالى: من الناس من يعبد الله على الخير يصيبه من تثمير المال، وعافية البدن، وإعطاء السؤال، فهو مطمئن ما دام ذلك له، وإن امتحنه الله تعالى باللَّأْواء في عيشه، والضرَّاء في بدنه وماله، كفر به. فهذا عَبَدَ الله على وجه واحد)(٥).

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب٦٦: فضائل القرآن، باب٥: أنزل القرآن على سبعة أحرف، الحديث رقم: (٤٩٩٢)، ج٣/ ص٣٣٩.

(٣) عدنان زرزور، علوم القرآن وإعجازه، ج١/ ص١٧٩.

(٤) سورة الحج، الآية: ١١.

(٥) تأويل مشكل القرآن، ص١٣٣.

والقراءات الصحيحة التي قرأ بها الأئمة، أو التي يقرأ ويتعبد بها معلومة بالتواتر، ولا يحلّ إنكارها! قال ابن الجزري –رحمه الله– في ذلك: (وكل ما صحَّ عن النبي –صلى الله عليه وسلم– من ذلك فقد وجب قبوله –ولم يسمع أحداً[١] من الأمة ردّه– ولزم الإيمان به، وأنَّ كلَّه منزَّل من عند الله إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية)[٢]، وقد رأى اختلاف القراءات لا يخلو من ثلاثة أحوال[٣]:

الأول: اختلاف القراءات في اللفظ والمعنى واحد، ومثال ذلك: (الصراط، والسراط، والزراط) فقرأ الجمهور بالصاد، وقرأ ابن كثير في رواية قنبل بالسين، وقرأ حمزة في رواية خلف بالزاي وهو إشمام[٤].

الثاني: اختلاف القراءات في اللفظ والمعنى، مع جواز اجتماعها في شيء واحد، ومثاله: (مالك يوم الدين، وملك يوم الدين)، قرأ الجمهور بدون ألف بعد الميم (ملك) على أنه صفة مشبهة، وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف (مالك) بالألف على أنَّه اسم فاعل، وكلاهما مشتق من مَلَكَ[٥].

الثالث: اختلاف القراءات في اللفظ والمعنى، مع امتناع اجتماعها في شيء واحد، ولكنَّها تتفق من وجه آخر لا يقتضي التضاد، ومثاله: (وظنوا أنَّهم قد كُذِّبوا، وظنوا أنَّهم قد كُذِبوا) بتشديد الذال وبتخفيفها، فبالتشديد يكون المعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، فالظن هنا يقين، والضمائر تعود للرسل، وبالتخفيف: توهم المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به، والظن هنا شك، والضمائر تعود للمرسل إليهم.[٦] وروى البخاري عن عروة ابن الزبير أنَّه سأل عائشة–رضي الله عنهم جميعاً– عن قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾[٧] قال: قلت:("أكُذِبوا أم كُذِّبوا"؟ [أي: بتخفيف الذال أم بتشديدها] قالت: "كُذِّبوا" [أي: بتشديدها]، قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم، فما هو بالظَّنِّ؟ قالت عائشة: أجل لعَمري، لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: "وظنوا أنَّهم قد كذِبوا" [أي: بتخفيفها]، قالت: معاذ الله! لم تكن الرسل تظنُّ ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدَّقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر،

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل فيها تصحيف، بين (يسمع– نسمع)، أو أنَّه خطأ مطبعي.

(٢) محمد بن محمد ابن الجزري الدمشقي، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع، دار الكتب المصرية، بيروت–لبنان، ب ط، ب ت، ج١/ ص٥١.

(٣) المرجع نفسه، ج١/ ص٤٩–٥٠.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١/ ص١٩٠.

(٥) المرجع نفسه، ج١/ ص١٧٥.

(٦) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١/ ص٥٠.

(٧) سورة يوسف، الآية: ١١٠.

حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أنَّ أتباعهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك)[1]. قال ابن عاشور -رحمه الله-: (وهذا الكلام من عائشة-رضي الله عنها- رأيٌ لها في التفسير، وإنكارها أن تكون "كذِبوا" مخففة إنكار يستند بما يبدو من عود الضمائر إلى أقرب مذكور وهو الرسل ... ولم تكن عائشة قد بلغتها رواية "كذِبوا" بالتخفيف)[2].

ومن القراءات ما كان **(إقراءً)** من النبي، ومنها ما كان **(إقراراً)** منه-صلى الله عليه وسلم -. ولا مجال للاجتهاد في ذلك فيجب الاقتصار فيها على السماع ليس غير.[3]

والعلماء قد بحثوا في حكمة تعدد القراءات، ومما قالوا في ذلك: التسهيل والتخفيف على الأمة، وبيان شرف هذه الأمة على الأمم السابقة، وإعظام أجرها من إفراغ جهدهم في ذلك، وإظهار سر الله في حفظ كتابه، والتكامل بين القراءات؛ فما أَجْمَلته قراءة يأتي تفصيله في قراءة أخرى.[4]

ومن الحكم التي لها صلة وثيقة بهذا البحث ما ذكره العلماء من أنَّ تعدد القراءات يُعَدُّ وجهاً من وجوه إعجاز القرآن البياني، فقال السيوطي-رحمه الله-: (من وجوه إعجاز القرآن وإيجازه تنوع قراءاته... وهذا نوع عظيم من البلاغة أن يقرأ اللفظ الواحد بجوهره يقرأ على وجهين، فيفيد بهذا الاعتبار معنين).[5] وقال في فوائد اختلاف القراءات: (ومنها: المبالغة في إعجازه بإيجازه؛ إذ تنوع القراءات بمنزلة الآيات ولو جعلت دلالة كل لفظة آيةً على حدة لم يخفَ ما كان فيه من التطويل، ولهذا كان قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾[6] منزلاً لغسل الرِّجل، والمسح على الخفِّ، واللفظ واحد، لكن باختلاف إعرابه).[7]

وقال الرافعي -رحمه الله- في حكمة اختلاف القراءة وطرق الأداء: (وثالثة تلحق بمعاني الإعجاز، وهي أن تكون الألفاظ في اختلاف بعض صورها مما يتهيأ معه استنباط حكم، أو تحقيق معنى من معاني الشريعة، ولذا كانت القراءات من حجة الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد، وهذا

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب٦٥: التفسير (١٢-سورة يوسف)، باب٦: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، الحديث رقم: (٤٦٩٥)، ج٣/ ص٢٤٥.

(٢) التحرير والتنوير، ج١٣/ ص٧٠.

(٣) عدنان زرزور، علوم القرآن وإعجازه، ج١/ ص١٧٥.

(٤) ينظر في فوائد تعدد القراءات: ابن الجزري، النشر، ج١/ ص٥٢، وانظر: السيوطي، الإتقان، ج٢/ ص٥٣٢، وانظر: أحمد محمد الخراط، والإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- الشؤون العلمية، المدينة المنورة-السعودية، ب ط، ١٤٢٦هـ، ص١٣ وما بعدها.

(٥) جلال الدين السيوطي، قطف الأزهار في كشف الأسرار، تحقيق: أحمد محمد الحمادي، إدارة الشؤون الإسلامية-وزارة الأوقاف، دولة قطر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج١/ ص٩٧.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٧) السيوطي، الإتقان، ج٢/ ص٥٣٢.

المعنى مما انفرد به القرآن الكريم، **ثم هو مما لا يستطيعه لغويّ أو بياني في تصوير خيالٍ، فضلاً عن تقرير شريعة)**.[١]

وقال ابن عاشور-رحمه الله-: (على أنَّه لا مانع من أنْ يكون مجيء ألفاظ القرآن على ما يحتمل تلك الوجوه مراداً لله تعالى؛ ليقرأ القراء بوجوه فتكثر من جراء ذلك المعاني، فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات مجزئاً عن آيتين فأكثر، وهذا نظير التضمين في استعمال العرب، ونظير التورية والتوجيه في البديع، ونظير مستتبعات التراكيب في علم المعاني، وهو من زيادة ملاءمة بلاغة القرآن)[٢].

ورأى الأستاذ عبدالرحمن الميداني -رحمه الله- في تعدد القراءات إضافة إلى التكامل المعنوي بين الآيات، تكاملاً في الأداء البياني، كأن يُراعى في النصّ توجيهه مرّة بأسلوب الحديث عن الغائب، وتوجيهه مرّة بأسلوب الخطاب الوجاهيّ المباشر، مثل: (وما الله بغافل عما يعملون، وما الله بغافل عما تعملون). وكأن يراعي في النصّ توجيهه بالبناء للمعلوم مرّة، وأخرى بالبناء لما لم يُذكر فاعله، مثل: (نغفر لكم خطاياكم، ويُغفَر لكم خطاياكم). وفي ذلك أيضاً تنويع في الأداء الفنّي الجمالي، مع ما قد يتضمّنه من دلالات فكرية وبيانية. مثل جعل فعل الشرط بصيغة الفعل الماضي في قراءة، وجعله بصيغة الفعل المضارع في قراءة أخرى، مثل: (ومن تطوّع خيراً، ومن يطوّع خيراً). ففي كل من القراءتين صيغة جمالية قصد التنزيل التنبيه عليها، واستخدامها باعتبارها عنصراً من عناصر الإعجاز الفنّي، وهذه الأغراض يمكن اعتبارها إحدى وجوه الإعجاز في القرآن المجيد.[٣] وقد ألفَّ الدكتور أحمد الخراط كتاباً في ذلك سماه: (الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة).

وهذا البحث اعتمد في فصوله ومباحثه على رواية حفص عن عاصم، إلا أنَّ هذا المبحث يحاول التمثيل على الإعجاز البياني في آيات الطبيعة من خلال اختلاف القراءات.

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ

---

(١) إعجاز القرآن، ص٤٧-٤٨.

(٢) التحرير والتنوير، ج١/ ص٥٥.

(٣) عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، دار القلم، دمشق- سوريا، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٧٢٢-٧٢٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾[2]، فاختلفت القراءات في قوله: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[3]:

١) قرأ عاصم بالباء في: (بُشْراً) بضم الباء وسكون الشين.

٢) وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير وأبو جعفر بالنون: (نُشُراً) بضم النون والشين.

٣) وقرأ ابن عامر: (نُشْراً) بضم النون وسكون الشين.

٤) وقرأ حمزة والكسائي وخلف: (نَشْراً) بفتح النون وسكون الشين.

وهذه القراءات جمعت معانٍ متعددة، ودلالات متنوعة، تتكامل ولا تتناقض، وبيان ذلك: أنَّ معنى قراءة من قرأ (بُشْراً) مأخوذ من البشارة والتبشير، وهو الإخبار بما يسرّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾[5]، وأصلها (بُشُراً) بضم الباء والشين، ثم خففت بتسكين الشين، و(بُشراً) جمع بشير، فهي من فعيل الذي يُجمع على (فُعُل)، مثل: رغيف تجمع على رُغُف، ونذير على نُذُر كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾[6]، ووجه معنى البشارة في ذلك أنَّ الرياح تأتي بين يدي الغيث مُبشِّرة به، وسائقةً له.[7] قال الزجّاج –رحمه الله–: (ومن قرأ: بُشْراً فهو جمع بشيرة وبُشُرٍ)[8]. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾[9].

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.

(٣) انظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج٢/ ص٢٦٩-٢٧٠. وانظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج٢/ ص٣٤٥. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، القسم الثاني من ج٨/ ص١٧٩-١٨٠. وانظر: أحمد الخراط، الإعجاز البياني في ضوء القراءات، ص٢٤٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٥) سورة الفتح، الآية: ٨.

(٦) سورة النجم، الآية: ٥٦.

(٧) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، القسم الثاني من ج٨/ ص١٨٠. وانظر: أحمد الخراط، الإعجاز البياني في ضوء القراءات، ص٢٤٧.

(٨) معاني القرآن وإعرابه، ج٢/ ص٣٤٥.

(٩) سورة الروم، الآية: ٤٦.

أمَّا معنى قراءة (من قرأ: "نُشُراً" فهو جمع نَشُور، مثل: رَسُول ورُسُل)[(١)]، والنَّشُور: الريح الحية الطيبة؛ لأنَّها تنشر السحاب، أي: تبثه وتكثره في الجو، فيصبح كالشيء المنشور، ففعول هنا بمعنى فاعل، أي: نشور فهي ناشرة، وفعول كصبور وشكور من صيغ المبالغة، كما يجوز أن تكون نَشور من فَعول بمعنى مفعول، أي: نشور فهي منشورة، ويصدق ذلك على الرياح؛ لأنَّها منشورة في الجو مبثوثة فيه ومتفرقة في جهات متعددة، والنشر التفريق في جهات كثيرة.[(٢)]

أمَّا قراءة من قرأ (نُشْراً) فقال الزجَّاج–رحمه الله–: (ومن قال: نُشْراً فهو جمع نشور ونُشُر)[(٣)]، فهي تخفيف من سابقتها (نُشُر) كما يقال في رُسُل: رُسْل.[(٤)]

بقى قراءة من قرأ (نَشْراً) قال ابن منظور–رحمه الله–: (النَّشْر: الريح الطيبة.. والنَّشْر الحياة .. وأنشر الله الريح: أحياها بعد موت وأرسلها نَشْراً ونَشَراً)[(٥)]، قال الزجاج–رحمه الله–: (ومن قرأ نَشْراً فالمعنى: وهو الذي يُنْشِر الرياح منتشرة نَشْراً)[(٦)]، على أنَّها مصدر من الفعل (نَشَرَ– يُنْشِر– نَشْراً)، ويكون انتصابها إمَّا على أنَّها مفعول مطلق؛ لأنَّ الفعل (نشر) مرادف للفعل (أرسل) بمعناه المجازي، أي أرسل الرياح إرسالاً، ونشرها نشراً، وإمَّا أن تكون منصوبة على أنَّها حال من الرياح، أي: أرسل الرياح ناشرةً السحاب، أو من الضمير في أرسل، أي: أرسل الرياح ناشراً، أي: محيياً بها الأرض الميتة، أي محيياً بآثارها من الغيث وغيره.[(٧)] والنَّشْر: هو الإحياء والبعث، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾[(٨)]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[(٩)]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ﴾[(١٠)]، قرأ ابن عامر والكوفيون (ننشزها) بالزاي، أي: نرفعها، وقرأ الباقون (ننشرها) بالراء[(١١)]، أي: نحييها؛ فإنشارها إحياؤها. والرياح بما لها من آثار على السحاب وعلى التربة تكون سبباً في إحياء الأرض بعد موتها[(١٢)]، ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ

---

(١) لسان العرب، مادة (نشر)، ج٥/ ص٢٠٧.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، القسم الثاني من ج٨/ ص١٧٩.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، ج٢/ ص٣٤٥.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، القسم الثاني من ج٨/ ص١٧٩.

(٥) لسان العرب، مادة (نشر)، ج٥/ ص٢٠٦–٢٠٧.

(٦) معاني القرآن وإعرابه، ج٢/ ص٣٤٥.

(٧) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، القسم الثاني من ج٨/ ص١٨٠.

(٨) سورة عبس، الآية: ٢٢.

(٩) سورة الملك، الآية: ١٥.

(١٠) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

(١١) انظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج٢/ ص٢٣١. وانظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج١/ ص٣٤٤.

(١٢) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (نشر)، ج٥/ ص٢٠٦.

﴿سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾[1]. وقيل: النَّشْر خلاف الطَّي[2]، فكأن الرياح أو السحب كانت مطوية ثم نشرت بعد ذلك[3]. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾[4]، فالصحف كانت مطوية ثم نشرت، ونَشَرت الريح: هبَّت في يوم غيمٍ خاصة[5]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾[6]، قيل: هي الرياح، وقيل: الملائكة.[7]

وقال ابن فارس–رحمه الله–: (النون والشين والراء أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على فتح شيء، وتشعبه... ونشرت الأرض: أصابها الربيع، وهي ناشرة، وذلك النبات النَّشْر .. ويقال لمن جمع أمره: قد ضُمَّ نشره)[8].

وما تقدم من معاني هذه القراءات هي من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ذلك أنَّ كلمةً واحدة حملت كل هذه المعاني بتغيير طفيف بين نقاطها أو حركاتها (فحصل من مجموع هذه القراءات أنَّ الرياح تنشر السحاب، وأنها تأتي من جهات مختلفة تتعاقب فيكون ذلك سبب امتلاء الأسحبة بالماء، وأنَّها تحيي الأرض بعد موتها، وأنَّها تبشر الناس بهبوبها، فيدخل عليهم بها السرور).[9] ثم إن الرسم العثماني للمصحف الشريف راعى تلك القراءات! لذا فكلمة (بُشْراً) على قراءة عاصم لم تكتب الألف فيها مقصورة (بشرىً)؛ ذلك ليستوعب الرسم القراءات الأخرى.

وكذلك اختلفت القراءات في قوله: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾[10]:

١) فقرأ الجمهور: (الرياح) بصيغة الجمع.

٢) وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: (الريح) بصيغة المفرد.

ووُجِّه ذلك: بأنَّه باعتبار الجنس، فهو مساوٍ لقراءة من قرأ بالجمع[11]، وقال ابن عطية –رحمه الله–: (من جمع الريح في هذه الآية فهو أسعد، وذلك أنّ الرياح حيث وقعت في القرآن فهي

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٩.

(٢) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (نشر)، ج٢/ ص٥٦٠.

(٣) انظر: أحمد الخراط، الإعجاز البياني في ضوء القراءات، ص٢٤٩.

(٤) سورة المدثر، الآية: ٥٢.

(٥) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (نشر)، ج٥/ ص٢٠٧.

(٦) سورة المرسلات، الآيات: ١-٣.

(٧) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٣/ ص٥٨٠ وما بعدها.

(٨) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (نشر)، ج٢/ ص٥٦٠.

(٩) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، القسم الثاني من ج٨/ ص١٨٠.

(١٠) انظر: المرجع نفسه، وانظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج٢/ ص٢٢٣-٢٢٤.

(١١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، القسم الثاني من ج٨/ ص١٧٩.

مقترنة بالرحمة، كقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[2]، وأكثر ذكر الريح المفردة إنما هو بقرينة عذاب، كقوله: ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3] ونحو ذلك .. ومن قرأ بالإفراد فتقييدها بالنشر يزيل الاشتراك بينها وبين الريح المكروهة).[4]

➢ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[5]، ودلالات هذه الآية كانت موضع اهتمام لدى المشتغلين بالتفسير العلمي[6]، غير أنَّ ذلك ليس موضوع هذا البحث، وقد اختلفت القراءات في قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[7]:

١) فقرأ ابن كثير: (يَصْعَد) بإسكان الصاد وتخفيف العين من غير ألف.

٢) وقرأ أبو بكر عن عاصم: (يَصَّاعَد) بتشديد الصاد وألف بعدها.

٣) وقرأ الجمهور: (يَصَّعَّد) بتشديد الصاد والعين من غير ألف.

وكلُّ قراءة من هذه القراءات تعطي دلالات إضافية للآية، فقراءة من قرأ (يَصْعَد) تعطي المعنى العام للصعود، أي: الطلوع[8]، فالمعنى: أن الكافر الذي أضلَّه الله يجد صعوبة في الإيمان

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٤.

(٤) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٢/ ص٤١٢.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٦) فمن التفسير العلمي للآية: أنَّه –بعد اكتشاف الوسائل الحديثة كالطائرات والمراكب الفضائية– وُجِدَ أنَّ جسم الإنسان يتأثر كلما ارتفع عن مستوى سطح البحر بفعل الضغط، مما يسبب ضيقاً في الصدر وحرجاً في النفس، فإن استمر في ذلك دون وقاية هَلَكَ، لذا فإن روَّاد الفضاء يضطرون للبس بِزَّات واقية من ذلك، وتفسير ذلك من الناحية العلمية: أنَّ الإنسان له ضغط داخلي، ويحيط به ضغط خارجي، وكلما ارتفع في الجو كلما انخفض الضغط الجوي، فيسبب ذلك ارتفاع ضغطه الداخلي، كما أنَّ الأكسجين يقل فيصعب التنفس، وهذه ظواهر له تأثيرها على وظائف الجسم. انظر: عبدالجواد الصاوي: ضيق الصدر والتصعد في السماء، منشور على موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تاريخ الدخول (٤-١-٢٠١٥م) على الرابط الآتي: http://www.eajaz.org/index.php/component/content/article/69-Tenth-Issue/584-Tight-chest-and-Altassad-in-the-sky

(٧) انظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج٢/ ص٢٦٢. وانظر: الطبري، جامع البيان، ج٩/ ص٥٥٠. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، القسم الأول من ج٨/ ص٥٩-٦٠. وانظر: أحمد الخراط، الإعجاز البياني في ضوء القراءات، ص١٦٠.

(٨) انظر: تفسير القرطبي، ج٧/ ص٥٤.

كلما فكر فيه كما يجد من أرد الصعود إلى السماء من صعوبة.[1] فكأنَّ هذه القراءة تمثل المرحلة الأولية لحالات الصعود، وبيان صعوبته[2].

وقراءة من قرأ (يَصَّاعَد) أصلها (يَتصَاعَد) على وزن (يتفاعل)، وأبدلت فيه تاء الافتعال صادا؛ لمناسبة حرف الإطباق أي: مناسبة الصاد الأصلية في الفعل، ثم أدغمتا. وهذه القراءة قد أُضيف فيها على القراءة السابقة حرفان، وصيغة (يتفاعل) فيها مفاعلة، فكأنَّه يحاول الصعود ويجد ما يجذبه إلى الأسفل مما يحدث المفاعلة، وهذه مرحلة أصعب من سابقتها، وفيه معنى فعل شيء بعد شيء، وذلك أثقل على فاعله.[3]

وقراءة من قرأ (يَصَّعَّد) وأصلها (يَتَصَعَّد) على وزن (يتفعَّل)، وإمَّا أن تكون تاء الافتعال أُبدلت طاء؛ لتناسب حروف الإطباق، وهذا مطَّرد فيها؛ لأن التاء شبيهة بحروف الإطباق، ثم أدغمت إدغام المتقاربين، أو أنَّها أُبدلت صاداً؛ ثم أُدغمت مع صاد الفعل إدغام المتماثلين. والمعنى على هذه القراءة (يَصَّعَّد في السماء) أي: يتكلف الصعود إلى السماء.[4] فهو يتكلَّف ما يثقل عليه، والتكلُّف في هذه الصيغة كما في (يتجرع) من قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾[5]، فهو يتكلَّف شربه ولا يطيقه، كما أنَّ الكافر الذي لم يشرح الله صدره للإسلام إن فكر فيه فهو يتكلَّفه كما يتكلَّف الصاعد إلى السماء ذلك ولا يطيقه.[6]

وصيغة هذه القراءة قريبة من قول عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: (ما تصَعَّدَني شيءٌ ما تصَعَّدَتْني خُطبةُ النكاح).[7] ولعل منه قوله تعالى: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾[8] أي: سأكلِّفه مشقة من العذاب لا راحة فيها، وقيل صعود جبل في جهنم.[9]

---

(١) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٢/ ص٣٤٣.

(٢) انظر: أحمد الخراط، الإعجاز البياني في ضوء القراءات، ص١٦١.

(٣) المرجع نفسه. وانظر: تفسير القرطبي، ج٧/ ص٥٤.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، القسم الأول من ج٨/ ص٦٠.

(٥) سورة إبراهيم، الآيتان: ١٦–١٧.

(٦) انظر: تفسير القرطبي، ج٧/ ص٥٥.

(٧) ذكره ابن جرير في تفسيره، انظر: ج٩/ ص٥٥١

(٨) سورة المدثر، الآية: ١٧.

(٩) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٣/ ص٤٢٦.

قال ابن جرير -رحمه الله-: (وهذا مثلٌ من الله -تعالى ذكرُه- ضربه لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إيَّاه عن وصوله إليه، مثلَ امتناعه من الصعود إلى السماء، وعجزه عنه؛ لأنَّ ذلك ليس في وُسْعِه).[١]

وهذه كلمةٌ واحدةٌ في معنى واحد إلا أنَّ زيادة حرف أو حرفين عليها أعطى دلالات إضافية، فهذا على قاعدة: "الزيادة في المبنى زيادة في المعنى"[٢]، وهو من الإعجاز البياني في اختلاف القراءات.

كما يضاف إليه الجرس الذي تحدثه هذه الكلمة (يصعد) بجميع قراءاتها من تصوير للحالة، وذلك من خلال ما فيها من حروف وصفات لتلك الحروف من الصفير والاستعلاء والتفخيم مما يُلحظ في حرفي الصاد والدال، أما حرف العين الذي مخرجه الحلق وهو قريب من الصدر، والحلق والصدر موضعان يظهر فيهما ضيق النفس من الصعود أو ما شابهه، وفي ذلك كله تجسيد للمعنى من خلال الصوت.[٣]

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾[٤].

---

(١) المرجع السابق، ج٩/ ص٥٤٩.

(٢) قال ابن جني -رحمه الله-: (باب في قوة اللفظ لقوة المعنى... وبعد فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني، ثم زيد فيها شيء، أوجبت القسمة له زيادة المعنى به). انظر: عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية-المكتبة العلمية، القاهرة- مصر، ب ط، ب ت، ج٣/ ٢٦٨. قال ابن هشام-رحمه الله- في معرض كلامه عن أنَّ (سوف) أوسع معنى من السين: (كأنَّ القائل بذلك نظر إلى أنَّ كثرة الحروف تدلُّ على كثرة المعنى، وليس بمطَّرد). انظر: عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: حسن حمد، ود.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج١/ ص٢٧٦. وقد تكون الزيادة نقصاً كما في (شجرة وشجر). وخرج عن هذه القاعدة أيضاً (حاذر، وحَذِر) فإن الثانية صيغة مبالغة من الأولى والثانية أقل في المبنى من الأولى، ولكنَّها أكثر في المعنى، فكان النقص في المبنى زيادة في المعنى. ومنهم من اشترط فيها شروطاً، ومنهم من قال: أنَّ الأولى أن يكون المعنى هو المؤثر في اللفظ وليس العكس. انظر: محمد ذنون الراشدي: إشكالية زيادة المبنى ودلالتها على زيادة المعنى- دراسة تطبيقية على السين وسوف في القرآن الكريم، بحث منشور في مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، بجامعة الموصل، المجلد الثامن، العدد الرابع، ٢٠٠٩/١/٢٢م، ص١٨٣.

(٣) انظر: أحمد الخراط، الإعجاز البياني في ضوء القراءات، ص١٧١-١٧٢.

(٤) سورة الرحمن، الآيات: ٣٣-٣٥.

وهذه الآيات أيضاً كانت موضع اهتمام لدى المشتغلين بالتفسير العلمي[1]، وقد اختلفت القراءات في قوله: ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾[2]:

١) فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب: (ونحاسٍ) بالجر.

٢) وقرأ الجمهور: (ونحاسٌ) بالرفع.

(والشواظ: (بضم الشين، وبكسرها) اللهب الذي لا يخالطه دخان؛ لأنه قد كمل اشتعاله، وذلك أشدُّ إحراقاً)[3]. واختلاف القراءات في (نحاس) في الإعراب وليس في الصيغة كسابقتها، ولكنَّ اختلاف الإعراب يدلُّ على اختلاف المعنى؛ لأنَّ الإعراب إنَّما يُبنى على المعنى[4].

ومن ذلك فإن قراءة من قرأ بالجر (ونحاسٍ) معطوفة على (نارٍ) فهي مجرورةٍ بمن. والمعنى: يرسل عليكما شواظ من نار ومن نحاس. فيكون الشواظ من النحاس أيضاً، (أي: شواظ

---

(١) من التفسير العلمي لهذه الآيات ما قاله الدكتور زغلول النجار: والآيات تحوي عدداً من الحقائق الكونية منها: إنَّ الأرض ليست تامة الاستدارة؛ لانبعاجها قليلا عند خط الاستواء، وتفلطحها قليلا عند القطبين. ولذا يستحيل على الإنسان اختراق الأرض من أقطارها لارتفاع كل من الضغط والحرارة باستمرار في اتجاه المركز مما لا تطيقه القدرة البشرية، ولا التقنيات المتقدمة التي حققها إنسان هذا العصر، وبالنسبة للنفاذ من أقطار السماوات فإنَّ أبعاد الجزء المدرك من السماء الدنيا تبلغ من الضخامة ما لا يمكن أن تطويها قدرات كل من الإنس والجن، فإذا حاول الإنسان الخروج من أقرب الأقطار إلى الأرض فإنَّه يحتاج إلي عشرين ألف سنة وهو يتحرك بسرعة الضوء لكي يخرج من أقطار مجرتنا وهل يطيق الإنسان ذلك؟

وقال: "وقد اتصل بي أخ كريم هو الدكتور عبدالله الشهابي، وأخبرني بأنَّه زار معرض الفضاء والطيران في مدينة (واشنطن دي سي) الذي يعرض نماذج الطائرات من بداياتها الأولي إلي أحدثها، كما يعرض نماذج لمركبات الفضاء، وفي المعرض شاهد قطاعاً عرضياً في كبسولة (أبو اللو) وأذهله أن يري علي سطحها خطوطا طولية عديدة غائرة في جسم الكبسولة ومليئة بكربونات النحاس (جنزار النحاس)، وقد لفتت هذه الملاحظة نظره فذهب إلى المسؤول العلمي عن تلك الصالة وسأله: هل السبيكة التي صنعت منها الكبسولة يدخل فيها عنصر النحاس؟ فنفي ذلك نفياً قاطعاً، فأشار إلى (جنزار النحاس) علي جسم الكبسولة وسأله: من أين جاء هذا؟ فقال له: من نوي ذرات النحاس المنتشرة في صفحة السماء التي تضرب جسم الكبسولة طوال حركتها صعوداً وهبوطاً من السماء، وحينما تعود إلي الأرض وتمر بطبقات بها الرطوبة وثاني أكسيد الكربون فإن هذه الذرات النحاسية التي لصقت بجسم الكبسولة تتحول بالتدريج إلي جنزار النحاس. ويقول الدكتور الشهابي: إنَّه على الفور تراءت أمام أنظاره الآية القرآنية الكريمة التي يقول فيها ربنا تبارك وتعالى:﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾". انظر: زغلول النجار: النفاذ من أقطار السماوات والأرض، موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي، تاريخ الدخول (١٥-٤-٢٠١٤م) على الرابط الآتي:
http://www.eajaz.org/index.php/component/content/article/93-Thirty-number/963-Force-of-the-heavens-and-the-earth

غير أن السياق للآية الكريمة يرد كل هذه التخرصات، فالله -جل جلاله- يقول: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ فالنفاذ من أقطار السماوات لا يستطيعه إنس ولا جن، فالمسألة: بيان استحالة هذا النفاذ .. وأن من حاوله -من إنس أو جن- يعاقب بهذا العذاب، أو يواجه به، ولا يستطيع من ثم فعله!

(٢) انظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج٢/ ص٣٨١. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧/ ص٢٦٠. وانظر: أحمد الخراط، الإعجاز البياني في ضوء القراءات، ص٢٢٠.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧/ ص٢٦٠. وقال مثله ابن فارس في معجم مقاييس اللغة. انظر: ج٢/ ص٦٣٢.

(٤) انظر: فاضل السامرائي، الجملة العربية والمعنى، ص٣٠ وما بعدها.

لهب من نار، ولهب من نحاس ملتهب. وهذه نار خارقة للعادة مثل قوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[1]).[2]

ومن قرأ بالرفع (ونحاسٌ) فإنَّها معطوفة على (شواظ) وهي مرفوعة؛ لأنها نائب فاعل للفعل الذي لم يسمى فاعله (يُرسَلُ) . والمعنى: يرسل عليكم شواظٌ من نار، ويرسل عليكم نحاسٌ. وعلى هذا فإن النحاس شيء مختلف عن الشواظ؛ لأن العطف يفيد التغاير[3]، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس عندما سئل عنهما فقال: الشواظ: اللهب الذي لا دُخان فيه، والنحاس: الدُّخان الذي لا لهب معه.[4]

وهذا الاختلاف جعل للنص دلالات متنوعة تتكامل ولا تتعارض فيما بينها، وهذا النص فيه معنى التحدي للجن والإنس، لذا استدعى التنويع الذي دلَّت عليه معاني القراءات المختلفة للآية، مما يفهم منه التعظيم لقدرة الله من جانب، ومن جانب آخر بيان عجز الثقلين عن ذلك.

***

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧/ ص٢٦٠.

(٣) قال الزركشي –رحمه الله– : (قواعد تتعلق بالعطف.. القاعدة الرابعة: الأصل في العطف التغاير؛ وقد يعطف الشيء على نفسه في مقام التأكيد). انظر: البرهان، ج٤/ ص١١٣.

(٤) انظر: عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، الإعجاز البياني ومسائل نافع ابن الأزرق، ص٣٣٩، وص٣٤٤.

الفصل الثالث

المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة

- المبحث الأول: اختلاف الآيات المتشابهة في المفردات.

- المبحث الثاني: اختلاف الآيات المتشابهة في التراكيب.

الفصل الثالث

المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة

ورد في كتاب الله وصف القرآن الكريم أو بعض آياته بالتشابه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾[2].

والذي يُلحظ في الآيتين الكريمتين أنَّ الأولى كان وصف التشابه فيها للقرآن الكريم جميعه: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾، أمَّا الآية الثانية فقد جاء وصف التشابه لبعض آياته: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾، ومن ذلك ذهب بعض العلماء إلى تفسير التشابه في القرآن باعتبارين، الأول: ما يصح وصف جميع القرآن به، وهو التماثل ونفي الاختلاف والتضاد عنه، كما قال الله –سبحانه– عن كتابه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾[3]، والثاني: ما يختص به بعض القرآن دون بعض، وهو ما يقابل المحكم منه[4].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ ذكر ابن جرير –رحمه الله– اختلاف أهل التأويل في المراد بالمحكم والمتشابه من القرآن على أقوال منها:

١) أنَّ المحكمات: ما أحكم فيه بيان حلاله وحرامه. والمتشابه منها: ما أشبه بعضه بعضاً في المعاني وإن اختلفت ألفاظه.

٢) أنَّ المحكمات: ما لم يحتمل من التأويل غير وجهٍ واحدٍ. والمتشابه: ما احتمل من التأويل أوجهاً.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٤) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج١/ ص٢٤٧-٢٤٩.

٣) أنَّ المحكم ما أحكم الله فيه من آي القرآن، وقصص الأمم ورسلهم الذين أرسلوا إليهم، ففصَّله ببيان ذلك لمحمد –صلى الله عليه وسلم– وأمته. والمتشابه: ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور، بقصّه باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبقصّه باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني.

٤) أنَّ المحكم: ما عرف العلماء تأويله، وفهموا معناه وتفسيره. والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه.[١]

وقال ابن تيمية –رحمه الله–: (في المتشابهات قولان؛ أحدهما: أنَّها آيات بعينها تتشابه على كل الناس، والثاني–وهو الصحيح–: أنَّ التشابه أمر نسبي، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره، ولكن ثَم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة؛ بل القول كله محكم، كما قال: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾).[٢]

والإمام الشوكاني (المتوفى ١٢٥٠هـ) –رحمه الله– قد رجع[٣] كل الأقوال في المحكم والمتشابه إلى قول واحد فقال: (والأولى أنْ يقال: إنَّ المحكم هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة؛ إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره، والمتشابه ما لا يتضح معناه أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره. وإذا عرفت هذا عرفت أنَّ هذا الاختلاف الذي قدمناه ليس كما ينبغي؛ وذلك لأنَّ أهل كلِّ قول عرفوا المحكم ببعض صفاته، وعرفوا المتشابه بما يقابلها).[٤]وكذلك فعل الطاهر بن عاشور–رحمه الله– فقال: (وقد اختلف علماء الإسلام في تعيين المقصود من المحكمات والمتشابهات على أقوال؛ مرجعها إلى تعيين مقدار الوضوح والخفاء).[٥]

والذي ذهب إليه أغلب المؤلفين والباحثين في "متشابه القرآن" تقسيمه إلى قسمين: المتشابه اللفظي، والمتشابه المعنوي، فالمتشابه المعنوي: أو المشكل وهو ما قابل المحكم –الذي تقدم بيانهما–.

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٥/ ص١٩٢–١٩٩.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج١٣/ ص١٤٣–١٤٤.

(٣) رجع من المتعدي واللازم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣﴾ [سورة التوبة، الآية: ٨٣]. قال الفخر الرازي–رحمه الله–: (قوله:﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ يريد إن ردك الله إلى المدينة .. يقال: رجعته رجعاً، كقولك: رددته رداً). انظر: تفسير الفخر الرازي، ج١٦/ ص١٥٤.

(٤) الشوكاني، فتح القدير، ج١/ ص٣٠٨.

(٥) التحرير والتنوير، ج٣/ ص١٥٥.

ويمكن تعريف المتشابه اللفظي بأنَّه: **إيراد المعنى الواحد في صور شتى، وفواصل مختلفة، ومن حكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب متعددة**(١)، وهو باب من أبواب الإعجاز البياني للقرآن الكريم، لذا فإن السيوطي-رحمه الله- في كتابه "معترك الأقران في إعجاز القرآن" جعل المتشابه اللفظي هو الوجه السادس من وجوه إعجازه سمّاه (مشتبهات آياته)(٢).

ويقول ابن فارس: (فأما تكرير الأنبياء والقصص في كتاب الله -جلَّ ثناؤه- فقد قيلت فيه وجوه، وأصحّ ما يقال فيه: أنَّ الله -جلَّ ثناؤه- جعل هذا القرآن -وعجز القوم عن الإتيان بمثله- آيةً لصحة نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، ثم بيّن وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرّر ذكر القصّة في مواضع؛ إعلاماً أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بأيّ نظم جاء وبأيّ عبارة عبّر، فهذا أولى ما قيل في هذا الباب)(٣).

وموضوع المتشابه اللفظي: يدور في فلك الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم وتأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين أو الآيات المتشابهة لفظياً(٤)، وليس المقصد من ذلك معرفة الاختلاف بين الآيتين فحسب -وإن كان ذلك يفيد الحفَّاظ لإتقان حفظهم- بل الأهم من ذلك معرفة الأغراض البلاغية والأسرار البيانية الكامنة خلف هذا الاختلاف، ولا يُدرك ذلك إلا بالتأمل في الآيات، والنظر في السياق الذي جاءت فيه كل آية.

ويمكن القول في التفريق بين المتشابه اللفظي والمتشابه المعنوي: **إنَّ المتشابه اللفظي ميدانه المفردات والتراكيب، والمتشابه المعنوي ميدانه المعاني والدلالات.**(٥)

ومن أمثلة المتشابه اللفظي: التقديم والتأخير في قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ

(١) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج١/ ص١١٢. وتعريف الزركشي نصّه: (إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء، وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب؛ ليعلمهم عجزهم عن جميع ذلك..) وقد رأيت إبدال قوله (القصة الواحدة) بلفظ (المعنى الواحد) لأن المتشابه اللفظي ليس مقصوراً على القصة القرآنية، وإن كان الزركشي -رحمه الله- لم يقصد ذلك وقد دل عليه قوله: (ويكثر في إيراد القصص..) ولو أراد حصره في القصة لما أتبعه بهذه الجملة، كما تم إضافة (من) قبل قوله: (وحكمته) للدلالة على التبعيض؛ حتى لا تحصر حكمة المتشابه اللفظي فيما ذكر.

(٢) انظر: السيوطي، معترك الأقران، ج١/ ص٦٦.

(٣) أحمد بن فارس بن زكريا، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص١٥٨.

(٤) انظر: محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان وسُمي (أسرار التكرار في القرآن)، دراسة وتحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة-مصر، ب ط، ب ت، ص٦٣.

(٥) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج١/ ص٢٥٨.

إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾[1] وفي قوله تعالى من سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾﴾[2]، ففي الأنعام قدم ضمير الآباء المخاطبين على ضمير الأولاد الغائبين فقال: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾، وفي الإسراء قدم ضمير الأولاد الغائبين على ضمير الآباء المخاطبين فقال: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾، والخطيب الإسكافي (المتوفى سنة ٤٢٠هـ) –رحمه الله– هنا يوضح نقطة وهي: أنَّه قد يتوهم أنَّ تقديم ضمير المخاطب أولى من تقديم ضمير الغائب دائماً نحو: "أعطيتكه"، إذ لا يستقيم أنْ يقال: "أعطيتهك" بتقديم الغائب على المخاطب، فيقول: يصح هذا القول إذا كانت الضمائر متصلة بالفعل، أما إذا انفصل أحدهما وعطف على الآخر نحو: "أكرمتك وإياه" أو "أكرمته إياك" فإن كل واحد مختار في مكانه الذي يوجب له التقديم أو التأخير.[3]

وبالتدبر في الآيتين تظهر حكمة ذلك، ففي آية الأنعام الآباء واقع بهم الفقر متلبسين به، ويعلم ذلك من المفعول لأجله وهو الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾؛ ولذا قدمهم في الذكر بشارةً لهم بالرزق ومن ثم رزق أولادهم، أما آية الإسراء فالفقر متوقع غير حاصل فالمفعول لأجله خشية الفقر﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ ﴾؛ ولذا قدم الأولاد الذين يظن الآباء أنَّ وجودهم سيكون سبباً في حدوث الفقر.[4]

كما يضاف لذلك أنَّ الآية في سورة الأنعام جاءت في سياق بيان ما حرم الله عليهم من الشرك وعقوق الوالدين وقتل الأولاد والفواحش والقتل، فناسب أن يقدم المخاطَبين بذلك كله وهم الآباء، أما في سورة الإسراء فقد اختصت الآية بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر، فناسب تقديم من اختصت الآية بهم –والله أعلم وأحكم–.

والمتشابه اللفظي قد يكون متماثلاً تماماً، فيكون بتكرار الجملة أو الآية إما في موضع واحد أو في مواضع متفرقة، وهذا النوع من المتشابه اللفظي يفيد توكيد المعنى وتقريره في نفس

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

(٣) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٢/ ص٥٦١.

(٤) انظر: المرجع نفسه، وانظر: بسيوني عبدالفتاح بسيوني، من بلاغة النظم القرآني، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص٨٠.

السامع[1]، ويقل أن تجد الآية متماثلة مع الآية كلمة بكلمة، فالغالب أن تجد فرقاً ولو يسيراً، ومما جاءت فيه الآيات متماثلة تماثلاً تاماً قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تكررت في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة، وقوله تعالى في سورة الكافرون: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ جاءت في الآية الثالثة والخامسة دون اختلاف بينهما في الألفاظ[2]، وهناك آيات تجد بينهما اختلافاً، وهذا الاختلاف يكون له دلالة تتطلبه من حيث المعنى أو المبنى.

وهذا الفصل يحاول الكشف عن جوانب الإعجاز البياني في ذلك الاختلاف من المتشابه اللفظي من آيات الطبيعة..

---

(١) ذكر الزركشي–رحمه الله– جملة من فوائد التكرار منها: التأكيد، وزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة؛ ليكمل تلقي الكلام بالقبول، وإذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانياً تطرية له، وفي مقام التعظيم والتهويل، والوعيد والتهديد، والتعجب، وتعدد المتعلق كما في سورة الرحمن. انظر: البرهان، ج٣/ ص١١–١٨.

(٢) قال ابن قتيبة–رحمه الله–: (وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزئ عن بعض، كتكراره في: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وفي سورة الرحمن بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فقد أعلمتك أنَّ القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم. ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن [افتنان] المتكلم والخطيب في الفنون، وخروجه عن الشيء إلى الشيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد... ولا موضع أولى بالتكرار للتوكيد من السبب الذي أنزلت فيه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾؛ لأنهم أرادوه على أنْ يعبد ما يعبدون، ليعبدوا ما يعبد، وأبدؤا في ذلك وأعادوا في الجواب. وهو معنى قوله: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة القلم، الآية: ٩] أي: تلين لهم في دينك فيلينون في أديانهم.). انظر: تأويل مشكل القرآن، ص٢٣٥–٢٣٧. وقال السيوطي–رحمه الله–: (ومن أمثلة ما يظن تكراراً وليس منه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾ إلى آخرها [الكافرون: ١–٦]؛ فإن ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي: في المستقبل، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ ﴾ أي: في الحال ﴿مَآ أَعْبُدُ ﴾ في المستقبل، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ ﴾ أي: في الحال ﴿مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ في الماضي، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ ﴾ أي: في المستقبل ﴿مَآ أَعْبُدُ ﴾ في الحال، فالحاصل: أنَّ القصد نفي عبادته لآلهتهم في الأزمنة الثلاثة). انظر: الاتقان، ج٥/ ص١٦٥٢–١٦٥٣.

● المبحث الأول: اختلاف الآيات المتشابهة في المفردات.

▪ أولاً: إيثار صيغة الكلمة بالاسم في موضع وبالفعل في آخر:

التعبير بالاسم له دلالة مختلفة عن التعبير بالفعل، فمما قرره اللغويون أن التعبير بالاسم يفيد الاستقرار والثبوت، والتعبير بالفعل يفيد الحدوث والتجدد، ويمثلون على ذلك بقولهم: زيد منطلق، وزيد ينطلق ... فالأولى فيها ثبوت صفة الانطلاق لزيد، وفي الثانية تجدد مزاولة الانطلاق له، وأغلب من اعتمد التفرقة بين الاسم والفعل دلالياً أعتمد قول عبدالقاهر الجرجاني–رحمه الله–: (.. الفرقُ بينَ الإثباتِ إذا كان بالاسم وبينه إذا كانَ بالفعلِ. وهو فرقٌ لطيفٌ تَمسُّ الحاجةُ في علمِ البلاغة إليه. وبيانُه أنَّ موضوعَ الاسم على أن يُثْبَتَ به المعنى للشيءِ من غيرِ أن يَقتَضي تجدُّده شيئاً بعدَ شيء. وأما الفعلُ فموضوعُه على أنه يقتضي تجدُّدَ المعنى المثبتِ به شيئاً بعدَ شيء).[1]

➢ مما جاء من المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة على هذا قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾[2]، فعبر الله –سبحانه وتعالى– عن إخراجه الحي من الميت وإخراج الميت من الحي بالفعل، ولا يخفى ما في ذلك من الحدوث والتجدد إلى قيام الساعة، وكذلك جاء في مواضع أُخر كقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[3]، وقوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾[4]، وفي سورة الأنعام عبّر عن أحدهما بالفعل وعن الآخر بالاسم، فقال سبحانه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾[5]، فلِمَ اختلف التعبير في هذه الآية عن بقية المواضع؟ وفي الآية نفسها لمَ لم يكن في الحالتين التعبير بالاسم فإنه في الحالة الأولى قال: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾، وفي الحالة الثانية قال: ﴿وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾؟

فأمّا اختلاف آية الأنعام عن بقية المواضع فوجهه أن بقية المواضع جاءت بعد أفعال فحسن التعبير بما يتناسب معها، ففي آل عمران سبقتها الأفعال الآتية: (تؤتي–تشاء–تنزع– تعز–

---

(١) دلائل الإعجاز، ص١٧٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٧.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣١.

(٤) سورة الروم، الآية: ١٩.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.

تذل–تولج)، وجاء بعدها: (ترزق–تشاء ..) فناسب أن تأتي الآية بصيغة الفعل فقال: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾. وكذلك في آية سورة يونس سبقت بالأفعال الآتية: (يرزقكم– يملك)، وبعدها: (يدبر). وفي آية سورة الروم سبقت بالأفعال: (تمسون– تصبحون– تظهرون) وجاء بعدها الفعل: (تخرجون). أمَّا في سورة الأنعام فإنها بنيت على اسم الفاعل فسبقها اسم الفاعل: (فالق الحب والنوى)، وتلاها قوله: (فالق الإصباح)[1]. من ذلك ناسب اختيار صيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾.[2]

وأمَّا التعبير بالفعل في الحالة الأولى، وبالاسم في الثانية فوجهه: أنَّ اسم الفاعل يشبه الاسم في صورته، ويشبه الفعل في عمله[3]، فجاء بالصيغتين عملاً بالشبهين[4]. ورأى الزمخشري –رحمه الله–: أنَّ جملة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ موقعها موقع الجملة المُبيّنَة لقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾؛ لأنَّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر من جنس إخراج الحي من الميت، فالنبات والشجر في حكم الحي، والحب والنوى في حكم الميت، وقد وصف الله الأرض بالحياة والموت كما في سورة الروم فقال: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ، أما قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ فاسم الفاعل (مخرج) معطوف على (فالق الحب والنوى)، وليس معطوفاً على الفعل: (يخرج).[5] ووافقه ابن جماعة (المتوفى سنة ٧٣٣هـ)–رحمه الله– بقوله: إنَّ (﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ مناسب في المعنى

---

(١) في الآية التي تليها قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: (وجعل الليلَ سكناً) بصيغة الفعل الماضي، وقرأ الجمهور: (وجاعل الليل سكنا) باسم الفاعل. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٧/ ص٣٩١.

(٢) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج١/ ص٨٠.

(٣) شبهه بالاسم من أنه يُجَرُّ ويُنَوَّنُ وتدخل عليه (أل) وغير ذلك، وقد قال ابن مالك في ألفيته:

(بالجَرِّ والتَّنوينِ والنِّدا وأَلْ * ومسندٍ لِلاسمِ تَمْييزٌ حَصَلْ)**

وشبهه بالفعل لأنه يرفع فاعلاً وينصب مفعولاً كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [سورة النساء، الآية: ٧٥]، وقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٤]. قال ابن مالك في ألفيته :

(كَفِعْلِهِ اسْمُ فَاعِلٍ فِي الْعَمَلِ * إِنْ كَانَ عَنْ مُضِيِّهِ بِمَعْزِلِ)**

انظر: محمد بن عبدالله بن مالك الأندلسي، ألفية ابن مالك، مكتبة ابن تيمية، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص٧، ص٩٩. وانظر: عبدالله بن عقيل الهمداني، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة–مصر، الطبعة العشرون، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج٣/ ص١٠٦.

(٤) انظر: الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص١١١.

(٥) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٢/ ص٣٧٤. والزمخشري عندما قدّر عطفَ (مخرج) على (فالق) لا يفهم منه منع عطف اسم الفاعل على الفعل أو العكس، فقد جاء مثل هذا العطف في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الملك، الآية: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحديد، الآية: ١٨]. انظر: عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، ب ط، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٣/ ص٣٥٠.

لفلق الحب والنوى عن الخارج عنهما فجيء بالياء كالشرح له، ثم عطف "مخرج" على "فالق"؛ لأنَّ عطف الاسمية على الاسمية أنسب وأفصح، ولما فيه من المقابلة للجملة المتقدمة)[١].

وذكر الخطيب الإسكافي-رحمه الله- وجها لذلك هو أنه لو قال: (فالق الحب والنوى ومخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي) لاجتمعت ثلاثة حروف علة وهي الواو [والألف][٢] من كلمة (النوى) وواو العطف التي تجيء بعدها، فلما انتفى ذلك في الحالة الثانية جاء بصيغة اسم الفاعل ليناسب ما بنيت عليه الآية[٣]. وبالجمع بين قول الزمخشري وابن جماعة من جانب وقول الإسكافي من جانب آخر يَتَبَيَّنُ لنا أثر صياغة اللفظ في المبنى والمعنى على حدٍ سواء. ومن لطيف التعبير القرآني أنه استعمل الفعل (يخرج) مع الحي، فقال: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾؛ لأنَّ أبرز صفات الحي الحركة والتجدد، والفعل يعطي هذه الدلالة، واستعمل الاسم: (مخرج) مع الميت فقال: ﴿وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾؛ لأنَّ الميت في حالة همود وسكون وثبات، الاسم له هذه الدلالة[٤]، كما تقدم في الفروق الدلالية بين الاسم والفعل. وفي التعبير عن حالة (إخراج الحي من الميت) بالفعل دلالة على اعتناء الله بها حالا فحال وساعة فساعة؛ لأنَّ الفعل يدل على الحدوث والتجدد[٥]، كما أن في إخراج الحي من الميت دلالة على كمال القدرة أشهر من الحالة المقابلة لها، ولذا في جميع المواضع يتقدم (إخراج الحي من الميت) على (إخراج الميت من الحي). كما أن التعبير بالفعل المضارع فيه إرادة للتصوير، واستحضار له في ذهن السامع، وهذا التصوير والاستحضار يتمكن في أدائهما الفعل المضارع أبلغ من اسم الفاعل والفعل الماضي[٦]. يضاف إلى ذلك أن إثبات البعث -الذي هو أحد مقاصد القرآن وقضاياه الرئيسة- هو من جنس إخراج الحي من الميت، إمَّا لأنَّه يخرجهم أحياء من الأرض، أو لأنَّه يبعثهم أحياء بعد أن كانوا أمواتاً، يعزز ذلك أن آية الأنعام سبقها الحديث البعث بقوله: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٩٤﴾[٧]، كذلك قوله في تذييل آية الروم: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾.

---

(١) بدر الدين بن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: د.عبدالجواد خلف، (سلسلة منشورات جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي-باكستان) توزيع دار الوفاء، المنصورة-مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص١٦٣.

(٢) الإسكافي قال (الياء) على اعتبار الأصل في كلمة (النوى). قال صاحب اللسان: (والنَّوى جمع نَواة التمر، وهو يذكر ويؤنث، وأكلت التمر ونويت النَّوى أَنْوَيْتُه: رميته). انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (نوي)، ج١٥/ ص٣٤٩.

(٣) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج٢/ ص٥٢٧.

(٤) انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص٢٣.

(٥) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج١٣/ ص٩٨.

(٦) انظر: الانتصاف من الكشاف، لابن المنير (حاشية الكشاف)، ج٢/ ٣٧٥.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

وابن عاشور -رحمه الله- لا يرى أحد الإخراجين أولى من قرينه، ورأى في الآية شبه احتباك، فقال: (جيء بجملة: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ فعلية للدلالة على أن هذا الفعل يتجدد ويتكرر في كل آن، فهو مراد معلوم وليس على سبيل المصادفة والاتفاق. وجيء في قوله: ﴿وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ اسما للدلالة على الدوام والثبات، فحصل بمجموع ذلك أنّ كلا الفعلين متجدد وثابت، أي كثير وذاتي؛ وذلك لأنّ أحد الإخراجين ليس أولى من قرينه فكان في الأسلوب شبه احتباك).(١) والاحتباك هو: (أن يجتمع في الكلام متقابلان، ويُحذف من كل واحد منهما مقابلهُ لدلالة الآخر عليه)(٢). قال الإمام البقاعي(المتوفى سنة ٨٨٥هـ) -رحمه الله-: (وهو فن عزيز نفيس، وقد جمعت فيه كتاباً حسناً ذكرت فيه تعريفه، ومأخذه من اللغة، وما حضرني من أمثلته من الكتاب العزيز، وكلام الفقهاء، وسميته « الإدراك لفن الاحتباك »).(٣) ويبدو لي أنه كتاب مفقود فإني لم أعثر عليه.

▪ ثانياً: تعريف لفظ في موضع وتنكيره في موضع آخر:

الاسم إما أن يكون معرفة أو نكرة، فالاسم النكرة يفيد الشيوع والعموم في جنسه، فإذا عُرِّفت الكلمة النكرة خرجت من الشيوع إلى التحديد.(٤)

وابن جني -رحمه الله- ذهب إلى أن التنكير أسبق رُتْبة من التعريف(٥)، ولهذا لما كان التعريف طارئاً على التنكير احتاج إلى زيادة فيه، هي علامة التعريف، وقد يكون من دلالة سَبْقِ التنكير أنه أوسع دلالة من التعريف، وتذكر معه دائماً إرادة الشيوع.

قال السيوطي -رحمه الله-: ولكلٍ من التعريف والتنكير مقامٌ لا يليق بالآخر، ثم ذكر جملة من أسباب التنكير منها: إرادة الوَحْدة نحو: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾(٦) أي: رجل واحد، وإرادة

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٧/ ص٣٨٩.

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص١٣.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج١/ ص٢٢٥.

(٤) الأصل في الكلمة أنْ تكون نكرة وتعريفها بإدخال "أل" عليها، أو بإضافتها إلى معرفة، والمعارف ستة أنواع: الضمير، والعلم، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، والمحلى بـ (أل)، والمضاف إلى أحد هذه المعارف. انظر: عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى وبلّ الصدى، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت-لبنان، ب ط، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص١٠٣-١٢٥. ومن النحاة من يزيد نوعاً سابعاً للمعارف هو المنادى عندما يكون نكرة مقصودة، انظر: عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة-مصر، الطبعة الخامسة، ب ط، ب ت، ج١/ ص٢١١.

(٥) ابن جني، الخصائص، ج٣/ ص٦٥.

(٦) سورة القصص، الآية: ٢٠.

النوع نحو: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾(1) أي: نوع من الذكر، والتعظيم نحو: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ ﴾(2)، والتكثير نحو: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾(3)، والتحقير نحو: ﴿خَلَقَهُۥ مِن نُّطْفَةٍ ﴾(4)، والتقليل نحو: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾(5)، وقصد التجاهل نحو: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ ﴾(6)، والعموم إذا جاءت في سياق النفي نحو: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾(7)،أو سياق الشرط نحو: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾(8)، أو سياق الامتنان نحو: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾(9).(10) ثم عدد جملة من أسباب التعريف حسب نوع التعريف، فقال:

1) فبالإضمار؛ لأنَّ المقام مقام تكلم، أو خطاب، أو غيبة.
2) وبالعَلَميَّة لإحضاره بعينه في الذهن، أو لتعظيم أو إهانة تقتضيها عَلَمِيَتُهُ.
3) وبالإشارة لتمييزه بإحضاره في ذهن السامع حساً، أو للتعريض بغباوة السامع حتى لا يتميّز له الشيء إلا بإشارة الحس، أو لبيان حاله في القرب أو البعد بنحو: (هذا) أو (ذلك)(11).
4) وبالموصوليّة لكراهة ذكره باسمه؛ إما ستراً عليه، أو إهانة له، أو لغير ذلك، وقد يأتي بالموصولية لإرادة العموم لمن صدر منهم ذلك الفعل أو الوصف، أو للاختصار.
5) وبالألف واللام للإشارة إلى معهود خارجي أو ذهني أو حضوري، أو للاستغراق حقيقة أو مجازاً، أو لتعريف الماهية.

---

(1) سورة ص، الآية: 49.
(2) سورة البقرة، الآية: 279.
(3) سورة الأعراف، الآية: 113.
(4) سورة يس، الآية: 77.
(5) سورة الجاثية، الآية: 32.
(6) سورة سبأ، الآية: 7.
(7) سورة البقرة، الآية: 2.
(8) سورة التوبة، الآية: 6.
(9) سورة الفرقان، الآية: 48.
(10) انظر: الاتقان، ج4/ 1283-1285.
(11) كالإشارة إلى القرآن في موضع بالبعيد: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [سورة البقرة، الآية:2] لعلو مكانته عن الشك والريب، وفي موضع آخر بالقريب: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [سورة الإسراء، الآية:9] لقرب هدايته ممن يطلبها.

٦) وبالإضافة؛ لكونها أخصر[١] طريق، أو للتشريف[٢] نحو قوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾[٣]، أو للعموم نحو قوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾[٤] أي: كلّ أمر الله.[٥]

وإذا ذكر الاسم مرتين في موضع واحد من كتاب الله فله أربع أحوال، الأولى: أن يكونا معرفتين وهنا غالباً[٦] ما يكون الثاني هو الأول حملاً له على المعهود، والثانية: أن يكونا نكرتين وهنا لا يكون الثاني هو الأول؛ لأنَّ النكرة إذا تكررت دلت على معنى جديد غالباً[٧]، ومثال الحالتين قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾[٨] وقد روي مرفوعاً أنه –صلى الله عليه وسلم– خرج ذات يوم وهو يضحك ويقول: (لن يغلب عسر يسرين)[٩]، والحالة الثالثة: أن يكون الأول نكرة والثاني معرفة، وهنا يكون الثاني هو الأول، ومثاله قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾[١٠]، والرابعة: أن يكون الأول معرفة والثاني نكرة، وهنا لا يمكن إطلاق القول فيه وإنما يعتمد على القرائن، فتارة يدل على التغاير، وتارة أخرى يدل على الاتحاد.[١١]

وفي القرآن الكريم ألفاظٌ لم تأتِ إلا معرفة، مثل كلمة "الناس" فقد وردت في مائتين وواحدٍ وأربعين موضعاً كلها جاءت مُعرَّفة، وألفاظٌ أخرى لم تأتِ إلا نكرة، مثل كلمة "شيء" فقد وردت في مائتين وتسعةٍ وسبعين موضعاً كلها جاءت مُنكَّرة.[١٢]

---

(١) (أخصر) اسم تفضيل من الفعل: (اختصر) وهو فعل غير مستوفٍ لشروط الصياغة على أفعل التفضيل؛ لأنَّه غير ثلاثي، فعلى القاعدة كان الأولى أنْ يأتي بفعل مستوفٍ للشروط ثم بالمصدر نحو (أكثر اختصاراً). قال ابن هشام: (وشذّ بناؤه –أي أفعل التفضيل– مما زاد على ثلاثة كـ"هذا الكلام أخصر من غيره"). انظر: أوضح المسالك، ج٣/ ص٢٥٦-٢٥٧.

(٢) السيوطي قال التعظيم، ورأيت التشريف أليق.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٤) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٥) انظر: السيوطي، الاتقان، ج٤/ ١٢٨٥-١٢٨٧.

(٦) قيل: غالباً؛ لأنها غير مطردة، ومما لم يأت على ذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠ ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٦٠] ، فالإحسان ورد مرتين كليهما معرفتين، ولكن ليس الثاني فيها هو الأول، فالأول: العمل والثاني: الثواب.

(٧) قيل: غالباً؛ لأنها غير مطردة أيضاً، ومما لم يأت على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٤ ﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٨٤].

(٨) سورة الشرح، الآيتان: ٥-٦. ورجح الزركشي أنْ تكون الجملة الثانية تأكيد للأولى لا أنْ يكون العسر واحد واليسر اثنين، انظر: البرهان، ج٤/ص٩٨.

(٩) رواه الحاكم عن الحسن البصري مرسلاً، وضعَّفه الألباني، انظر: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، الحديث رقم (٤٧٨٤)، ص٦٩١.

(١٠) سورة المزمل، الآيتان: ١٥-١٦.

(١١) انظر: الزركشي، البرهان، ج٤/ ص٩٣.

(١٢) انظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص٢٣٠-٢٣١.

➢ كما أنّ في القرآن الكريم ألفاظاً جاءت معرفة في مواضع، ونكرة في مواضع أخر، ومما جاء على ذلك في آيات الطبيعة كلمة (الماء) فقد جاءت معرفةً بالألف واللام في مواضع، وفي مواضع أخرى نكرة، ومن مواضع التعريف قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾[(١)]، وجاءت نكرة في آية مشابهة لها وهي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾[(٢)]، وهذا التنكير في موضع والتعريف في آخر هو (لحكمة يعلمها الله، وسر تقتضيه اللغة، وهدف يقصده المعنى، ومناسبة يتطلبها السياق، ولو حاولنا وضع أحد اللفظين مكان الآخر لاختلَّ تناسق الآية، وزال الانسجام المطلوب في التركيب)[(٣)].

ومعنى قوله في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ متوقف على معنى (جعل) فإنها تأتي بمعنى (خَلَقَ) وتتعدى إلى مفعول واحد، فيكون المعنى: خلقنا من الماء كل شيء حي، وتأتي بمعنى (صَيَّرَ) وتتعدى إلى مفعولين، فيكون المعنى: صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه، وقرئ (حياً) بالنصب على أنه مفعول ثانٍ[(٤)]. ولم يقل: (خلقنا) كما في آية سورة النور؛ لأنَّ (جَعَلَ) لفظ أعم من (خلق). ولمَّا كان قوله تعالى: (كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) مرادًا به عموم المخلوقات، ناسب التعبير عنه بفعل يدلُّ على العموم.

أما تعريف (الماء) في آية سورة الأنبياء؛ فلأن المعنى أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس، الذي هو الماء، فجاء ذِكْرُ الماءِ -هنا- معرَّفًا بأل الجنسية؛ ليشمل أجناس المخلوقات المختلفة الأنواع. وتنكيره في آية سورة النور؛ لأنَّ المعنى أن الله سبحانه خلق كل دابة من نوع مخصوص من الماء؛ وهو النطفة، ثم خالف بين المخلوقات، بحسب اختلاف نطفها: فمنها هوامٌ تمشي على بطنها، ومنها أناسٌ وغيرهم يمشون على رجلين، ومنها بهائمٌ تمشي على أربع. فالفرق بينهما: أن الغرض من الأول إظهار الآية بأن أشياء متفقة في جنس الحياة، قد تكونت بالقدرة من جنس الماء المختلف الأنواع. أما الغرض من الثاني فهو إظهار الآية بأن شيئًا واحدًا، قد تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة.

وتنكير (ماء) في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ يحتمل معنى الوَحْدة والنوعية معاً، فيكون المعنى على الوحدة: خلق كل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف، وعلى النوعية: خلق

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٤٥.

(٣) عبدالفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص٤٣.

(٤) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٤/ ص١٤١.

كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء[1]. قال ابن عاشور -رحمه الله-: (وتنكير "ماء" لإرادة النوعية تنبيهاً على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب إذ المقصود تنبيه الناس إلى اختلاف النطف للزيادة في الاعتبار. وهذا بخلاف قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ إذ قُصد ثمة إلى أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من جنس الماء وهو جنس واحد اختلفت أنواعه، فتعريف الجنس هناك إشارة إلى ما يعرفه الناس إجمالاً ويعهدونه من أن الحيوان كله مخلوق من نطف أصوله. وهذا مناط الفرق بين التنكير كما هنا [في آية سورة النور] وبين تعريف الجنس كما في آية [سورة] الأنبياء)[2].

▪ ثالثاً: إفراد لفظ في موضع وتثنيته أو جمعه في موضع آخر:

➢ مما جاء من هذا النوع قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾[4]، وقال -سبحانه- في موضع آخر: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾[5]، ثم قال في موضع ثالث: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾[6]، وقال كذلك: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[7]، فالمشرق والمغرب جاءت مفردة في موضع، ومثناة في موضع، ومجموعة في موضع. والمشرق والمغرب يصح أن يكونا اسمي مكان أو اسمي زمان[8]، ولا يخفى على مبصر أنَّ شروق الشمس وغروبها يختلف من وقت لآخر مكاناً وزماناً. وقد قيل في تفسير ذلك: إنَّ إفراد المشرق والمغرب يُراد به: أفقي المشرق والمغرب أو جهتهما، وقيل: جنس المشارق والمغارب. أمَّا تثنيتهما فيقصد بالمشرقين: مشرقي صعودها وهبوطها، فإنَّ الشمس تبتدئ في شروقها صاعدة من

---

(١) انظر: السيوطي، الاتقان، ج٤/ ١٢٨٣.

(٢) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٦٦.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٥.

(٤) سورة المعارج، الآية: ٤٠.

(٥) سورة الرحمن، الآية: ١٧.

(٦) سورة المزمل، الآية: ٩.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٨) اسم الزمان واسم المكان يشتركان في الصياغة، والتفريق بينهما يكون من خلال السياق والقرائن، فالثلاثي منهما يصاغ على وزن "مَفْعَل" -بفتح العين- إنْ كان معتل اللام مطلقا، أو صحيح اللام ولم تكسر عين مضارعه، نحو: (مسعى، ومنظر). ويصاغ على وزن "مَفْعِل" -بكسر العين- إنْ كان مثالاً واوياً صحيح اللام مطلقا، أو كانت عين مضارعه مكسورة، نحو: (موعد، ومجلس) وشذ مما تقدم: المنسك، والمطلع، **والمشرق، والمغرب**، والمفرق، والمنبت، والمسقط، والمسكن، والمسجد، والمجزر، وسمع الفتح في بعضها على القياس، وقيل: لا شذوذ في ذلك؛ لأنَّها أسماء لأمكنة وأزمنة مخصوصة معينة؛ ولم يذهب بها النحاة مذهب الفعل، أما غير الثلاثي منهما فيصاغ على وزن مضارعه مع قلب حرف المضارعة ميماً مضمومة وفتح ما قبل آخره كاسم المفعول. انظر: محمد عبدالعزيز النجار، ضياء السالك إلى أوضح المسالك، مكتبة ابن تيمية، القاهرة-مصر، ب ط، ب ت، ج٣/ ص٤٧.

أقصى غاية لها في الجنوب إلى أقصى غاية لها في الشمال، وينشأ منه فصلا الربيع والصيف، ثم هي ترجع هابطة من أقصى غاية لها في الشمال إلى أقصى غاية لها في الجنوب، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء؛ فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقاً واحداً، ومشرق هبوطها بجملته مشرقاً واحداً، ويقابل ذلك مغرباها. وأمَّا جمعها فقيل: المراد به مشرق الشمس ومغربها كل يوم، فإنَّ لها في كل يوم مشرقًا ومغربًا غير مشرقها ومغربها في اليوم الذي قبله أو اليوم الذي يليه. وقيل المراد: مشارق الشمس والنجوم والقمر فإنها تختلف، فيكون الجمع هنا باعتبار ما في السماء من الشمس والقمر والنجوم. وهذا من أكبر الدلائل على قدرة الله؛ لأنه -سبحانه- ينقل هذا الأجرام العظيمة من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال وبالعكس، فهذا من تمام قدرته تعالى، **وهذا وجه اختلاف التعبير بالإفراد في موضع، والتثنية في آخر، والجمع في موضع ثالث.**(١) وهذه الآيات كانت محل اهتمام الباحثين في التفسير العلمي أو ما يسمى (الإعجاز العلمي)(٢)، **والتفسير العلمي دليلٌ على الإعجاز البياني، أو أنَّ هذا التفسير نتيجة لذلك الإعجاز.**

أمَّا توجيه اختصاص كل موضع بما جاء عليه من الناحية البيانية فإنَّ كل صيغة جاءت بحسب ما يناسب سياق الآية ومقصدها، فالآيات التي جاءت بإفراد المشرق والمغرب جاءت في سياق إفراد الله بالعبادة، والتبتل إليه تبتيلا، وقد جاء إفراد المشرق والمغرب في ستة مواضع(٣): وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٢/ ص١٩٧-١٩٩. وانظر: تفسير ابن كثير، ج٤/ ص٢٤٤. وانظر: ابن القيم، بدائع الفوائد، ص٢١٢. وانظر: الزركشي، البرهان، ج٤/ ص١٦.

(٢) قيل في التفسير العلمي لهذه الآيات: إنَّ فيها دلالة واضحة على أنَّ شكل الأرض كروي، وأن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس؛ لأن صيغة الجمع فيها إشارة لوجود مستمر لمشارق ومغارب متعددة على هذه الأرض. فعملية الشروق والغروب مستمرة عبر المكان والزمان، فاستعملت صيغة الجمع لتدل الإنسان على شكل الأرض الكروي، وحركتها حول نفسها وحول الشمس، أمَّا صيغة التثنية فهي تدل على أنَّ هناك مشرقين مختلفين في المكان والزمان: الأول هو الذي نراه الآن الناتج عن عملية الفتق أو الانفجار العظيم، وبناء الكون وتوسعه؛ فتدور الأرض من غربها إلى شرقها لتطلع الشمس من مشرق الأرض، والآخر هو الذي سيراه الإنسان قبل قيام الساعة أي عند بداية انكماش الكون وعملية طي السماء حيث ستطلع الشمس من مغرب الأرض. والله أعلم. انظر: خالد حمزة مدني: (رب المشرقين ورب المغربين)، مقال منشور على موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تاريخ الدخول: (٢٢-٢-٢٠١٤م) على الرابط الآتي:

http://www.eajaz.org/index.php/component/content/article/77-Nineteenth-issue/774-Lord-of-Almcherqan-Lord-Amorbin

(٣) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (شرق)، ص٣٧٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾[1]، وهذه المواضع الثلاثة المراد بها الاتجاه للقبلة، وهذا يناسبه الإفراد، ولا يناسبه التثنية أو الجمع، وجاء إفراد المشرق والمغرب في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[2]، وهذا يراد به الجهة أيضاً فلا يناسبه إلا الإفراد، والآية في محاجَّة إبراهيم –عليه السلام– للنمرود، وقد ذكر له أقل قدر وهي جهة الشروق، وهو عاجز عنه، فيدلُّ على عجزه عما هو أكثر من ذلك بأن يكون لها في كل يوم مشرق، وجاء الإفراد في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[3]، وهذه الآية جاءت في محاجة موسى –عليه السلام– لفرعون، فإضافة إلى أن المراد بالآية الجهتان وما بينهما فإنَّ فيها دعوة لتوحيد الله بالربوبية دون فرعون أو غيره؛ فناسب الإفراد فيها، والموضع السادس قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[4]، وقد سبق هذه الآية من سورة المزمل ذكر الليل والنهار، فجاء بعدهما ذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار، والليل والنهار لا يختلف ظهورهما باختلاف المشارق والمغارب، فالمهم في ظهورهما جهة المشرق وجهة المغرب، فجاء كل منهما مفرداً في الآية، ولا يناسبه إلا ذلك.[5] وجميع هذه المواضع تحمل شيئاً من معاني إفراد الله بالعبادة بوجه ظاهر مباشر أو بوجه خفي غير مباشر، فناسب ذلك الإفراد في هذه المواضع دون التثنية والجمع.

أمَّا تثنية المشرقين والمغربين في سورة الرحمن فلأنَّ (مساق السورة مساق المثاني المزدوجات؛ فذكر أولاً نوعي الإيجاد وهما: الخلق والتعليم، ثم ذكر سراجي العالم ومظهر نوره، وهما: الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات؛ ما قام منه على ساق، وما انبسط منه على وجه الأرض، وهما: النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنَّه رفع هذه ووضع هذه، ووسط بينهما ذكر الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر بالعدل ونهى عن الظلم، ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض، وهما: الحبوب والثمار، ثم ذكر نوعي المكلفين، وهما: نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب. فتأمل حُسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة وروده كذلك، وقدِّر

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٨.

(٤) سورة المزمل، الآية: ٩.

(٥) انظر: ابن القيم، بدائع الفوائد، ص٢١٢. وانظر: الزركشي، البرهان، ج٤/ ص١٦.

موضعهما مفرداً ومجموعاً تجد السمع ينبو عنه ويشهد العقل بمنافرته للنظم).[1] وجاءت تثنية المشرقين في موضع آخر؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾[2]، فلعله لمَّا كان الحوار بين الإنسان وقرينه من الجن ناسبه التثنية كذلك، وقد يكون المراد بالمشرقين في الآية مشرقي الصيف والشتاء –كما تقدم–، وقد يكون هذا من قبيل التثنية على التغليب، فيراد به: المشرق والمغرب، فثنيا على التغليب، كالعمرين: أبي بكر وعمر، والقمرين: الشمس والقمر، والأسودين: التمر والماء، ونحوه.

وصيغة الجمع كذلك جاءت متناسبة مع السياق، قال تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾[3]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ قال ابن جرير –رحمه الله–: (عن يمينك يا محمد وعن شمالك متفرقين حِلَقاً ومجالس، جماعةً جماعةً، معرضين عنك وعن كتاب الله)[4]، فلما جاء ذكر تلك الجماعات المتفرقة على النبي –صلى الله عليه وسلم– ناسب مجيء المشارق والمغارب بصيغة الجمع. كما أنَّه لمَّا كان القسم على القدرة على إذهابهم وتبديل غيرهم مكانهم ناسب ذلك ذكر المشارق والمغارب؛ لما فيه من القدرة على نقل الكائنات العظيمة من مكان إلى مكان، فكان في ذلك دلالة على أنَّه على ما هو أقل من ذلك أقدر، ويضاف إلى ذلك أنَّ تعدد المشارق والمغارب له أثره البيّن في تغير أحوال الطقس وأحوال الناس والنبات، ففيه دلالة بما يشاهدونه على قدرته على تبديلهم والإتيان بخير منهم. وقد جاءت صيغة الجمع كذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾[5]، ذلك أنَّه لمَّا كان المقام مقام الامتنان على المستضعفين ناسب أن يأتي بما يدل على التكثير، فجيء بها على صيغة الجمع: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾. وثالث المواضع التي جاءت بصيغة الجمع قوله تعالى:

---

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد، ص٢١٢-٢١٣. وقد تم نقله بنصه؛ لأن ابن القيم –رحمه الله– قال قبلها: (وأمّا وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه؛ فلم أرَ أحداً تعرض له ولا فتح بابه، وهو بحمد الله بيّن من السياق..).

(٢) سورة الزخرف، الآيات: ٣٦-٣٨.

(٣) سورة المعارج، الآيات: ٣٦-٤١.

(٤) جامع البيان، ج٢٣/ ص٢٧٨.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥ ﴾[1]، ولم يأتِ ذكر المغارب قيل: لدلالة المشارق عليه، وقيل: لمناسبة الزينة في الآية التي تليها: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾[2]؛ لأنَّ الزينة إنَّما تكون غالباً بالضياء والنور، وهما ينشئان من المشرق لا من المغرب، ويضاف إلى ذلك أنَّ الضياء والنور تظهر فيه الحياة والانتشار، والسورة فيها إثبات للبعث بعد الموت الذي أنكره المشركون، فقال تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝١٦ ﴾[3]؛ فناسب الاقتصار على المشارق دون ذكر للمغارب لما فيه من الدلالة على الإحياء بعد الإماتة، أمَّا مجيء المشارق بصيغة الجمع فلمناسبة الجموع في أول السورة، فهي وإن سبقها ذكر التوحيد لله إلا أن السورة قد ابتدأت بالجمع (الصافات–الزاجرات–التاليات) من قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ ﴾[4]، فكان الجمع أليق بالاصطفاف، وذكر الجماعات، وقد عُدِلَ عن الجمع المذكر ليشمل الجماعات من الملائكة والجن والإنس والطير والوحش وغيرها، كما أنه قد جاء بعدها ذكر للكواكب، ولكل كوكب مشرقه، فناسب ذلك كله الجمع دون التثنية والإفراد.[5]

▪ رابعاً: تذكير لفظ في موضع وتأنيثه في موضع آخر:

➢ من أمثلة ذلك ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦ ﴾[6]، وقال في موضع مشابه له: ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٢١ ﴾[7]، فقال في الأولى: ﴿بُطُونِهِۦ﴾ بضمير يدل على المذكر، وفي الثانية: ﴿بُطُونِهَا﴾ بضمير يدل على المؤنث، وقبل بيان توجيه هذا الاختلاف ينبغي التنبيه إلى أن كلمة (الأنعام) مما يجوز تذكيره أو تأنيثه، فيذكر باعتبار لفظه

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٥.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٦.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٦.

(٤) سورة الصافات، الآيات: ١-٤.

(٥) انظر: ابن القيم، بدائع الفوائد، ص٢١٣-٢١٤. وانظر: زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤٧٧. وانظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٦/ ص١٨٧-١٩٣.

(٦) سورة النحل، الآية: ٦٦.

(٧) سورة المؤمنون، الآية: ٢١.

ويؤنث باعتبار معناه، كأمشاج وأخلاق[1]، من ذلك يعلم أن الموضعين كليهما موافق لكلام العرب غير خارج عنه.

أما توجيه اختلاف الضمير مع تشابه الآيتين فلأن الضمير في الأولى يعود على البعض، فالآية اختصت بذكر منفعة من منافع الأنعام وهي منفعة اللبن، واللبن لا يكون في جميعها بل في بعض بعضها وهي الإناث التي تدر اللبن، فكأن التقدير: إن لكم في (بعض) الأنعام لعبرة، أما الآية الثانية فإنها لم تخصص بهذه المنفعة بل جاءت عامة في منافع الأنعام، فقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، وقال عقبها: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2]، فجيء بالضمير الذي يدل على الأنعام جميعها لا على بعضها.[3] وجيء بضمير المذكر ليدلَّ على القلة؛ لأنَّ الآية اختصت بذكر منفعة القلة من الأنعام أي: بعض الإناث منها، كما جيء بضمير المؤنث ليدلَّ على الكثرة؛ لأنَّ الآية عمت جميع الأنعام ذكورها وإناثها، صغارها وكبارها[4]، وقيل: إنَّ ضمير المذكر يدلُّ على الإفراد، باعتبار أنَّ الأنعام مفرد، وضمير المؤنث يدلُّ على الجمع باعتبار الشائع في الأنعام أي: أنها جمع.[5]

وقريب منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[6]، فالضمير في قوله:﴿بُطُونِهَا﴾ يعود على النحل، والضمير في: ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يعود على العسل.

---

(١) نقله ابن منظور عن ابن سيده. انظر: لسان العرب، مادة (نعم)، ج١٢/ ص٥٨٥. وذكره محقق الكشاف نقلاً عن سيبويه. انظر: حاشية الكشاف، ج٣/ ص٤٤٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٢.

(٣) انظر: الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص١٦٢.

(٤) انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص١٧٧. وانظر: فاضل السامرائي: (دلالة التذكير على القلة والتأنيث على الكثرة)، مقال منشور على موقع رابطة أدباء الشام، تاريخ الدخول: (٢٤-٢-٢٠١٤م) على الرابط الآتي:
http://www.odabasham.net/show.php?sid=3648

(٥) انظر: زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص٣١٨.

(٦) سورة النحل، الآية: ٦٩.

- **خامساً: اختيار اللفظ بإبدال[1] كلمة بكلمة:**

في الآيات المتشابهة قد يُختار لفظ في موضع وفي موضع آخر يُبدل بلفظ غيره، وإن كان يقرب منه في المعنى إلا أنَّ كلَّ لفظٍ هو الأنسب في موضعه، ولا يؤدي ما يؤديه الآخر في سياقه، ومن ذلك:

١) إبدال اسم باسم:

➢ من ذلك في آيات الطبيعة: وصف الأرض بأنها (هامدة) في موضع، ووصفها بأنها (خاشعة)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[3].

والتعبير عن الأرض بهامدة في الموضع الأول، وبخاشعة في الموضع الآخر لم يأتِ لمجرد التنويع في التعبير، فالهمود والخشوع قد يشتركان في المعنى العام، ولكن كل تعبير منهما كان متناسباً مع الجو العام الذي جاء فيه، فلا يغني هذا عن هذا ولا العكس. ويدرك سر ذلك من خلال السياق الذي جاء فيه كل تعبير منهما، فوصف الأرض بأنها هامدة جاء في جو البعث والإحياء والإخراج قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾، أما وصفها بأنها خاشعة فجاء في جو العبادة والخشوع والسجود، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ

(١) لا يقصد هنا الإبدال الصرفي مما يعرف في علم الصرف بباب الإعلال والإبدال، كما لا يقصد به باب البدل النحوي الذي هو أحد التوابع، وإنما يقصد به اختيار كلمة في موضع، واختيار كلمة أخرى قريبة منها في موضع مشابه له.

(٢) سورة الحج، الآية:٥.

(٣) سورة فصلت، الآية:٣٩.

﴿وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾[1]، فكان الوصف بالخشوع للأرض أنسب وأجمل من وصفه بالهمود في هذا الموضع.[2]

➢ ومن ذلك التعبير عن الغيث بالماء في مواضع كثيرة، والتعبير عنه بالرزق في مواضع أخر، فمن المواضع التي عبّر عنه بالماء قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾[5]. أما التعبير عنه بالرزق فنحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾[6].

والتعبير عن الغيث بالماء لا إشكال فيه بل هو الأصل؛ لأنّه مادته وصورته الغالبة التي ينزل بها، ولكن لمَ عُبّر عنه في الجاثية بالرزق؟ ولا شك أن الغيث من أهمّ الأرزاق التي يقسمها الله كيف يشاء، فيه قوام الحياة، وفي انعدامه انعدامها، فإذا انقطع عن الأرض إذا بالناس يجأرون[7]، فإن أقبل إذا هم يستبشرون، والناس في تطلعهم إلى الغيث كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾[8]، وقد وجّه ابن الزبير (المتوفى سنة ٤٢٠هـ) –رحمه الله– هذا الاختلاف في الجاثية بالتعبير عنه بالرزق عن بقية المواضع التي جاء فيها التعبير عنه بالماء: (أنّ آية الجاثية لما تأخرت في

---

(١) سورة فصلت، الآيتان:٣٧ –٣٨.

(٢) انظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص١١٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٣.

(٥) سورة النحل، الآية: ٦٥.

(٦) سورة الجاثية، الآيات: ٣–٥.

(٧) جَأَرَ يَجْأَرُ جَأْراً وجُؤَاراً: رفع صوته مع تضرع واستغاثة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (جأر)، ج٤/ ص١١٢.

(٨) سورة الروم، الآيات: ٤٨–٥٠.

الترتيب الذي استقر عليه القرآن كانت مظنة لبيان: أنَّما الرزق عن الماء، قال تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾[2]، فقال في سورة الجاثية: (من رزق) تسمية للماء بما عنه يتسبب، وتكون مبالغة في بيان ما تقدم كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]).[4] وهذا توجيه فيه شيء من التكلف.

➢ ومن المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة مما أُبدل فيه اسم باسم ما جاء من اختيار لفظ (مشتبه) و(متشابه) في موضعين من سورة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[5]، وفي موضع آخر من السورة نفسها قال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[6].

وقبل الحديث عن وجه الاختلاف بين الآيتين ينبغي النظر في معنى: (المشتبه) و(المتشابه)، قال ابن فارس –رحمه الله–: (الشين والباء والهاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تشابُه الشّيء وتشاكُلِهِ لوناً وَوَصْفاً. يقال شِبْه وشَبَه وشَبيه.. والمشبهات من الأمور: المشكلات. واشتبه الأمرانِ، إذا أَشْكَلاَ)[7]، (والشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المِثْلُ، والجمع أَشْباهٌ... وشَبَّهَ عليه: خَلَّطَ عليه الأَمْرَ حتى اشْتَبَه بغيره)[8]، فقوله: (متشابه) اسم فاعل من الفعل: (تشابه) من التفاعل، أما (مشتبه) فهو اسم

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١.
(٢) سورة ق، الآيات: ٩-١١.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٢٢.
(٤) ابن الزبير، ملاك التأويل، ج١/ ص٥٥-٥٦.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٧) معجم مقاييس اللغة، مادة (شبه)، ج١/ ص٦٣٩.
(٨) ابن منظور، لسان العرب، مادة (شبه)، ج١٣/ص ٥٠٣-٥٠٤.

فاعل من الفعل (اشتبه)[1] من الافتعال. وقد ذُكرتْ أقوالٌ في معنى قوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، فقيل: مشتبهاً في المنظر، وغير متشابه في الطعم. وقيل: مشتبهاً ورقه، مختلفاً ثمره. وقيل: منه ما يشبه بعضه بعضاً، ومنه ما يخالف.[2] قال ابن عاشور –رحمه الله– في هذه الآية: (والتشابه: التماثل في حالة مع الاختلاف في غيرها من الأحوال، أي: بعض شجره يشبه بعضاً، وبعضه لا يشبه بعضاً، أو بعض ثمره يشبه بعضاً، وبعضه لا يشبه بعضاً..)[3].

أمَّا سبب الاختلاف في التعبير بين الآيتين فوجهه ابن الزبير –رحمه الله– بقوله: (أنَّ مشتبهاً ومتشابهاً لا فرق بينهما إلا ما لا يعد فارقاً إذ الافتعال والتفاعل متقاربان، أصولهما: الشين والباء والهاء، من قوله: أشبه هذا هذا إذا قاربه وماثله، ورد في أولى الآيتين على أخف البناء وفي الثانية على أثقلهما رعياً للترتيب المتقرر)[4]، وإن قُبِلَ ذلك من وجه إلا أنَّ ألفاظ القرآن غاية في الدقة وهي تراعي المبنى والمعنى، فكل لفظٍ في موضعه جاء لحكمة، وغرض يقتضيه المقام.

وإذا عُلِمَ أن الاشتباه: هو شدة التشابه وكثرته بحيث يؤدي ذلك إلى الإشكال، فإن اشتبه أكثر من تشابه وقد يؤدي إلى الاختلاط بين الشيئين بحيث لا يمكن أن يُميّز بينهما. فالتشابه قد يكون في وجه من الأوجه أو في أمرٍ بسيطٍ لكن لا يصل لدرجة الإشكال والاشتباه، فإذا كان ذلك كذلك فإن سياق كل آية هو ما يحدد سبب اختيار كل لفظ في موضعه!

فالآية الأولى جاءت في سياق الاعتبار، وهي مبنية على قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾[5]، ولما بنيت هذه الآيات على الاعتبار قال سبحانه: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. فناسب الاعتبار الأمر بالنظر إلى ثمره وينعه.

(١) الفعل إذا كان غير ثلاثي فإن اسم الفاعل منه يصاغ على وزن مضارعه، ثم يقلب حرف المضارعة ميماً مضمومة، ويكسر ما قبل آخره، فالأول: (تشابه–يتشابه–مُتشابِهٌ) والثاني: (اشتبه–يشتبه–مُشتبِهٌ). انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج٣/ ص١٣٧.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٩/ ص٤٤٩، وص٥٩٤. وانظر: تفسير ابن كثير، ج٢/ ص١٤٨، وص١٦٨.

(٣) التحرير والتنوير، ج٧/ ص٤٠٢.

(٤) انظر: ملاك التأويل، ج١/ ص١٦٦.

(٥) سورة الأنعام، الآيات: ٩٥–٩٨.

أمَّا الآية الثانية فهي مبنية على بيان الأطعمة وما يحل وما يحرم منها مما شرع الله للناس أو مما شرعه الناس لأنفسهم، فقال –سبحانه– قبلها: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾[١]، وقال بعدها: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[٣]، فلما بنيت هذه الآيات على أحكام المأكولات جاء الأمر في الآية بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾، ولم يكن ليناسبها ما ناسب الأولى من قوله: (انظروا)، ولم يكن ليناسب الأولى ما ناسب الثانية من قوله: (كلوا)، فجاءت كل آية على ما يناسب سياقها.[٤]

ولَمّا بنيت الآية الأولى على الاعتبار جاء فيها بقوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ﴾، فهو متناسب مع الأمر بالنظر والتأمل والتدبر في خلق الله حتى يُميز ما فيه اشتباه والتباس بمزيد من النظر والتفكر؛ لأنَّ الاشتباه أشد من التشابه. وفي ذلك بيان لقدرة الله حيث جعل من المختلفين ملتبسين. أما الآية الثانية فلم تكن مبنية على ما بنيت عليه الأولى فقال: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، كما أنَّ الأمر بالأكل بعدها، سيرفع التشابه لما بين هذه المأكولات من الفرق في الطعم، فلم تدعُ الحاجة لاستخدام لفظ (المشتبه)، فعُلم من ذلك كله أن كل لفظٍ جاء على ما يناسب موضعه، في إعجاز بياني عجيب.[٥]

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٣٨–١٣٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٢.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ١٤٥،١٤٦.

(٤) انظر: ملاك التأويل، ج١/ ص١٦٧.

(٥) وانظر: فاضل السامرائي: (مشتبهاً وغير متشابه)، مقطع من برنامج لمسات بيانية على قناة الشارقة الفضائية، متوفر على موقع (Youtube) تاريخ الدخول: (١١–١–٢٠١٥م) على الرابط الآتي: https://www.youtube.com/watch?v=YqULOx93gec

٢) إبدال فعل بفعل:

➢ مما جاء من هذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾[١]، فجاء لفظ (سلك لكم)، وفي موضع آخر في آية مشابهة جاء لفظ (جعل لكم) وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾[٢].

والمعنى في الآيتين متقارب من تمهيد الأرض وتيسير السير عليها لطلب المعاش، كما وصفها في قوله –عزّ من قائل-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[٣]، إلا أن كل موضع اختير فيه اللفظ المناسب له؛ ففي سورة طه: سبقها أمر الله لموسى وهارون –عليهما السلام– بدعوة فرعون باللين والرفق، فناسب اختيار (سلك) دون (جعل)؛ لأنَّ (سلك) تعطي دلالة (جعل) مع زيادة الوضوح وكمال التهيئة، وعندما تقول: منهج سالك، أي: واضح، ولو قلت: مجعول، لم يؤدي مؤداه، فكان اختيار (سلك) متناسب مع دعوة موسى–عليه السلام– لفرعون. أما في سورة الزخرف فالآية مبنية على توبيخ الكفار وتقريعهم، فقد سبقها قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾[٤]، وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾[٥] ، فناسب فيها كلمة (جعل) مما يدل على الخلق والاختراع دون زيادة، فليس المقام فيها كما في سورة طه، ويضاف إلى ذلك مناسبة (جعل) في سورة الزخرف لقوله قبلها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾[٦]، وقوله بعدها: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾[٧]، فاكتناف الآيات التي قبلها والتي بعدها للفظ (جعل) ناسب اختياره في هذا الموضع.[٨]

من ذلك فالفعلين: (جعل–سلك) وإن كان بينهما تقارب في المعنى والدلالة إلا أنَّ كل لفظ جاء بما يتناسب مع السياق الذي ورد فيه بإعجاز بياني لطيف. وقد اجتمع اللفظان في قوله تعالى:

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٠.

(٣) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٥.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٨.

(٦) سورة الزخرف، الآية: ٣.

(٧) سورة الزخرف، الآية: ١٢.

(٨) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج٢/ ص٣٤٠–٣٤١.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠ ﴾[1] فكان أحدهما تعليلاً للآخر، مما ينبئ عن الفرق الدلالي بينهما.

➢ ومما أبدل فيه فعل بفعل في سياق حادثة واحدة، ما جاء من استسقاء موسى وقومه الماء وإيحاء الله لموسى أن يضرب الحجر فنبعت منه اثنتا عشرة عيناً، فإنها قد وردت في موضعين من كتاب الله، واستخدم في موضع منها لفظ: (فانفجرت) وفي الموضع الثاني: (فانبجست)، وذلك في قوله: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ ﴾[3]. والفاء في قوله: ﴿ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ ﴾، وفي قوله: ﴿ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ ﴾ هي الفاء الفصيحة سميت بذلك؛ لأنَّها أفصحت عن مُقَدَّر ذلك، إذ الأصل أن تكون الجملة: (اضرب بعصاك فضرب فانفجرت) أو (فضرب فانبجست)، ولما ذكر عقب الأمر بالضرب الانفجار والانبجاس دلّ ذلك على أنه المطلوب بالأمر، وقد دلت على أن المأمور التزم الأمر، وسميت فصيحة من باب المجاز العقلي.[4]

وقبل الحديث عن وجه اختيار كل لفظ في موضعه نبحث الفرق بين المفردتين: (انبجست وانفجرت)، وكلمة انبجست من (البَجْس) قال ابن فارس–رحمه الله–: (الباء والجيم والسين: تفتُّح الشيءِ بالماء خاصّة، قال الخليل: البَجْس انشقاقٌ في قِربةٍ أو حَجَرٍ أو أرض يَنْبع منها ماء؛ فإنْ لم ينْبع فليسَ بانبِجاس ... والانبجاس عامٌّ، والنُّبُوع للعين خاصّة)[5]، ثم ذكر الآية. أما كلمة انفجرت فهي من (الفَجْر) قال ابن منظور –رحمه الله–: (والفَجْر: تَفْجيرُكَ الماء، والمَفْجَرُ: الموضع يَنْفَجِرُ منه، وانْفَجَر الماءُ والدمُ ونحوهما من السيّال، وتَفَجَّر: انبعث سائلاً، وفَجَرَه هو يَفْجُره، بالضم، فَجْراً فانْفَجَرَ أَي بَجَسه فانْبَجَس، وفَجَّره شُدِّد للكثرة)[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن

(١) سورة نوح، الآيتان: ١٩–٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

(٤) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ج١/ ص١١١.

(٥) معجم مقاييس اللغة، مادة (بجس)، ج١/ ص١٠٦.

(٦) لسان العرب، مادة (فجر)، ج٥/ ص٤٥.

نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾[١]. من هذا يتبين أن انبجست وانفجرت تحملان دلالة متقاربة، فكلاهما يدل على نبوع الماء من حجر أو نحوه إلا أنّ الانبجاس دون الانفجار، فالانفجار أبلغ في كثرة الماء[٢]. وكأن انبجاس الماء مرحلة تسبق انفجاره. فلماذا اختير لفظ (انفجرت) في البقرة، ولفظ (انبجست) في الأعراف، مع أن الحادثة واحدة؟

قيل: إنهما بمعنى واحد؛ وإنما ذلك من تنويع الألفاظ والفصاحة، وهذا حسنٌ، ولكن الأحسن منه أن يعلم أن كل لفظ جاء على ما يناسب سياقه وقرائنه! ففي البقرة كان السياق ذكر نعمته سبحانه امتناناً منه على بني إسرائيل، فعدد جملة من النعم عليهم بعد قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[٣]، فناسب ذلك لفظ (انفجرت) على (انبجست)؛ لأنَّ الانفجار: انصباب الماء بكثرة، فهو أنسب في سياق الامتنان، أما في الأعراف فجاءت في سياق الإخبار عنهم وقد سبقها قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[٤]، يضاف إلى ذلك أنه في البقرة قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾، وفي الأعراف: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ فلما جاء في البقرة الأكل والشرب ناسبه ما يدل على الكثرة فقال: (انفجرت)، أما في الأعراف فلم يذكر الشرب فناسبه ما هو دون الأول فقال: (انبجست).[٥]

ويضاف لذلك أن الاستسقاء في سورة البقرة من موسى –عليه السلام– فإنه قال: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾، أمَّا في سورة الأعراف فالاستسقاء من بني إسرائيل فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ ﴾، والأمر أن قومه طلبوا منه الاستسقاء لهم ثم قام فاستسقى لهم، فلما كان الاستسقاء في الأعراف من بني إسرائيل اختار الانبجاس، ولما كان في البقرة من موسى اختار الانفجار؛ لما فيه من الكثرة إكراماً لذكر موسى –عليه السلام–، فيكون فارق في التعبير بين طلب موسى وطلب قومه.[٦]

كما يمكن أن يضاف إلى ذلك أن آية سورة الأعراف –وهي سورة مكيّة– نزلت قبل آية سورة البقرة –وهي سورة مدنيّة–، فذكر فيما نزل أولاً ما حدث أولاً وهو الانبجاس، وذكر فيما نزل تالياً ما حدث تالياً هو الانفجار، وذلك على اعتبار ما ذُكر من أن الانبجاس مرحلة تسبق

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٠.

(٢) انظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص٩٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.

(٥) انظر: الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص٧٤. وانظر: كشف المعاني، لابن جماعة ص٩٩.

(٦) انظر: السيوطي، معترك الأقران، ج٣/ ص٨. وانظر: عبدالفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص١٥٣.

الانفجار[1]، فبعد أن ضرب موسى-عليه السلام- الحجر انبجس الماء وبدأ ينز ويخرج بصعوبة من بين تلك الشقوق، ثم حدث الانفجار نتيجة لذلك الانبجاس، فالانبجاس ابتداءٌ، والانفجار غاية، كما أن طلب قوم موسى منه أن يستسقي لهم ابتداءٌ، وطلب موسى-عليه السلام- من ربه غايةٌ، فناسب الابتداء في الطلب -طلب بني إسرائيل- الابتداء في الحدوث أي: الانبجاس، وناسب الغاية في الطلب -طلب موسى- الغاية في الحدوث أي: الانفجار.[2]

➢ ومن إبدال فعل بفعل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾[3]، فقال: (ثم يجعله حطاماً)، بينما في موضع مشابه له قال: (ثم يكون حطاماً)، وذلك في قوله: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾[4].

ووجه اختيار كل فعلٍ في موضعه: أن الأفعال في آية سورة الزمر منسوبة إلى الله، داعية إلى الاعتبار والتفكر في عجيب صنعه -جل وعلا-، فقد أنزل الماء وسلكه في الأرض ينابيع ثم أخرج به الزرع المختلف، لذا جاء إسناد الفعل إليه -سبحانه- فقال: (ثم يجعله)، أما في سورة الحديد فإنها بنيت على غير ذلك، فقد جاءت في وصف الحياة الدنيا وحقارتها وتشبيهها بالزرع الذي يعجب الزراع الذي لا يلبث أن يكون حطاماً، كما يعجب المغرور الذي غره الغرور بالدنيا التي لا تلبث أن تكون هباءً، فناسب إسناد الفعل للزرع، ولم يناسب إسناده إلى المولى -سبحانه- وإن كان -جل جلاله- له الملك والخلق والأمر في السموات والأرض.[5]

➢ ومن ذلك اختيار صيغة الفعل المضارع: (يرسل الرياح) في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[6]، وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

---

(١) انظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص٢٢٣-٢٢٥.

(٢) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج١/ ص٤٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٢١.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٥) انظر: الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص٢١٩، وانظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص٣٥٢.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾[2].

وجاء في مواضع أخرى مشابهة لها بصيغة الماضي: (أرسل الرياح) ومن ذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾﴾[3]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾[4]، وقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[5].

وتوجيه الاختلاف في صيغة الفعل مرده إلى سياق كل آية، فالآيات التي جاءت فيها صيغة المضارع سبقتها أو تلتها أفعال مضارعة أو ما يدل على الاستقبال، ففي سورة الأعراف جاء بالمضارع؛ لأنَّه قد سبقها قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾[6]، فناسب الفعل (يغشي) الفعل (يرسل) كما قد سبقها الأمر بالدعاء فقال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[7]، لأنَّ الدعاء إنَّما يكون لما يأتي فهو في حكم المستقبل، فناسب ذلك أن يأتي الفعل بصيغة المضارع، كما أنها في سياق الامتنان بنعمه على خلقه، فناسب ذلك إيراده بصيغة المضارع التي تنبئ عن تجدد وتوالي نعمه وفضله، وكذلك في سورة الروم فقد ابتدأها بقوله: (ومن آياته)، واكتنفت أفعالاً مضارعة ناسبها إيراد الفعل بالمضارع، وكذلك في سورة النمل فقد ابتدأت الآية بقوله: (أمن يهديكم)، وسبقها قوله: (أمن يجيب) و(من يكشف)، فتناسب ذلك مع قوله: (ومن يرسل).[8]

والآيات التي جاءت فيها صيغة الماضي سبقتها أفعال ماضية أو ما يدل على الماضي، ففي سورة الفرقان سبقتها أفعال ماضية في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ

(١) سورة الروم، الآيات: ٤٦-٤٨.
(٢) سورة النمل، الآية: ٦٣.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٩.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٢٢.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٧) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.
(٨) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج٢/ ص٥٨٨. وانظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج١/ ص١٨٢.

سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾[١]، فالأفعال: (مَدَّ-جعلنا- قبضناه-جعل لكم الليل- وجعل لكم النهار) ناسبها قوله: (أرسل الرياح). أما سورة فاطر فقد بُنيت ما يدل على الماضي وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٢]، وإنما التذكر يكون للنعم الماضية لشكرها، كما أن السورة ابتدأت بقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١﴾﴾[٣]، أي: فطر وجعل، فناسب ذلك كله الفعل الماضي بقوله: (أرسل الرياح).[٤] وكذلك الآية من سورة الحجر سبقت بقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾[٥]، فاكتنفت أفعالاً ماضية: (مددناها- ألقينا- أنبتنا- جعلنا) فناسبها قوله: (وأرسلنا الرياح).

وفي آية سورة فاطر أتبع الفعل الماضي (أرسل) بفعل مضارع (تثير) ثم عاد للماضي كرة أخرى (سقناه) و(أحيينا) ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ قيل: للإشارة إلى استحضار تلك الصورة البديعة، وهي إثارة الرياح السحاب؛ لأنَّ الماضي لا يؤدي ما يؤديه المضارع من تصوير ذلك للسامع كأنما يشاهده بعينه[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾﴾[٧]، قال الزمخشري -رحمه الله-: (وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أو تهمّ المخاطب، أو غير ذلك)[٨]. ومن أمثلة ذلك من كلام قول تأبط شراً:

بأني قَدْ لَقيتُ الغُولَ تَهْوِي * بسَهبٍ كالصَّحيفَةِ صَحْصَحانِ**
فَأَضْرِبُهَا بِلا دَهَشٍ فَخَــرَّتْ * صَــــريعاً لليَدَينِ وللجِــرَانِ[٩]**

---

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٤٥-٤٧.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١.

(٤) انظر: المرجع نفسه.

(٥) سورة الحجر، الآيتان: ١٩-٢٠.

(٦) انظر: زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص٤٦٨.

(٧) سورة الحج، الآية: ٦٣.

(٨) الكشاف، ج٥/ ص١٤٢.

(٩) ديوان تأبط شراً وأخباره، تحقيق: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـــ/١٩٨٤م، ص٢٢٤-٢٢٥. وفي الديوان بين هذين البيتين قوله:

فقال (لقيت) بصيغة الماضي، ثم لمَّا أراد استحضار الصورة العجيبة في ذهن السامع من إقدامه وثباته في مواجهة الغول وضربها قال: (فأضربها) بصيغة المضارع كي يصور لهم المشهد وكأنهم يبصرونه.[1]

٣) إبدال حرف بحرف:

➢ قد يكون الاختلاف في المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة بين الحروف مثل حروف العطف، أو حروف الجر، أو غيرها، بأن يُختار حرف في موضع ويبدل بحرف غيره في موضع آخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾[2]، فقال: (إلى أجل)، وفي مواضع أخرى قال: (لأجل)، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾[5].

ذهب بعض العلماء إلى أنَّ ذلك من باب التناوب بين حروف الجر، وقد ذكر ابن هشام– رحمه الله– أنَّ لحرف "إلى" ثمانيةَ معانٍ قال: (... الرابع: مرادفة اللام، نحو: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾[6]..)،

فَقُلْتُ لَهَا: كِلانَا نِضْوُ أَيْنٍ * أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّي لِي مَكَانِي**

فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي، فَأَهْوَى * لَهَا كَفِّي بِمَصْـقُولٍ يَمَانِي**

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢/ ص٢٦٨.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٤) سورة فاطر، الآية: ١٣.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٥.

(٦) سورة النمل، الآية: ٣٣.

وقال: (وللام الجارَّة اثنان وعشرون معنى: ... والثامن: موافقة "إلى" نحو قوله تعالى: ﴿يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾[١]..)[٢]، وظاهرة تناوب حروف الجر[٣] مسألة اختلف فيها النحاة على مذهبين:

المذهب الأول: مذهب الكوفيين الذين أجازوا ذلك؛ مستدلين بكثرة وروده في القرآن الكريم، وكلام العرب شعراً ونثراً، مثل قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾[٤]، أي: على جذوع النخل، فناب حرف (في) مكان حرف (على)، ومن ذهب إلى ذلك أعطى للحرف أكثر من معنى واحد، فيؤدي الحرف الواحد عدة معانٍ مختلفة وكلها معانٍ حقيقية غير مجازية، دلَّت عليها شواهد لغوية ثابتة.

المذهب الثاني: مذهب البصريين الذين منعوا التناوب بين حروف الجر، ورأوا أنه ليس للحرف إلا معنى واحد أصلي على سبيل الحقيقة، ويرون في المواضع التي أُدّعي فيها الإنابة أن الحرف باقٍ على معناه، وأن الفعل ضُمَّن معنى فعل يتعدى بذلك الحرف؛ لأنَّ التجوز في الفعل أسهل منه في الحرف. ومثال التضمين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾[٥]، فقالوا: أن الفعل (خلوا) يتعدى بالباء، وهو هنا ضُمَّنَ معنى الفعل (ذهبوا) أو (انصرفوا)[٦] الذي يتعدى بحرف الجر "إلى"، فإن لم يمكن القول بالتضمين صرفوا ذلك إلى المجاز، فإن امتنع القول بالمجاز[٧] قالوا بالشذوذ.[٨]

وابن جني–رحمه الله– جعل باباً لهذه الظاهرة اللغوية فقال: (باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض)، ولكنه لم يجعله على إطلاقه فقال: (إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع، على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوغة له، فأما في كل موضع وعلى كل حال فلا... اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعلٍ آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بأخر فإن العرب تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٢) مغني اللبيب، لابن هشام، ج١/ ص١٥٦، و ج١/ ص٤١٧.

(٣) ويسمى أيضاً: تعاقب حروف الجر، وتداخل حروف الجر، والنيابة. انظر: أحمد مطر العطية: حروف الجر بين النيابة والتضمين، مجلة التراث العربي (مجلة فصلية محكمة) تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد (١١٢)، ذو الحجة١٤٢٩هـ/ كانون الأول٢٠٠٨م، السنة الثامنة والعشرون.

(٤) سورة طه، الآية: ٧١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤.

(٦) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (يعني: إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم، فضمن (خلوا) معنى (انصرفوا) لتعديته بإلى ليدل الفعل المضمر والفعل الملفوظ به). انظر: تفسير القرآن العظيم، ج١/ ص٤٤.

(٧) لأن المجاز يُشترط فيه العلاقة والقرينة.

(٨) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ج٢/ ص٤٤٩، وانظر: عباس حسن، النحو الوافي، ج٢/ ص٥٣٧–٥٤٣.

المعتاد مع ما هو في معناه .. ووجدت في اللغة من هذا الفن شيئاً كثيراً لا يكاد يُحاط به، ولعله لو جمع أكثره لا جميعه لجاء كتاباً ضخماً).[1]

أمَّا الزمخشري–رحمه الله– فإنَّه منع التناوب وشدد في العبارة على من يجيزه في تفسيره لقوله تعالى من سورة لقمان: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فقال: (ليس ذلك من تعاقب الحرفين، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن، ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض..)[2].

وسواء أُخِذَ بقول القائلين بجواز التناوب أو قول المانعين له، فإن المتقرر أن كل كلمة في القرآن الكريم جاءت في موضعها اللائق بها، بما يتناسب مع سياق الآية ومقصدها، وفي توجيه الاختلاف بين آية سورة لقمان التي عدي الفعل (يجري) بحرف الجر (إلى) وبقية المواضع التي عدي فيها (باللام)، فمن رأى بالتناوب وأن اللام تكون بمعنى "إلى" في الدلالة على الانتهاء وَجَّهَ الاختلاف بين آية سورة لقمان وبقية المواضع بأنه من باب التفنن في النظم، قال ابن عاشور – رحمه الله–: (تحقيق الفرق بين معاني الحروف هو ما نميل إليه إلا أننا لا نستطيع أن ننكر كثرة ورود اللام في مقام معنى الانتهاء كثرة جعلت استعارة حرف التخصيص لمعنى الانتهاء من الكثرة إلى مساويه للحقيقة).[3]

وقد وجّه ابن الزبير –رحمه الله– ذلك: (بأن آية سورة لقمان تقدمها التنبيه على الاعتبار بقوله: (ألم تر) .. فطال الكلام بحسب ما اقتضاه مقصوده، فناسب طوله الجر بما يناسبه مما لا يخرج عن معنى اللام الجارة وهو (إلى)، فانجر الأجل بها. ولما بنيت الآيتان بعد على إيجاز ليس في آية لقمان ناسبه الجر باللام اكتفاء بما يحرز المعنى المقصود ويناسب التركيب).[4]

ومن منع التناوب فاعتمد معنى انتهاء الغاية لحرف (إلى) لا غير، ومعنى الاختصاص لحرف (اللام) لا غير، فإنه يفسر معنى قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يجري إلى أن يبلغ الأجل وينتهي إليه، أي أن الشمس والقمر كل منهما يجري إلى أن ينتهي إلى ذلك الأجل المسمى، قيل: هو يوم القيامة، ومعنى قوله: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي يجري كل منهما لإدراك أجل مسمى، فيكون الجري مختصاً بإدراك أجل مقدر، فجريان الشمس مختص بآخر السنة، وجريان القمر

(١) ابن جني، الخصائص، ج٢/ ص٣٠٦-٣١٠.

(٢) الكشاف، ج٥/ ص٢٢.

(٣) التحرير والتنوير، ج٢٢/ ص٢٨١.

(٤) ملاك التأويل، ج٢/ ص٤٠٣.

مختص بآخر الشهر، فكلٌ يجري لأجْل أَجَلٍ. وكل معنى منهما –أي الاختصاص والانتهاء– مناسب لموضعه غير نابٍ به، وإنْ كان مآل المعنيين واحد إلا أن طريقه مختلف.(١)

يعزِّز ذلك أنَّ الآيات التي تكتنف آية سورة لقمان آياتٌ منبهة على النهاية والحشر والإعادة، فقبلها قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾(٢)، وبعدها قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾(٣)، فكانت الآيتان دالتين على غاية ما ينتهي إليه الخلق من البعث والنشور، فقال: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيتناسب الحرف الدال على انتهاء الغاية، مع سياق الآيات من انتهاء غاية هذه الحياة الدنيا، وابتداء الحياة الآخرة. أما في سورة الزمر فالإخبار عن ابتداء الخلق –خلق الكون والإنسان– دون الحديث عن انتهائه في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾(٤)، وفي فاطر ذكر ابتداء الخلق ثم عدد النعم فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾(٥)، فناسب مجيء اللام بمعنى: لأجْل، لبيان علة الفعل واختصاصه من ذكر النعم وابتداء الخلق، وناسب مجيء (إلى) في آية لقمان الدالة على انتهاء الغاية؛ لأنَّ القيامة غاية جريان ذلك.(٦)

كما يمكن توجيه الاختلاف باعتبار المخاطبين في كل موضع، ففي سورة لقمان المخاطب بها النبي –صلى الله عليه وسلم– أو أنه عام لكل مخاطب، فيكون الأجل فيها هو أجل بقاء هذا

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٥/ ص٢٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٨.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٣٠.

(٤) سورة الزمر، الآيتان: ٥-٦.

(٥) سورة فاطر، الآيتان: ١١-١٢.

(٦) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج٣/ ص١٠٥٦-١٠٥٩. وانظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص٢٩٧.

العالم، أما بقية المواضع فالخطاب فيها للمشركين كما قال في خاتمة آية سورة فاطر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، فيكون الأجل فيها هو أجل كل إنسان، ففيه إنذار ووعيد وتذكير لهم بأن لأعمارهم نهاية.(١)

وفي سورة لقمان جاءت الآية موافقة لما سبقها من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢)، ولم يأتِ باللام كما في قوله: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾(٣)، فيسلم وجهه إلى الله، قيل أي: يقصد بطاعته إلى الله، فحمل المعنى على ذلك، وكذلك قوله: ﴿كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: يجري إلى وقته المسمى له.(٤)

➢ وقريب مما سبق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾(٥)، فجيء بحرف الجر (إلى)، وفي موضع آخر جيء باللام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾(٦)، وللعلماء في توجيه هذا الاختلاف أقوال: فمنهم من رأى ذلك من التفنن في النظم باعتبار أن حرفي (اللام) و(إلى) كثيراً ما ينوب أحدهما عن الآخر كما تبين في الآيات السابقة، وابن الزبير نظر إلى جانب المبنى فرأى أنه عندما طال الفعل (فسقناه) بدخول فاء التعقيب عليه ناسب تعديته بحرف الجر (إلى) لأنَّه أطول من حرف (اللام)، ولما كان الفعل في الآية الثانية خالياً منها ناسب تعديته بحرف (اللام)، (إسهاباً مقابل إسهاب، وإيجازاً مقابل إيجاز)(٧). وهذا حسنٌ والأحسن منه أن يكون اختيار اللفظ له وظيفة مؤثرة في المبنى والمعنى.

والسامع يَلحظ فرقاً بين التعبيرين فقوله في فاطر: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يفهم منه أن السَّوق كان منتهياً إلى هذا البلد ولكن لا يقتضي تخصيص ذلك البلد به، أما قوله في الأعراف: ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ فإن فيه مزيد عناية واختصاص لهذا البلد بذلك السَّوق، من ذلك قال ابن

---

(١) التحرير والتنوير، ج٢٢/ ص٢٨١.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

(٤) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص١٥١.

(٥) سورة فاطر، الآية: ٩.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٧) ملاك التأويل، ج١/ ص١٨٧.

عاشور -رحمه الله-: (واللام في قوله: ﴿لِبَلَدٍ﴾ لام العلة، أي: لأجْل بلد ميت، وفي هذه اللام دلالة على العناية بذلك البلد، فلذلك عدل عن تعدية ﴿سُقْنَهُ﴾ بحرف (إلى)..)(١).

وبالنظر في سياق كل آية منهما يتبين سر تلك العناية، ففي سورة فاطر السياق سياق الاستدلال على البعث، لذا قال في خاتمتها: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾، أما في سورة الأعراف فقد أُدمج سياق الاستدلال على البعث بسياق الامتنان بالنعم، لذا ذكر بعض الأحوال المقترنة بإرسال الرياح من البشارة وغيرها، وقال في الاستدلال ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فذُكر فيها ما لم يذكر في الآية المشابهة لها(٢)، وقد سبقها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾(٣)، فمن ذلك جاءت العناية في الآية التي تلتها فقال: ﴿سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾، ولم يكن ذلك كذلك في سورة فاطر -والله تعالى أعلم-.

إنَّ ظاهرة تناوب الحروف ليست مقصورة على حروف الجر، بل قد تشمل حروف العطف كذلك، ويجمعهما مسمى (حروف المعاني)، وإن رأى بعض علماء اللغة تناوب حروف الجر فإن منهم من رأى تناوب حروف العطف عن بعضها البعض كذلك، وحروف العطف تشترك جميعاً في دلالتها على الضم والجمع، ثم لكل حرف منها معنىً خاص يستعمل فيه بأصل وضعه في اللغة، وقد قصر البصريون ذلك على ما سُمِعَ منها، بينما توسع الكوفيون في ذلك(٤)، وفي الإنصاف جعل المسألة السابعة والستين في الخلاف بين البصريين والكوفيين في مسألة: هل تأتي "أو" بمعنى الواو، وبمعنى "بل"؟ ورجح فيها رأي البصريين بالمنع(٥). وقال ابن جني -رحمه الله-: (وكل حرف فيما بعد يأتيك قد أُخرج عن بابه إلى باب آخر فلا بدّ أن يكون قبل إخراجه إليه قد كان يرائيه، ويلتفت إلى الشق الذي هو فيه، فاعرف ذلك، وقسه؛ فإنك إذا فعلته لم تجد الأمر إلا كما ذكرتُه، وعلى ما شرحته)(٦).

➢ وقد جاء شيء من ذلك في الآيات التي تحدثت عن إنزال الغيث وإنبات الزرع ثم تحوله إلى حطام، ففي مواضع تُربط هذه الأحداث بحرف العطف (ثمّ)، وفي مواضع أخرى بالفاء، كقوله

---

(١) التحرير والتنوير، القسم الثاني من ج٨/ ص١٨٢.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ج٨/ ص١٧٨، وكذلك ج٢٢/ ص٢٦٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٤) انظر: حجاج أنور عبدالكريم: التناوب في المعنى بين حروف العطف- دراسة في القرآن الكريم، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد الثاني عشر، شهر ربيع الثاني لعام ١٤٣٥هـ/ فبراير ٢٠١٤م، ص٢٠٧. متوفر على موقع الجامعة، تاريخ الدخول: (١١-١١-٢٠١٤م) على الرابط الآتي: https://uqu.edu.sa/page/ar/1061

(٥) انظر: عبدالرحمن بن محمد الأنباري، الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت-لبنان، بدون رقم الطبعة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٢/ ٤٧٨-٤٨٤.

(٦) الخصائص، ج٢/ ٤٦٥.

تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾[2]، فكان العطف في هذه الآيات بين تلك الأحداث بحرف العطف (ثمَّ) الذي يفيد الترتيب مع التراخي[3]، بينما في قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[4] جاء العطف بالفاء الذي يفيد الترتيب والتعقيب[5]. وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[6]، قيل أن الفاء جاءت هنا بمعنى (ثمَّ)[7]؛ لأنَّ اخضرار الأرض لا يعقب إنزال الماء مباشرة، وقيل: أن الفعل (تصبح) معطوف على محذوف تقديره: (أنبتنا به، فطال النبت فتصبح الأرض مخضرة)[8]. ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾[9]، ومعنى غثاء أحوى: يابساً متغيراً إلى السواد،[10] وقيل الفاء في قوله: (فجعله) بمعنى (ثمَّ)؛ لأنَّ جعل المرعى أسود يابساً لا يعقب الإخراج مباشرة.[11] والقول بالتناوب بين الفاء و(ثمَّ) في هذه المواضع أولى من تقدير جملة محذوفة؛ لأنَّ ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير[12]، ولأنَّه قد جاء العطف بحرف العطف (ثمَّ) في مواضع تتحدث عن المعنى نفسه كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٣) انظر: ابن هشام، أوضح المسالك، ج٣/ ص٣٢٢.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

(٥) انظر: المرجع نفسه.

(٦) سورة الحج، الآية: ٦٣.

(٧) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ج١/ ص٣٢٦.

(٨) انظر: الزركشي، البرهان، ج٤/ ص٢٩٥.

(٩) سورة الأعلى، الآيتان: ٤-٥.

(١٠) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٤/ ص٣١٣.

(١١) انظر: الزركشي، البرهان، ج٤/ ص٢٩٥.

(١٢) انظر: عبدالعزيز بن علي الحربي، الشرح الميسر على ألفية ابن مالك، دار ابن حزم، الرياض-السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٩.

﴿أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾[1]، فهذه الآية جاءت على الأصل في ترتيب هذه الأحداث، فإن إنزال الماء يعقبه مباشرة أن يُسلك ينابيع في الأرض، فعطف الجملتين بالفاء، ولما كان إخراج الزرع به يأتي بعد ذلك بمدة من الزمن عطفه بحرف يفيد المهلة في الزمن فقال: (ثمَّ يخرج به زرعاً)، وكذلك عطف جملة (يهيج فتراه مصفراً) على ما قبلها بحرف (ثمَّ).

وهذه الإنابة لم تأت لمجرد التفنن والتنويع في الألفاظ، ولكن وراء ذلك حكمة ولعل منها أنه في المواضع التي جيء فيها بالفاء بدلاً من (ثمَّ) قصد الإشارة إلى أن الحياة الدنيا مهما طال أمدها فهي قصيرة مصيرها إلى الفناء، ويُرى ذلك واضحاً في آية سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾. كما جاءت الإنابة في مواضع أخرى فيها بيان قدرة الله –جل جلاله– الذي لا يعجزه شيء، وهي مواضع يناسبها التعقيب كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾.

وقال ابن عاشور –رحمه الله– في قوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾﴾: (ويجوز أن يكون المقصود من جملة (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) إدماج العبرة بتصاريف ما أودع الله في المخلوقات من مختلف الأطوار من الشيء إلى ضده؛ للتذكير بالفناء بعد الحياة كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾[2]، للإشارة إلى أن مدة نضارة الحياة للأشياء تشبه المدة القصيرة، فاستعير لعطف (جَعَلَهُ غُثَاءً) الحرف الموضوع لعطف ما يحصل فيه حكم المعطوف بعد زمن قريب من زمن حصول العطوف عليه، ويكون ذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[3])[4].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٤.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٤) التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٢٧٩.

***

• المبحث الثاني: اختلاف الآيات المتشابهة في التراكيب.

▪ أولاً: التقديم والتأخير:

والتقديم والتأخير المقصود في هذا المبحث ليس تقديم ما حقّه التأخير، أو تأخير ماحقّه التقديم، وإنما المقصود هنا ما قدم في موضع من كتاب الله، ثم أُخِّر في موضع آخر مشابه له مما هو من المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة.

➢ من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾[2]، فإنه في الأولى: قدم الفجاج على السبل، وفي الثانية: قدم السبل على الفجاج، وقبل بيان حكمة ذلك تجدر الإشارة إلى معنى الفجاج والسبل، فالفجاج: جمع فَجٌّ وهو الطريق الواسع بين جَبَلين وهو أَوسع من الشِّعْبِ، أما السبل: فهي جمع لسبيل وهو الطريق وما وضح منه[3]. فالسبيل هو الطريق بوجه عام، أما الفج فهو ما كان في الجبال من الطرق.

ومن حكمة هذا التقديم والتأخير أنه لما ذكر في الموضع الأول الجبال بلفظ (الرواسي) ناسب تقديم ما له علاقة بها وهي الفجاج، أما في الموضع الثاني فلم يأتِ ذكر لها فقدم السبل لأنَّها هي الأكثر والأعم في الأرض.[4]

➢ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾[6]، فإنه في الموضع الأول تقدم ذكر الأنعام على الناس فقال: ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾، وفي الموضع الثاني قدم الناس على الأنعام فقال: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾؛ ذلك أنه في الموضع الثاني من سورة عبس كان الكلام عن طعام الإنسان فقدم الإنسان، أما في

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣١.

(٢) سورة نوح، الآيتان: ١٩-٢٠.

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (فجج)، ج٢/ ص٣٣٨. ومادة (سبل) ج١١/ ص٣١٩.

(٤) انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص٦٢.

(٥) سورة السجدة، الآية: ٢٧.

(٦) سورة عبس، الآيات: ٢٤-٣٢.

الموضع الأول من سورة السجدة فقد تقدم ذكر الزرع لذا قدم الأنعام، فناسب كل لفظ لموضعه الذي سيق فيه.(1)

➢ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾(2)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾(3)، فقدم الجار والمجرور (فيه) على (مواخر) في الثانية، بينما كان الجار والمجرور مؤخراً عنها في الأولى، ومواخر (يعني جَوارِيَ، وقيل: المواخر التي تراها مُقْبِلةً ومُدْبِرةً بريح واحدة، وقيل: هي التي تسمع صوت جريها، وقيل: هي التي تشق الماء، وقيل : هو صوت جري الفلك بالرياح؛ يقال: مَخَرَتْ تَمْخُرُ وتَمْخَرُ)(4).

ولعل سبب ذلك أن تقديم الجار والمجرور في آية سورة فاطر في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ متناسب مع تقديم الجار والمجرور قبله في قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾، كما أن تأخير الجار والمجرور في سورة النحل في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ متناسب مع تأخير الجار والمجرور قبله في قوله: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ﴾ ، فهو من جملة كلام بني الفعل فيه على تأخير الجار والمجرور، والأخرى من جملة كلام بني فيه الفعل على تقديم الجار والمجرور عليه.(5)

كما أن الموضع الأول –آية سورة النحل– جاء في سياق الامتنان بما سخر الله للناس من وسائل النقل، فقد سبق الآية الكلام عن الأنعام والخيل والبغال والحمير، فقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾(6)، والفلك من وسائل النقل، و"مواخر" صفة من صفاته فناسب تقديمها على ضمير البحر، أما في الموضع الثاني من سورة فاطر فالآية

---

(1) انظر: المرجع السابق.

(2) سورة النحل، الآية: ١٤.

(3) سورة فاطر، الآية: ١٢.

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (مخر)، ج٥/ ص١٦٠.

(5) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج٢/ ص٣٦٠. وانظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج٢/ ٢٩٦.

(6) سورة النحل، الآيتان: ٧-٨.

مختصة بالبحر ووصفه، فناسب تقديم ضميره العائد عليه في الجار والمجرور، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾، فلما كان الكلام عن وسائل النقل والفلك قدم حالة الفلك وهي (المخر)، ولما كان الكلام عن البحر قدم ما فيه ضميره.[1]

▪ ثانياً: الذكر والحذف[2]:

المقصود بالذكر والحذف ليس ما حُذِفَ والأصل أن يذكر، وإنما المقصود هنا ما ذكر في موضع من كتاب الله، ولم يذكر في موضع آخر مشابه له مما هو من المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة.

➢ من ذلك ما نراه من ذكر (لكم) في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾[3]، وحذفها في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾[4].

ذلك أنه في الموضع الثاني جاء بعدها قوله: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فأغنى ذلك عن أن يقول: (أنزل لكم)، واقتران (لكم) بالرزق أبلغ في الامتنان بالنعمة من اقترانها بالإنزال؛ لأنَّه قد ينزل المطر ولا ينبت شيئاً –وإن كان نزوله بحد ذاته نعمة–، أما في الموضع الأول –من سورة النمل– فلم يأتِ ذكر (لكم) بعد الأولى إلا في معنى النفي وهو قوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾، فلا يغني ذكرها في سياق النفي عن ذكرها في سياق الإثبات لاختلاف المعنيين.[5]

---

(١) انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص٦٣.

(٢) رأى بعضهم تسمية هذا النوع (الزيادة والنقصان)، ورأيت النقصان وصف لا يليق بالقرآن الكريم، حتى وإن كان القصد زيادة لفظ ونقص لفظ؛ والحذف والذكر أرعى للأدب مع القرآن فيما رأيت من الزيادة والنقصان. ومن فقه الإمام الزركشي أنه قال: (ما يشتبه بالزيادة والنقصان..) انظر: البرهان، ج١/ ص١١٥.

(٣) سورة النمل، الآية: ٦٠.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٣٢.

(٥) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج٢/ ص٨١٤-٨١٥. وانظر: الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص١٥٤. وانظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص٢٢١-٢٢٢.

ثم إنها صدرت ولم تتأخر لأنَّ ذلك أبلغ في الامتنان، كما أن في تصديرها تنبيهاً للغافل عن هذه النعمة، وقد جاءت في خطاب المشركين، لذا قال في ختام الآية: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ﴾.

➢ ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في خطاب موسى لفرعون وقومه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾[1]، وقوله في خطاب المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠﴾[2]، فتصديرها تنبيه لهم أن هذه النعمة وجدت من أجلهم، فليس لله بها حاجة.[3]

وابن الزبير –رحمه الله– رأى أنَّما بين الآيتين من قبيل التقديم والتأخير، وليس من قبيل الحذف والذكر، فقدمت (لكم) في آية سورة النمل وأخرت في آية سورة إبراهيم، ووجّه ذلك بأن الخطاب في سورة النمل للمشركين فتنبيههم وإعلامهم أن هذه النعمة من أجلهم اقتضى تقديم قوله (لكم)، أما في سورة إبراهيم فالخطاب للمؤمنين، فالآية التي سبقتها قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾[4]، فليسوا بحاجة لمثل ذاك التنبيه، كما أن تأخيرها متناسب مع معنى قوله تعالى في حق المؤمنين: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[5]، فلما كان حال المؤمنين التذكر والاعتبار لم تدعُ الحاجة للتقديم، ولما كان حال المشركين العمى عن الاعتبار والغفلة عن التذكر كان الأنسب تنبيههم من غفلتهم بتقديم ما يدل على جزيل المنة وعظيم النعمة.[6] أمَّا قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾[7] فقد تصدرت لأنَّ

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ٩–١٠.

(٣) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج٢/ ٢٨٦–٢٨٧.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٣١.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٦) انظر: المرجع نفسه.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

الخطاب عام لجميع الناس ففي الآية التي سبقتها نداء عام: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ثم لم تذكر في قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، لذكرها بعد ذلك واقترانها بلفظ الرزق في قوله: ﴿رِزۡقًا لَّكُمۡ﴾.

➢ ومن الحذف والذكر في المتشابه اللفظي من آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٤٦﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾[2]، في الموضع الثاني قال: ﴿لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ فذكر الجار والمجرور (فيه)، بينما في الموضع الأول لم يذكر فقال: ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾. ذلك أنه في الموضع الأول من سورة الروم الآية في إرسال الرياح، ولم يأتِ فيها ذكر للبحر حتى يعود الضمير عليه، أما الموضع الثاني فالآية في تسخير البحر، فلما كان ذلك كذلك ناسب ذكره بمجيء الضمير الذي يعود عليه.[3]

➢ وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾[5]، فقال في الموضع الأول: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾، وحذف الجار والمجرور في الموضع الثاني فقال: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾، ذلك أنه في الموضع الثاني تقدمها قوله: (ومن كل...) فأغنت عن قوله: (منه)، أما في الأول فلم يتقدمها مثله فجيء بالجار والمجرور ليرفع احتمال أن يكون مقصود الاستخراج من غير البحر، أما الموضع الثاني فلا مجال لمثل ذلك الاحتمال[6].

واقترن الواو بقوله: (لتبتغوا) في الأول، ولم تقترن به في الثاني؛ ذلك أن الموضع الأول جاء في سياق تعداد النعم والامتنان بها، دلَّ عليه قول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾، فناسب تعداد النعم عطف الجمل بعضها على بعض فالمقام مقام إطناب وتفصيل، والأكل واستخراج الحلية

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٢.

(٣) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج٣/ ص١٠٥٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٤.

(٥) سورة فاطر، الآية: ١٢.

(٦) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج٢/ ص٢٩٧. وانظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص٢٢٦.

وجريان الفلك والابتغاء كلها متعلقة بفعل التسخير المتقدم[١]. أما الموضع الثاني فقد جاء في سياق بيان القدرة، دلَّ عليه ما سبقها من قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[٢]، وإن كان في الآية تضمينٌ للامتنان إلا أنَّ مقصودها مبني على بيان القدرة، فلم تأتِ الواو هنا لعدم وجود المعطوف عليه كما في الموضع الأول من قوله: (لتأكلوا)[٣]، فجاء كل تعبير على ما يتناسب مع سياقه ومقصوده.[٤]

➢ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[٦]، فجيء فيها مقترنة بالواو، ولم تقترن بالواو في قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾[٧]؛ لأنَّ الموضع الأول فيه عطف لجملة: (لتجري الفلك) على جملة: (ليذيقكم من رحمته).

➢ ومن الذكر والحذف في المتشابه اللفظي من آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[٨]، بذكر (من) في قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾، ولم تذكر في مواضع مشابهة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٩]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ

---

(١) من العلماء من رأى قوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ جملة معترضة دل عليه أنَّ الخطاب فيها للمفرد (ترى)، وما قبلها وبعدها بالجمع: (لتأكلوا–وتستخرجوا–ولتبتغوا)، وقيل: بإمكان العطف وإنما جيء بصيغة المفرد لقصد مخالفة الأسلوب للتعجيب من تسخير السير في البحر باستحضار الحالة العجيبة بواسطة فعل الرؤية. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤/ ص١٢٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١١.

(٣) ذُكِرَ في إعراب (ولتبتغوا) عدة أقوال منها: أنه معطوف على قوله: (لتأكلوا) وما بينهما اعتراض، وقيل: أنه عطف على علة محذوفة تقديره: لتنتفعوا به ولتبتغوا، وقيل: أنه متعلق بفعل محذوف، والتقدير: فعل ذلك لتبتغوا. والقول الأول أولى؛ لأنَّ ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير. انظر: روح المعاني، للألوسي، ج١٤/ ص١١٤.

(٤) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج٢/ ٢٩٦. وانظر: زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص٣٠٢.

(٥) سورة الروم، الآية: ٤٦.

(٦) سورة الجاثية، الآية: ١٢.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٦٦.

(٨) سورة العنكبوت، الآية: ٦٣.

(٩) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

ﭐلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾[2].

من المعلوم أن الله –جل شأنه– يحي الأرض عقب موتها، كما أنه –جلت قدرته– يحيها بعد تراخي مدة موتها، ولا يعجزه شيء، فلما كان الكلام في الموضع الأول –من سورة العنكبوت– عن الرزق فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢﴾[3]، جاء (بمن) التي تدل على ابتداء الغاية مما يدل على أن الإحياء المقصود هنا هو ما كان عقب موت الأرض، وهذا مناسب لما تقدمه من عموم رزق الله تعالى للخلق، أما المواضع الأخرى فهي في سياق بيان قدرة الله –جل جلاله– فناسب فيها عدم ذكر (من) ليدل على أنه يحي الأرض بعد طول زمان موتها، وفي ذلك من بيان القدرة ما ليس في الأول، فجاء كل تعبير على ما يتناسب مع مقصود الآية[4]. كما يمكن أن يضاف إلى ذلك أن آية سورة العنكبوت جاءت لإفادة التقرير، ودخول (من) يفيد التحقيق وهو أمرٌ يستلزمه التقرير، تقول: سرت اليوم، وربما لم تسر إلا ساعة، فإن قلت: سرت اليوم من أوله إلى آخره، كان ذلك تحقيقاً؛ لأنَّ الظروف إذا حدت حقّقت، والمواضع الأخرى لم يكن مقصودها التقرير فلم تأت محدودة بـ(من) كما في الأول[5].

➢ ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾[6]، فاقترنت الفاء بالفعل فقال: (فسقناه) بينما حذفت منه في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾[7]. ذلك أن الفاء في الموضع الأول عاطفة مقتضية الترتيب والتعقيب، فإرسال الرياح يعقبه إثارة السحاب، فيعقب ذلك سوقه إلى بلد ميت، أما الموضع الثاني فإنه لما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ استدعى ذلك جواباً فقال: ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ بدون الفاء إذ لا مدخل لها هنا، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٢.

(٤) انظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص٢٩٢.

(٥) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج٣/ص ١٠٢٤–١٠٢٥.

(٦) سورة فاطر، الآية: ٩.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾[1]، ولم يقل: فجاءتها ريح، وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]، ولم يقل: فكفروا به، لما في هذه المواضع من استدعاء الجوابية التي لا مجال لدخول الفاء فيها، وإنما يُؤتى بالكلام مجرداً منها.[3]

➢ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ٧٠﴾[4]، فقال في الزرع : (لو نشاء لجعلناه)، وقال في الماء: (لو نشاء جعلناه)، ذلك أن الزرع للناس فيه سبب وجهد، أما إنزال الغيث من المزن فلا جهد لهم فيه ولا سبب، فناسب أن يأتي باللام للتوكيد فيما لهم فيه جهد، ولم تأتِ في الموضع الذي يليه لأنَّه لا جهد لهم فيه، وإن كان كل منهما بمشيئته وإرادته –سبحانه-. ثم إن حزن الناس على جعل الزرع حطاماً أشد من حزنهم على جعل الماء أجاجاً، فالوعيد بفقده أشد وأصعب، كما أن الزرع إذا صار حطاماً لا يمكن إصلاحه أما الماء فيمكن معالجته إذا صار أجاجاً، لذا جاءت اللام مع الزرع ولم تأت مع الماء؛ لإفادة التحقيق والتوكيد، وليكون المبنى متناسباً مع المعنى.[5]

▪ ثالثاً: اختلاف التركيب بما قد يوهم التناقض:

من الآيات ما يأتي الحديث فيه بتركيب، ثم يؤتى في موضع آخر بتركيب آخر قد يبدو لأول وهلة مناقضاً للموضع الأول، والحديث في الموضعين كليهما عن قضية واحدة، وقد عدَّ السيوطي –رحمه الله- ذلك وجهاً من وجوه الإعجاز فقال: (الوجه السابع من وجوه إعجازه: ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات)[6].

➢ من ذلك في آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ

(١) سورة يونس، الآية: ٢٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٩.
(٣) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج١/ ص١٨٧.
(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٦٣ – ٧٠.
(٥) انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص١٣٠-١٣١. وانظر: الزمخشري، الكشاف، ج٦/ ص٣٦.
(٦) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج١/ ص٧٣.

لِلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١) فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (١٢)﴾[١]، فقد يفهم من هذه الآيات أن خلق السموات والأرض وما فيهن كان في ثمانية أيام، يومين لخلق الأرض، ثم أربعة أيام لخلق الجبال وتقدير الأقوات، ثم يومين لخلق السموات، وهذا الفهم يناقض صريح الآيات في خلق السموات والأرض في ستة أيام، وقد جاء ذلك في عدة مواضع[٢]، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٥٤)﴾[٣]. ذلك أن الأرض خلقت في يومين، ولكنَّ اكتمال خلقها بما في ذلك إرساءها بالجبال وإحلال البركة فيها وتقدير أقواتها كان في أربعة أيام، فيوما خلق الأرض داخلان في الأيام الأربعة لاكتمال خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء، وقد كانت دخاناً فقضاهن سبع سموات في يومين، قال الفخر الرازي –رحمه الله– عن ذلك: (بمعنى تقدير الأرض في يومين، وتقدير الأقوات في يومين آخرين، كما يقول القائل: من الكوفة إلى المدينة عشرون يوماً، وإلى مكة ثلاثون يوماً، يريد أن جميع ذلك هو هذا القدر. ثم استوى إلى السماء في يومين آخرين ومجموع ذلك ستة أيام...)[٤] وبذلك يكون النصّ ليس فيه تعارض مع النصوص الأخرى فكلها تقرر أن خلق السموات والأرض كان في ستة أيام.

وإنما ضُمَّ اليومان إلى اليومين المتقدمين لاتصال خلق ما في الأرض بخلق الأرض، ولأنه لا يصح العطف على فعل الصلة وقد حجز بينهما كلام أجنبي منهما، فقول قائل: "الذي خرج محمد وركب" لا يجوز ؛ لأنَّه عطف الفعل (ركب) على الفعل (خرج) الذي هو صلة الاسم الموصول لأنَّ الصلة انقطعت بقوله: (محمد)، ولو قال: "الذي خرج وركب فهو محمد" جاز ذلك، وإذا كان

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٩ – ١٢.

(٢) جاء التصريح بخلق السموات والأرض في ستة أيام في سبعة مواضع في الأعراف، وفي يونس قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾، وفي هود قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾، وفي الفرقان قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا (٥٩)﴾، وفي السجدة قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)﴾، وفي ق قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾، وفي الحديد قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٤) تفسير الفخر الرازي، ج٢/ص ١٦٩.

ذلك كذلك فإن قوله: (خلق الأرض في يومين) من قوله: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ صلة الموصول (الذي)، وما بعدها من قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ لا يصح عطفها على فعل الصلة لدخول قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ بينهما، فتكون معطوفة على فعل مضمر مثل الذي ورد في الصلة بدلالة الأول عليه، فيكون التقدير: خلق الأرض وجعل فيها رواسي، فلهذا ضُمَّ اليومان المتأخران إلى المتقدمان فكان تتمتهما أربعة أيام.(١)

وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾: (فذلكة(٢) لمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان.. وقال الزجاج: في أربعة أيام في تتمة أربعة أيام، يريد بالتتمة اليومين.. فإن قلت: فهلّا قيل في يومين؟ وأي فائدة في هذه الفذلكة؟ قلت: إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض خلقت في يومين، علم أن ما فيها خلق في يومين، فبقيت المخايرة بين أن تقول: في يومين، وأن تقول: في أربعة أيام سواء، فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين، وهي الدلالة على أنها كانت أياماً كاملة بغير زيادة ولا نقصان. ولو قال: في يومين –وقد يطلق اليومان على أكثرهما– لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما).(٣)

والدكتور "موريس بوكاي" يلفت إلى مفهوم "أيام" الخلق، ففي غير موضع من كتاب الله يأتي بيان خلق السماوات والأرض في ستة أيام! فما المقصود باليوم؟ وهل اليوم هو بمفهومنا الحالي؟ الذي وهو مقدار الزمن بين شروقين أو غروبين للشمس؟ كيف لنا أن نتصور وجود مثل ذلك؟ مع أنَّ هذين الشروقين أو الغروبين ينتجان من دوران الأرض حول نفسها، على حين أن الأرض لم تخلق ويكتمل خلقها بعد، ومن ذلك يكون معنى اليوم (المرحلة)، فخلق السماوات والأرض كان على ست مراحل.(٤) وقد تحدث عن ذلك الألوسي –رحمه الله – فقال في ثنايا تفسيره لهذه الآيات: (واليوم في المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق، وأريد منه هنا الوقت

---

(١) انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج٣/ ص١١٣٨-١١٤٠.

(٢) الفذلكة: كلام منقطع أتي به لمجمل ما ذكر مفصلاً. وهي منحوتة من قوله: فذلك كذا وكذا. ويمثل عليه بقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. فالعشرة إجمال لما فصل قبلها من الثلاثة والسبعة. انظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج٢/ ص٦٧٨.

(٣) انظر: الكشاف، ج٥/ ص٣٦٩-٣٧٠.

(٤) انظر: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص١٦٦.

مطلقاً؛ لأنَّه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض نفسها..)[١]. وأشار سيد قطب – رحمه الله– إلى شيء من ذلك أيضاً[٢].

وتجدر الإشارة إلى أمرٍ آخر هو أن اليوم كزمن له مقدار عند الله مختلف عن مقداره عند الناس، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾[٤]، من هذا فإنَّ اليوم عند الله له مقدار غير المقدار الزمني الذي يدركه الناس.

ومن تركيب الآيات في سورة فصلت يفهم أن خلق السموات كان بعد خلق الأرض لقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، وهذا ترتيب قد يفهم منه ما يناقض قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[٥]، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى سنة ١٣٩٣هـ) –رحمه الله–: (اعلم أولاً أن ابن عباس –رضي الله عنهما– سُئل عن الجمع بين آية السجدة[٦] وآية النازعات، فأجاب: بأن الله تعالى خلق الأرض أولاً قبل السماء غير مدحوَّةٍ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعاً في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك. فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك بعد خلق السماء، ويدل على ذلك أنه قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾، ولم يقل: خلقها، ثم فسر دحوه إياها بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾)[٧].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[٨] قد يعرض إشكال بسبب هذه الآية لأنَّه قال: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾، فإنه يفهم منها أن خلق الأرض بجميع ما فيها كان قبل خلق

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج٢٤/ ص٩٩

(٢) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥/ ص٣١١٠.

(٣) سورة الحج، الآية:٤٧.

(٤) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٥) سورة النازعات، الآيات: ٢٧-٣٣.

(٦) المقصود بآية السجدة آية سورة (فصلت)، ويفرقون بينها وبين سورة (السجدة) المشهورة في المصحف بإضافة الحروف المقطعة من كل واحدة منهما؛ فالسجدة تسمى: (آلم السجدة)، وفصلت تسمى: (حم السجدة). انظر: التحرير والتنوير، ج٢٤/ ص٢٢٧-٢٢٨.

(٧) محمد الأمين الشـــنقيطي، دفع إيهام الاضـــطراب عن آيات الكتاب، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة–الســـعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، ص١٧. ونقل السيوطي جواب ابن عباس في معترك الأقران، ج١/ ص٧٤.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

السماوات لأنَّه رتبها في التركيب بحرف العطف (ثم)، وقد أجاب الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله– عن هذا من وجهين، الوجه الأول: أن خلق ما في الأرض جميعاً الذي كان قبل خلق السماوات المراد به الخلق اللغوي الذي هو التقدير، وليس الخلق بالفعل الذي هو الإيجاد من العدم، وقد قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، فنصَّ على التقدير، ثم قال:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾، واستدل بأن العرب تسمي التقدير خلقاً، مستشهداً بقول زهير:

فلأنتَ تَفرِي مَا خَلقْتَ، وبَعْـ * ـضُ القَومِ يَخلُقُ ثُمَّ لَا يَفْري**[(١)]

والوجه الثاني: أن خلق الأرض غير مدحوة، وهي أصل لكل ما فيها، كان كل ما فيها كأنه خلق بالفعل؛ لوجود أصله فعلاً، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾[(٢)]، فقوله: (خلقناكم ثم صورناكم) دلَّ على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع، فخلق أبينا آدم وتصويره وسجود الملائكة له وهو الأصل، كأنه خلق وتصوير وسجود للفرع.

ثم أورد أقوالاً في الجمع بين ذلك، سكت عن بعضها وضعَّف بعضاً، منها: أن (بعد) في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ بمعنى (مع)، ونظيره قوله تعالى: ﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾[(٣)]، أي: عتل مع ذلك زنيم، ومنها: أن (ثمَّ) بمعنى الواو، ومنها: أن (ثمَّ) للترتيب الذكري، وليس للترتيب الزمني، غير أنَّ القولين الأخيرين مبنيان على أنَّ خلق السماء قبل خلق الأرض، وهذا خلاف التحقيق كما قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله–.[(٤)]

▪ رابعاً: اختلاف التذييل:

من المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة ما يكون الاختلاف فيه بين الآيات في التذييل الذي تختم به الآية، والمبحث التالي لهذا المبحث يتناول التذييل في آيات الطبيعة لأنَّه يُعدُّ جانباً من جوانب الإعجاز البياني، وسيأتي فيه تفصيل للتذييل من تعريف وأمثلة ونحوها، وهذا الموضع يتناول شيئاً من اختلاف التذييل في آيات الطبيعة مما هو من قبيل المتشابه اللفظي، وتوجيه هذا الاختلاف.

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٥٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية:١١.

(٣) سورة القلم، الآية:١٣.

(٤) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص١٧–١٩.

➢ من ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[١]، وفي موضع مشابه له قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[٢]، ففي الأول ذيل الآية بقوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون)، وفي الموضع الثاني ذيلها بقوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)، ، وخص المؤمنين بالذكر وإن كانت الآيات لكل المكلفين؛ لأنَّهم هم من يقبل وينتفع بهذه الآيات[٣]، وقال: (لآيات لقوم يؤمنون) ولم يقل: لآيات للقوم المؤمنين، فعبر بالفعل ولم يعبر بالاسم؛ لأنَّه إيمان متجدد كلما رأوا آية من آيات الله زادتهم إيماناً، فآيات كتاب الله المنظور وآيات كتابه المسطور تزيدهم إيماناً، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[٤].

أمَّا توجيه تذييل آية يونس بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ وآية النمل بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؟ مع ما بينهما من تشابه في أجزاء الكلام! ذلك أن الآية من سورة يونس جاءت في سياق الاستدلال والامتنان فخاطب بها جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، فجاءت الآية بصيغة الخطاب: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ ودلالة الآية لكل من يسمع أدلة القرآن، لذلك ختمت بقوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون)، أما آية سورة النمل فجاءت في سياق الاستفهام التعجبي التوبيخي وبصيغة الغائب: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ والاستفهام للتعجب من حالهم إذ لم يستدلوا باختلاف الليل والنهار على وحدانية الله وعلى البعث فختمها ببيان أن (في ذلك لآيات لقوم يؤمنون).[٥]

➢ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[٧]، فذيل الموضع الأول بقوله: (إن في ذلك لآية

(١) سورة يونس، الآية: ٦٧.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٦.

(٣) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢٤/ ص٢١٩.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص٤٤.

(٦) سورة النحل، الآيتان:١١-١٢.

(٧) سورة النحل، الآية:٦٧.

لقوم يتفكرون)، وذيل الموضع الثاني بقوله: (إن في ذلك لآية لقوم يعقلون)، وكلا الآيتين في سورة واحدة هي سورة النحل.

وتوجيه ذلك أنه في المتقدمة كان مدار العبرة على إنبات تلك الثمرات بماء واحد، أما في الثانية فإن العبرة كانت باتخاذ السكر والرزق من تلك الثمرات، والإنبات من فعل الله وحده فذلك أدعى إلى التفكر فيه، أما في الثانية فإن الاتخاذ من تلك الثمرات يباشره الناس بأنفسهم لذا ناسب أن يذيلها بالتعقل، كما يضاف إلى ذلك أنه في الثانية ذكر السكر وهو أمر يذهب العقل فناسب تذيلها بقوله: (إن في ذلك لآية لقوم يعقلون)، قال الألوسي –رحمه الله–: (إذا كان في الآية إشارة إلى الحط من أمر السكر ففي الختم المذكور تقوية لذلك، وله في النفوس موقع وأي موقع حيث إنَّ العقار كما قيل للعقول عقال)[1]، ثم أورد قول الشاعر:

إذا دارها بالأكفِّ السّقاةُ   *   لخطَّابِها أَمْهروها العُقولا**[2]

***

(١) الألوسي، روح المعاني، ج١٤/ ص١٨١.

(٢) أورده الألوسي ولم يقف الباحث على قائله.

الفصل الرابع

التذييل في آيات الطبيعة

- المبحث الأول: التذييل بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

- المبحث الثاني: التذييل بقوله (إن في ذلك لآيات).

- المبحث الثالث: التذييل بالاستفهام.

- المبحث الرابع: التذييل بحرف (لعل).

- المبحث الخامس: تذييلات أخر.

الفصل الرابع
التذييل في آيات الطبيعة

التذييل في القرآن الكريم أسلوب متفرد يكشف عن جانب من جوانب الإعجاز البياني فيه، والآيات القرآنية غنيّة بهذا الأسلوب، وباستثناء أواسط وقصار المفصّل[١] فإنه لا تكاد تخلو سورة منه، وهو جانب جدير بالبحث والدراسة؛ لما يحوي من أسرار بيانية، وما يتضمن من أغراض بلاغية تسهم في الكشف عن إعجاز القرآن البياني.

ويمكن تحديد **مفهوم التذييل** بأنه: **الإتيان بعد تمام الكلام بكلام مستقل يكون في معنى الأول؛ تحقيقاً لدلالة منطوقه أو مفهومه، فيكون معه كالدليل؛ ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويكمله أو يقرره لمن فهمه.**[٢]

وقال الجرجاني في التعريفات: (التذييل: هو تعقيب جملة بجملة مشتملة على معناها للتوكيد، نحو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾[٣])[٤].

وإذا كان الإيجازُ والإطنابُ[٥] طرفي البلاغة، فإن التذييل –ومن خلال مفهومه هذا– نوع من أنواع الإطناب، و(الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكلّ نوع منه، ولكلّ واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ)[٦].

---

(١) يقسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام: الطُّوَل، والمئين، والمثاني، والمفصل. فالطُّوَل سبع سورٍ: البقرة ، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وأخيراً يونس، أو (الأنفال وبراءة) معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وتسميتهما بالقرينتين، ونزولهما جميعاً في المغازي ، والطُّوَل –بضم الطاء– جمع طولى، كالكُبَر: جمع كبرى، والمئين: ما ولي الطُّوَل وسميت بذلك لأن آياتها تزيد على مائة آية، والمثاني: ما ولي المئين وهي ما كانت آياتها أقل من المائة وسميت مثاني لأنها تثنى وتكرر، والمفصل: قيل هو من (الحجرات)، وقيل من (ق) إلى (الناس). والمفصل يقسم إلى ثلاث أقسام: طوال المفصل: من أوله إلى (البروج)، وأواسط المفصل: من (الطارق) إلى (البينة)، وقصار المفصل: من (الزلزلة) إلى (الناس).

انظر: الزركشي، البرهان، ج١/ ص٢٤٤. وانظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج١/ ص١٦٣.

(٢) انظر: الزركشي، البرهان، ج٣/ ص٦٨، وانظر: السيوطي، الاتقان، ج٥/ ص١٦٨٠.

(٣) سورة سبأ، الآية: ١٧.

(٤) الجرجاني، معجم التعريفات، ص٥٠.

(٥) ومن البلاغيين من يضيف طرفاً ثالثاً هو(المساواة): وهي تساوي اللفظ والمعنى، فيما لم يكن داع للإيجاز أو الإطناب. و(الإيجاز): أداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة. و(الإطناب): أداء المقصود بأكثر من العبارة المتعارفة، وقيل: الإطناب أنْ يكون اللفظ زائداً على أصل المراد. انظر: المرجع نفسه، ص٣٨، وكذلك ص٢٨.

(٦) العسكري، كتاب الصناعتين، ص١٩٠.

وللتذييل علاقة بالفاصلة القرآنية؛ لأنَّ التذييل أكثر ما يأتي في آخر الآية[١]، و(الفاصلة: كلمة آخر الآية[٢]، كقافية الشعر، وقرينة السجع)[٣]، لذلك فإن الفاصلة قد تكون كلمة في جملة التذييل.

والتذييل والفاصلة كلاهما له ارتباط بأول الآية، كما أنَّ لكل منهما أثره في المبنى والمعنى[٤]، ويُدرك ذلك بالنظر في السياق القرآني و"علم المناسبة"[٥]. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[٧]، فالآيتان الكريمتان من قبيل المتشابه اللفظي والتذييل فيهما مختلف، وكل تذييل منهما متناسب مع السياق الذي جاء فيه، ففي سورة إبراهيم سبق الآية ذكر الذين بدَّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، الذين جعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله، ثم عدد جملة من نعمه –سبحانه– من خلق وتسخير، وجاء في بداية الآية قوله: (وآتاكم من كل ما سألتموه) فناسب ذلك كله تذييل الآية بصفة

---

(١) قد تأتي آية تكون كلها تذييل لكلام سبقها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية:٨]. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٩/ ص١٣٦.

(٢) رأى بعض العلماء أنَّ الفاصلة قد تأتي في وسط الآية، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة يس، الآيات: ٧٧-٧٩]، ففي الآيات فاصلتان الأولى (نطفة-خلقه-مرة) والثانية: (مبين- رميم-عليم)، وفي قوله:﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة يس، الآيتان: ٧٥-٧٦]، فبالوقف على كلمة ﴿نَصْرَهُمْ﴾ وكلمة﴿قَوْلُهُمْ﴾ تضاف فاصلة إلى فاصلة آخر الآية، والوقف اللازم على ﴿قَوْلُهُمْ﴾ يعزز ذلك. انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ص٥٤١.

(٣) السيوطي، الاتقان، ج٥/ ص١٧٨٤.

(٤) الصواب أنْ يقال: (أثر في) وليس (أثر على)، قال علي-رضي الله عنه- يذكر فاطمة –رضي الله عنها-:(إنها جرت بَالرحى حتى أثَّرَ في يدها، واستقت بَالقربة حتى **أثَّرَ في نحرها**، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها...). انظر: سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط و محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، دمشق- سوريا، طبعة خاصة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، كتاب: الخراج والفيء والإمارة، باب(٢٠): بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى، الحديث رقم: (٢٩٨٨)، ج٤/ ص٦٠٦. وضعَّفه الألباني –رحمه الله- قال: (إسناده ضعيف... وصح الحديث مختصراً..). انظر: محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف سنن أبي داود، مؤسسة غراس، الجهراء- الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٢/ ص٤٢٧.
وقال عنترة: (**أَشْكُو مِنَ الهَجْرِ في سِرٍّ وفي عَلَنٍ ** شَكْوَى تُؤَثِّرُ في صَلْدٍ مِنَ الحَجَرِ**). انظر: ديوان عنترة شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٨٤.

(٥) المناسبة: هي المشاكلة والمقاربة، وفي القرآن الكريم هي أنْ يكون بين الآيات والسور رابط يربط ببعضها ببعض، وقد يكون الرابط عاما أو خاصا، عقليا أو حسيا، أو غير ذلك من العلاقات، مما يجعل الكلام بعضه آخذ بزمام بعض، فيكون كالبناء المحكم، وممن اعتنى به من المفسرين الإمام الرازي، والإمام البقاعي وقد دل على اعتنائه به عنوان كتابه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور). انظر: الزركشي، البرهان، ج١/ ص٣٥.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٧) سورة النحل، الآية: ١٨.

ذلك الإنسان فقال: (إن الإنسان لظلوم كفار). أما في سورة النحل فلم يسبقها غير التنبيه إلى أمهات النعم من المولى سبحانه، لذا ناسب التذييل بصفة المنعم سبحانه فقال تعالى: (إن الله لغفور رحيم).(١) كما أنَّ بين الآيتين تكاملاً إذ هما يبينان وصف المنعِم والمنعَم عليه، فحال الإنسان مع النعمة أنه ظلوم كفار –إلا من رحم ربك–، ووصف الله سبحانه في إنعامه أنه غفور رحيم، فيتجاوز عن ظلم العبد لنفسه وكفرانه للنعمة، ويغفر له ويرحمه فلا يحرمه(٢).

وهذا الفصل يهدف إلى الكشف عن الأسرار البيانية للتذييل القرآني في آيات الطبيعة، من الخلال المباحث الآتية..

---

(١) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ج٢/ ص٢٨٨.

(٢) انظر: الزركشي، البرهان، ج١/ ص٨٣.

• المبحث الأول: التذييل بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

يكثر تذييل الآيات القرآنية بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، فيكون ذلك تأكيداً لمضمون الآية واستدلالا له، وقد جاء على نوعين:

▪ النوع الأول: التذييل باسم مفرد أو بصفة مفردة(١) ومن ذلك ما يلي:

١) التذييل باسم "القدير" وصفة القدرة:

وهذا التذييل هو الأكثر في آيات الطبيعة، ولعل مناسبة ذلك بيّنة واضحة، فخلق هذه الآيات العظيمة من آيات الله بهذه الدقة المتناهية يتناسب معها اسم القدير، فلا يقدر على هذا الخلق العظيم بهذه الصورة العظيمة مع الإحاطة بها وتصريفها كيف يشاء إلا صاحب القدرة التامة التي لا يشوبها أدنى عجز.

➢ وتذييل الآيات باسم القدير وصفة القدرة كثيرة جداً، وقد جاء هذا التذييل في ثمان مواضع من آيات الطبيعة، على ثلاث صيغ، الصيغة الأولى: (إن الله على كل شيء قدير) منها قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾(٣)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾(٦) وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾(٧). والصيغة

---

(١) ذهب بعض العلماء إلى أنَّ أسماء الله –عز وجل– معرفة بالألف واللام؛ لأن التعريف يشعر بالاختصاص والاستغراق، وما جاء منها منكراً فإنما جاء وصفاً على بابه جارياً على الفعل. انظر: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق: الشيخ عرفان بن سليم الدمشقي، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٨٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.

(٣) سورة الروم، الآية: ٥٠.

(٤) سورة فاطر، الآية: ١.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٦) سورة الأحقاف، الآية: ٣٣.

(٧) سورة النور، الآية: ٤٥.

الثانية: (وكان الله على كل شيء مقتدرا)، في قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[1]. والصيغة الثالثة: (على جمعهم إذا يشاء قدير)، في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[2].

والله –سبحانه جل شأنه– **قادرٌ قديرٌ مقتدرٌ**، فقادر على وزن "فاعل"، وقدير على وزن "فعيل"، ومقتدر على وزن "مفتعل"، فالقدير اسمه، والقدرة صفته، والاقتدار فعله –سبحانه وتعالى–، والقدير المظهر قدرته بفعل ما يقدر عليه، وهو سبحانه يقدر على أشياء كثيرة لم يفعلها ولو شاء لفعلها، فاستحق بذلك أن يسمى "مقتدراً"[3].

٢) التذييل باسم "العليم" وصفة العلم:

➢ وهذا التذييل جاء في آيات الطبيعة في أربعة مواضع على ثلاث صيغ، فالصيغة الأولى: (بكل شيء عليم) وجاءت في موضعين: الأول: قوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[4]، ووجه هذا التذييل بصفة العلم مع أن الذي يتبادر إلى الذهن أن يذيله بصفة القدرة؛ أنه لما كان هذا الخلق العظيم بهذه الكيفية يحمل دلالة بيّنة على تمام القدرة للخالق –سبحانه– نبه إلى أمر يحتاج إلى تأمل أكثر فاستغنى عن التذييل بالقدرة إلى التذييل بالعلم فقال: (وهو بكل شيء عليم)[5]، ففيه دلالة على أنه لا يمكن أن يكون خالقاً للأرض وللسموات وما فيهما من العجائب والغرائب إلا إذا كان عالماً بها محيطاً بجزئياتها وكلياتها[6]، ويضاف إلى ذلك أن من تمام القدرة الإرادة، ومن تمام الإرادة: العلم، وهذا من تمام قيوميته –سبحانه– وفيه تقبيح للكفر به، وهذا يوثق الصلة بالآية التي سبقتها إذ كان فيها استفهام تعجبي إنكاري[7] في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[8]. والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

(٣) انظر: القرطبي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص٢٤٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٥) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١/ص٢٢٥.

(٦) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢/ص١٧٣.

(٧) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١/ص٣٧٤–وص٣٨٦.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾[1]، وهو هنا كما تقدم فتمام القدرة يلزمه شمول العلم، ويضاف إلى ذلك نفي الولد عنه –سبحانه–؛ لأنَّ من كان محتاجاً للولد لم يكن تام القدرة شامل العلم، والخالق لا يكون أباً. ومن لطيف التذييل هنا أنه –سبحانه– لم يقل: (وخلق كل شيء وهو به عليم) فعدل عن الإضمار إلى الإظهار؛ لأنَّ جملة التذييل يقصد فيها أن تكون مستقلة الدلالة فهي أشبه ما تكون بالأمثال في كونها كلاماً جامعاً لمعانٍ كثيرة.[2]

أما الصيغة الثانية فهي: (عليم بما يفعلون) وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١﴾[3]، والتذييل في هذه الآية بيّن واضح الدلالة إذ لا يعلم حقيقة ذلك التسبيح إلا العليم الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض، وفيه بيان سعة علم الله الذي يشمل التسبيح وغيره من الأحوال. والصيغة الثالثة: (عليم بذات الصدور) في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾[4]، ومعنى ذات الصدور: ما في صدور الناس من خواطر ونوايا، وكلمة "ذات" مؤنث "ذو" بمعنى صاحبة الصدور أي: الملازمة للصدور مما يخفيه الناس في أنفسهم ولا يبدونه لأحد. ووجه هذا التذييل أن الله –جل جلاله– لما ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، والإيلاج الإدخال وتغييب شيء في شيء، ففي ذلك إظهار أخفى الأشياء حتى تصير في غاية الجلاء، وإخفاء أظهر الأشياء حتى تكون في غاية الخفاء، ولما كان الليل وقت إخفاء الأشياء أعقب ذلك بأنه –سبحانه– عليم بأخفى الخفايا وهي: النوايا والخواطر، فكما تختفي الأشياء في ظلمة الليل فإن النوايا والخواطر تختفي وتكمن في ظلمة باطن الإنسان، فلا يطلع عليها إلا الله الظاهر الذي ليس فوقه شيء والباطن الذي ليس دونه شيء.[5]

٣) التذييل باسم "البصير" وصفة البصر:

➤ ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤﴾[6]، ووجه هذا التذييل أن الله لما ذكر دقائق الأشياء وعظائمها التي تلج الأرض فتغييب

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.

(٢) انظر: المرجع السابق ، ج٧/ص٤١٢.

(٣) سورة النور، الآية: ٤١.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٦.

(٥) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٩/ ص٢٦٢، وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧/ ص٣٦٧.

(٦) سورة الحديد، الآية: ٤.

فيها والتي تخرج منها، والتي تنزل من السماء والتي تعرج فيها، ثم أعقب ذلك بالمعية، أردف ذلك بإحاطة بصره سبحانه لكل ذلك ومنها أعمال العباد. قال الطاهر بن عاشور –رحمه الله–: (جملة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تكملة لمضمون ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾، وكان حقها أن لا تعطف، وإنما عطفت ترجيحاً لجانب ما تحتوي عليه من الخبر عن هذه الصفة)[١].

٤) التذييل باسم "الخبير" وصفة الخبرة:

الخَبِيرُ من أسماء الله –عز وجل– وهو العالم بما كان وما يكون.[٢] وقال ابن فارس: (الخاء والباء والراء أصلان: فالأول: العِلم، والثاني: يدل على لينٍ ورَخاوة وغُزْرٍ. فالأول الخُبْر: العِلْم بالشَّيءِ. تقول: لي بفلان خِبْرَةٌ وخُبْرٌ. والله تعالى الخَبير: أي العالِم بكلِّ شيء ..).[٣]

➢ جاء في آيات الطبيعة بصيغة: (إن الله بما تعملون خبير) مسبوقة بأنّ المؤكدة ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾[٤]. وهذه الآية في مضمونها قريبة من الآية التي سبقت من سورة الحديد قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾، ولكن هذه الآية بدأت بالاستفهام التقريري، وأضيف إليها تسخير الشمس والقمر وجريانهما إلى أجل مسمى، ولا يخفى ما في ذلك من الدقة والإحكام الدّال على كون صانعه –عز وجل– محيطاً بجلائل الأمور والأعمال ودقائقها؛ ولذا ناسب هنا التذييل باسم الخبير.[٥]

٥) التذييل باسم "الرحيم" وصفة الرحمة:

➢ جاء ذلك في قوله –سبحانه–: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦﴾[٦]، يزجي أي يسوق سوقا بطيئاً، كما تساق الدابة المثقلة بالحمل، وذلك من رحمة الله بالناس لينتفعوا ويطلبوا الرزق، فذيل الآية بصفة الرحمة امتناناً[٧]

---

(١) التحرير والتنوير، ج٢٧/ص٣٦٤.

(٢) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (خبر)، ج٤/ ٢٢٧.

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة (خبر)، ج١/ ص٣٨٩.

(٤) سورة لقمان، الآية: ٢٩.

(٥) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٢١/ص١٠٣.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٦٦.

(٧) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٥/ص١٥٩.

ودلل على هذه الرحمة بالآية التي تليها: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾[١].

٦) التذييل باسم "الشهيد" وصفة الشهادة:

قال ابن فارس: (الشين والهاء والدال أصلٌ يدلُّ على حضور وعلم وإعلام، لا يخرُج شيءٌ من فروعه عن الذي ذكرناه. من ذلك الشَّهادة، يجمع الأصولَ التي ذكرناها من الحضور، والعلم، والإعلام. يقال شَهد يشهد شهادةً).[٢] ومن أَسماء الله –عز وجل– **الشهيد** قيل: الشهيدُ الذي لا يَغيب عن عِلْمه شيء. والشهيد الحاضر. وفَعِيلٌ من أَبنية المبالغة في فاعل فإِذا عُدَّ العِلم مطلقاً فهو: العليم، وإِذا أُضيف في الأُمور الباطنة فهو: الخبير، وإِذا أُضيف إِلى الأُمور الظاهرة فهو: الشهيد، ويُضاف إِلى ذلك أَن يَشْهَدَ على الخلق يوم القيامة. والشاهد العالم الذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَهُ.[٣]

- جاء في آية الطبيعة في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْـَٔافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[٤]، ووجه هذا التذييل لطيف، فإنه سبحانه لما أخبر أنه سيوقف الناس وسيريهم من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين لهم به أن هذا القرآن هو الحق، فيشهدون ذلك بأنفسهم، ذيل بالاستفهام التقريري ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، فإذا عُلم (أنه على كل شيء شهيد) فإنه سيريكم في الآفاق وفي أنفسكم من الشواهد والأدلة ما يتبين لكم أنه الحق.

▪ النوع الثاني: التذييل باسمين مقترنين أو صفتين مقترنتين:

في كثير من الآيات القرآنية يكون التذييل باقتران اسمين من أسماء الله –جل جلاله– ويكون بينهما ارتباط دلالي (والحُسن في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال)[٥]، وهذه قضية جديرة بالدراسة من الجانب العقدي ومن الجانب البياني. ومن أمثلة ذلك: العزيز الحكيم، والغني الحميد، والعليم الخبير، والسميع البصير، والغفور الرحيم ..

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (شهد)، ج١/ ص٦٢٨.

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (شهد)، ج٣/ ص٢٩٣.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٥) انظر: محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، تحقيق: أشرف عبدالمقصود، مكتبة السنة، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص١٠

وتهدف هذه الفقرة لفهم سر التذييل باقتران اسمين من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى في آيات الطبيعة، مع إشارة إلى بعض الحِكمة من ذلك الاقتران، ومن ذلك:

١) العزيز العليم:

قال ابن فارس: (العين والزاء أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على شدّةٍ وقوّةٍ وما ضاهاهما من غلبةٍ وَقهر. قال الخليل: "العِزَّة لله –جلّ ثناؤه– وهو من العزيز. ويقال عَزّ الشّيء حتى يكاد لا يوجد". وهذا وإنْ كان صحيحاً فهو بلفظ آخر أحسن، فيقال: هذا الذي لا يكادُ يُقدَر عليه)[١]. **والعَزِيزُ**: من أسماء الله الحسنى وهو الممتنع فلا يغلبه شيء، والقوي الغالب لكل شيء، وقيل: هو الذي ليس كمثله شيء. ومن أَسمائه عز وجل المُعِزُّ، وهو الذي يَهَبُ العِزَّ لمن يشاء من عباده، والعِزُّ: خلاف الذُّلِ.[٢]

والعالِمُ والعَلِيم والعَلاَّمُ من أسماء الله وصفاته –عز وجل–: قال الله تعالى:﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾[٣]، وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾[٤]، وقال: ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ ﴾[٥].

فعلم الله –سبحانه– أحاط بما كان، وبما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون[٦]، ولا يخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء –سبحانه وتعالى– أحاطَ عِلْمُه بجميع الأشياء باطِنِها وظاهِرِها دقيقِها وجليلِها. وعَليمٌ، فَعِيلٌ: من أبنية المبالغة.[٧]

➢ جاء هذا التذييل في آيات الطبيعة في أربعة مواضع، الأول: قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾[٨]، والثاني: قوله تعالى:

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (عزّ)، ج٢/ ص١٢٢.

(٢) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (عزز)، ج٥/ ص٣٧٤.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٩.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٨٦.

(٥) سورة سبأ، الآية: ٤٨.

(٦) من أدلة علمه –سبحانه– لما كان: إخباره عن الأمم السابقة كما قال بعد قصة نوح: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩]، ومن أدلة علمه –سبحانه– لما سيكون: إخباره عن أبي لهب وأنه سيصلى ناراً ذات لهب بموته كافراً، ومنها إخباره –سبحانه– عن غلبة الروم بعد هزيمتهم: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الروم: ٢–٣]، وهذا بيّن، أما الأدلة على علمه –سبحانه– لما لم يكن لو كان كيف يكون: فمنها قوله عن يونس –عليه السلام–: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٣ – ١٤٤].

(٧) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (علم)، ج١٢/ ص٤١٦.

(٨) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ ﴾[1]، والثالث: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢ ﴾[2]، والرابع: قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٩ ﴾[3].

ووجه هذا التذييل بعد بيان قدرته في خلق وتسيير الأجرام الفضائية والكواكب الدرية، أن "**العزيز**" فيه إشارة إلا كمال قدرته وقهره –سبحانه– لهذه الأجرام العظيمة فليس شيء منها خارج عن سلطانه ومشيئته، وما دونها من المخلوقات من باب أولى، و"**العليم**" إشارة إلى كمال علمه –جل جلاله– فتقدير هذه المخلوقات العظيمة بصفاتها المخصوصة، وهيئاتها المحدودة، وحركاتها المقدرة في البطء والسرعة لا يمكن تحصيله إلا بعلم نافذ تام لا يلحقه نقص.[4]

أما فائدة الاقتران بين العزيز والعليم: فإن العزة والقهر للمخلوقات دون تقدير لها بمقادير صادرة عن تمام العلم قد ينتج عن ذلك عبثية وفوضى، ومن الجانب الآخر فإن التقدير الدقيق لها دون قهر وعزة وقدرة على تسييرها فيما قدر لها قد يخرج شيء منها عما قدر له، فكان اسم العزيز واسم العليم كل منهما دال على الكمال لله بمفرده، فلما قرن بينهما دل على كمال فوق الكمال –والله تعالى أعلم–.

٢) العزيز الحكيم:

من أَسماء الله تعالى "**الحَكَمُ**" و"**الحَكِيمُ**" وهما بمعنى الحاكِم، وهو القاضي، فَهو فعِيلٌ بمعنى فاعَلٍ، أو هو الذي يُحْكِمُ الأَشياءَ ويتقنها، فهو فَعِيلٌ بمعنى مُفْعِلٍ، وقيل: الحَكِيمُ ذو الحِكمة، والحَكْمَةُ عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.[5]

➢ جاء هذا التذييل في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧ ﴾[6]، في الآية الحديث عن بدء الخلق

---

(١) سورة يس، الآية: ٣٨.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ١١-١٢.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٩.

(٤) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج١٣/ص١٠٥.

(٥) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (حكم)، ج١٢/ ص١٤٠.

(٦) سورة الروم، الآية: ٢٧.

وإعادته، والعزة والحكمة صفتان تظهران في هذا الغرض؛ فالعزة تقتضي الغنى المطلق وتقتضي تمام القدرة. والحكمة تقتضي عموم العلم، فالعزة ظهرت في قدرته على بدء الخلق، وتظهر الحكمة في إعادة الخلق –وهو أهون عليه من ابتدائه وكلاهما عليه هين– لأنَّ الغاية من إعادة الخلق الجزاء، وكل ذلك من جملة أن لله المثل الأعلى –سبحانه–.(١)

واسما "العزيز" و"الحكيم" يقترنان في القرآن كثيراً، فيدل كل اسم منهما على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم، كما أن الجمع بينهما يدل على كمال آخر، وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة التامة، وحكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل، فعزته لا تقتضي ظلماً وجوراً وسوء فعل، كما قد يكون من المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم ويجور ويسيء التصرف، كما أن حكم المخلوق وحكمته يعتريهما الذل.(٢) سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

٣) الحليم الغفور:

الحَلِيمُ: معناه الصَّبور، وفي حق الله –سبحانه– هو الذي لا يسْتَخِفُّهُ عِصْيان العُصاة ولا يستفِزّه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيءٍ مِقْداراً، فهو مُنْتَهٍ إليه.(٣) **والغفور**: الغين والفاء والراء أصل بابِه السَّتْر. فالغَفْر: السَّتر. يقال: غَفَر الله ذنبه غَفْراً ومَغفِرةً وغُفراناً. ومنه المِغْفَر: وهو ما يستر المقاتل به رأسه ليتقي منه ضرب السيوف ونحوها.(٤)

➢ جاء هذا التذييل في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾(٥)، في الآية تعريض بالتهديد، كأنه قيل: هو جدير بأن يزيلهما لعظيم ما يرتكبه أهل الأرض من الشرك بالله ومحادّته بجهلهم، كما بيّن –عز وجل– في موضع آخر: ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾(٦)، ولذا قد يُتصور أن الآية أقرب إلى التذييل بما يتناسب مع التهديد والترهيب من صفات القدرة والقهر كاسم القهار أو الجبار أو ما شابه ذلك، ولكن الله –عز في علاه– ختم الآية بما هو أميل إلى الترغيب في الإقلاع عن الذنب فقال: (إنه كان حليماً غفوراً) حليماً: حيث لم يعجل في إهلاكهم بعد إصرارهم على الشرك، فليس من شأنه معاجلة العصاة بالعقوبة؛ لأنَّه لا

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٤/ص٨٤ .

(٢) انظر: ابن عثيمين، القواعد المثلى، ص١٠ .

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (حلم)، ج١٢/ ص١٤٦.

(٤) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (غفر)، ج٢/ ص٢٩٩.

(٥) سورة فاطر، الآية: ٤١.

(٦) سورة مريم، الآيتان: ٨٩-٩٠.

يستعجل إلا من خاف الفوت، فينتهز الفرص. غفوراً: يستر ذنوب من تاب ورجع إليه[1]، فهو – سبحانه– كما أخبر عن نفسه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]، وكما أخبر عنه عبده ورسوله – صلى الله عليه وسلم–فقال: (إنَّ اللهَ كتب كتابًا قبل أن يخلُقَ الخلقَ : إنَّ رحمتي سبَقَتْ غضبي، فهو مكتوبٌ عندَه فوقَ العرشِ)[3].

ومن لطيف الاقتران بين الغفور والحليم: أنه لما كان الغالب على الحلماء أنهم إذا غضبوا بعد طول الأناة لا يغفرون، ولذا كان يقال: "اتقِ شر الحليم إذا غضب"، وإن عفا كان عفوه مكدراً، فقرن –سبحانه– بين الحلم والمغفرة ترغيباً في التوبة[4]، وقد وصف الله عباده المؤمنين بهذه الصفة العلية ترغيباً للناس في الاتصاف بها، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧)﴾[5].

٤) العزيز الغفّار:

الغَفُورُ الغَفّارُ من أسماء الله –جلّ جلاله–، وهما من أَبنية المبالغة ومعناهما الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم. يقال: اللهمَّ اغفر لنا مَغْفرة وغَفْراً وغُفْراناً، وإِنك أَنت الغَفُور الغَفّار وأَهل المَغْفِرة. وأَصل الغَفْرِ –كما سبق– التغطية والستر. غَفَرَ الله ذنوبه أَي سترها؛ والغَفْر: الغُفْرانُ.[6]

➢ جاء هذا التذييل في آيات الطبيعة في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)﴾[7]. هذه الآية في بدايات سورة الزمر ومقصود هذه السورة العزة[8]، والآية التي سبقتها قوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٦/ص٧٢. وانظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢٦/ص٣٣. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢/ ص٣٢٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب٩٧: (التوحيد)، باب٥٥: (قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾)، الحديث رقم: (٧٥٥٤)، ج٤/ ص٤١٧.

(٤) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٦/ص٧٢. وانظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢٦/ص٣٣.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٣٧.

(٦) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (غفر)، ج٥/ ص٢٥.

(٧) سورة الزمر، الآية: ٥.

(٨) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٦/ص٤٥٤.

﴿ٱلۡقَهَّارُ ۝٤﴾[1]، فالتذييل (هو الله الواحد القهار) متناسب مع نفي الولد ونفي الشركاء له فيما خلق، ومتناسب مع مقصود السورة، وهو أيضا ممهد لهذه الآية التي نحن بصددها من الحديث عن هذا الخلق العظيم للسماوات والأرض، وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وتسخير الشمس والقمر، ففي ذلك كله كمال العزة، فجاء التذييل مؤكداً للعزة، وفي ذات الوقت مرغباً في التوبة، ففيه معنى الوعد والوعيد؛ لأنَّ "العزيز" فيه معنى الوعيد بأنه يفعل ما شاء لا غالب له، فلا تجدي المشركين عبادة أوليائهم، كما أن "الغفار" فيه معنى الوعد، ومؤذنٌ باستدعائهم إلى التوبة باتباع الإسلام، واسم "الغفار" بما يتضمنه من صفة المغفرة فيه مناسبة لقوله: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾؛ لأنَّ أثر المغفرة يظهر بعد البعث الذي يكون بعد انتهاء الأجل، ففيه دعوة إلى المبادرة بالتوبة قبل الموت.[2]

ويضاف لحكمة الاقتران بين "العزيز" و"الغفار" أن مغفرة الله تعالى لعباده ليست ناتجة عن عجز أو فقر أو حاجة تعالى الله عن ذلك كله، فهو العزيز الغني المستغني عن جميع خلقه، وجميع خلقه مفتقرون إليه، كما أن مغفرته –جل وعلا– لعباده ليست لعلة ولا هي استحقاق لهم ملزم له، وإنَّما هي محض فضل وجود وإنعام منه –سبحانه– عليهم.

٥) اللطيف الخبير

اسم الله **اللطيف** متضمنٌ علمه –عز وجل– بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية إلى خلقه، ومنه التلطف، كما ورد في حوار أصحاب الكهف قوله تعالى: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾[3].[4] فاسم اللطيف يتضمن أمرين اثنين، الأول: أن علمه دقّ ولطُف حتى أدرك السرائر والضمائر والخفيات. والثاني: إيصال مصالح عباده إليهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها.[5] وقال ابن فارس: (اللام والطاء والفاء أصلٌ يدلُّ على رِفق ويدلُّ على

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٣/ص٣٣٠.

(٣) سورة الكهف، الآية:١٩.

(٤) انظر: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، جمع وتحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت، ص٣٧٩.

(٥) قال ابن القيم– رحمه الله– في نونيته: **وهو اللطيفُ بِعبدِهِ ولِعبدِهِ *** واللُّطْفُ في أوصــــافِه نوعانِ**
إدراك أســرارِ الأمـورِ بخِبْرةٍ * واللُّطْفُ عند مواقعِ الإحســـانِ**
فَيُريكَ عِزَّتَهُ ويُبدي لُطْــفَهُ * والعَبدُ في الغَفَلاتِ عنْ ذا الشَّانِ**

انظر: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (القصيدة النونية)، عني بها: عبدالله بن محمد العمير، دار ابن خزيمة، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، الأبيات رقم: (٣٢٨٦–٣٢٨٧–٣٢٨٨)، ص٢٤٤.

صغَر في الشيء. فاللُّطف: الرّفق في العَمل؛ يقال: هو لطيفٌ بعباده، أي رؤوف رفيق)[1].
فاللطيف: هو الذي يوصل إليك أربك في رِفْق، واللُّطفُ من الله تعالى: التوفيق والعِصمة، وهو – سبحانه– قد اتصف بالرِّفق في الفعل، والعلمُ بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدّرها له من خلقه. يقال: لَطَف به وله بالفتح يَلْطُف لُطْفاً: إذا رَفَقَ به. فأَما لَطُف بالضم يَلْطُف فمعناه: صغُر ودقَّ. واللُّطْف واللَّطَف: البرّ والتَّكْرِمة والتحَفِّي.[2]

➢ جاء التذييل باللطيف الخبير في آيات الطبيعة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾[3]، فكأنَّ هذا التذييل جاء تعليلاً لإنزال الماء المترتب عليه اخضرار الأرض مما فيه منفعة العباد والبلاد، فهذا من لطف الله بعباده ورفقه بهم، وهو –سبحانه– الخبير العليم بترتيب المسببات على أسبابها.[4] وروي عن ابن عباس– رضي الله عنهما– في توجيه هذا التذييل أنه قال: لطيف بأرزاق عباده، خبير بما في قلوبهم من القنوط.[5]

وفي اقتران هذين الاسمين الجليلين لله –عز وجل– صفة كمال من كل منهما، وصفة كمال ثالثة من اجتماعهما؛ فكونه –سبحانه– (اللطيف الخبير) يعني: أنَّ أفعاله التي لطفت عن أن تدركها العقول قد أحاطت بما تعبت في إدراكه الأفهام، وأن لطفه وصنائعه وبره وإحسانه إنَّما دقت على العقول والأفهام؛ لأنَّها جارية على مقتضى خبرته التي هي فوق إدراك العقول والأفهام، فلطفه ورفقه وإحسانه إنَّما هو لطفٌ ورفقٌ وإحسانٌ من الخبير –سبحانه جل شأنه–.[6]

٦) الرؤوف الرحيم:

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (لطف)، ج٢/ ص٤٧٧.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (لطف)، ج٩/ ص٣١٦.
(٣) سورة الحج، الآية:٦٣.
(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ص٣١٩.
(٥) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢٣/ص٦٣.
(٦) انظر: عبدالعزيز بن ناصر الجليل، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها–دراسة تربوية للآثار الإيمانية والسلوكية لأسماء الله الحسنى، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ص٣٢٥.

من أسماء الله –جل جلاله– **الرؤوف:** وهو الرحيمُ لعباده العَطُوفُ عليهم بأَلطافه. والرأْفةُ أَخصُّ من الرحمةِ وأَرَقُّ، وفيه لغتان قرئ بهما معاً[١]، الأولى: (رَؤوف) على وزن (فَعُول) قال كعب بن مالك–رضي الله عنه–:

نُطِيعُ نَبيَّنا ونُطِيعُ رَبّاً * هو الرحمنُ كان بِنا رَؤوفا**[٢]

والقراءة الثانية:(رؤُف) على وزن (فَعُل)؛ قال جرير:

تَرَىَ لِلْمُسلِمِينَ عليك حَقّاً * كفِعْلِ الوالِدِ الرَّؤُفِ الرَّحيمِ**[٣]

ورأف مثلثة الوسط فيقال: (رَأَفَ–رَؤُفَ–ورَئِفَ) يقال: رَؤُفْتُ بالرجل أَرؤُفُ به رَأْفَةً ورآفةً، ورأَفْتُ أَرْأَف به، ورئِفْتُ به رأَفاً، كلٌّ جائز في كلام العرب، ومَن لَيَّنَ الهمزةَ وقال رَوُف جعلها واواً، ومنهم من يقول رَأْفٌ، بسكون الهمزة، قال الشاعر:

فآمِنوا بِنَبِيٍّ –لا أَبا لكُمُ– * ذِي خاتَمٍ صاغهُ الرحمنُ مَخْتُومِ**
رَأْفٍ رَحِيمٍ بأَهْلِ البِرّ يَرْحَمُهم * مُقَرَّبٍ عند ذِي الكُرْسِيّ مَرْحُومِ**[٤]

وقد رَأَفَ يَرْأَفُ إذا رَحِمَ. والرَّأْفَةُ أَرَقُّ من الرحمة ولا تكاد تقع في الكراهة، والرحمةُ قد تقع في الكراهة للمَصْلحةِ.[٥]

والرحيم من أسماء الله الحسنى و(الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرّقّة والعطف والرأفة، يقال من ذلك: رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه، والرحم والمرحمة والرحمة بمعنىً، والرحم: علاقة القرابة، ثم سميت رحم الأنثى رحماً من هذا؛ لأنَّ منها يكون ما يرحم به ويرق له من ولد)[٦].

والتذييل باسمي (الرؤوف الرحيم) جاء في تسعة مواضع ثمانية منها وصف لله –جل جلاله– والموضع التاسع جاء وصفاً للنبي –صلى الله عليه وسلم– وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ

(١) قال ابن الجزري: (واختلفوا في (رؤوف) حيث وقع: فقرأ البصريان والكوفيون سوى حفص بقصر الهمزة من غير واو. وقرأ الباقون بواو بعد الهمزة). انظر النشر في القراءات العشر، ج٢/ ص٢٢٣.

(٢) ديوان كعب بن مالك، تحقيق: سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد–العراق، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص٢٣٦.

(٣) ديوان جرير، شرحه: تاج الدين شلق، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص٥٦٩.

(٤) أورده أبو بكر الأنباري (المتوفى سنة ٣٢٨هـ) –رحمه الله– دون أن يعزوه لقائله. انظر: محمد بن القاسم الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار الشؤون الثقافية العامة–آفاق عربية، بغداد–العراق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ج١/ ص١٩٤.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، مادة (رأف)، ج٩/ ص١١٢.

(٦) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (رحم)، ج١/ ص٥١٦.

رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1]، وقد جاء وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا لأنَّه كما قال ابن القيم - رحمه الله-: (والربُّ تعالى هو الرؤوف الرحيم وأقرب الخلق إليه تعالى أعظمهم رأفةً ورحمةً، كما أن أبعدهم منه: مَن اتصف بضد صفاته...)[2].

➢ أمَّا في آيات الطبيعة فقد جاء التذييل بالرؤوف الرحيم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[3]. هذا التذييل فيه بيان علة ما سبق فإن تسخر ما في الأرض للناس، وتسخير البحر لتجري الفلك فيه بما ينفهم، وإمساك السماء من أن تقع على الأرض إلا بإذنه، هذا كله من رحمته ورأفته بعباده[4]، وقد جاء ذلك مؤكداً بعدة مؤكدات، منها (إنّ) في قوله: (إن الله بالناس)، وباللام "المزحلقة" التي تفيد التوكيد، وباقتران اسمي الرؤوف والرحيم، وعلى القول بأن الرأفة أخص من الرحمة فهو من ذكر العام بعد الخاص وهو يفيد التأكيد أيضاً. فله الحمد من قبل ومن بعد.

ومن أوجه الاقتران بين اسمي الرؤوف والرحيم: أنَّ الرأفة صفة تقتضي صرف الضر، والرحمة صفة تقتضي جلب النفع، فكل منهما صفة كمال لله واجتماعهما يؤكد ما تجتمعان عليه.[5] فإذا تقرر ذلك عُلم وجه تقديم الرؤوف على الرحيم؛ لأنَّ صرف الضر مقدم على جلب النفع. والمواضع التي اقترن فيها اسما الرؤوف والرحيم فيها امتنان من الله -عز وجل- على عباده؛ إما بأمر ديني أو بأمر دنيوي. وكل ما وهبه الله من خير، أو دفعه من سوء، فهو من رأفته ورحمته - سبحانه- بعباده.[6]

٧) الرحيم الغفور:

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الروح- في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء، تقديم وتعليق: محمد علي القطب وبرهان الدين البقاعي، المكتبة العصرية، بيروت-لبنان، ب ط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٣٤٦.

(٣) سورة الحج، الآية: ٦٥.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ص٣٢٥.

(٥) انظر: المرجع نفسه.

(٦) سليمان بن قاسم العيد، اقتران الأسماء الحسنى في أواخر الآيات من سورة البقرة حصرها، معانيها، مناسباتها، جامعة الملك سعود كلية التربية قسم الثقافة الإسلامية، ١٤٢٠هـ، ص٢٥، متوفر بصيغة (PDF) تاريخ الدخول (١٣-١-٢٠١٥م) على الرابط الآتي:
http://www.alukah.net/web/eleid/0/19287

➢ جاء في الآيات الأُوَل من سورة سبأ قوله تعالى:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[١]. في الآية الأولى كان التذييل بقوله: (وهو الحكيم الخبير) ذلك أن الله –سبحانه– لما أخبر أن الحمد له في الأولى وفي الآخرة كما قال في موضع آخر: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾[٢]، عُلم أن الحكمة من إيجاد هذا الخلق في النشأة الأولى لا تتم إلا بإيجاد نشأة أخرى في الدار الآخرة حيث الثواب والعقاب، فأعقب ذلك بإثبات صفة الحكمة التي تضمنها اسم الحكيم، ولما كان كمال الحكمة لا يتهيأ إلا بتمام العلم أردف ذلك باسم الخبير.[٣] يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (ابتدأ – سبحانه– السورة بحمده الذي هو أعم المعارف وأوسع العلوم، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله، مستلزم لها، كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره، فهو المحمود على كل حالة، وعلى كل ما خلقه وشرعه، ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير منقطع أبدًا، فإنه حمدٌ يستحقه لذاته وكمال أوصافه، وما يستحقه لذاته دائم بدوامه لا يزول أبدًا، وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه؛ فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصًا، والحمد بلا ملك يستلزم عجزًا، والحمد مع الملك غاية الكمال ... ثم عقب هذا الحمد والملك باسمي (الحكيم الخبير) الدالين على كمال الإرادة، وأنها لا تتعلق بمرادٍ إلا لحكمة بالغة، وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات؛ فهو متعلق ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر والحكمة باطنة، والعلم ظاهر والخبرة باطنة، فكمال الإرادة: أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم: أن يكون كاشفاً عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها. فتضمنت الآية إثبات حمده وملكه، وحكمته وعلمه، على أكمل الوجوه).[٤]

وفي الآية الثانية كان التذييل بقوله: (وهو الرحيم الغفور) وقد اقترن اسم الغفور باسم الرحيم في نيف وسبعين موضعاً[٥]، وفي جميع هذا المواضع تقدم فيها اسم الغفور على الرحيم إلا

---

(١) سورة سبأ، الآيتان: ١-٢.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٠.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٥/ص٤٣٩.

(٤) بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، ج١/ ص١٣٨-١٣٩.

(٥) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (رحم) ص٣٠٧، ومادة (غفر) ص٥٠١.

ما جاء في هذه الآية. **وهنا تجدر الإشارة إلى أمرين، الأول: ما سر هذا الاختلاف عن المواضع الأخرى؟ والأمر الثاني: ما سر التذييل في هذه الآية؟**

وقبل ذلك هنا إشارة إلى تقديم الغفور على الرحيم -وهو الغالب في اقتران هذين الاسمين الجليلين- فمما سبق يتبين أن المغفرة: ستر الذنوب، أما الرحمة فهي مزيد فضل من الله تعالى؛ ولذا قال -عليه الصلاة والسلام-: (لن يُدخِلَ أحدًا عملُهُ الجنَّةَ قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللَّهِ ؟ قالَ: لا، ولا أنا، إلَّا أن يتغمَّدَنِيَ اللَّهُ بِفَضلٍ ورَحمةٍ..)[1]. فكأن المغفرة سبب في المنع من دخول النار، والرحمة سبب في دخول الجنة، والقاعدة الشرعية تنص على أنَّ: (درء المفاسد أولى من جلب المصالح)[2]، لذا قال ابن القيم في ذلك: (ولما كان دفع الشر مقدمًا على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع)[3].

ومن ذلك جاء اقتران الغفور والرحيم ليكتمل الفضل والإحسان، فيكون الغفران بداية العفو، ثم يزيد الله من فضله على عباده فيبدل سيئاتهم حسنات كما قال-سبحانه-: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[4]، فيدخلهم الجنة برحمته، فله المنة والفضل من قبل ومن بعد.

ولم يتقدم الرحيم على الغفور إلا في هذه الآية الثانية من سورة سبأ: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾. المقام هنا مقام الحمد -كما تبين من افتتاح السورة- فلذا قدم الوصف الدال على التكميل وهي صفة الرحمة على الوصف النافي للنقص وهي صفة المغفرة، والمغفرة تكون عن ذنب وتقصير وليس في الآية تصريح بذلك، وأما الرحمة فهي عامة تشمل كل الكائنات. فهو -سبحانه- رحيمٌ بأن أخرج من الأرض وأنزل من السماء ما فيه نفع الخلائق، وهو غفورٌ عندما تعرج الأرواح والأعمال إليه فرحم أولاً بالإخراج والإنزال، وغفر ثانياً عند العروج[5].

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة، ونص الحديث في البخاري: **(لن يُدخِلَ أحدًا عملُهُ الجنَّةَ)** قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: **(لا، ولا أنا، إلَّا أن يتغمَّدَنِيَ اللَّهُ بِفَضلٍ ورَحمةٍ، فسدِّدوا وقاربوا، ولا يَتمَنَّيَنَّ أحدُكمُ الموتَ: إمَّا مُحسنًا فلعلَّهُ أن يزدادَ خَيرًا، وإمَّا مُسيئًا فلعلَّهُ أن يَستَعتِبَ)**. انظر: صحيح البخاري، كتاب٧٥: (المرضى)، باب١٩: (تمني المريض الموت)، الحديث رقم: (٥٦٧٣)، ج٤/ص٣٠.

(٢) انظر: محمد صدقي البورنو، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، الرسالة العالمية، الطبعة الرابعة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٢٦٥. وانظر: محمد بن صالح العثيمين، القواعد الفقهية، دار البصيرة، الاسكندرية- مصر، ب ط، ب ت، ص٢٠.

(٣) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١/ ص١٤٠.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٥) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٥/ص٤٤٣. وانظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢٥/ص٢٤١.

وفي سر هذا التقديم والتأخير يقول الزركشي –رحمه الله–: (المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة؛ وإنما تأخرت –المغفرة– في آية سبأ في قوله (وهو الرحيم الغفور) لأنَّها منتظمة في سلك تعداد أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم، وهو قوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ ، فالرحمة شملتهم جميعاً، والمغفرة تخص بعضاً والعموم قبل الخصوص بالرتبة).[١] ويقول ابن القيم في ذلك: (وقدَّم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[٢]).[٣]

يضاف إلى ذلك أن مقصود سورة سبأ إثبات البعث فقد روي في سبب نزولها: (أن أبا سفيان لما سمع قوله تعالى: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾[٤] قال لأصحابه: كأن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت، واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾[٥])[٦]، وقضية البعث أول ما تستدعي في النفوس الرحمة، فقدم اسمه الرحيم لمناسبة ذلك.

٨) الولي الحميد:

قال ابن فارس: (الواو واللام والياء: أصلٌ صحيح يدلُّ على قرب. من ذلك الوَلْيُ: القرْب. يقال: تَبَاعَدَ بعد وَلْي، أي قُرْبٍ. وحَابَسَ ممّا يَلِيني، أي يُقارِبُني. والوَلِيُّ المَطَر يجيءُ بعد الوَسْميّ، سمِّي بذلك لأنَّه يلي الوسمي. ومن الباب المَوْلَى: المُعْتِقُ والمُعْتَق، والصَّاحب، والحليف، وابن العَمّ، والنَّاصر، والجار، كلُّ هؤلاءِ من الوَلْيِ وهو القُرْب. وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخرَ فهو وليُّه).[٧]
والولي: معناه المتولي للأمر والقائم به، ومالك التدبير، وهذا الاسم صريح في الموالاة، ويختص بمصالح العباد وحسن النظر لهم؛ عمومًا في جميع الخلق وخصوصًا في المؤمنين، ولا يصح أن

(١) الزركشي، البرهان، ج٣/ ص٢٤٩.
(٢) سورة غافر، الآية: ٧.
(٣) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١/ ص١٤٠.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٧٣.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٣.
(٦) أورده ابن عاشور –رحمه الله– مروياً عن مقاتل. انظر: التحرير والتنوير، ج٢٢/ ص١٣٤.
(٧) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (ولي)، ج٢/ ص٦٤٥.

يقال: إنَّ الله ولي الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[2].

يقول ابن القيم–رحمه الله تعالى–: (وأما **الحميد**[3] فلم يأتِ إلا بمعنى المحمود، وهو أبلغ من المحمود، فإن فعيلاً إذا عُدِلَ به عن مفعول دلَّ على أن تلك الصفة قد صارت مثل السجيَّة والغريزة والخُلُق اللازم، كما إذا قلت: فلانٌ ظريفٌ وشريفٌ وكريمٌ، ولهذا يكون هذا البناء غالبًا من فَعُلَ بوزن شَرُفَ، وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجايا اللازمة، ككَبُرَ، وصغر، وحسن، ولطُفَ، ونحو ذلك. ولهذا كان حبيبٌ أبلغ من محبوب؛ لأنَّ الحبيب الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يحب لأجلها، فهو حبيب في نفسه؛ وإن قدر أن غيره لا يحبه؛ لعدم شعوره به، أو لمانع منعه من حبه، وأمَّا المحبوب فهو الذي تعلق به حبُّ المُحبِّ؛ فصار محبوبًا بحبِّ الغير له، وأمَّا الحبيب فهو حبيبٌ بذاته وصفاته، تعلَّق به حبُّ الغير أو لم يتعلَّق. وهكذا الحميد والمحمود، فالحميد: هو الذي له من الصفات، وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محمودًا؛ وإن لم يحمده غيره، فهو حميدٌ في نفسه، والمحمود من تعلَّق به حمد الحامدين)[4].

➢ جاء اقتران هذين الاسمين (الولي الحميد) في آيات الطبيعة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾[5] ووجه هذا التذييل: أن الولي هو المحسن إلى مواليه القائم بأمرهم، والحميد هو الذي يعطي ما يحمد عليه، فالولي الحميد متناسب مع إنزال الغيث وإغاثة الناس بعد ما قنطوا وعلموا ألّا مغيث لهم إلا هو الولي الحميد.[6]

أمَّا عن المعنى الإضافي لاقتران اسمه (الحميد) باسمه (الولي) فيمكن القول بأنَّ: (الله – عز وجل– هو الذي يتولى شؤون عباده، ويدبر أمورهم على نحو يستوجب الحمد والثناء؛ لاتصافه

(١) سورة محمد، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٣) ويقول في نونيته: **وهو الحميدُ فكُلُّ حَمدٍ وَاقِعٌ *** أو كانَ مَفرُوضاً مَدَى الأَزمَانِ**
مَلأَ الوُجُودَ جَميعَهُ ونَظِيرَهُ * مِن غَيرِ مَا عَدٍّ ولا حُسبَانِ**
هُو أَهلُهُ سُبحانَهُ وبِحمدِهِ * كُلُّ المَحامدِ وَصفُ ذِي الإحسَانِ**
انظر: الكافية الشافية (نونية ابن القيم)، الأبيات رقم: (٣٢٣٨ – ٣٢٣٩– ٣٢٤٠)، ص٢٤١.

(٤) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣١٥-٣١٦.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٢٨.

(٦) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٥/ص٩٧.

-عز وجل- بصفات الكمال من العلم والحكمة والخبرة والعزة .. فولايته موصوفة بالكمال، وما كمل كان جديرًا في ذاته بالحمد والثناء. فكيف إذا كان في ذلك صلاح من تحت ولايته، واستقامة أمورهم؟ ولذلك كان الله – وحده – الحقيق بالحمد على المنع، وعلى العطاء، وعلى المحبوب وعلى المكروه، ولا يحمد على كل حال سواه)[1].

٩) السميع العليم:

السميع: المدرك لكل مسموع، فهو اسم يدل عن كمال السمع بلا تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل. يسمع الجهر والسر وأخفى، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء[2]. روى البخاري عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها وعن أبيها- قالت: (الحمد الله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ①﴾[3])[4].

➢ جاء اقتران اسمي السميع والعليم من آيات الطبيعة في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ⑬﴾[5]، وخص الساكن دون المتحرك؛ لأنَّ الساكن أكثر من المتحرك، ولأن كل متحرك يصير إلى السكون وليس العكس، أو لأنَّ الأصل السكون والحركة حادثة عليه[6].

ووجه هذا التذييل أنه -سبحانه- لما قدم الإخبار عن ملكه للمكان: السماوات والأرض في الآية السابقة بقوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ عقب في هذه الآية بملكه للزمان الليل والنهار ثم ذيل بالتنبيه إلى إحاطة علمه بكل ملكه، فقال: (وهو السميع العليم)، فلا يغيب عن سمعه مناجاة المحتاجين، ولا يخفى عن علمه حاجات المضطرين. وهذا

(١) عبدالعزيز الجليل، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، ص٤٨٧.

(٢) القرطبي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص٢٦٩.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١.

(٤) رواه البخاري، انظر: صحيح البخاري، كتاب٩٧: (التوحيد)، باب٩: (قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾)، الحديث رقم (٧٣٨٦)، ج٤/ ص٣٨١.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٣.

(٦) انظر: زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن، ص١٦٠.

التذييل جاء كالنتيجة للمقدمة فالمقصود من ملك الساكنات التمهيد لإثبات كمال علمه سبحانه وتعالى[1].

وفي اقتران السميع والعليم مزيد كمال على الكمال الذي يتضمنه كل واحد منهما. فالسميع يدل على إحاطة سمعه –سبحانه– بكل المسموعات، فلا تعزب عنه كبيرة ولا صغيرة، والعليم يفيد تجاوز السمع حدود البعد المادي للمسموعات، فدل اقتران الاسمين على إحاطة أتم وأكمل. وحيثما اقترن اسم السميع مع اسم العليم في كتاب الله قُدم السميع على العليم، ومن حكمة ذلك: (بدأ بالسمع لتعلقه بما يقرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن من سمع حسك وخَفيّ صوتك أقرب إليك –في العادة– ممن يقال لك: إنه يعلم، وإن كان علمه تعالى متعلقاً بما ظهر وبطن، وواقعاً على ما قَرُب وشَطَن. ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم؛ فهو أولى بالتقديم)[2]، والسمع –في حق العباد– وسيلة إلى العلم[3]، فلذا تقدم السميع على العليم.

١٠)السميع البصير:

البصير: في أَسماء الله تعالى هو الذي يشاهد الأَشياء كلها ظاهرها وخافيها [4]، بلا تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل.

➢ جاء هذا التذييل في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ﴾[5] ووجهه أنه –سبحانه– لما ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، أكد على كمال علمه فهو غير محتاج لسكون الليل ليسمع، ولا لضياء النهار ليبصر، بل هو دائم الاتصاف بهاتين الصفتين على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته سبحانه، وفي ذلك كله بيان كمال علمه وقدرته.[6]

أما وجه اقتران اسمي السميع والبصير فإنه يستفاد من اجتماعهما صفة كمال ثالثة كما هو الشأن في الصفات المقترنة. فيوحي هذا الاقتران بإحكام الرقابة على الأقوال والأفعال، والإحاطة التامة للمخلوقات كلها، فالله –جل جلاله– محيط بكل شيء، وكل شيء تحت سمعه وبصره، ﴿

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج١٢/ص١٧٧. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٧/ص١٥٥.

(٢) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١/ ص١١١-١١٢.

(٣) انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص٥٦.

(٤) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (بصر)، ج٤/ ص٦٤.

(٥) سورة الحج، الآية: ٦١.

(٦) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٣/ص٨٠.

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾(١).

وعن وجه تقديم السميع على البصير في جميع الآيات يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (قيل: تقديمُ السّمع على البصر له سببان، أحدهما: أن يكون السّياق يقتضيه بحيث يكون ذكرها بين الصّفتين متضمنًا للتهديدِ والوعيد، كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكرهُ من صفاتِه التي تقتضي الحذرَ والاستقامة، كقوله: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ١٣٤﴾(٣). والقرآن مملوءٌ من هذا، وعلى هذا فيكونُ في ضمن ذلك: أني أسمعُ ما يَردّون به عليكَ، وما يقابلون به رسالاتي، وأبصرُ ما يفعلون. ولا ريب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان، أحدهما: قابلوها بقولهم: صدقت ثم عملوا بموجبها. والثاني: قابلوها بالتكذيب، ثم عملوا بخلافها، فكانت مرتبة المسموعِ منهم قبل مرتبةِ المُبْصَر، فقدَّمَ ما يتعلقُ به على ما يتعلق بالمُبْصر. وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى لموسى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾(٤)، هو يسمعُ ما يُجيبُهم به وَيرى ما يصنعُه، وهذا لا يعم سائر المواضعِ، بل يختصُّ منها بما هذا شأنه.

والسّبب الثاني: أن إنكار الأوهام الفاسدة لسمعِ الكلام مع غايةِ البعد بين السّامع والمسموع أشدُّ من إنكارها لرؤيته من بُعْد. وفي الصحيحين عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: (اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: ثقفيَّان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، فقال أحدهم: أترون الله يسمعُ ما نقول؟ فقالَ الآخر: يَسمُع إنْ جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، فقال الثّالث: إن كان يسمعُ إذا جهرنا فهو يَسمعُ إذا أخفينا)(٥) ولم يقولوا: أترون الله يرانا، فكان تقديمُ السّمع أهم، والحاجةُ إلى العلم به أمَسَ.

وسبب ثالث: وهو أن حركةَ اللّسان بالكلام أعظمُ حركات الجوارح، وأشدُّها تأثيرًا في الخير والشّر، والصلاح والفساد، بل عامة ما يترتبُ في الوجودِ من الأفعال إنَّما ينشأ بعد حركة اللسان،

(١) سورة يونس، الآية: ٦١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٤.

(٤) سورة طه، الآية: ٤٦.

(٥) رواه البخاري ومسلم، انظر: الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب٩٧: (التوحيد)، باب٤١: (قول الله تعالى:﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾)، الحديث رقم (٧٥٢١)، ج٤/ ص٤١٠. وانظر: صحيح مسلم، كتاب٥٠: (صفات المنافقين وأحكامهم)، الحديث رقم: (٢٧٧٥)، ج٤/ ص٢١٤١.

فكان تقديمُ الصّفةِ المتعلقةِ به أهمَّ وأولى، وبهذا يُعلَمُ تقديمه أيضًا على العليم حيث وقع)[1].

***

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١/ ص١٢٨-١٣٠.

• المبحث الثاني: التذييل بقوله (إن في ذلك لآيات).

آيات الكتاب الحكيم كلها فيها عبرة وموعظة للناس، فهو كتاب هداية ودِلالة، فلا عجب أن تُذيل آياته بقوله: (إن في ذلك لآيات..) [١]، فآيات القرآن فيها آيات للسائرين على الطريق، أي: عبر وعظات وعلامات[٢]، ومن ذلك فالآيات التي تناولت الطبيعة ومكوناتها المختلفة تختم في مواضع عديدة ببيان أن تلك الآيات الكونية العظيمة فيها عبرة ودلالة تقود إلى الإيمان بالخالق العظيم، ثم يأتي بعدها بيان من يهتدي لتلك الآيات، فتارة يقول: لآيات لقوم يعقلون، وتارة: لقوم يتفكرون، وأخرى: لقوم يذكرون، وغيرها حسب ما يتناسب مع المعنى المقصود مما يذكر من آيات الطبيعة.

➢ من ذلك ما جاء بقوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون)، وذلك في مواضع منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[٣]، وفي تذييل الآية بهذا تعريض بأن الذين ضلوا عن هذه الآيات فلم يعتبروا بها بمنزلة الصم الذين لا يسمعون، لأنَّ مجرد سماع مثل هذه الأدلة كافٍ للاعتبار فكيف بهم وهم يسمعون ويبصرون ولكنهم لا يعتبرون[٤]، ولم يقل: لقوم يبصرون. اكتفاء بالسماع؛ لأنَّ منافع السمع أعم وأشمل، ولتقدم وصف النهار بأنه مبصر، والمبصر: اسم فاعل من أبصر يبصر، والنهار مبصرٌ فيه، وإنما جعله مبصراً على طريق نقل الاسم من السبب إلى المسبب، وفي ذلك فائدة التنبيه إلى كمال هذه الصفة فيه[٥] أي: كون النهار سبباً في الإبصار.

وفي الآية قال بعد الليل: (لتسكنوا فيه) ولم يقل في النهار: لتبصروا فيه، وقد سبق الكلام عن ذلك في قوله تعالى من سورة القصص: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[٦]؛ لأنَّ السكون مقصود في الليل، أما الإبصار في النهار فهو وسيلة للمقصود وهو جلب المنافع، ولذا فإنه بعد الآيتين في

---

(١) قال ابن عاشور –رحمه الله–: (جاءت جملة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ مجيء التذييل). التحرير والتنوير، ج١٣/ ص٨٨.

(٢) الآية: تطلق على العلامة، وعلى العبرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [سورة يوسف، الآية: ٧]، قيل: إنَّ تسمية الآية من القرآن بذلك لأنها علامة على انقطاع كلام من كلام. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: (أيا)، ج١٤/ ص٦١-٦٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ٦٧.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١١/ ص٢٢٨.

(٥) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج١٧/ ص١٣٨، وانظر: ج٢٤/ ص٢١٩.

(٦) سورة القصص، الآيتان: ٧١-٧٢.

سورة القصص قال: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[١] فبيّن عِلة اللَّيل: (لتسكنوا فيه)، وعِلة النَّهار: (لتبتغوا من فضله).

ومما يلحظ في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أنه حذف وصف الليل وذكر علته (لتسكنوا فيه)، على عكس ما جاء في جانب النهار فإنه ذكر وصفه (مبصراً) وحذف علته؛ ليدل ما ثبت على ما حذف، وفي هذا احتباك.[٢]

- وقريب من تلك الآية قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[٣]، ففي هذه الآية قال: (لآيات لقوم يؤمنون)، وهذا من المتشابه اللفظي وقد سبق الحديث عنها وبيان توجيه الاختلاف بينهما في الفصل السابق.[٤]

- كما جاءت صيغة أخرى في آيات الطبيعة هي: (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) في موضعين من كتاب الله: الأول قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾[٥]، والملاحة أو القيادة في البحر، والتعامل معه بصورة عامة يحتاج إلى صبر، كما أنَّ ركوب البحر هو بين حالين، حال الخطر والخوف: وهي ابتلاء يحتاج إلى صبر، وحال السلامة والغنم: وهي نعمة تحتاج إلى شكر، فناسب ختم الآية بقوله: (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور)[٦]. وفي ذلك إشارة إلى أن المعتبرين بهذه الآيات هم المؤمنون؛ لأنَّ الصبر والشكر هما شطرا الإيمان، كما في الأثر: (الإيمان نصفان: فنصف في الصبر، ونصف في الشكر)[٧]، أما غير المؤمنين فإنهم جاحدون لا يعتبرون بتلك الآيات، ولذا بيّن حالهم بعد هذه الآية بقوله: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[٨].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٣.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٩/ ص١٥٨. سبق بيان معنى الاحتباك، انظر: الفصل السابق: المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة، المبحث الأول: اختلاف الآيات المتشابهة في المفردات، أولاً: إيثار صيغة الكلمة بالاسم في موضع وبالفعل في آخر.

(٣) سورة النمل، الآية: ٨٦.

(٤) انظر: الفصل السابق، المبحث الثاني: اختلاف الآيات المتشابهة في التراكيب ، رابعاً: اختلاف التذييل.

(٥) سورة لقمان، الآية: ٣١.

(٦) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١/ ص١٩٠.

(٧) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك –رضي الله عنه–، وقال الألباني، ضعيف جداً. انظر: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، للألباني، الحديث رقم (٢٣١٠)، ص٣٣٩.

(٨) سورة لقمان، الآية: ٣٢.

والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣﴾[1]، والموضعان متقاربان فكلاهما عن آية من آيات الله هي جريان الفلك في البحر بأمر الله، ولم يقل: لقوم يصبرون ويشكرون، أو لقوم صبارين شكورين! لأنَّه علاوة على عدم تناسب جرسها فإن المتصفون بالصبر والشكر قليلون، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾[3] فالإنسان طُبع على الاستعجال فهو قليل الصبر -والله أعلم-.

➢ وجاءت في آيات الطبيعة صيغة أخرى هي (إن في ذلك لآيات لأولي النهى) وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾[4]، وأولي النُّهى: هم أصحاب العقول التي تنهاهم عن الغي[5]، وهذه الآيات جاءت معترضة[6] في قصة موسى -عليه السلام- وحواره مع فرعون، ولا يخفى ما بلغه فرعون من الغي والبغي حتى إنه ادّعى الألوهية فقال: أنا ربكم الأعلى، ولو كان هو ومن آمن به ذوي عقول تنهاهم عن الغي، لاستدلوا بتلك الآيات على أن الله ليس له ندٌ أو شريك، وفي ذلك تنبيه لكل فرعون في كل أمة، وتعريض بمن لم يعتبر بتلك الآيات أنه سادر في غيه، ليس له عقل ينهاه.

---

(١) سورة الشورى، الآيتان: ٣١-٣٣.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

(٤) سورة طه، الآيتان: ٥٣-٥٤.

(٥) النُّهَى العَقْل، يكون واحداً وجمعاً. فيجوز أنْ يكون مصدر مثل الهُدى، ويجوز أنْ يكون جمعاً مفرده نُهية فيكون اسم جمع، والنُّهْيَةُ -بالضّم- العقل ، سميت بذلك لأنها تَنْهَى عن القبيح. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (نهي)، ج١٥/ ص٣٤٦. وأورد ابن منظور بيتاً للخَنساء تقول فيه:

(فَتًى كان ذا حِلْمٍ أَصِيلٍ ونُهْيَةٍ * إذا ما الحُبَا مِن طائِفِ الجَهْلِ حُلَّتِ)**

غير أنَّ البيت في ديوان الخنساء بكلمة **(تُؤَدَةٍ)** بدل **(نُهْيَةٍ)**. انظر: ديوان الخنساء، دار صادر، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م، ص١٨.

وفي الحديث: **(اسْتَوُوا ولا تَخْتَلِفُوا ؛ فتَخْتلِفَ قلوبُكمْ، و لِيلِيَنِي مِنكمْ أُولُو الأحلامِ والنُّهَى، ثمَّ الذين يَلونَهمْ، ثمَّ الذين يَلونَهُمْ)** والأحلام والنهى: هي العقول والألباب. والحديث رواه مسلم، عن عقبة بن عمرو بن ثعلبة أبي مسعود -رضي الله عنه-، انظر: صحيح مسلم، كتاب٤: (الصلاة)، باب٢٨: (تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها، وتقديم أولى الفضل وتقريبهم من الإمام)، الحديث رقم: (٤٣٢)، ج١/ ص٣٢٣.

(٦) ذهب ابن عاشور-رحمه الله- إلى أنَّ الجمل الثلاث في الآيتين معترضة في قصة موسى وليست من كلام موسى؛ لأنه قال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ وليس ذلك التفات؛ لأن الالتفات يكون في كلام المتكلم الواحد فينتقل من نوع ضمير إلى نوع آخر، ولا يكون انتقال من متكلم إلى آخر، وقد جاء في الآية التفات في كلام الله فقد انتقل من ضمير الغائب: (هو الذي ..) إلى ضمير المتكلم: (فأخرجنا ..). انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٦/ ص٢٣٥.

➢ وقد تأتي صيغ متعددة في آيات متتالية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۡهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٍ وَزَرۡعٌ وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِى ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[١]، فلما كانت الدلائل الأولى: من مد الأرض، وخلق الجبال والأنهار فيها، وخلق زوجين من كل الثمرات، وإغشاء الليل والنهار، في ذلك كله من الدقة ما يحتاج إلى إعمال العقل وصرف القلب إلى معانيها ناطها بالفكر فقال: (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)، أما الدلائل في الآية التالية فإن الناس يباشرونها بأنفسهم، ويدركون تفاضلها في الأكل بتذوقهم، فهي لا تحتاج إلى شيء سوى التعقل، وذكر تفضيل بعضها على بعض في الأكل أي الطعم، ولم يتعرض لتفضيل بعضها على بعض في غير ذلك مما يحتاج إلى تفكر وبحث، فلذلك كله ختمها بقوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون).[٢]

➢ ومن الصيغ المتتالية قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحۡىِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[٣]، في الأولى ذكر آية منام الناس بالليل والنهار وابتغاء الفضل من الله بالليل والنهار كذلك، وقيل: المقصود منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار، وأياً كان المقصود فإن هذه الآية نظراً لتكررها على الناس في كل يوم فإنها تحتاج إلى مرشد يوقفهم على هذه الدلالة، ويذكر بهذه النعمة التي قد يغفل عنها كثير من الناس، وكما قيل "كثرة المساس تقلل الإحساس"، ولذا ذيلها بقوله: (إن في ذلك آيات لقوم يسمعون) أي سماع اعتبار لمن يرشدهم إلى ذلك، كما أن الإنسان لا يرى ولا يعلم عن حاله أثناء نومه، ولا يدرك ما يحدث حوله إلا أن يخبره مخبر بذلك، فطريق علم النائم بأحواله وأحوال ما يحيط به هو السمع[٤]، كما أنه في حال نومه يفقد كل حواسه وآخر ما يفقد منها السمع، وأول ما يعود إليه منها السمع كذلك، فناسب ختمها بقوله (لقوم يسمعون).

وفي الثانية ذكر آية البرق والغيث الذي يحيي به الله الأرض بعد موتها، وهذه آية غير مطردة كما في سابقتها، فتحدث في زمن دون زمن وفي بلدة دون بلدة، فالتنبه لها أدعى، كما أن

---

(١) سورة الرعد، الآيتان: ٣-٤.

(٢) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج١٣/ ص١٠٣.

(٣) سورة الروم، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١/ ص٧٧.

إحياء الأرض بعد موتها فيها دلالة واضحة على البعث لكل ذي عقل، فختمها بقوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون).[1]

➢ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾[2] وهذه الآيات فيها ثلاث صيغ: (لقوم يتفكرون–لقوم يعقلون–لقوم يذكرون)، فلما كان الإنبات بماء واحد وإخراج الله به ثمراتٍ مختلفة تلك آية فيها من الخفاء؛ لأنَّها أمر يحصل بالتدريج، نيطت دلالتها بالتفكر فقال: (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)، أما آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم فهي آيات كونية واضحة بيّنة الدلالة على الوحدانية والقدرة، فيكفي في إدراكها العقل، فنيطت به فقال: (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)[3]، وفي الثالثة كان اختلاف الألوان فيما ذرأ[4] الله في الأرض أمر مشهور معلوم، ولكنه قد يطرأ عليه النسيان والغفلة، فأشار إلى أنه يحتاج إلى التذكر، فنيطت العبرة به، فقال: (إن في ذلك لآية لقوم يذكرون)[5].

➢ ومن الصيغ المتعددة في آيات متتالية من آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٦٧ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٥/ ص٧٤.

(٢) سورة النحل، الآيات: ١٠-١٣.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤/ ص١١٦-١١٨.

(٤) الذرء: الخلق ومنه الذرية، فقوله تعالى: (ما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه) أي ما خلق لكم في الأرض من الدّواب والثمار. انظر: جامع البيان، للطبري، ج١٤/ ص١٨٤. وقيل: (ما ذرأ لكم في الأرض) أي: المعادن التي أوجدها الله في الأرض لينتفع الناس بها وهي مختلفة في ألوانها كما بيّن، قال الألوسي–رحمه الله–: (ولا بأس في التعميم فيما أرى) أي: أنْ تكون الآية شاملة للدواب والثمار والمعادن. انظر: الألوسي، روح المعاني، ج١٤/ ص١١٠.

(٥) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١١/ ص١٢٣. وقال الشوكاني–رحمه الله– في ذلك: (قيل: وإنما خص المقام الأول بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة المذكورة، وخص المقام الثاني بالعقل لذكره بعد إماطة الشبهة وإزاحة العلة، فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له وخص المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة فمن شك بعد ذلك فلا حس له). ولكنه قال بعد ذلك: (وفي هذا من التكلف ما لا يخفى، والأولى أنْ يقال هنا كما قلنا فيما تقدم في إفراد الآية في البعض وجمعها في البعض الآخر، وبيانه: أنَّ كلاً من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر ولذكر التعقل ولذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج٢/ ١٢٠٠.

﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾[1]، فجاء التذييل بثلاث صيغ هي : (إن في ذلك لآية: لقوم يسمعون– لقوم يعقلون– لقوم يتفكرون).

فالآية الأولى منها ذيلها بقوله: (إن في ذلك لآية لقوم يسمعون) وقد سبق الكلام عن آية قريبة منها في سورة الروم غير أنها ذيلت بقوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وذلك في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾[2] فإضافة إلى ما سبق من تعليل لهذا التذييل، فإن الآية من سورة الروم جاءت في سياق تعداد آيات الله، أما في سورة النحل فقد سبقت بالحديث عن الوحي فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥﴾[3] فلما ذكر رحمته – سبحانه– بالمؤمنين بإنزال الكتاب، أعقب ذلك بذكر رحمته بالعالمين بإنزال الغيث من السماء، ولما كان الانتفاع بالكتاب يكون بالسماع[4] ، وكان الالتحام بين الرحمتين المذكورتين في الآيتين عظيماً ناسب أن يذيل الرحمة الثانية بما تحصل به الرحمة الأولى وهو السماع، فقال: (إن في ذلك لآية لقوم يسمعون).

وفي التالية ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ فذيلها بقوله: (إن في ذلك لآية لقوم يعقلون)، مع أنه قد ختم آية قريبة منها بغير ذلك كما سبق في السورة نفسها: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾، وقد سبق بيان ذلك وتوجيهه في الفصل السابق من المتشابه اللفظي.[5]

---

(١) سورة النحل، الآيات: ٦٥-٦٩.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٤.

(٣) سورة النحل، الآيتان: ٦٤-٦٥.

(٤) وقد أدرك المشركون تأثير هذا القرآن في سامعيه فقالوا كما حكى عنهم المولى –سبحانه–: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [سورة فصلت، الآية: ٢٦].

(٥) انظر: الفصل السابق، المبحث الثاني: اختلاف الآيات المتشابهة في التراكيب ، رابعاً: اختلاف التذييل.

ثم في الثالثة ذكر النحل وهو عالم عجيب جدير بالتأمل والتفكر لذا جاء التذييل بعده بقوله: (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون): ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

➢ ومن هذا النوع جاءت صيغة مختلفة عما سبق وهي: (إن في ذلك لآية) دون أن تناط دلالتها بأحد، ولكنه أعقبها بقوله: (وما كان أكثرهم مؤمنين)، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾[1]، والآية جاءت في سياق الاستفهام الإنكاري: (أولم يروا كم أنبتنا) إنكار على عدم رؤيتهم، والمقصود: إنكار عدم استدلالهم بالإنبات على الصانع الواحد –سبحانه–، ففي ذلك دلالة بيّنة لكل من يراه[2]، ولما كانت الآيات السابقة لهذه الآية تتحدث عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين وعدم إيمانهم كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾[3]، أنكر عليهم عدم الاستدلال بالآيات البينات التي تقود إلى الإيمان، وسلى على النبي–صلى الله عليه وسلم– الذي كاد أن يكون باخعاً نفسه لعدم إيمانهم، فأخبر بقوله: (وما كان أكثرهم مؤمنين). أمَّا لو قيل: لمَ لم تنط دلالة الآية بأحد؟ فالجواب: أنه لما قال: (وما كان أكثرهم مؤمنين)، كأنها أغنت وأشارت إلى: (إن في ذلك لآية لقوم يؤمنون)، كما أن عدم إناطتها بأحد فيه إشارة خفية إلى أن دلالة الإنبات على الوحدانية والبعث فيها من الوضوح ما لا يخفى على أحد مهما كانت صفته–والله أعلم–.

➢ وجاءت في آيات الطبيعة صيغة: (إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾[4]، والإنابة هي: الرجوع إلى الله بالتوبة[5]، ولما

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٧–٨.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٩/ ص١٠١.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ٣–٨.

(٤) سورة سبأ، الآيات: ٩.

(٥) قال في اللسان: (ونابَ فلانٌ إلى الله تعالى، وأَنابَ إليه إنابةً، فهو مُنِيبٌ: أَقْبَلَ وتابَ، ورجَع إلى الطاعة؛ وقيل: نابَ لَزِمَ الطاعة، وأَنابَ: تابَ ورجَعَ). انظر: ابن منظور، مادة (نوب)، ج١/ ص٧٧٥.

كانت الآية تحمل معنى التهديد، ومقصد التهديد الإنابة والرجوع إلى الله، وهي من صفات العبد الذليل لسيده ومولاه، لذا ناسب ختم الآية بقوله: (إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) -والله أعلم-.

➢ وقريب من هذا التذييل: (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾[1]، و التبصرة والذكرى معانٍ قريبة من معنى الآية.

➢ ومما جاء في آيات الطبيعة صيغة: (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٣ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٤ ﴾[2] وقد سبق أن من معاني الآية ومقاصدها العبرة والاعتبار، ولأنه قد سبق في الآية ذكر البرق الذي يذهب بالأبصار، فكان من المناسب أن تذيل بقوله: (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار)

➢ وقريب من ذلك صيغة: (إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢١ ﴾[3]، وأولي الألباب أي: أصحاب العقول، ومفرد الألباب اللب: وهو العقل[4]. قال جرير:

إنَّ العُـيونَ التي في طَرفِهَا حَوَرٌ * قَتَلْـنَنَا ثمَّ لَمْ يُحـيِينَ قَتْلَانا**

يَصـرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حتى لا حَرَاكَ بِهِ * وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكَانا**[5]

ولما كانت الآية تحمل معنىً دقيقاً فيه تشبيه حال الزرع بحال الدنيا في سرعة الزوال بعد الاغترار بها، نبّه إلى أن في ذلك عبرة، ولكن لا يعتبر بها إلا أصحاب العقول الذين أدركوا الحقيقة الكامنة-والله تعالى أعلم-.

• المبحث الثالث: التذييل بالاستفهام.

---

(١) سورة ق، الآيات: ٦-٨.

(٢) سورة النور، الآيتان: ٤٣-٤٤.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٢١.

(٤) قال في اللسان: (لبُّ كل شيء ولبابه: خالصه وخياره .. ولُبُّ الرَّجُل: ما جُعِل في قَلْبه من العَقْل .. واللُّبُّ: العَقْلُ، والجمع أَلبابٌ وألبب). انظر: ابن منظور، مادة (لبب)، ج١/ ص٧٢٩-٧٣٠.

(٥) ديوان جرير، ص٦٧٨.

أساليب الكلام تنقسم إلى قسمين: أساليب خبرية وهي: "ما يمكن وصفها بالصدق أو الكذب"، وأساليب إنشائية وهي: "ما لا يصلح وصفها بالصدق والكذب"، ومن الأساليب الإنشائية أنواع الطلب: كالأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء، والتمني، والترجي، والتحضيض، والعرض. فالاستفهام من الأساليب الإنشائية، والاستفهام: (طلب المتكلم من مخاطبه أن يحصل في الذهن مالم يكن حاصلاً عنده مما سأله عنه)[١]، والألف والسين والتاء إذا زيدت في أول الفعل دلَّت على الطلب[٢]، كالاستعلام طلب العلم، والاستزادة طلب الزيادة. قال صاحب اللسان: (واسْتَفْهَمه سأَله أن يُفَهِّمَه)[٣].

والاستفهام على ضربين: استفهام حقيقي، واستفهام مجازي غير حقيقي، **فالاستفهام الحقيقي:** ما كان المتكلم يجهل شيئاً ويقصد أن يستفهم عنه، **والاستفهام المجازي:** ما كان المتكلم غير جاهل بالشيء ولكنه يقصد إلى أمر بلاغي من وراء الاستفهام. وعلى هذا فإنه لا يتصور أن يكون في القرآن الكريم استفهام حقيقي إلا أن يكون الله –جل جلاله– يحكي قولاً على لسان أحد المخلوقين. قال الزركشي–رحمه الله–: (فإن الرب –تعالى– لا يستفهم خلقه عن شيء، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء ..)[٤].

ونقل السيوطي عن شمس الدين ابن الصائغ –رحمهما الله– قوله : (قد توسعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ، أو أشربته تلك المعاني..)[٥]. وقد عدد السيوطي اثنين وثلاثين نوعاً من الاستفهام البلاغي المجازي، ومثل لها بأمثلة من كتاب الله، وهذا كعادته –رحمه الله– في التفصيل والتفريع[٦]، وإلّا فإن بعضها داخل في بعض. والسياق وما يحمل من قرائن هو ما يحدد نوع الاستفهام البلاغي المجازي، إن كان للتقرير، أو الإنكار، أو التعجب، أو التوبيخ، أو غير ذلك[٧]. ومن التذييل بالاستفهام في آيات الطبيعة ما يأتي:

---

(١) جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق: احمد مختار الشريف، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق– سوريا، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٤/ص٣.

(٢) قال ابن فارس في معاني أبنية الأفعال: (وأمّا "اسْتفعلَ" فيكون بمعنى التكلف، نحو: "تعظَّمَ. واسْتَعظَمَ" و "تكَبَّر. واستَكْبَر"، ويكون استفعل بمعنى الاستدعاء والطلب، نحو: "استَوْهبَ"، ويكون بمعنى فَعلَ: "قرَّ. واستَقرَّ"). انظر: الصاحبي، ص١٧٠. وزاد الثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩هـ)–رحمه الله–: (ويكون بمعنى صار، نحو: اسْتَنْوَقَ الجَمَلُ واستَنْسَرَ البُغاثُ). انظر: عبدالملك بن محمد الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص٢٥٨.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة (فهم)، ج١٢/ ص٤٥٩.

(٤) الزركشي، البرهان ، ج٢/ص٣٢٧.

(٥) السيوطي، الاتقان، ج٥/ص١٧٠٢.

(٦) انظر: المرجع نفسه، ج٥/ص١٧٠٢–١٧٠٩.

(٧) انظر: عبدالكريم محمود يوسف، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم غرضه وإعرابه، مكتبة الغزالي، دمشق–سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٧–١٨.

١) **التذييل بالاستفهام على صيغة (أولم يكف بربك):**

➢ سبق الحديث عن قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[١]؛ لأنَّ هذه الآية ذيلت بصفة الشهادة التي تضمنها اسم الله الشهيد، وقد جاء ذلك بأسلوب الاستفهام.

ذهب ابن عاشور –رحمه الله– إلى أنَّه استفهام تقريري، فيكون المعنى: تكفيك يا محمد شهادة ربك بصدقك فلا تلتفت لتكذيبهم، كما جاء في آيات أخر قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾[٣] وبهذا يكون الاستفهام تقريراً[٤]، وذهب الألوسي –رحمه الله– إلى أن الاستفهام في الآية استفهام إنكاري توبيخي؛ باعتبار أن الخطاب موجه للكفار وليس للنبي–صلى الله عليه وسلم–[٥].

وأن يعدَّ استفهاماً تقريرياً أقربُ إلى الصواب فيما يظهر؛ لأنَّه قال –سبحانه–: (أولم يكف بربك)، ولم يقل: (أولم يكف بربكم)، فالقرينة المقالية في هذا السياق رجحت الاستفهام التقريري على الإنكاري –والله أعلم–.

٢) **التذييل بالاستفهام على صيغة (أفلا تفعلون–أفلا يفعلون):**

ختمت بعض الآيات القرآنية بقوله: (أفلا تعقلون)، أو (أفلا تتذكرون)، أو (أفلا تتفكرون)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[٨]، وجاء في أول بعض الآيات (أفلا يتدبرون) كقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[٩]، وهي صيغ تدل على معانٍ متقاربة، والفرق بينها يتضح في الأصل الذي اشتقت منه، فالأولى: من التعقل وهو إعمال العقل في الشيء حتى يصير

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٥/٢٠.

(٥) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٢٥/٧.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ٨٠.

(٨) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٩) سورة محمد، الآية: ٢٤.

مدركاً معلوماً، ويجوز أن يكون من تغليب العقل على الهوى، والثانية: من التذكر ويكون لشيء معلوم ولكن طرأ عليه نسيان[1]، ويجوز أن تكون من التذكرة وهي العبرة، والثالثة: من التفكر وهو إعمال الفكر[2] في الشيء والتأمل فيه ليخرج بنتائج منه، أما قوله: (أفلا يتدبرون) فالتدبر مأخوذ من الدبر وهو ظهر الشيء، أوما وراءه، فالتدبر في نص ما هو البحث فيما يحمل من دلائل ومقاصد قد لا تظهر من أول وهله، فتكون مختفية خلفه.[3]

➢ فمن التذييل بصيغة **(أفلا تتذكرون)** في آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾[4]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[5]. والفرق بين قوله: (أفلا تتذكرون) في آية السجدة، وقوله: (أفلا تذكرون) في آية يونس، أن الثانية أدغمت فيها تاء المضارعة مع تاء الفعل وهذا جائز من الجانب الصرفي. ولعل ذلك له أثره في جانب النظم الصوتي أو النظم الموسيقي لكل آية منهما، أو القشرة اللفظية كما سماها الدكتور/ محمد دراز –رحمه الله–.

والاستفهام الذي ختمت به الآية استفهام إنكاري للتقريع، والمعنى: أنه مع علمكم بخلق الله لهذا الخلق العظيم وتدبيره له إلا أنكم لم تتذكروا إذ أشركتم معه غيره مما ليس له ولاية عليكم ولا شفاعة لكم.[6]

وقد جاء التعبير القرآني هنا بلفظ: (أفلا تذكرون) مؤثراً إياه على: (أفلا تفكرون)؛ إشارة إلى أن هذه الأدلة التي سيقت في الآية متقررة في النفوس بالفطرة، ولا تحتاج إلى جهد ذهني لإدراكها، فيكفي فيها مجرد الالتفات إليها، وأن تخطر في الذهن فتحصل التذكرة، ولكن هؤلاء الكفار لا يكادون يفقهون حديثاً.[7]

---

(١) قال ابن عاشور: التذكر: من الذُّكر بضم الذال وهو ضد النسيان فهو استحضار المعلوم. انظر: التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص١٦.

(٢) من اللطائف: أنَّ الفكر مقلوب الفرك، والفكر هو فرك الأمور وفحصها للوصول إلى الحقيقة. انظر: الألوسي، روح المعاني، ج١٣/ ص١٠١.

(٣) من اللطائف: أنَّ الفكر مقلوب الفرك، والفكر هو فرك الأمور وفحصها للوصول إلى الحقيقة. انظر: الألوسي، روح المعاني، ج١٣/ ص١٠١.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٤.

(٥) سورة يونس، الآية: ٣.

(٦) قال ابن عاشور –رحمه الله–: (التدبر مشتق من الدبر، أي الظهر، اشتقوا من الدبر فعلاً، فقالوا: تدبّر إذا نظر في دبر الأمر، أي في غائبه أو في عاقبته؛ فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة...). انظر: التحرير والتنوير، ج٥/ ص١٣٧.

(٧) انظر: المرجعين السابقين.

➢ ومن التذييل بصيغة **(أفلا تعقلون)** في آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠﴾[1]. وهو استفهام إنكاري يفيد النفي. فكأنه جعل الذين أشركوا ولم يهتدوا إلى هذه الأدلة الواضحة البيّنة بمنزلة غير العقلاء؛ لأنَّهم لم يعملوا بما يقتضيه التعقل من اعتقاد البعث واتباع السراط المستقيم[2]، فالمخاطبون من الكفار لهم قلوب ولكنهم لا يعقلون بها، كمن له عين ولكنه لا يبصر بها، ومن له أذن ولكنه لا يسمع بها، فهم كالأنعام بل هم أضل؛ لأنَّ الأنعام قد سارت على ما خُلقت له، وهؤلاء تنكبوا الطريق فساروا على غير ما خلقوا له، فأخبر عنهم في موضع آخر فقال: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾[3].

قال ابن عاشور –رحمه الله–: (فأنكر عليهم عدم العقل بالاستفهام الإنكاري المفرع عن الأدلة الأربعة بالفاء في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ وهذا تذييل راجع إلى قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ وما بعده)[4].

➢ ومن التذييل بصيغة **(أفلا يؤمنون)** في آيات الطبيعة قوله تعالى:﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾[5]. وهو استفهام إنكاري متضمن للتوبيخ، والرؤية في قوله: (أولم يرَ الذين كفروا) بمعنى العلم وليست الرؤية البصرية، فالمعنى: أيعلمون ذلك ولا يؤمنون مع ظهور ما يوجب الإيمان[6].

➢ وجاء التذييل بصيغة **(أفلا تسمعون)** و**(أفلا تبصرون)** في آيات الطبيعة، ومناسبتها لهذا الغرض واضحة بيّنة؛ لأنَّ آيات الطبيعة في أغلبها تدرك إما بالسمع أو بالبصر، وقد اجتمعت هاتان الصيغتان في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٧٧-٨٠.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٣/ص١٧٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٨/ ص١٠٦.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٦) انظر: الألوسي، روح المعاني ، ج١٧/ ص٣٧.

﴿إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[١].

قال المولى –سبحانه– في شأن النهار: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[٢]، ولم يقل هنا: بضياء تنتشرون فيه، مع أنه قال في الآية المقابلة لها: بليل تسكنون فيه؛ لأنَّ المنافع التي تتعلق بالضياء كثيرة وليس الانتشار لطلب المعاش وحده، وليس الليل بمثل تلك المنزلة، كما أنه لم يقل في الآية التالية: بظلام، ليقابل الآية السابقة في قوله: بضياء؛ لأنَّ الظلام ليس مقصود بذاته كالضياء، كما أن ظلمة الليل قد تخف قليلاً بنور القمر[٣].

والاستفهام في قوله: (أفلا تسمعون) و(أفلا تبصرون) استفهام إنكاري توبيخي[٤]، وقد ذكر الزمخشري–رحمه الله– في علة اقتران (أفلا تسمعون) بالضياء: (أن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل (أفلا يبصرون) لأنَّ غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره)[٥]، وابن عاشور –رحمه الله– علل ذلك بتعليل أقرب للفهم وأبعد عن التكلف فقال: (وناسب السمع دليل فرض سرمدة الليل؛ لأنَّ الليل لو كان دائماً لم تكن للناس رؤية، فإن رؤية الأشياء مشروطة بانتشار شيء من النور على سطح الجسم المرئي، فالظلمة الخالصة لا ترى فيها المرئيات. ولذلك جيء في جانب فرض دوام الليل بالإنكار على عدم سمعهم، وجيء في جانب فرض دوام النهار بالإنكار على عدم إبصارهم)[٦].

ويمكن إضافة وجه آخر لتقدم التذييل بقوله: (أفلا تسمعون) على التذييل بقوله: (أفلا تبصرون)[٧]، ذلك أن من عادات القرآن الكريم تقديم السمع على البصر في كل موضع اجتمعا فيه إلا ماندر جداً[٨]، وقد سبق الحديث في التذييل باقتران اسمي الله –عز وجل– السميع والبصير، فإنه حيثما اجتمعا تقدم السميع على البصير، وكذلك السمع والبصر مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ

(١) سورة القصص، الآيتان: ٧١-٧٢.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٧.

(٣) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٤/ ص٥٢١. وانظر: الألوسي، روح المعاني، ج٢٠/ ص١٠٧. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص.١٧٠.

(٤) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٢٠/ ص١٠٧.

(٥) الزمخشري، الكشاف، ج٤/ ص٥٢١.

(٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص١٦٩.

(٧) لا يرى ابن عاشور –رحمه الله– قوله: (أفلا تسمعون) و(أفلا تبصرون) تذييلاً [انظر:التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص١٧٠-١٧١]، ولا يُعلم لمَ لم يعدّه تذييلاً؟ مع أنَّه عَدّ قوله: (أفلا يعقلون) في سورة المؤمنون تذييلاً وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [التحرير والتنوير، ج١٨/ص١٠٦] وقد نُقل كلامه عنها في موضعها، ولا يُرى فرق بين الصيغتين!

(٨) مما تقدم فيه البصر على السمع ما جاء من صيغة التعجب في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ٢٦]. قال ابن القيم: (وأما تقديم السمع على البصر؛ فهو متقدم عليه حيث وقع في القرآن مصدراً أو فعلاً أو اسماً). انظر: بدائع الفوائد، ج١/ ص١٢٣.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[١]، حتى في حالة انتفائهما يقدم انتفاء السمع على انتفاء البصر كقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾[٢].

من خلال السياق والقرائن يتبيّن أن الاستفهام في قوله: (أفلا تسمعون) و(أفلا تبصرون) استفهام غير حقيقي، وأنه استفهام إنكاري توبيخي، وجاءت الصيغتان في سياق دلَّ على أنَّها استفهام تقريري مشوب بالتوبيخ، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٣]، ولما كانت أخبار هلاك الأمم السابقة والاعتبار بها مما يسمع ويتناقله الناس بينهم، ناسب أن يكون التذييل بقوله: (أفلا يسمعون)، وفي الآية التالية كان سوق الماء وإخراج الزرع مما يشاهد فناسب أن يكون التذييل بقوله: (أفلا يبصرون)، وأوثر الفعل المضارع (يسمعون–يبصرون) إيذاناً بتجدد الاستماع والإبصار، واجتلاب المضارع للتوبيخ المشاب بالاستفهام التقريري[٤].

➢ ومن التذييل بصيغة **(أفلا يشكرون)** في آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[٥]، جاء هذا التذييل بعد عدد من النعم المستحقة للشكر، ولما كانت نعم تستحق تجديد الشكر جاء الاستفهام الإنكاري بصيغة المضارع (أفلا يشكرون).[٦]

٣) التذييل بالاستفهام على صيغة (أإله مع الله):

➢ ولم تأتِ هذه الصيغة في القرآن الكريم إلا في سورة النمل وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨.

(٣) سورة السجدة، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١/ ص٢٤٠.

(٥) سورة يس، الآيات: ٣٣ – ٣٥

(٦) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٦/ ص١٢٦.

وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1]. وقد جاءت هذه الآيات بعد استفهام تهكمي بقوله: (آلله خير أمّا يشركون) ذيلت به الآية التي سبقتها في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾[2]. فكان هذا التذييل مقدمة إجمالية لما سيأتي بعده من امتنان واستدلال[3]. وروي عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه كان إذا قرأ: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ قال: (بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم)[4].

وتكرار التذييل خمس مرات بقوله: (أإله مع الله) بعد كل دليل من أدلة استحقاق الربوبية والألوهية استفهام إنكاري يفيد التوبيخ والتبكيت لهؤلاء المشركين على إشراكهم بالله من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.[5] ولا يخفى على قارئٍ أو سامعٍ لكتاب الله ما في هذا التكرير من جمال في النظم يستلب القلب، وروعة في النغم تستهوي الأذن.

وقد تنوع التعبير بعد هذا الاستفهام المتكرر بما يتناسب مع كل آية؛ ففي الأولى جاء الإضراب بقوله: (بل هم قوم يعدلون) وجيء بهذا التعبير؛ لأنَّ خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق التي تبهج الناظرين ذلك من أوضح الأدلة المحسوسة على انفراد الله بالخلق والأمر، وهم مُقرّون بذلك كما أخبر –سبحانه– بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾[6]، ولكنهم مع إدراكهم لذلك ينحرفون عن الحق الواضح إلى الشرك، فالإضراب بعد الاستفهام الإنكاري يفيد مزيداً من التوبيخ لهم.[7] و(يعدلون) يجوز أن تكون من العدول والانحراف، يقال: عدل عن الحق، أي: مال وانحرف عنه، ويجوز أن تكون بمعنى المساواة –وهو

---

(١) سورة النمل، الآيات: ٦٠ – ٦٤.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٩.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص١٠.

(٤) أورده عدد من المفسرين عند تفسير هذه الآية منهم: الزمخشري، والقرطبي، والرازي، وغيرهم، ولم يقف الباحث على تخريج له، إلا أنَّ البيهقي (المتوفى سنة ٤٥٨هـ) –رحمه الله– أورد جزءاً منه في شعب الإيمان ضمن حديث في ختم القرآن رواه عن علي بن الحسين بن علي –رضي الله عنهم جميعاً– ، وقال بعده: (منقطع بإسناد ضعيف)، انظر: أحمد بن الحسين البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، تحقيق: عبدالعلي عبدالحميد حامد، دار الرشد، الرياض– السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، الباب التاسع عشر: (باب في تعظيم القرآن)، فصل: (في استحباب التكبير عند الختم)، الحديث رقم: (١٩١٥)، ج٣/ ص٤٣٠–٤٣١.

(٥) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٢٠/ ص٥.

(٦) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

(٧) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص١١.

أولى- لأنَّهم ساووا في عبادتهم بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها[١]. ونظيرها قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [٢].

وفي الثانية أعقبها بإضراب أيضاً بقوله: (بل أكثرهم لا يعلمون) وهي كتلك تفيد التوبيخ، وأوثر نفي صفة العلم عن أكثرهم؛ لقلة من يتنبه وينظر في دقائق الصنع في هذه الأدلة التي ساقتها الآية من استقرار الأرض، وما فيها من أنهار وجبال رواسي، وما جعل من حاجز بين الماء المالح والماء العذب، والإنسان إذا اعتاد مشاهدة ذلك من أول نشأته قد لا يهتدي لما فيها من دلائل بديع الصنع، ولم يقل (بل أكثر الناس لا يعلمون)؛ لأنَّ المؤمنين قد نبههم القرآن إلى ذلك فعلموه وانتفعوا بعلمهم له.[٣]

وفي الثالثة أعقب الاستفهام بقوله: (قليلاً ما تذكرون) وقليلاً منصوبة على الحال تفيد التعجب من حالهم، وقُرِأَتْ (تذكرون) بتاء الخطاب: وفيها نكتة توجيه الخطاب للمشركين مكافحة لهم، وفي قراءة (يذكرون) بياء الغيبة، وفيها التفات يفيد الإعراض عنهم؛ لأنَّهم استحقوا الإعراض بعدم تذكرهم.[٤] وهذه الجملة جاءت بعد الاستفهام المتكرر في قوله: (أإله مع الله قليلاً ما تذكرون) جيء بها بعد الاستدلال بإجابة دعوة المضطر، وكشف السوء، والاستخلاف في الأرض؛ لأنَّ تذكر ذلك يدعو لتوحيد الله في السراء والضراء، كما كان من الحصين -رضي الله عنه- عندما قال له الرسول -صلى الله عليه وسلم-: (يا حُصينُ: كم إلهًا تعبدُ؟) قال: سبعة في الأرضِ، وإله في السَّماءِ، قال: (فإذا أصابك ضرٌّ من تدعو؟) قال: الَّذي في السَّماءِ، قال: (فإذا هلك المالُ من تدعو؟) قال: الَّذي في السَّماءِ، قال: (فيستجيبُ لك وحدَه وتشرِكُهم معه)[٥].

وفي الرابعة أعقبها بقوله: (تعالى الله عما يشركون) وفيها تصريح بما أشارت إليه التذييلات السابقة؛ لأنَّها خاتمة الأدلة التي لا ينازعون أنها من تصرف الله، فجاء تنزيه الله -جل جلاله- عن الشرك كله.[٦] ولم يقل: (أإله مع الله تعالى عما يشركون) فأظهر لفظ الجلالة ولم يضمره بدلالة الأول عليه؛ لأنَّ في ذلك إشعاراً بعلة الحكم من التنزيه لذات الله المنفردة بالألوهية المستتبعة

(١) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٢٠/ ص٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص١٣-١٤.

(٤) انظر: المرجع نفسه، ج٢٠/ ص١٦.

(٥) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد، انظر: محمد بن إسحاق بن خزيمة، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، تحقيق: عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان، دار الرشد، الرياض-السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، باب: (ذكر البيان أن الله -عز وجل- في السماء)، الحديث رقم: (١٧٧)، ص٢٧٧-٢٧٨.

(٦) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص١٧.

لجميع صفات الكمال والجلال والجمال[١]، ولفظ الجلالة "الله" هو أعرف المعارف، وإليه ترجع كل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى[٢].

أما في الخامسة فأعقبها بقوله: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)، فإذا كانت الأدلة السابقة لا ينازعون فيها، فإن هذه الآية جاءت بما ينازعون فيه وهو البعث، ومن حسن السبك أنه جاء به بين أمرين لا ينازعون فيهما هما بدأ الخلق والرزق فقال: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، وقوله: (قل هاتوا برهانكم) في إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم؛ لما فيه من إيهام أنَّ لهم برهاناً على أنَّ مع الله إلهاً، وأنّى لهم ذلك؟ وقيل: إضافة البرهان إلى ضميرهم؛ لزيادة التبكيت كأنه قيل: نقنع منكم بما تعدونه أنتم برهاناً يدلّ على ذلك وإن لم يعده أحد من ذوي العقول كذلك[٣]، ومناسبة قوله (إن كنتم صادقين) أن الصادق هو الذي يطابق قوله الواقع، والواقع لا يعدم وجود دليل عليه، فإن كانوا يرون أن عدم البعث واقع فليأتوا بدليل عليه ليكونوا صادقين، فإنكارهم للبعث دعوى والدعوى لا تصدق إلا ببرهان عليها[٤].

***

---

(١) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٢٠/ ص٧.

(٢) انظر: ابن القيم، أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، ص١٠٣. قال السيوطي –رحمه الله– في مسألة الخلاف في أعرف المعارف: (ومحل الخلاف في غير اسم الله تعالى؛ فإنَّه أعرف المعارف بالإجماع). انظر: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج١/ ص١٨٨. ومقولة: (الله أعرف المعارف) تنسب لسيبويه، ولم يجدها الباحث في كتابه، وروي أنه رؤِيَ في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: خيراً كثيراً، فقيل: بمَ؟ قال: بقولي: الله أعرف المعارف. أورده ابن عادل –رحمه الله– في تفسيره لسورة الفاتحة. انظر: عمر بن علي بن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١/ ص١٣٨.

(٣) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٢٠/ ص٨.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص١٨.

• المبحث الرابع: التذييل بحرف (لعلّ).

المشهور في (لعلّ) أنها تفيد الترجي أو الإشفاق، والترجي والإشفاق يدلان على توقع حدوث الفعل في المستقبل، فيجتمعان في معنى التوقع، إلا أن الترجي مصحوب بالرغبة فيه، والإشفاق مصحوب بالرغبة عنه، وهي مختصة بتوقع حدوث فعل ممكن(١)، وقد تأتي مع غير الممكن لغرض بلاغي، كتنزيل غير الممكن منزلة الممكن لشدة الرغبة فيه، كقول الشاعر:

أَسِربَ القَطا هل مَنْ مُعِيرٍ جَنَاحَهُ * لَعَلِّي إلى مَنْ قَدْ هَوَيتُ أَطيرُ**(٢)

ومثال الإشفاق قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾(٣)، وقول المصطفى –عليه الصلاة والسلام– في حجة الوداع: (لتأخذ أمتي نُسُكها، فإنِّي لا أدري لعلّي لا ألقاهم بعدَ عامي هذا)(٤).

واختلف علماء اللغة والمفسرون في معنى (لعلّ) الواقعة في كلام الله –جل جلاله–، ومنشأ هذا الاختلاف هو أدب أولئك العلماء مع الله–جل في علاه–إذ الترجي والإشفاق لا يتصور وصف الله عالم الغيب والشهادة بهما؛ لأنَّ الترجي والإشفاق يحصلان عند من يجهل العاقبة وذاك محال في حق الباري –عز وجل–، وأيضاً لأنَّها جاءت في القرآن الكريم في مواضع مع عدم حصول المرجو كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾(٥)، والآيات دلت على أنهم لم يذكروا كما بين الله عاقبتهم بقوله:﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾(٦). ومن ذلك ذهبوا إلى تأويلها في

---

(١) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام، ج١/ ص٥٥١.

(٢) روي هذا البيت عن مجنون ليلى وهو ممن يحتج بشعره، انظر: ديوان قيس بن الملوح "مجنون ليلى" رواية أبي بكر الوالبي، تحقيق: يسري عبدالغني، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٩٧. وروي عن العباس بن الأحنف، انظر: ديوان العباس بن الأحنف، تحقيق: عاتكة الخزرجي، دار الكتب المصرية، القاهرة–مصر، ب ط، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ص١٤٢. والعباس بن الأحنف من الشعراء المولدين ممن لا يحتج بشعرهم، فيكون من باب التمثيل وليس من باب الاستشهاد، وقد أورد هذا البيت ابن هشام في شرحه لألفية ابن مالك، وقد أورده بالفعل (يُعير)، وفي الديوانين باسم الفاعل (معير). انظر: ابن هشام، أوضح المسالك، ج١/ ص١٣٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.

(٤) رواه ابن ماجه عن جابر بن عبدالله –رضي الله عنهما–، وصححه الألباني. انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح ابن ماجه، مكتبة المعارف، الرياض– السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، كتاب٢٥: (المناسك)، باب٦١: (باب الوقوف بجمع)، الحديث رقم: (٢٤٦٧–٣٠٧٩)، ج٣/ ص٤٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٣٠.

(٦) سورة غافر، الآية: ٤٦.

المواضع التي لا يظهر فيها معنى الرجاء كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾[١]، ولكنهم اختلفوا في ذلك التأويل على أقوال:

١) أن (لعلّ) على معناها ولكن الترجي والتوقع إنَّما هو في حيز المخاطبين، قاله سيبويه[٢]. فقوله تعالى مخاطباً موسى وهارون –عليهما السلام–: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[٣] الرجاء هنا ليس للمتكلم وهو الله –جل جلاله–؛ لأنَّ الله –سبحانه– قد سبق في علمه الذي أحاط بكل شيء أنه لن يتذكر ولن يخشى، وإنما لتقوم الحجة عليه، ولكن الرجاء في حيز المخاطبَين –عليهما السلام– فالتزامهما القول اللين رجاء منهما فيه أن يتذكر أو أن يخشى[٤]، وهذا مجاز قريب من معنى الحقيقة[٥].

٢) أنها للتعليل بمعنى (كي)، نقله ابن هشام عن جماعة منهم الأخفش والكسائي[٦]. ومن ذهبوا إلى ذلك استشهدوا بقول الشاعر:

فقلتم لنا كُفوا الحروبَ لَعَلَّنَا * نَكُفُّ ووثَّقتم لنا كُلَّ موثِقِ**

فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عُهُودُكُمْ * كَلَمْحِ سَرَابٍ فِي الْفَلا مُتَأَلِّقِ**[٧]

فقوله: (ووثقتم لنا كل موثق) يفيد تحقيق الفعل، فليس فيها تردد كما في الرجاء، ولذا فهي بمعنى (كي)[٨]. ونفى الزمخشري أن تأتي (لعلّ) بمعنى (كي)[٩].

٣) أن أصلها (عل) واللام دخلت عليها للتأكيد[١٠] فهي كاللام التي دخلت على (لقد)، نقله الرازي عن القفال[١١]. ولها معنى هنا غير معنى (كي)، ففيها معنى التكرير والتأكيد، مأخوذة من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) انظر: كتاب سيبويه، ج١/ ص٣٣١.

(٣) سورة طه، الآيتان: ٤٣–٤٤.

(٤) رجح الزركشي هذا التأويل للآية ونسبه للخليل وسيبويه، ثم قال: (وهذا أحسن من قول الفراء: إنها تعليلية، أي: كي يتذكر؛ لما فيه من إخراج اللفظ عن موضوعه). انظر: البرهان، ج٤/ ص٥٧.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١/ ص٣٢٩.

(٦) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ج١/ ص٥٥١. ونقله الألوسي عن ابن الأنباري، انظر: روح المعاني، ج١/ ص١٨٦. ونقله ابن عاشور عن قطرب وأبي علي الفارسي، انظر: التحرير والتنوير، ج١/ ص٣٢٩.

(٧) البيتان أوردهما الطبري –رحمه الله– في تفسيره لسورة البقرة ولم ينسبهما، وقد ذكر المحقق لتفسير الطبري أنَّ البيتان في أمالي ابن الشجري غير منسوبين كذلك. انظر: جاع البيان، ج١/ ص٣٨٧.

(٨) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج١/ ص١٨٦.

(٩) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج١/ ص٢١٣.

(١٠) قال سيبويه في الكتاب: (ولعل حكاية؛ لأن اللام هاهنا زائدة، بمنزلتها في لأفعلنّ. ألا ترى أنك تقول: علك ..) انظر: كتاب سيبويه، ج٣/ ص٣٣٢. ومسألة: لام (لعل) هل هي زائدة أم أصلية؟ من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين. انظر: الأنباري، الانصاف في مسائل الخلاف، ج١/ ص٢١٨–٢٢٧.

(١١) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢/ ص١١٠.

علل، كقولهم: (علل بعد نهل)، فإذا كان ذلك كذلك فإن قول القائل: افعل كذا لعلّك تظفر بحاجتك، معناه: افعله فإن فعلك له يؤكد طلبك ويقويه.

٤) أنها للإطماع، اختاره الزمخشري في بعض مواضعها من كلام الله[١]. ذلك أن من عادة الملوك والعظماء أنهم إذا وطنوا أنفسهم على ينجزوا وعداً اقتصروا على (لعلّ) و(عسى) ونحوها من الكلمات، ولله المثل الأعلى فإنه –سبحانه– وهو الكريم الرحيم إذا أطمع في شيء أناله، فتجري أطماعه في مجرى وعده المحتوم[٢]، لذا قال المفسرون أن (عسى) إذا جاءت في كلام الله فهي مُحَقَقَةٌ لا تردد فيها[٣].

٥) أن (لعلّ) في تلك المواضع تحمل على المجاز لا على الحقيقة، فيكون فيها استعارة تمثيلية، اختاره الزمخشري في بعض مواضعها من كلام الله[٤]. ففيها تشبيه هيئة مركبة من شأن المريد والمراد منه والإرادة بحالٍ مركبة من الراجي والمرجو منه والرجاء، وبما أنه تشبيه هيئة مركبة بهيئة مركبة فهو تشبيهٌ تمثيلي، وعندما حذف المشبه وأبقى المشبه به أصبحت استعارة تمثيلية، ويمكن أن يقال: إنَّه –سبحانه وتعالى– فعل بالمكلفين ما لو فعله غيره لاقتضى رجاء حصول المقصود، فقد وهبهم العقول التي يميزون بها الخير من الشر وأزاح أعذارهم، فكل من فعل بغيره هذا فإنه يرجو منه حصول المقصود، فالمراد من (لعلّ) في تلك المواضع: فعل ما لو فعله غيره لكان موجباً للرجاء[٥].

٦) وزاد ابن عاشور –رحمه الله– وجهاً مستقلاً، ذلك أنه يفرق بين استعمال (لعلّ) المستأنفة في الكلام واستعمال (لعلّ) الواقعة في مقام تعليل أمر أو نهي، سواء وقعت في كلام الله أم في غيره، والقرينة تعين على تحديد ذلك، واستعمال (لعلّ) في هذه المواضع دون حروف التعليل؛ لأنَّ المقام يقتضي الرجاء فلا ينبغي تعطيله.[٦]

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج١/ ص٢١٣.

(٢) رأى ابن عاشور–رحمه الله– أنَّ الإطماع معنى مجازي للرجاء؛ لأن الرجاء يلزمه التقريب، والتقريب يستلزم الإطماع. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١/ص٣٣٠.

(٣) قال القرطبي –رحمه الله–: (كل "عسى" في القرآن واجب إلا قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ [التحريم: ٥]، وقيل: هو واجب ولكن الله –عز وجل– علقها بشرط هو التطليق ولم يطلقهن). انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج١٨/ ص١٢٦. وقال ابن عادل الحنبلي –رحمه الله–: اتفق المفسرون على أنَّ كلمة "عسى" من الله واجب؛ لأنه لفظ يفيد الإطماع، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه كان عاراً، والله تعالى أكرم من أنْ يطمع واحداً في شيء ثم لا يعطيه. انظر: اللباب في علوم الكتاب، ج١٢/ ص٣٦٣. وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: (وكثيرٌ من المفسرين فسَّروا لعل وعسى في القرآن باللازم، وقالوا: إنَّ الطمع والرجاء لا يصحُّ من الله، وفي ذلك منهم قصور نظر، وذاك أنَّ الله تعالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجياً، لا لأن يكون هو تعالى يرجو، فقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾[سورة الأعراف، الآية: ١٢٩]، أي: كونوا راجين في ذلك..). انظر: ص٣٣٥. وهو بهذا يذهب إلى ما ذهب إليه سيبويه.

(٤) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج١/ ص٢١٤.

(٥) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢/ ص١١٠.

(٦) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١/ ص٣٣٠.

➢ ولما كان تسخير المخلوقات في الطبيعة يقتضي الشكر كان ختم آيات الطبيعة بصيغة **(لعلّكم تشكرون)** متناسباً مع مقصد القرآن في إيرادها، وقد جاءت في خمسة مواضع منها قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[5]، فكأن تسخير وخلق هذه الأمور كان لعلة هي تحقيق الشكر لله. وفي هذه الآيات جميعها سُبقت بقوله: (ولتبتغوا من فضله)، والفضل الزيادة، وطريق ابتغاء الزيادة الشكر، كما قال – سبحانه–: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[6].

➢ ثم لما كان التذكر وسيلة لتحقيق غاية الشكر جاءت آيات أخر من آيات الطبيعة مختومة بصيغة **(لعلّكم تذكرون)** ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[7]، ولعلّ التعبير هنا لم يأتِ بصيغة (لعلّكم تشكرون) كما في الآيات السابقة؛ لأنَّ هذه الأمور المذكورة في هذه الآية تحتاج إلى تذكر يقود إلى الشكر، فإنه – سبحانه– كما قدر على إحياء البلد الميت وإخراج الثمرات منه قادرٌ على إخراج الموتى وبعثهم ليوم لحساب، وهي مسألة ظاهرة تحتاج إلى تذكر؛ ليهتدي به الإنسان إلى الشكر الذي يقوده إلى ما يستلزم منه وهو الإيمان[8]، إضافة لاقتران الآيات السابقة بقوله: (ولتبتغوا من فضله) وتناسبها

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٦.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٢.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٢.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٤.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٨) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٧/ ص٤٢٢.

مع (لعلّكم تشكرون) كما سبق. وجاءت هذه الصيغة (لعلّكم تذكرون) في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾(1). وهي آيات واضحة يقصد من الإشارة إليها التذكر الذي يقود إلى الإيمان والتسليم، لذا أتبعها بقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾(2). والتذكر قد يكون استحضار أمر معلوم طرأ عليه النسيان، وقد يكون من التذكرة وهي الموعظة والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾(3).

➢ وجاءت صيغة **(لعلّكم تعقلون)** في آية إحياء الأرض بعد موتها في قوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾(4). ولما افتتح الآية بقوله: (اعلموا) ناسب أن يختمها بالتعقل، لأنَّ العلم يدرك بالعقل. ولم يقل: لعلّكم تعلمون، لما فيها من التكرار الذي لا مسوغ له. كما أن هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾(5). وبين الآيتين تشبيه ضمني فكما أن الله يحيي الأرض بعد موتها فإنه يحيي القلوب القاسية، وبيّن الله ذلك البيان ليعقله الناس(6).

➢ وجاءت صيغة **(لعلّكم تتفكرون)** في قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾(7) وقد جاءت في سياق ضرب المثل لمن يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كاد يبلغ نهاية أجله عمل بالسيئات، في وقت هو أحوج ما يكون للصالحات(8)، وفي هذا المثل من الدقة ما يحتاج إلى تأمل وتفكر، فعلل إيراده بذلك فقال: (لعلّكم تتفكرون). وسيأتي بيان هذا التشبيه في فصل التصوير.

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٤٧-٤٩.

(٢) سورة الذاريات، الآيات: ٥٠-٥١.

(٣) سورة الذاريات، الآيات: ٥٠-٥١.

(٤) سورة الحديد، الآية: ١٧.

(٥) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٦) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧/ ص٣٩٤.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

(٨) انظر: جامع البيان، للطبري، ج٤/ ص٦٨٣.

➢ وجاءت صيغ أخرى ولكنها أقل في آيات الطبيعة مما سبق، ومن ذلك **(لعلّكم تهتدون)** بالمخاطب كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠﴾[1]، وبالغائب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١﴾[2]، ويجوز أن تفسر الهداية هنا بأنها هداية حسية أو معنوية، فعلى الهداية الحسية: أن الجبال والفجاج والسبل يهتدي بها المسافرون ليعرفوا بها الطرق ويميزوا بها الاتجاهات، وعلى الهداية المعنوية: أن خلق هذه المخلوقات العظيمة والتفكر فيها يقود للهداية إلى الإيمان بالله ووحدانيته –سبحانه–[3]، ومما يدل على الهداية المعنوية صيغة أخرى هي **(لعلّكم تسلمون)** في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾[4]، وهذه الأخيرة جاءت في سورة النحل وهي سورة مكية –إلا آيات في آخرها– وهي سورة –في أغلبها– تخاطب المشركين، وفيها تذكير بآيات الله، وعجائب إنعامه، مما لا يمكن نسبة شيء منها لغيره، ثم أعقبها بدعوتهم للدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه، فهذا يبيّن مناسبة هذا التذييل مع الآية، ومع مقصد السورة[5].

➢ كما جاءت صيغة أخرى هي: **(لعلّكم بلقاء ربكم توقنون)** في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٍ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢﴾[6]، هذه الآية جاءت في بداية سورة الرعد، ومن مقاصدها إثبات صدق الرسول–صلى الله عليه وسلم– فيما أُوحي إليه من إفراد الله بالألوهية والبعث وإبطال أقوال المكذبين، وقد جاءت الآية الأولى منها منوهة بأنَّ القرآن منزل من عند الله[7]، فقال تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾[8]، ثم تلتها آيات فيها استدلال على تلك المقاصد، وهذه الآية قد تحدثت عن أمور من خلق السماء ورفعها، والاستواء

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ١٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣١.

(٣) فسرها بالهداية الحسية الإمام البقاعي، انظر: نظم الدرر، ج١٧/ ص٣٩٥. وفسرها بالهداية المعنوية الإمام ابن عاشور، انظر: التحرير والتنوير، ج٢٥/ ص١٧٠.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨١.

(٥) انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل،، ج١/ ص١٢٠.

(٦) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٧) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣/ ص٧٦.

(٨) سورة الرعد، الآية: ١.

على العرش، وتسخير الشمس والقمر، وانتهاء كل شيء إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، وتلك دلائل منها ما هو ظاهر كرفع السماء بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر، ومنها ما هو غيبي كالاستواء على العرش ويوم القيامة، فاليقين بالأمور الظاهرة يدل على الأمور الغيبية، فناسب ختم الآية بقوله: (لعلّكم بلقاء ربكم توقنون) –والله تعالى أعلم–.

***

• المبحث الخامس: تذييلات أخر.

جاءت صيغ للتذييل في آيات الطبيعة لا تندرج فيما سبق في مواضع قليلة ومن ذلك:

➢ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾(١)، فقوله: (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) تذييل، لأنَّه في الآية السابقة وجه الخطاب للناس وأمرهم بعبادته بقوله: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم ..)، فختم هذه الآية بالنهي عن الشرك، والتوحيد أساس العبادة(٢).

و➢ قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾(٣)، فالتذييل فيها قوله: (إنه لا يحب المسرفين)، فلما أمرهم بالأكل على وجه الإباحة، وبإيتاء زكاته على وجه الوجوب، ثم نهاهم عن الإسراف على وجه التحريم، ختم بهذا ليؤكد على تحريم الإسراف(٤).

➢ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾(٥)، وفعل (تبارك) معناه: عظم وتعالى وكثرت بركاته، وهو فعل مختص بالله –سبحانه– لا يسند لغيره، وهو فعل لا يتصرف فلا يقال: يتبارك(٦)، فلما ذكر اختصاصه –سبحانه– بالخلق والأمر فلا شريك له في ذلك ختم الآية بقوله (تبارك الله رب العالمين) وقد روعي في هذا الختام مطلع الآية فلما ذكر في مطلع الآية ما يستدل به على كمال ألوهيته وربوبيته ختمها بتعظيمه–جل وعلا–(٧)، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي ج٢/ ص١٢٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨/ ص١١٩-١٢٤.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٦) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٢/ ص٤٠٩.

(٧) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٨/ ص١٩٩.

﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1]، وفي هذه الآية أشار إلى الرب -جل في علاه- باسم إشارة البعيد للتعظيم، ثم أعقبها بهذا التذييل: (فتبارك الله رب العالمين).

➢ وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾[2]، ولما كان في الآية ضرب مثل ختمها بقوله: (كذلك يضرب الله الأمثال).

***

➢ فما تقدم أشهر ما جاء من التذييل في آيات الطبيعة، ومن آيات الطبيعة ما ليس فيه تذييل فليس شرطاً أن تذيل الآية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾[3].

***

(١) سورة غافر، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: ٣٢-٣٣.

الفصل الخامس

التصوير الفني في آيات الطبيعة

- المبحث الأول: التصوير الفني: مفهومه وسماته وقواعده.

- المبحث الثاني: التخييل الحسي في آيات الطبيعة.

- المبحث الثالث: التجسيم الفني في آيات الطبيعة.

- المبحث الرابع: التناسق الفني في آيات الطبيعة.

الفصل الخامس
التصوير الفني في آيات الطبيعة

• المبحث الأول: التصوير الفني: مفهومه وسماته وقواعده.

▪ أولاً: مفهوم التصوير الفني:

١) الصورة والتصوير:

قال ابن منظور: (الصورة في الشكل.. والجمع صُوَرٌ وصِوَرٌ وصُوْرٌ، وقد صَوَّرَهُ فَتَصَوَّرَ.. وتصوَّرت الشيء: توهمت صورته، فتصور لي، والتصاوير: التماثيل.. والصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته).(١)

والصورة: إحدى ظواهر الطبيعة وهي إما حقيقة أو خيال، والتصوير: هو إبراز الصور إلى الخارج بأسلوب فني، والتصور: هو العلاقة بين الصورة والتصوير، وأداة التصور الفكر فقط، أما التصوير فأداته الفكر واللسان واللغة.(٢)

والصورة الأدبية حظيت باهتمام النقاد والباحثين قديماً وحديثاً، ويعد الجاحظ –رحمه الله– من أول من تطرق لمفهوم الصورة الأدبية ضمن حديثه عن قضية اللفظ والمعنى، وذلك في قوله الشهير: (والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجميّ والعربي، والبدوي والقرويّ، [والمدني]، وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللّفظ، وسهولة المخرج، [وكثرة الماء]، وفي صحّة الّطبع، وجودة السّبك. فإنّما الشعر صناعةٌ، وضرب من النَّسج، وجنس من التصوير)(٣)، وهذا النص وإن لم يكن يقدم تعريفاً أو شرحاً للصورة الأدبية بمفهومها الحديث فإنَّه ترك أثراً واضحاً في من بعده. يعلق الدكتور جابر عصفور على مقولة الجاحظ فيقول: (إنَّ الجاحظ عندما طرح فكرة التصوير – على هذا النحو– في مواجهة النظرة اللغوية إلى الشعر .. كان يطرح لأول مرة في النقد العربي

(١) لسان العرب، مادة (صور)، ج٤/ ص٤٧٣.

(٢) انظر: صلاح عبدالفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الفرقان، عمان– الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٧٤.

(٣) عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ج٣/ ص١٣٢.

فكرة الجانب الحسي للشعر، وقدرته على إثارة صورة بصرية في ذهن المتلقي، وهي فكرة تعد المدخل الأول أو المقدمة الأولى للعلاقة بين التصوير والتقديم الحسي للمعنى)[١].

وهناك قول قريب مما قاله الجاحظ وهو لقدامة بن جعفر –رحمه الله– يقول: (إنّ المعاني كلّها معرَّضة للشاعر، وله أن يتكلّم منها فيما أحبّ وآثر، من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كلّ صناعة، من أنّه لابدّ فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها، مثل الخشب للنجارة، والفضّة للصياغة).[٢]

ويتقدم الجرجاني –رحمه الله– خطوات في مفهوم الصورة الأدبية، وينظر إليها نظرة نقدية فنية متكاملة، فالصورة في نظره لا تقوم على اللفظ وحده، أو المعنى وحده، بل لابد من تكاملهما، فيقول: (واعلم أنَّ قولنا "الصُّورة" إنّما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلمّا رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان تبَيُّن[٣] إنسان من إنسان، وفرس من فرس، بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك، وكذلك كان الأمر في المصنوعات، فكان تبَيُّن خاتمٍ من خاتمٍ، وسِوَارٍ من سِوَارٍ بذلك، ثمّ وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرْقا، عبّرنا عن ذلك الفرق، وتلك البينونة بأنْ قلنا: "للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك"، وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فيُنكره مُنكرٌ، بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء، ويكفيك قول الجاحظ: "وإنّما الشعر صياغةٌ[٤] وضرب من التصوير").[٥]

ويقدم الناقد والشاعر الإنجليزي سيسل دي لويس(Cecil Day Lewis) تعريفاً لطيفاً للصورة الفنية، فيرى أنَّها: (رسمٌ قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة).[٦]

---

(١) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م، ص٢٦٠.

(٢) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبدالمنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ب ط، ب ت، ص٦٥.

(٣) في تحقيق محمود شاكر–رحمه الله–: (فكان تبين)، وبه يستقيم المعنى، ويتضح، وفي بعض الطبعات (فكان بين)، انظر: عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت– لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٣٢٣.

(٤) في تحقيق محود شاكر: (إنما الشعر صياغة)، ولعلها أقوم قيلا، وفي بعض الطبعات (إنما الشعر صناعة). انظر: المرجع نفسه، ص٣٢٤.

(٥) دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، ص٥٠٨.

(٦) سيسل دي لويس، الصورة الشعرية، ترجمة: أحمد نصيف الجابي وآخرون، منشورات وزارة الثقافة والإعلام– الجمهورية العراقية، ب ط،١٩٨٢م، ص٢٣.

والتعبير بالصور يكون عن التجارب الشعورية، وهو أرقى أنواع الفنون، والفن الرفيع هو الذي يحيل الأفكار التجريدية الجامدة إلى صور نابضة بالحياة، وبعضهم عرِّف الأدب بأنَّه: التعبير بالصور.[١]

ويعرّف الناقد الفرنسي فان(Van) الصورة بقوله: (الصورة كلام مشحون شحناً قوياً، يتألف عادة من عناصر محسوسة، خطوط، ألوان، حركة، ظلال، تحمل في تضاعيفها فكرة أو عاطفة، أي إنها توحي بأكثر من المعنى الظاهر، وأكثر من انعكاس الواقع الخارجي، وتؤلف في مجموعها كلاً منسجماً).[٢]

٢) الفن:

تطلق كلمة (فن) ويراد بها معانٍ كثيرة وذلك حسب ما يضاف إليها، وهي تدور في فلك الحَذق والمهارة في الشيء مما يتوصل إليه بالموهبة والتدبر والتمعن.[٣]

جاء في لسان العرب: (الفنُّ: واحد الفنون، وهي الأنواع، والفَنُّ الحال... والرجل يُفَنِّنُ الكلام، أي: يشتقُّ في فنٍ بعد فنٍ، والتفنن فعلك، ورجل مِفَنٌّ: يأتي بالعجائب، وامرأة مِفنَّةٌ.. وافْتَنَّ الرجل في حديثه وفي خطبته إذا جاء بالأفانين .. وأخذ في فنون القول).[٤]

إنَّ الفن يشمل كل إبداع وإنتاج مادي أو غير مادي، وهو لونٌ من ألوان الثقافة الإنسانية، لذا يمكن تقسيم الفن إلى قسمين فنون مادية كالرسم والنحت والزخرفة والطبخ ونحوها، وفنون غير مادية كالأدب من شعر أو نثر أو تمثيل أو نحو ذلك. **والفن: هو جملة الوسائل المستعملة؛ لإثارة المشاعر والعواطف، وإبراز الجمال في شتى المناحي، وهو مهارة يحكمها الذوق والموهبة.**[٥]

ويمكن أن يعرّف الفن فيما يختص بالأسلوب القرآني بأنَّه: **(جمال العرض، وتنسيق الأداء، وبراعة الإخراج)**[٦]، وذهب بعضهم إلى أن الفن معناه: الملفق أو المخترع أو القائم على مجرد الخيال، ومن أولئك محمد أحمد خلف الله في رسالته للدكتوراه تحت عنوان: "الفن القصصي في القرآن". ونسبة ذلك إلى القرآن أمرٌ لا يليق ولا ينبغي؛ أولاً لأنَّ الجانب التاريخي والواقعي يثبت أنَّ ما ساقه القرآن الكريم من قصص الأنبياء والأمم السابقة لم يكن محض خيال بل ذلك ثابت لا مجال لإنكاره، ثمَّ إنَّه حتى لوكان المقصود غير ذلك فليس من اللائق من جانب التأدب مع الله –

---

(١) انظر: الخالدي، نظرية التصوير، ص٧٧.

(٢) انظر: روز غريب، تمهيد في النقد الحديث، دار المكشوف، بيروت– لبنان، ب ط، ١٩٧١م، ص١٩٢.

(٣) انظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (فنَّ)، ج٢/ ص٣٠٧

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (فنن) ج١٣/ ص٣٢٦.

(٥) انظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (فنَّ)، ج٢/ ص٣٠٧.

(٦) سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، القاهرة–مصر، الطبعة السابعة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٦٦ وص٢٧٢.

جل في علاه- والتأدب مع كلامه وكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فذلك قول مردود على قائله، وذلك القول لا يبعد عما حكاه الله من قول المشركين ووصفهم للقرآن في قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]، بل إنَّ خلف الله قد صرَّح بذلك بعد أن قسَّم القصة القرآنية إلى ثلاثة أقسام: قصة تاريخية، وقصة تمثيلية، وقصة أسطورية. فقال بعد ذلك: (إذا كان كل هذا ثابتاً فإنَّا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير؛ لأنّا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن)[2]-عياذاً بالله من هذا-.

يقول سيد قطب: (ولم يجل في خاطري قط أن "الفني" بالقياس للقرآن معناه: الملفق أو المخترع أو القائم على مجرد الخيال، ذلك أنَّ دراستي الطويلة للقرآن لم يكن فيها ما يُلجئني إلى هذا الفهم أو هذا التأويل)، ثمَّ يقول: (ألا يمكن أن تعرض الحقائق الواقعة عرضاً فنياً وعرضاً علمياً، ثمَّ تبقى في الحالتين صفتها الأساسية من الصدق والواقعية؟)[3].

➢ **والتصوير الفني في القرآن الكريم: (هو استخدام طريقة التصوير في التعبير وجعلها الأداة المفضلة في أسلوبه. فيعبر بالصورة المحسة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، والحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة..).**[4]

وعلاقة التصوير بالإعجاز البياني تتضح عندما ندرك أنَّ الأداة التي يتم بها التصوير الفني في القرآن الكريم إنَّما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصوِّر، ولا شخوص تعبِّر، ولكنها أدَّت ذلك المقصد خير أداء، فهي كما قال سيد قطب: **(إنها الحياة وليست حكاية الحياة)**، وبذلك ندرك الإعجاز في التعبير القرآني.[5]

▪ ثانياً: رائد نظرية التصوير الفني:

ذهب الدكتور عز الدين إسماعيل إلى أنَّ رائد فكرة التصوير هو عباس محمود العقاد؛ لأنَّه قد كتب مقالاً عام ١٩١٤م بعنوان: (الوضوح والغموض في الأساليب الشعرية)، عرض فيه

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢٤.

(٢) محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، مع شرح وتعليق: خليل عبدالكريم، سينا للنشر-الانتشار العربي، القاهرة-مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩م، ص٢٠٧.

(٣) سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، ص٢٦٦.

(٤) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص٣٦.

(٥) المرجع نفسه، ص٣٧.

لفكرة التصوير.[١] ورأى أنَّ سيد قطب إنَّما تلقفها منه وضخمها ثم أخرجها في كتابيه: التصوير والمشاهد.[٢] ومقالة العقاد فيها استشهاد بآيتين من كتاب الله هما قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾[٤]، وقد ساقهما في عرض حديثه عن الغموض والوضوح والموازنة بينهما، ليدلل على أنَّ العبارة قد تكون واضحة ولكنها تحمل معانٍ جمة، وتثير صوراً عديدة، ولم يكن المقصود بها الحديث عن الصورة في القرآن، كما أنَّ عنوان المقالة لا يحمل ما يدلُّ على ذلك.

رد محمد رجب البيومي على زعم عز الدين إسماعيل وشبَّه قوله بمن يقول: بأنَّ الغرب لم يخترعوا الطائرة ولم يكن لهم فضل في اكتشافها؛ لأنَّ عباس بن فرناس قد همَّ بالطيران في يوم من الأيام.[٥]

ومن العجب أن تنسب الفكرة للعقاد، فإنَّ العقاد لو كان صاحب الفكرة حقاً، لما ظننت أنه يلتزم الصمت ويترك أحداً يستولي على صيوده، وهو ينظر إليه حتى ولو كان من طلابه أو من مريديه. وقد أشار سيد في ثنايا كتابه أن العقاد قد أشار عليه ببعض الأمور ووجَّهه إلى إفراد بعض سمات التصوير[٦]. وهذا يرد القول بأن سيد سرق الفكرة من العقاد.

وسيد قطب يؤكد أصالة البحث لديه وعدم اقتباسه من أحد فيقول: (إنَّني –فيما يختص بالجمال الفني– لم أبنِ من حصيات أحد .. وهذه حقيقة تاريخية).

وقد كانت بداية كشف سيد قطب لفكرة التصوير من خلال مقال له نشر في مجلة المقتطف في فبراير ١٩٣٩م، على حلقتين بعنوان: (التصوير الفني في القرآن الكريم). وعدَّه بداية لبحث شامل، ثم بعد ستة أعوام من نشر هذا البحث أخرج سيد كتابه: (التصوير الفني في القرآن) وذلك عام١٩٤٥م.

---

(١) نشر المقال في صحيفة الرجاء العدد السابع عام ١٩١٤، ثم أعاد العقاد نشره في كتاب (الفصول) عام ١٩٢٢م، انظر: عباس محمود العقاد، الفصول، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة– مصر، ب ط، ٢٠١٣م، ص٧٩.

(٢) انظر: إسماعيل عز الدين: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مجلة الثقافة، العدد الثامن، سبتمبر سنة ١٩٥٢م، وانظر: الخالدي، نظرية التصوير، ص١٢٢.

(٣) سورة التكوير، الآية: ١٨.

(٤) سورة الحج، الآية: ٢.

(٥) انظر: محمد رجب بيومي: رد على مقال، مجلة الرسالة، السنة العشرون، العدد: (١٠١٦)، ٢٢ ديسمبر١٩٥٢م، ص٣٢.

(٦) انظر: الفصل الأخير بعنوان:(طريقة القرآن) من كتاب (التصوير الفني)، الحاشية رقم(١)، ص٢٤٩.

كان سيد قطب يسعى إلى تأليف سلسلة بعنوان: (مكتبة القرآن الجديدة)، يهدف منها لإعادة عرض القرآن الكريم، واستحياء الجمال الفني الخالص فيه كما تلقاه العرب أول نزوله وجذبوا إليه. وقد أصدر من هذه السلسلة ثلاثة كتب هي: (التصوير الفني، ومشاهد القيامة، وفي ظلال القرآن)، وكان ينوي إضافة أربعة كتب إليها هي: (القصة بين التوراة والقرآن، والمنطق الوجداني في القرآن، والنماذج الإنسانية في القرآن، وأساليب العرض الفني في القرآن)، ولكنه عدل عن إصدارها إمَّا لانشغاله عنها أو لأمر آخر.[١]

▪ ثالثاً: هل أضافت نظرية التصوير شيئاً للنقد الأدبي؟

ذهب بعض النقَّاد إلى أن سيد قطب لم يضف جديداً من خلال كتابه (التصوير الفني في القرآن)، فما زاد على أن عبَّر بمصطلحات حديثة عن مصطلحات النقَّاد القدماء كالجاحظ والجرجاني والزمخشري وغيرهم، فاستبدل التصوير بالصورة، والتجسيم والتخييل بالاستعارة والكناية .. وبعضهم ذهب إلى نقيض ذلك فزعم أنه مجدد القرن وصاحب منهجية جديدة في النقد والأدب وغيرهما،[٢] وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

إذا سلمنا جدلاً بأن سيداً لم يأتِ بجديد في فصلي التجسيم والتخييل؛ لأنَّهما يقومان على التشبيه والاستعارة والكناية وما إلى ذلك من علوم البيان التي سبقت دراستها عند القدماء –مع أنَّه أضاف إليها آفاقاً لا يمكن إغفالها كالظلال والألوان وغيرها– فإنَّه ينبغي التنبه إلى أنَّ الصورة والتصوير عند القدماء من النقاد ليست تماماً كما هي في النقد الحديث، بل إنَّ الصورة عند بعضهم ليست هي عند الآخر، ثم إنَّ ما توصل إليه سيد من أنَّ التعبير بالتصوير هي الطريقة المفضلة في التعبير القرآني، وأنَّها استوعبت ثلاثة أرباع الموضوعات القرآنية، ذلك أمرٌ لم ينقل عن أحدٍ قبله، مما دعا الشيخ الأديب علي الطنطاوي –وهو ممن عاصر سيّد قطب– لأن يقول: (وذهبت فقرأت الكتاب (أي التصوير الفني في القرآن)، فوجدته فتحاً والله جديداً، ووجدته (أي سيّد قطب) وقع على كنز كأنَّ الله ادّخره له، فلم يعطِ مفتاحه لأحدٍ قبله، حتى جاء هو ففتحه...)[٣].

---

(١) انظر: صلاح عبدالفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، دار القلم، دمشق–سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٢٧٠–٢٧٢.

(٢) انظر: فتحي بودفلة: سيّد قطب ونظرية التصوير الفنّي هل هو الإبداع والتجديد أو الابتداع والتقليد، ص١ وص ١٢٠، بحث منشور على مدونة المؤلف تاريخ الدخول: (٢٦–٨–٢٠١٤م) على الرابط الآتي:

http://rebbat.blogspot.com/2010/07/1.html

وقد تواصل الباحث مع المؤلف وأرسل له البحث كاملاً عن طريق البريد الالكتروني "الإيميل" –جزاه الله خيراً–.

(٣) علي الطنطاوي: على هامش المناظرة بين خلاف وقطب، مجلة الرسالة، السنة الثالثة عشر، العدد (٦٤٨)، تاريخ ٣ ديسمبر ١٩٤٥م، ص٢٢.

وإن صُرف النظر عن ذلك فإنَّ فصل التناسق الفني لا يمكن صرف النظر عمَّا فيه من الإضافة للنقد الأدبي الحديث، والذي ربما يكون أهمّ ما أبدعه سيد قطب في كتاب التصوير، ولعله أغنى الفصول فيه، حتى قال عنه نجيب محفوظ: (هنالك التناسق الذي يبلغ الذروة في تصوير القرآن، فكان هذا الفصل الذي بلغت به أنت أيضاً الذروة في النقد والذوق والفهم...)[١].

▪ رابعاً: سمات التصوير الفني في القرآن:

هنالك فرق في القيم التعبيرية بين التعبير عن الحقيقة العلمية والتعبير عن الحقيقة الشعورية (إنَّ الحقيقة العلمية يمكن التعبير عنها في صورٍ مختلفة دون أن تنقص دلالتها أو تزيد؛ لأنَّ وظيفة التعبير في العلم هي مجرد تأدية الحقيقة الذهنية، أو المعنى المجرد. أمَّا الحقيقة الشعورية فكل تغيير في الألفاظ أو نظامها، أو في تنسيق العبارات وترتيبها، أو في طريقة تناول الموضوع والسير فيه .. يؤثر في صورتها التي ينقلها التعبير إلى الآخرين، ويؤثر تبعاً لذلك في طبيعة الأثر الذي تتركه في مشاعرهم..)[٢]، وهذا ما يميز الطريقة المفضلة للتعبير القرآني: طريقة التصوير؛ لأنَّها لا تنقل معنى ذهنياً مجرداً، بل تضيف إيحاءً شعورياً يترك أثره المطلوب في المتلقي.

والتصوير الفني في القرآن الكريم له سمات تميزه، وتبرز إعجازه وتفرده، ويمكن إجمالها في ثلاث سمات[٣]:

١) تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية:

فالتعبير القرآني يصورها ويبرزها في صور حسية، كأنها حاضرة شاخصة، ويفضل هذه الطريقة على طريقة التعبير بالمعاني الذهنية التجريدية، والأخيرة تخاطب الذهن والوعي، أمَّا طريقة التعبير بالتصوير –التي اصطفاها الخطاب القرآني– فهي تخاطب الحس والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى، ويكون الذهن منفذاً من تلك المنافذ، لا منفذها الوحيد، يرى ذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾[٤].

---

(١) نجيب محفوظ: كتاب التصوير الفني في القرآن، مجلة الرسالة، السنة الثالثة عشر، العدد (٦١٦)، تاريخ ٢٣ أبريل ١٩٤٥م، ص٥٣.

(٢) سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص٤٠.

(٣) جاء حديث سيد قطب عن هذه السمات في أغلب فصول كتابه (التصوير الفني)، ثم أفرد الحديث عنها في آخر الكتاب، انظر ذلك في فصل (طريقة القرآن)، ص٢٣٩-٢٥٢.

(٤) سورة المدثر، الآيات: ٤٩-٥١.

٢) الحياة الشاخصة:

فالتعبير القرآني يرسم الصورة الفنية أولاً، ثم يرتقي فيمنحها الحياة الشاخصة، وهذه الحياة تراها في جميع آفاق التصوير. فالمعاني الذهنية والحالات المعنوية النفسية لم تستبدل بها صور فحسب، ولكن اختيرت لها صور حية .. ومن أمثلة ذلك وصف أهوال يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾[١].

٣) الحركة المتجددة:

وهي سمة ملحوظة في كل آفاق التصوير سواء في المعنى الذهني، أو الحالة النفسية، أو النموذج الإنساني، أو القصص والأمثال والحوادث والمشاهد أو غيرها. فينسى القارئ أو المستمع أن هذا كلام يتلى، ومثل يضرب ويتخيل أنه منظر يعرض، وحادث يقع.

وقد تكون هذه الحركة ظاهرة أو مضمرة .. ومن أمثلة هذه الحركة المتجددة قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[٢].

▪ خامساً: قواعد وطرق التصوير الفني في القرآن:

إنَّ للتصوير الفني في القرآن الكريم قواعد يمكن من خلالها تمييز طريقة القرآن المفضلة في التعبير عن أغراضه المتنوعة، ويمكن إجمالها في ثلاث قواعد هي:

➢ القاعدة الأولى: التخييل الحسي:

والتخييل: تصوير خيال الشيء في النفس، وتصوّر ذلك[٣]، ولعل من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾[٤]. فالتخييل الفني يخلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر، والانفعالات، إمَّا بالتشخيص أو بالحركة بأنواعها.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٣) انظر: الأصفهاني، المفردات غريب القرآن، ص١٦٢.

(٤) سورة طه، الآية: ٦٦.

➢ **القاعدة الثانية: التجسيم الفني:**

والتجسيم الفني يقصد به: تصوير الأمور المعنوية في صورة مجسمة ترتسم في الذهن على وجه التشبيه والتمثيل والاستعارة.(١) ويسهم في ذلك كون اللغة المستعملة في التعبير لغة شاعرة (وإنما تسمى اللغة العربية لغة المجاز؛ لأنَّها تجاوزت الصور المحسوسة إلى حدود المعاني المجردة، فالقمر بهاء، والزهرة نضارة، والغصن اعتدال ورشاقة... وإن المجاز العربي يصور لنا المعاني المجردة –مباشرة– من وراء تصوير الأشباه والأشكال).(٢)

➢ **القاعدة الثالثة: التناسق الفني:**

والمقصود بالتناسق الفني: تهيئة نظام ونسق وجو للألفاظ يسمح لها بأن تشع أكبر شحنة من الصور والظلال والإيقاع، وأن تتناسق ظلالها وإيقاعاتها مع الجو الشعوري الذي ترسمه، ولا تقف عند الدلالة المعنوية الذهنية، فتصور الألفاظ حالة حية، وترسم مشهداً وليس معناً ذهنياً مجرداً.(٣)

وهذا الفصل في مباحثه الآتية يحاول الكشف عن جوانب الإعجاز البياني في آيات الطبيعة من خلال التصوير الفني بهذه القواعد.

***

---

(١) انظر: الخالدي، نظرية التصوير، ص١٠١.

(٢) عباس العقاد، اللغة الشاعرة، نهضة مصر، القاهرة–مصر، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٩م، ص٢٧.

(٣) انظر: سيد قطب، النقد الأدبي، ص٤٥.

• المبحث الثاني: التخييل الحسي في آيات الطبيعة.

القرآن الكريم يعبر بالصورة المحسة المتخيلة، وهي أولى القواعد التي يقوم عليها التصوير، فيجعل في النص حركة حية تنبض بها الحياة الظاهرة للعيان، أو الحياة المضمرة في الوجدان(١)، وللتخييل الحسي عدة ألوان وصور هي:

١) تخييل بالتشخيص الذي يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية، فتصبح حياة إنسانية ذات عواطف آدمية: كالتعبير عن سكوت الغضب عن موسى–عليه السلام–.

٢) تخييل بالصور المتحركة التي يعبر بها عن حالة من الحالات، أو معنى من المعاني: كصورة الزحزحة عن النار.

٣) تخييل بالحركة المتخيلة التي تلقيها في النفس بعض التعبيرات: كاتباع خطوات الشيطان.

٤) تخييل بالحركات السريعة المتتابعة: كالتشبيه بمن خرَّ من السماء، فتخطفه الطير، أو تلقي به الريح في مكان سحيق.

٥) تخييل بالحركة الممنوحة لما شأنه السكون: كاشتعال الرأس شيباً.(٢)

▪ أولاً: التخييل بالتشخيص:

➢ من التخييل بالتشخيص في آيات الطبيعة وصف النهار بأنَّه مبصر، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾(٤)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(٥)، فهذا التعبير يخيل لسامعه أنَّ النهار شخص له عينان يبصر بهما.

---

(١) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٧٢.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص٧٣–٧٨.

(٣) سورة يونس، الآية: ٦٧.

(٤) سورة النمل، الآية: ٨٦.

(٥) سورة غافر، الآية: ٦١.

والنهار مبصَرٌ فيه، ولكنَّ التعبير القرآني يجعله هو بذاته مبصِراً، وقد سبق بيان وجه وصف النهار بأنَّه مبصر[١] من التنبيه إلى كمال هذه الصفة فيه وكونه سبباً في الإبصار، ولم نرَ التعبير القرآني هنا وصف الليل بأنه ساكن، ولو عُبِّر بذلك لكن على وجه الحقيقة لا المجاز؛ لأن الليل يوصف بذلك فيُقال: ليلٌ ساكنٌ، وليلٌ ساجٍ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾[٢]، فيوصف الليل بالسكون على وجه الحقيقة، كما أن التعبير بقوله: (لتسكنوا فيه) هو على وجه الحقيقة كذلك، ولكن عُبِّر بالفعل مسنداً إلى الخلق في هذه الآيات؛ لتكتمل الدلالة على نعمة الله على الناس به، ولو جاء التعبير على الوصف باسم الفاعل: (جعل لكم الليل ساكناً)، لما كان لقوله (لكم) موقعها الذي دلَّت عليه كما في التعبير القرآني. ثمَّ في وصف النهار لم يقل: (لتبصروا فيه)، بل قال: (مبصراً)؛ لما يفيده هذا التعبير من المجاز، ولما يدل عليه كذلك من كمال الإبصار فيه، والتعبير عن هذا المعنى يحتمل أربعة أوجه:

- الأول: أن يقال: (جعل لكم الليل ساكناً والنهار مبصراً) وهذا التعبير يفوت الدلالة على النعمة وهي مقصد الآية الأول، فتُفقد الفائدة المعنوية.
- الثاني: أن يقال: (جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه) وهذا التعبير يفوت الجمال الفني في التعبير بالمجاز، فتُفقد الفائدة الفنية.
- الثالث: أن يقال: (جعل لكم الليل ساكناً والنهار لتبصروا فيه) وهذا التعبير يفوت المعنى كما يفوت الجمال الفني في التعبير بالمجاز، فتُفقد الفائدتان الفنية والمعنوية.
- الرابع: وهو الذي عَبَّر القرآن الكريم به فقال –عز من قائل–: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾، فجمع التعبير القرآني في الآية بين الحقيقة والمجاز، وبذلك كله تكون الآية اكتسبت الجمال المعنوي والجمال الفني على حدٍ سواء[٣]، كما أنَّ في هذا التعبير جمالٌ فنيٌّ آخر –سبق بيانه في فصل التذييل[٤]– وهو الاحتباك: فذُكرت علة الليل وحُذفت صفته، ثم ذُكرت صفة النهار وحُذفت علته، فدلَّ ما ذكر فيهما على ما حذف منهما.

قال الزمخشري –رحمه الله– في هذه الآية: (﴿مُبۡصِرًا﴾ من الإسناد المجازي؛ لأنَّ الإبصار في الحقيقة لأهل النهار. فإن قلت: لم قرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال؟ وهلَّا كانا حالين أو مفعولاً لهما فيراعى حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ

(١) انظر: فصل التذييل في آيات الطبيعة، مبحث التذييل بقوله: (إن في ذلك لآيات).

(٢) سورة غافر، الآية: ٦١.

(٣) انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص٢٧-٢٨.

(٤) انظر: مبحث: التذييل بقوله: (إن في ذلك لآيات).

منهما يؤدى مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل: (لتبصروا فيه) فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل ساكناً –والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساجٍ، وساكن لا ريح فيه– لم تتميز الحقيقة من المجاز).[١]

ووصف النهار بالإبصار تعبيرٌ يُحمل على المجاز كما تبيَّن، وقد يكون له وجهٌ من الحقيقة: ذلك أنَّ الله جعله مبصراً وشاهداً يشهد على أعمال العباد خيرها وشرها[٢]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾[٣] روى الطبري عن سفيان قال: (ما عُمل عليها من خير أو شر)[٤]، فإذا كان المكان يشهد على الإنسان أو له فلا يستبعد أن يشهد الزمان على مثل ذلك، وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾[٥] الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة[٦]، ومَردُّ ذلك إلى القدرة الإلهية التي أنطقت كل شيء.

➢ من التخييل بالتشخيص في آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾[٧]، فعبر عن الصبح وعن انتشاره بطريقة التخييل على سبيل التشخيص، فالصبح كأنَّه شخص حي يتنفس، فيخيل إليك هذا الصبح وهو ينعم بالحياة الهادئة الوادعة، فيتنفس ويتنفس معه جميع ما على وجه البسيطة من مخلوقات الله.[٨] يقول العقاد عن هذه الآية: (فلعمر الله أي ثروة معنوية فيها وأي وضوح وإيجاز؟ ثلاث كلمات موجزات هيهات تأنس لكل ما قيل وصفاً لأول طلوع الفجر ما تأنسه فيها من إعجاز التعبير، ووفرة المدلول، وتنوع الصور، واتساع مجال السبح للخيال. وما خطرت لي هذه الآية مرة إلا تفتحت أمامي فجأة صورة كاملة للفجر البهيج... فيهب على نفسي نسيم الصباح الندي، وأتمثل الطبيعة يتنهد به صدرها كأول ما تدب الحياة في الجسم بعد طول السبات... وهذه الصور الكاملة تلهمك إياها كلمة "تنفس" بسرعة البرق، وخفة السحر، ولذة الحلم).[٩]

➢ وقريب من تلك الحياة الشاخصة للصبح في تنفسه، يتم تصوير حياة شاخصة لليل في سريانه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾[١٠]، فيخيل هذا التعبير القرآني الفريد للمتلقي أن

---

(١) الكشاف، ج٥/ ص٣٥٧.

(٢) انظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص٢٨.

(٣) سورة الزلزلة، الآية: ٤.

(٤) جامع البيان، ج٢٤/ ص٥٦١.

(٥) سورة البروج، الآية: ٣.

(٦) المرجع نفسه، ج٢٤/ ص٢٦٤.

(٧) سورة التكوير، الآية: ١٨.

(٨) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٧٣.

(٩) الفصول، ص٨٠-٨١.

(١٠) سورة الفجر، الآية: ٤.

الليل يسري سيراً متئداً، يُحس به ويأنس بسريانه في هذا الكون الفسيح.[1] فالليل يتحول بهذا التعبير إلى كائن حي، يخيل إلى المتلقي أنه ساهر يجول في الظلام، أو أنَّه مسافر يفضل السُّرى[2] في سفره.[3]

➢ ومن ذلك ما يخيله لنا التعبير القرآني من دورة الليل والنهار الدائبة التي لا نهاية لها، فالليل يسرع وكأنه يجتهد في طلب النهار فلا يستطيع أن يدركه وكأنَّهما في مضمار سباق، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[4]، ولا يخفى ما أضفى التعبير بقوله: (حثيثاً) من اكتمال التصوير وتشخيص الليل والنهار.[5] ومثل هذا السباق سباق الشمس والقمر في قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[6].

➢ وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[7] فالتعبير القرآني يخيل السماء والأرض وكأنَّهما شخصان عاقلان، يوجه لهما السؤال، فيكون منهما الجواب سريعاً بالاستجابة لأمر الله تعالى دون تردد[8]، وفي هذا التعبير لفت لنظر العاقل؛ كي لا يحيد عن أمر الله ومراده، ويكون له في هذه المخلوقات العظيمة أسوة حسنة. على أنَّ المعنى هنا قد يكون على سبيل الحقيقة لا التخييل فحسب، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾[9].

➢ وفي موضع آخر يأتي التخييل بالتشخيص فيصور الأرض بصورة عروس تتزين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ

---

(١) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٧٣.

(٢) في الأمثال العربية: (عِنْدَ الصَبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى)، قال المفضل: إن أول من قال ذلك خالد بن الوليد –رضي الله عنه– عندما بعثه أبو بكر –رضي الله عنه– وهو باليمامة إلى العراق، ويضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة. انظر: أحمد بن محمد الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت– لبنان، ب ط، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، المثل رقم(٢٣٨٢)، ج٢/ ص٣.

(٣) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦/ ص٣٠٩٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٥) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٧٣.

(٦) سورة يس، الآية: ٤٠.

(٧) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٨) انظر: المرجع نفسه.

(٩) سورة فصلت، الآية: ٢١.

ﭐلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[١]، الأرض في هذا التعبير القرآني عروس تأخذ كل زخرفها وتتزين للعرس، وأهل هذه العروس مزهوون بها، يظنون أنها ازدهرت بجهدهم وإرادتهم، وفي ومضة تخطف كل تلك الزينة وذلك الزخرف وتتحول إلى حصيد كأن لم تغن بالأمس، وتطويل مشهد الزينة والخصب، وتسريع مشهد التحول إلى حصيد مقصود؛ ليحقق هدف المشهد من سرعة تحول الدنيا وأنَّ متاعها ليس له قرار.[٢] ويُلحظ هنا أن التشبيه على وجه التصيير والتحويل، وليس على وجه التمثيل، فلا يبرز المشبه به ولا أداة التشبيه: (أخذت الأرض زخرفها وازينت)، كما أن الجرس الذي تتركه كلمة (وازينت) بما فيها من إدغام التاء في الزاي، يضفي على المشهد ظلالا لها أثر في اللفظ كما لها أثر في المعنى.

➢ وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[٣] يجعل التعبير القرآني الرياح لواقح، فيمنحها الحياة فهي تلقح فتنتج.[٤] أرسلنا الرياح لواقح بالماء، كما تلقح الناقة بالنتاج؛ فأنزلنا من السماء ماء مما حملت الرياح، فأسقيناكموه، وفسَّر بعضهم ذلك بالمعنى العلمي من أنَّ الرياح تحمل اللقاح من شجرة إلى شجرة، غير أنَّ الآية ليس فيها ذكر للإنبات لا من قريب ولا من بعيد، والتعبير القرآني غاية في الدقة في رسم ظلال المشاهد.[٥]

▪ ثانياً: التخييل بالحركة:

➢ يصف التعبير القرآني الأرض مرة بأنها (خاشعة) وأخرى بأنها (هامدة) ثم هي تهتز وتربو وتنبت، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[٧]. فتتحول الأرض الجامدة إلى كائن حي يهتز بعد أن كان خاشعاً وهامداً.[٨]

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٢) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣/ ص١٧٧٥.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٤) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٧٥.

(٥) انظر: تعليق سيد قطب على الآية في الحاشية رقم (١) من كتاب في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢١٣٤.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٧) سورة الحج، الآية: ٥.

(٨) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٧٤.

➢ وقد يكون من التخييل بالحركة قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[1] فالظلُّ أمرٌ محسوسٌ تألفه العين، وقد يغفل عن تأمله الغافلون لتكراره عليهم كلّ يوم، فيأتي التعبير القرآني بتصوير له يملأ المشهد خيالاً وكأنَّه لأول مرة يعرض، فيرى الظلَّ في حركته اللطيفة المتَّئدة في امتداد وانقباض، والتعبير القرآني يملأ المشهد إيماناً ويقيناً بمعية الله من خلال تلك القدرة الخفية التي تُصرِّف هذا الظلَّ، فتمدّه في رفق ثم تقبضه بيسر ولطف: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾[2]، ويأتي الالتفات في هذا التعبير ليكمل هدف هذا المشهد ويحقق مراده، فلم يقل: (ثم قبضه) كما بدأ المشهد بقوله: (مدَّ الظلَّ)، فانتقل من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم إشارةً إلى أنَّ كلَّ شيءٍ مردُّه ومنتهاه إلى الله سبحانه.

➢ ومن التخييل بالحركة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3]، فهذا تصويرٌ حافلٌ بالحركة المتجددة، والمشاهد المتتابعة، من بداية التسيير في البحر، وجريان الفلك بالريح الطيبة، وتصوير فرحهم بهذا، ثم تحول المشهد الوادع إلى مشهد مهيب بهبوب الريح العاصف، والحركة المتمثلة في مجيء الموج عليهم من كل مكان، ووصف حالتهم النفسية ودعائهم، هكذا تأتي الصورة الفنية حية شاخصة لها حركة متجددة تؤدي المعنى المراد خير أداء، وتبث في النفس الأثر المنشود والإيحاء الشعوري بضرورة الإخلاص لله في حال الأمن والخوف في السراء والضراء.[4]

ويبدو للباحث أنَّ الالتفات في الآية يضفي مزيداً من الحركة على المشهد، وذلك بالانتقال من ضمير المخاطب في قوله: (يسيركم في البحر) إلى ضمير الغائب في قوله: (وجرين بهم)، ثم العودة إلى المخاطب في الآية التالية: (إنما بغيكم على أنفسكم)، فلما كانوا في بداية سيرهم قريبين من اليابسة كان الضمير ضمير المخاطب، فلمَّا غابوا في لجج البحر غاب معهم ضميرهم، ثم لما

---

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٤٥-٤٦.

(٢) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥/ ص٢٥٦٩.

(٣) سورة يونس، الآيتان: ٢٢-٢٣.

(٤) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٤٨.

نجاهم وعادوا لليابسة ثانية عاد الضمير لمخاطبتهم، وهذا الالتفات على ما فيه من روعة البيان يسهم كذلك في روعة التصوير، **وكأن الضمير يتحرك مع حركة المشهد حضوراً وغياباً.**

➢ ومن التخييل بالحركة ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾[1]، إنَّ مشهد السماوات وما فيها من نجوم وكواكب مشهد مكرور تألفه العين، ولكنَّ الآيات تعرضه بطريقة تصويرية تخيل إليك أنك لأول مرة تنظر إلى السماء وترى ما فيها من مصابيح وشهب[2]، فالسماء التي نراها ليس فيها أي فروج أو عيب في خلقها، ثمَّ تأتي حركة النظر بحثاً عن فطور فيها، ثمَّ تتكرر الحركة بالنظر كرة أخرى، ثمَّ يتم تشخيص البصر، وكأنه مرسولٌ أرسل ليأتي بالبشارة، فإذا به ينقلب حسيراً خاسئاً، فليس تشخيصاً بسيطاً، بل هو تشخيص مركب يتم تصوير حالته النفسية عند انقلابه إلى صاحبه، ثمَّ يأتي تصوير النجوم وأنها مصابيح تزين السماء ليس على طريقة التشبيه والتمثيل بل على طريقة التصيير والتحويل، فلا أثر للتشبيه هنا، ثمَّ تأتي الحركة المتخيلة من كلمة (رجوماً) وكأن السماء تقذف بهذه النجوم التي كانت زينةً لها؛ لتتحول إلى راجمات تقذف على الشياطين فتحرقها وتهلكها.

➢ ومن التخييل بالحركة المتجددة قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾[3]، فالمشهد يُعرض لوحةً تتبعها لوحة في حركة متجددة: (إرسال الرياح- إثارة السحاب- بسط السحاب في السماء- جعله كسفاً- خروج الغيث من خلاله- نزول الغيث- استبشار الناس به بعد يأسهم منه- إحياء الأرض بعد موتها) فعين البصر وعين الخيال تنتقل من مشهد إلى مشهد بحركة وئيدة مترسلة تترك في النفس أثرها وفي الخيال سحرها، ثم يأتي تقريرٌ يصرح بهدف إيراد هذا المشهد المتحرك فيقول تعالى: (إنَّ ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير).[4]

(١) سورة الملك، الآيات: ٣-٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٦٦.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤٨-٥٠.

(٤) انظر: المرجع السابق ، ص٦٨.

➢ وفي سورة أخرى يأتي تتميم لهذا المشهد، فإنْ كان المشهد السابق أغلبه في الجو فإنَّ هذا المشهد يعرض ما يحدث بعد نزول الغيث على الأرض، في لوحات تعرض واحدة تلو أخرى في حركة منسابة إلى نهاية المشهد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾[1]، تأتي الحركة في هذا المشهد من خلال التنقل من لوحة إلى أخرى في خطوات متتابعة: (نزول الغيث من السماء- سلكه ينابيع في الأرض- إخراج الزرع به- اختلاف ألوان الزرع- هيجانه واصفراره- تحوله إلى حطام)، إنَّ كل خطوة من هذه الخطوات تترك مهلة للعين لتتأمل فيه، ومهلة للنفس لتتأثر به[2]، وسيأتي الحديث عن هذين المشهدين في مبحث التناسق الفني.

***

(١) سورة الزمر، الآية: ٢١.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص٦٨-٦٩.

• المبحث الثالث: التجسيم الفني في آيات الطبيعة.

والتجسيم هنا بمعناه الفني لا بمعناه العقدي، وقد أكَّد سيد قطب على هذا، وبينَّ مراده من هذا المصطلح فقال: (تجسيم المعنويات المجردة، وإبرازها أجساماً أو محسوسات على العموم.. مع الاحتراس والتنبه إلى خطورة التجسيم في الأوهام)[١]، والتجسيم الفني على نوعين:

١) تجسيم من قبيل تشبيه الأمر المعنوي المجرد بأمر محسوس مجسم، على وجه التشبيه والتمثيل.

٢) تجسيم المعنويات على وجه التصيير والتحويل.

والتجسيم له ألوان منها: تجسيم الحالات النفسية: كصورة من ضاقت عليهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم، ومنها تجسيم الحالات العقلية المعنوية: كصورة الأقفال على القلوب، ومنها أن يكون الوصف حسياً بطبيعته فيختار له هيئة تجسمه: كصورة قطع الليل المظلم التي تغشى من اسودَّ وجه، ومنها أن يوصف الأمر المعنوي بشيء محسوس مجسم: كوصف العذاب بأنه غليظ. والتجسيم كثيراً ما يجتمع مع التخييل في تعبير واحد، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨ ﴾[٢]، فكأنَّما الحق قذيفة خاطفة تصيب الباطل فتزهقه، فالتجسيم تم تصويره بإحالة "الحق" وهو أمر معنوي جسماً، ثم جاء التخييل من خلال تلك الحركة لهذا الجسم المتخيل.[٣]

وإذا كان التجسيم تصويراً للأمور المعنوية، وكانت مكونات الطبيعة أموراً محسوسة، فإنَّها تكون الطرف الثاني في التجسيم، أي أن مكونات الطبيعة باتت هي الوسيلة التي يتوصل بها إلى التجسيم، والأكثر أن يتم ذلك عن طريق التشبيه أو الاستعارة، فيكون الأمر المعنوي مشبهاً، وتكون مكونات الطبيعة مشبهاً به.

➢ فمن التجسيم الفني قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ

---

(١) المرجع السابق، ص٧٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

(٣) انظر: المرجع نفسه، ص٧٨-٨٣.

﴿ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾(١)، الآيات هنا تتحدث عن الرياء والإخلاص، وهما أمران معنويان، ليس ذلك فحسب بل إنَّهما خفيان يصعب إدراكهما إلا على العليم البصير سبحانه، فيصورهما التعبير القرآني في صورتين مُجَسِمتين لهما بينهما تقابل فني وتناسق بديع سيأتي الحديث عنه في المبحث التالي.

➢ كما تعرض الآيات صورة أخرى لمن يهلك ثمرة صدقاته وعمله الصالح وهو أحوج ما يكون إليه، فيجسم ذلك المعنى في مشهد فني بديع في قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾، هنا التجسيم على وجه التحويل والتصيير، لا على التشبيه والتمثيل، فلا وجود للمشبه، بل المشهد ينتقل إلى المشبه به مباشرة، وإذا كانت المشاهد السابقة تأتي بعبارة (فمثله كمثل) فإنَّ هذا المشهد ليس فيه ذكر لأداةٍ للتشبيه، وهذا المشهد هو خاتمة المشاهد، فجاء التكثيف في الصورة على نسق بديع بتفاصيل دقيقة؛ لتحقيق غرض المشهد من التحذير والتهويل من عاقبة الرياء والمن والأذى، في مشهد حي شاخص أوله ظلال وارفة وجنة ذات نخيل وأعناب وأنهار فيها من كل الثمرات، وآخره إعصار فيه نار يدمّر كلّ شيء، ولا يبقي على شيء، مشهد مهيب يُنفّر المتلقي من هذه الحال من خلال الإيحاء الشعوري للمشهد.(٢)

كما أنَّ في هذا المشهد القرآني تتميماً واستقصاءً(٣) زاد من كثافة الصورة الفنية، فاستقصى التعبير القرآني جوانب هذه الصورة أيّما استقصاء، ذلك أنَّه قال: (أيود أحدكم أن تكون له جنة) والجنة يصدق الوصف فيها على كل شجر مجتمع يستر بظلاله ما تحته، كما قال تعالى: ﴿ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٦٤-٢٦٦.

(٢) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١/ ص٣١٠.

(٣) **التتميم**: هو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة مثل مفعول أو حال أو نحو ذلك مما ليس بجملة مستقلة ولا ركن كلام، ويكون ذلك لنكتة بلاغية كالمبالغة. **والاستقصاء**: هو أن يتناول المتكلم معنى فيستقصيه، ويأتي بجميع عوارضه ولوازمه بعد أن يستقصي جمع أوصافه الذاتية، بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده فيه مقالاً. انظر: بدوي طبانة، معجم البلاغة، دار المنارة، جدة –السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ١١١، ص٥٤٥.

والتتميم والاستقصاء مصطلحان متقاربان، وقد أورد ابن أبي الإصبع –رحمه الله– الآية: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ ﴾ في التتميم وفي الاستقصاء، وقال في الفرق بينهما: (ورود التتميم على المعنى الناقص ليتم .. أمَّا الاستقصاء فإنه يرد على المعنى التام الكامل فيستقصي لوازمه وعوارضه وأوصافه وأسبابه، حتى يستوعب جميع ما تقع الخواطر عليه فيه، فلا يبقى لأخذه مساغٌ، ولا لاستحقاقه مجال، والله أعلم). انظر: عبدالعظيم بن عبدالواحد ابن أبي الإصبع العدواني، بديع القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، دار نهضة مصر، القاهرة– مصر، ب ط، ب ت، ص٢٥١.

قَلِيلٖ ﴿١٦﴾[1]، فبيَّن أنَّها من نخيل وأعناب؛ لِما لهما من النفع العظيم وحسن الثمر، وإذا احترقت مثل هذه الجنة كانت الحسرة عليها أشد وأعظم، وإذا كانت كذلك ثم لم يتوفر ماء سقياها لم تحيَ ولم يُنتفع بها فقال: (تجري من تحتها الأنهار)، وزاد مبالغة في وصفها بأن قال: (له فيها من كل الثمرات)، ثم انتقلت الصورة الفنية إلى وصف صاحب الجنة ومدى حاجته إليها، فقال: (وأصابه الكبر)؛ لأنَّه لو كان شاباً يافعاً لرُجِيَ أن يصلح شأنها بعد احتراقها ويخلفها بغيرها، لما يجد من قوة في جسده، وطول أمل في نفسه، فوصفه بالكبر استقصاءً لضعف حاله، ثم لم يقف المشهد عند ذلك، بل زاد في وصف صاحب الجنة بأن: (له ذرية ضعفاء) فلو كان عقيماً لكان في ذلك سلوة له لكبر سنه، وقرب أجله، وعدم اهتمامه بأمر عيالٍ من بعده، فكان وجود الذرية أشد أسفاً وحسرة على تلك الجنة، ليس ذلك فحسب بل إنَّ هؤلاء الذرية "ضعفاء" ولو كانوا أقوياء لرُجيَ أن يخلفوها بغيرها، ولكنهم ضعفاء يتقطع قلب أبيهم عليهم وهو يفكر في مصيرهم من بعده، ثم بعد وصف الجنة ووصف صاحبها انتقل إلى وصف الحادث المهلك لها فقال: (فأصابها إعصارٌ) ثم لما أراد الإخبار بتعجيل هلاكها زاد في وصف هذا الإعصار بأنَّ: (فيه نارٌ)؛ لأنَّ ذلك يحدث إهلاكاً سريعاً لهذه الجنة ولا يُبقي فيها على شيء، فيحرق الثمار والأشجار، ويطم الآبار والأنهار، ثم لم يترك مجالاً للخيال حتى يتصور أنَّها نجت من الهلاك؛ فقال : (فاحترقت)[2]، فتمت الصورة برسم المشهد من جميع جوانبه مستقصياً كل لوازمه وأسبابه، على صورة تبث إيحاءً شعوري بالنفور من هذه الحالة.

وهذا المشهد التصويري لتجسيم حالة الأسف والحسرة على ضياع ثمرة العمل احتوى على ثمان لقطات: (جنة من نخيل وأعناب– تجري من تحتها الأنهار– له فيها من كل الثمرات– وأصابه الكبر– وله ذرية ضعفاء– فأصابها إعصار– فيه نار – فاحترقت) وفي كل لقطة من لقطات هذا المشهد تتميمٌ بأحد أنواعه الثلاثة:

١) **تتميم الاحتياط:** في قوله: (جنة من نخيل وأعناب)؛ لاحتمال أن تكون مما نفعه أقل من هذين النوعين من الأشجار، وفي قوله: (وأصابه الكبر) وقوله في وصف الذرية (ضعفاء)؛ لرفع احتمال الرجاء في إخلافها، وفي قوله: (فاحترقت)؛ لاحتمال أنَّها لم تحترق.

٢) **تتميم النقص:** في قوله: (تجري من تحتها الأنهار)؛ لأنَّ الجنة إذا لم يجرِ فيها الماء كانت ناقصة في نفسها، وفي الاستمتاع بها، وفي جودة ثمارها، وفي غير ذلك.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٦.

(٢) انظر: ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص٢٥٠. وانظر: السيوطي، الاتقان، ج٥ ص١٦٨٢.

٣) **تتميم المبالغة:** في قوله: (له فيها من كل الثمرات) زيادة في وصف الجنة، وفي قوله: (وله ذرية) زيادة لكمال الحسرة، وفي قوله: (إعصار فيه نار) زيادة في وصف الإعصار.

قال ابن أبي الإصبع -رحمه الله- عن هذه الآية: (أوجز في تتميم المعنى المراد. فانظر ما تضمنت هذه الآية الكريمة من تقاسيم هذا النوع إلى ما فيها من ائتلاف اللفظ بالمعنى، والتهذيب، وحسن النسق، والتمثيل، وحسن البيان، والمساواة؛ لتعلم أنَّ هذا الكتاب الكريم بأمثال هذه الآية عجَّز الفصحاء، وبلّد الأذكياء، وأعيا على البلغاء).[١]

وقريب من هذا المثال قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾[٢]، والإنفاق وإن كان أمراً محسوساً إلا أنَّ ما يترتب عليه من الثواب يعتمد على أمر معنوي فيه وهي النية وما تتلبس به من إيمان وإخلاص أو رياء وسمعة، فيرسم التعبير القرآني ذلك بصورة مجسمة ومشهد محسوس، حرث تأخذه ريح فيها بَرد يضرب الزرع فيهلكه، وجرس الكلمات وإيقاعها يسهم اسهاماً كبيراً في شحن المشهد وتصويره، ومن ثم ما يحدثه من أثر في نفس المتلقي فينفر من هذا الفعل، ومن ذلك استخدام كلمة (صرّ) بما لها من جرس لا يؤديه مرادفها كالبرد مثلاً.[٣]

➢ ومن التجسيم الفني الذي كان السبيل إليه باستخدام مكون من مكونات الطبيعة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾[٤]، فالتعبير القرآني يصور ضياع أعمال الذين كفروا، وعدم قدرتهم على جمع شيء منها بصورة مجسمة محسوسة غاية في الصدق والدلالة على المعنى، فأعمالهم أصبحت كالرماد، والرماد خفيف الوزن لا تماسك بين ذراته، ليس ذلك فحسب، بل يزيد الصورة تكثيفاً وتتميماً، فيصف هذا الرماد بأنَّه: (اشتدت به الريح)، ثم هذه الريح في يوم عاصف، فأنَّى لهم أن يجمعوا شيئاً منه، وحركة الريح في يوم عاصف تزيد الصورة حركة شاخصة وحياة نابضة، فيجتمع في هذه الصورة دقة التصوير والحركة مع صدق المماثلة بين المشبه والمشبه به.[٥]

---

(١) انظر: ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص٤٦-٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

(٣) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٤١.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

(٥) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٠٩٤. وانظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٣٩. وانظر: عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، دار القلم، دمشق-سوريا، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص١١٨-١١٩.

➢ وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾(١)، إلا أن المشهد هنا أسرع من سابقه والحركة فيه متخيلة مضمرة في الهباء المنثور، أما المثال السابق فالحركة فيه ظاهرة في الرماد واشتداد الريح عليه في اليوم العاصف. وكلا المثالين قد اجتمع فيهما التجسيم والتخييل، التجسيم من خلال التشبيه بالرماد والهباء، والتخييل بالحركة المضمرة أو الظاهرة.

➢ ومن التجسيم الفني أن تتحول الكلمة المسموعة إلى مشهد مجسم مليء بالحركة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾(٢)، ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ الكلمة الطيبة هي: (لا إله إلا الله) والشجرة الطيبة هي: النخلة، والمعنى يحتمل ذلك ويحتمل ما هو أعمُّ وأشمل(٣)، إنَّ التعبير القرآني لم يعبر عن ذلك بالمعنى المجرد بل فضَّل طريقة التصوير بتجسيم هذا المعنى صورة تراها العين ماثلة أمامها، فالكلمة الطيبة وما لها من أصل ثابت في القلب، وما تفرعه من الأثر الحسن عند الناس، وما تثمره من الأجر العظيم عند الله؛ يمثل ذلك كله في صورة الشجرة الطيبة التي جذورها ثابتة في الأرض وفروعها ممتدة في السماء، ثمَّ هي تؤتي ثمارها كلَّ حين، وفي مقابل ذلك تجسم الكلمة الخبيثة وما تحدثه من عدم الاستقرار بين الناس بصورة الشجرة الخبيثة التي لا جذر لها يثبتها ولا قرار ولا ثمر ولا نفع، بل قد يكون ضررها أقرب من السلامة منها، هذا التجسيم يهدف إلى الترغيب بالتزيين والتحسين للكلمة الطيبة بتصويرها وتجسيمها في صورة الشجرة الطيبة، ويهدف كذلك إلى التنفير بكشف جوانب القبح في الكلمة الخبيثة بتصويرها وتجسيمها في صورة الشجرة الخبيثة؛ تحريضاً للمخاطب إلى الارتقاء للجميل، وترك القبيح(٤).

➢ ومن التجسيم الفني قوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾(٥)، في الآيتين صورتان، الأولى: صورة منفية عن المؤمنين بأنه لا ترهق وجوههم قتر، والقترة الغبرة التي يعلوها سواد كالدخان، وهي صورة منتزعة من الواقع. والصورة الثانية: صورة مثبتة للكفار وسواد وجوههم كأنَّما

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٢) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤-٢٦.

(٣) انظر: تفسير الطبري، ج١٣/ ص٦٣٥ وما بعدها.

(٤) انظر: الميداني، أمثال القرآن، ص٧٧-٨٠.

(٥) سورة يونس، الآية: ٢٧.

على وجوهم قطع من الليل المظلم، وهي صورة منتزعة من الخيال، ويلحظ هنا دقة التصوير[1]، وهو تصويرٌ لا يخطر على قلب بشر مثله. فالسواد الذي يغطي وجوه الكفار ليس مجرد لون في الوجه بل هو مجسمٌ من قطع اقتطعت من الليل، ثم سواد الليل أيضاً ليس مجرد ظلمة بل هو مكون من قطع سوداء تغطي الكون، ثم يجتمع هذا التجسيم مع التخييل عندما يؤخذ من هذه القطع أجزاء فتوضع على وجوه الكفار لتغطيها بالسواد.

➢ ومن التجسيم تصوير القلوب القاسية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[2]، يترك التعبير القرآني لنا المجال كي نتخيل إنساناً من لحم ودم يحمل بين جنبيه حجراً قاسياً لا قلباً نابضاً، ثم يأتي تتميم للصورة بوصف الحجارة بما يؤكّد أنها أقلُّ قساوة من تلك القلوب، فمن تلك الحجارة ما لا يحتمل رقة الماء فيتفجر ويتشقق، بل منها ما يهبط خشية لله، أمَّا تلك القلوب فهي أشد قسوة.

➢ ومن التجسيم الفني تصوير أعمال الكفار في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[3]، وهذا المشهد فيه صورتان: صورة لعاقبة أعمال الذين كفروا، وصورة لتخبطهم في ظلمات الضلالة، وقبل هاتين الصورتين عُرض مشهد للمهتدين بنور الله في قوله تعالى: ﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾[4]، وهذه الصورة يمكن تأويلها بأنَّها تشبيه مُجْمل: صورة نور الله في قلب عبده المؤمن[5] بصورة المشكاة إذا اتصفت بتلك الصفات المذكورة في الآية، من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ومقابلته بجزء من المشبه به. كما يمكن تأويلها بأنَّها تشبيه مُفصَّل: فالمشكاة صدر المؤمن، والزجاجة قلبه، ثم جاء

---

(١) انظر: الميداني، أمثال القرآن، ص١٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٣) سورة النور، الآيتان: ٣٩-٤٠.

(٤) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٥) اختلف المفسرون في المعنّي بالهاء في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فقيل: مثل نور الله في قلب عبده المؤمن، وقيل: مثل نور الله أي القرآن، وقيل: نور الله أي نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-،وقيل: مثل نور المؤمن. انظر: الطبري، جامع البيان، ج١٧/ ٢٩٧-٣٠١.

الاستقصاء في الوصف لهذه الزجاجة فشبهها بالكوكب الدرّي، ثم استقصاء كذلك في وصف زيت هذه الزجاجة وأنَّه من شجرة مباركة يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، وهذا فيه مزيد وصف لقلب المؤمن.(١) وفي هذه الصورة تجسيم لشيء معنوي هو نور الهداية.

بعدما صوَّر التعبير القرآني مشهد هداية المؤمنين وذكر صفاتهم، انتقل إلى مشهد مقابل له هو مشهد ضلال الكافرين، وقد جاء هذان المشهدان على عادة الأسلوب القرآني من المقابلة بين الأضداد. بدأ التعبير القرآني في المشهد الثاني بتصوير عاقبة أعمال الكفار، فصورها بصورة مجسمة محسوسة يراها الناس ولا تخفى عليهم، إنَّها صورة السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ثم تجيء النقلة المباشرة من المثل إلى الممثل له بقوله: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ هكذا يأتي التداخل بين المشبه والمشبه به كأنَّهما جزء واحد. ثمّ تأتي الصورة الثانية لتجسيم التخبط في الضلال، فهو كظلمات البحر اللجي بعضها فوق بعض، ويتمم وصف الظلمات بأنَّه إذا أخرج يده لم يكد يراها، صورتان مجسمتان لأمرين معنويين: عاقبة الخسران، وظلمات الضلالة.(٢)

إنَّ هاتين الصورتين يحتمل أن تكونا تصويراً لحال الكفار في الحياة الدنيا من عاقبة أعمالهم التي يرجون منها السعادة في دنياهم فيجدونها سراباً لا تروي ظمآناً، كما تصور حال تخبطهم في الضلالة، وعمايتهم عن الهدى في الدنيا أيضاً، ويحتمل أن تكونا تصويراً لحالهم في الآخرة في بحثهم عن عاقبة أعمالهم علهم يجدون فيها ما ينجيهم من النار فلا يجدونها إلا سراباً خادعاً، ثم هم في غمرات يوم القيامة تخبطون في الظلمات ما لهم من نور، ويحتمل أن تكون الصورة الاولى لحالهم في الآخرة والثانية لحالهم في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يعزز احتمال كون الصورة حكاية عن الدار الآخرة. –والله أعلم–

وفي هذه الصور والمشاهد من التناسق الفني ما تَبَيَّنَ طرفٌ منه، وسيأتي مزيد بيان للتناسق الفني في مواضع غيرها في المبحث التالي..

(١) انظر: ابن القيم، بدائع التفسير، ج٣/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) انظر: الميداني، أمثال القرآن، ص١٢٩-١٣٤.

• المبحث الرابع: التناسق الفني في آيات الطبيعة.

التناسق في التعبير القرآني موضوعٌ تحدث عنه علماء التفسير والبلاغة القرآنية قديماً وحديثاً، وبيَّنوا جوانبَ وألواناً منه، وقد أشار سيد قطب –رحمه الله– إشارة سريعة إليها، كما أوضح أنَّها قابلة للعرض في ضوء جديد؛ للتقدم فيها خطوات بعيدة بعد آخر خطوة وقف عندها الباحثون في بلاغة القرآن من السلف، ومن ذلك(١):

١) التنسيق في تأليف العبارات بتخير الألفاظ، ثم نظمها في نسق خاص، يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها.
٢) الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص.
٣) النكت البلاغية التي تضمنها الأسلوب القرآني.
٤) التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض لآخر.
٥) التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص.

ثمَّ نبَّه سيد قطب في كتابه: (التصوير الفني في القرآن) إلى آفاق من التناسق الفني في القرآن لم يُسبق إليها وهذه الآفاق هي(٢):

- الأفق الأول: تناسق التعبير مع المضمون؛ حيث تناسق التعبير مع الحالة المراد تصويرها فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية، كوصف النساء بأنهن حرث.

- الأفق الثاني: استقلال اللفظ برسم الصورة؛ فيكون لفظ واحد –لا عبارة كاملة– يرسم الصورة شاخصة، ككلمة (اثّاقلتم) و(ليُبطِّئن)، ولم يعرف في غير التعبير القرآني، واللفظ تارة يرسمها بجرسه، وتارة بظله، وتارة بهما معاً.

- الأفق الثالث: التقابل بين صورتين ماضية وحاضرة؛ مثل مقابلة حال الناس يوم القيامة بحالهم في الدنيا.(٣)

- الأفق الرابع: تناسق الإيقاع الموسيقي في الصورة، ولهذا التناسق ألوان هي:

١) أن يكون إيقاعاً ناتجا عن فواصل متساوية تقريباً، متحدة في حروف التقفية تماماً، ذات إيقاع موسيقي متحد، وذلك واضح في سورة النجم.

---

(١) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٨٧-٨٩.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص٩٠-١٤٢.

(٣) من الأفاق التي ذكرها سيد قطب: التقابل بين صورتين حاضرتين؛ مثل صور تقابل النعيم والعذاب يوم القيامة، ولم تذكر هنا لأنَّها مما ذكره العلماء السابقين، وتنبهوا له، وإن كان سيد قد أضاف لها جوانبَ من التصوير.

٢) أن يعدل في التعبير عن الصورة القياسية للكلمة إلى صورة خاصة؛ مراعاة للإيقاع في الآيات، كحذف ياء (يسري) في سورة (الفجر).

٣) أن يبني النسق على نحو يختل إذا قدمت أو أخرت فيه، أو عدلت في النظم أي تعديل، وهي تعتمد على هِبة لدنيّة تستعصي على التبيين. ككلمة (مني) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾[1]، لو قدمت أو أخرت لحصل ما يشبه الكسر في الوزن الشعري.

٤) تناسق الإيقاع الموسيقي مع نظام الفواصل والقوافي، وذلك في سورة مريم بَيّنٌ.

٥) تناسق الإيقاع الموسيقي مع جو السورة العام الذي أطلق فيه، فهذا الإيقاع يتبع نظاماً خاصاً، وينسجم مع الجو العام باطراد لا يستثنى، كأن يأتي الجو سريعاً عندها يكون الإيقاع سريعاً قوياً، وإن كان الجو بطيئاً متأنياً عندها يأتي الإيقاع مسترسلاً رخياً. ومثال ذلك إيقاع بداية سورة النازعات ثم اختلافه عند قصة موسى.

- الأفق الخامس: التناسق في رسم الصورة، وقد أورد سيد خصائص وسمات ذلك وهي:
  ١) ما يسمى "بوحدة الرسم"، حيث تكون أجزاء الصورة مؤتلفة مع بعضها غير متنافرة.
  ٢) توزيع أجزاء الصورة بعد تناسبها على الرقعة بنسب معينة؛ حتى لا يزحم بعضها بعضاً.
  ٣) اللون الذي ترسم به، والتدرج في الظلال، بما يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع. وقد مثل لذلك بسورة الفلق.

- الأفق السادس: التناسق في رسم إطار الصورة، أو النطاق الذي يضعه للمشهد، وأكثر ما يوجد في السور القصار، ومثال ذلك ما في سورة الضحى وسورة الليل.
- الأفق السابع: التناسق في مدة العرض؛ لأنَّ المشاهد في القرآن لا ترسم جزافاً، وإنما تعرض وفق أساس فني متناسق، لذا فإنَّ بعض المشاهد تمر سريعةً خاطفةً، وبعضها يطول ويطول. ومن أمثلة المشاهد القصيرة: مشاهد الحياة الدنيا وتشبيهها بالزرع. ومن أمثلة المشاهد المطولة: مشاهد العذاب يوم القيامة.

▪ أولاً: التناسق الفني في الصور المتقابلة:

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤.

➢ من آفاق التناسق الفني في آيات الطبيعة: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[1]، إنَّ في ترتيب أجزاء هذا المشهد تناسق عجيب؛ فالإبل ذات السنام المنتصب في شكل رأسي، وهي من أكبر المخلوقات على الأرض، ذلك يتناسب مع الجبال المنصوبة في شكل رأسي، وهي من أكبر الأجرام الملقاة[2]على الأرض، وكذلك السماء المرفوعة بشكل أفقي، تتناسب مع سطح الأرض بشكل أفقي كذلك، فالتعبير القرآني يأتي بذلك في تناسق فني بديع، والمتلقي يجد نفسه أمام لوحة فنية متناسقة بها خطان رأسيان يتخللهما خطان أفقيان، فاللوحة الفنية في هذا التعبير تجمع بين السماء والأرض وتعتبرهما قاعدتين أفقيتين لها، ثم لا يبرز من الجماد إلا الجبال، ولا يبرز من الأحياء إلا الجِمال، وهما ما يمثل الجانب الرأسي لها، وهي صورة فيها من الضخامة والتهويل بحجم أجزائها المكونة لها.[3]

ومن الإعجاز البياني في هذه اللوحة الفنية ما نراه من ترتيب في عرض أجزائها، فبدأت بالجِمال ثم السماء ثم الجبال ثم الأرض؛ ذلك أنَّ العين إذا أبصرت مشهداً من المشاهد فإنَّ أول ما تلتفت إليه ما كان متحركاً؛ لأنَّه أكثر إثارة، وهذه اللوحة المعروضة بدأت بالجِمال مع أنَّها الجزء الأصغر بالنسبة لبقية الأجزاء؛ ذلك لأنَّ الجِمال هي الجزء المتحرك في اللوحة، ثم يتحول النظر من المتحرك إلى أعلى اللوحة نزولاً إلى أسفلها، وهذا هو الترتيب الذي سارت عليه هذه اللوحة القرآنية، فبعد الجِمال والتفكر في خلقها انتقل إلى الجزء الأعلى فيها وهي السماء والتدبر في كيفية رفعها، ثم نزولاً إلى الجبال ونصبها، وانتهاء بالأرض وسطحها.[4]

➢ ومن التناسق الفني في آيات الطبيعة قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾[5]، يتضح التناسق هنا في التقابل بين الآية التي تحدثت عن السماء، والآية التي تحدثت عن الأرض، فقابل ثلاثة بثلاثة، ففي السماء قال سبحانه: ﴿بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾، وفي الأرض قال سبحانه: ﴿مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، فقابل بين بناء السماء ومد الأرض، وقابل بين تزيين السماء بالكواكب وإرساء الأرض بالجبال، أمَّا شق الأرض بالإنبات كما قال تعالى

---

(١) سورة الغاشية، الآيات: ١٧-٢٠.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾، (الآية: ١٩).

(٣) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦/ ص٣٨٩٩. وانظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص١٢٣.

(٤) انظر: الميداني، أمثال القرآن، ص٣٦٤.

(٥) سورة ق، الآيتان: ٦-٧.

في سورة عبس: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ فقابله بسمك السماء، وخلوها من الفتوق والشقوق. والعلاقة بين كلِّ أمرٍ وما يقابله علاقة تضادٍّ، إذ البناء رفع والمد وضع، والجبال ثابتة والكواكب متحركة، أما الثالثة فأوضح من أن توضح.(1)

➢ ومن ذلك التناسق قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾(2)، وهذا النسق يعمُّ فيه جو الضخامة، فالسماء المرفوعة بها بروج ضخمة تزينها وتُرجم بها الشياطين، والأرض الممدودة بها جبال ضخمة وهي رواسي لها، ثم يأتي الجمع على صيغة منتهى الجموع (معايش)؛ ليتناسب مع ذلك الجو، ويأتي كذلك الإضمار في قوله (ومن لستم له برازقين) ليناسب جو الضخامة والتهويل، وكذلك نرى التعبير القرآني عندما ذكر النبات لم يصفه بأنه بهيج أو لطيف، بل وصف بأنه موزون؛ ذلك لتكتمل وحدة الرسم مع الجو العام للصورة من الضخامة الحسية أو المعنوية.(3) وإذا كانت البروج في السماء لها وظيفتان: زينة للناظرين، وحفظ من الشياطين، فإن للجبال في الأرض مثلها، فالجبال زينة للناظر، وهي كذلك أوتاد للأرض وترسية لها. فكان في الصورة تقابل بين الحفظ المعنوي والحفظ الحسي في تناسق فني بين أجزاء الصورة المعروضة.

➢ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾(4)، فالآية تعرض صورتين متقابلتين للبث والجمع، والصورتان تم عرضهما عرضاً سريعاً يناسب القدرة الإلهية، بينما الخيال –فضلاً عن الواقع الذي يحسه الناس– يستغرق أمداً في تصور ما بثَّ في السماء والأرض من مخلوقات، ثم ذلك الجمع لكل ما سبق بثه فيهما. ففي ذلك مقابلة دقيقة بين الصورتين يرسمها هذا التعبير القرآني في هذه الآية.(5)

➢ ومن التناسق الفني في الصور المتقابلة، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن

(1) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢٨/ ص١٥٦.

(2) سورة الحجر، الآيات: ١٦ – ٢٠.

(3) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص١٢٤.

(4) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

(5) انظر: المرجع نفسه، ص٩٦.

قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾[1]، وقد سبق الحديث عن التجسيم للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة الثابتة السامقة، والتجسيم للكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي ليس لها قرار[2]، ولكنَّ هذا التصوير ليس مقتصراً على التجسيم، بل فيه آفاق من التصوير، ومن ذلك: التناسق الفني في الصورتين المتقابلتين، فالصورة الأولى: الكلمة الطيبة التي هي كالشجرة الطيبة، ذات الجذور الثابتة في الأرض، والفروع الممتدة إلى السماء، وهي تؤتي ثمارها كل حين، وفي مقابل ذلك تأتي الصورة الثانية: الكلمة الخبيثة التي هي كالشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض، فليس لها جذور تثبتها في الأرض، ولا فروع تمتد لتبهج العين، كما أنَّها لا أثر لها ولا ثمر يستفاد منه، فما لها من قرار، والتناسق لا يقتصر على التقابل بين الصورتين بل يتعدى ذلك إلى التناسق في كل صورة على حده؛ فالتناسق بين المشبه والمشبه به في كل صورة، ثمَّ يتعدى هذا وذاك ليصل إلى التناسق مع جو السورة – سورة إبراهيم– وما فيها من عرض للمؤمنين وعاقبتهم، والمكذبين وعاقبتهم، فهو تناسق عريض المساحة، عميق الصدق والدلالة.[3]

➢ ومن ذلك التناسق الفني بين صورتين متقابلتين الأولى: صورة إماتة الأحياء، والثانية: صورة إحياء الأموات[4]، في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[5]، ولما كانت الصورة عن الأمم السالفة ذيلها بقوله (أفلا تسمعون)، ولما كانت الصورة عن الحياة المشاهدة ذيلها بقوله (أفلا تبصرون)، وقد مضى بيان ذلك في فصل التذييل.

➢ ومن التناسق الفني في الصور المتقابلة قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾[6]، فالمشهد هنا مكوَّنٌ من صورتين متقابلتين وفي كل صورة جزئيات متناسقة تؤدي الغرض الذي سيقت فيه، الصورة الأولى: قلبٌ صلدٌ مغطىً بغشاء

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤-٢٦.

(٢) انظر المبحث السابق: (التجسيم الفني في آيات الطبيعة).

(٣) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤/ ص٢٠٩٨.

(٤) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص٩٦-٩٧.

(٥) سورة السجدة، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٦) سورة البقرة، الآيتان: ٢٦٤-٢٦٥.

رقيق من الرياء يخفي تلك الصلادة، فهو كالحجر القاسي (صفوان) ليس فيه أي خصوبة أو ليونة وعليه تراب يغطيه، ثم ينزل وابلٌ من السماء فيظن المنخدعون به أنَّه سينبت ويثمر، فإذا بهذا الوابل يكشف عن تلك القساوة التي لا مجال للإنبات فيها فيضيع الأمل فيه، كما يضيع أمل المرائي فيما قدم نفاقاً ورياءً. أمَّا الصورة الثانية المقابلة لها: فقلب خصب بالإيمان راسخ باليقين، هو كالجنة التي على ربوة من الأرض، تؤتي ثمارها ضعفين كلما سقاها وابل الغيث، حتى إذا لم يصبها إلا رذاذ قليل فإنَّه ينفعها، ثم جاء التذييل ليكمل هدف المشهد بقوله تعالى: (والله بما تعملون بصير)؛ لأنَّ الإخلاص والرياء أمرٌ خفيٌ في القلوب لا يعلمه إلا الخبير البصير. ثم إنَّه كان من الجائز أن يقال: (والله بما تعملون خبير) أو (عليم) أو (والله عليم بذات الصدور)، ولكن ليتم التناسق حتى في التذييل؛ فلما كانت الصور المعروضة تدرك بحاسة البصر، ذُيّلت الآية بصفة البصر. إننا أمام مشهد كامل يحتوي على منظرين متقابلين في غاية التناسق في فن الرسم وفن العرض، صورة قلب المؤمن المخلص، وقلب المنافق المرائي، صورة التراب الذي يعلو الحجر الصلد، وصورة الجنة التي على ربوة مرتفعة من الأرض، ثم صورة الوابل عندما يهطل على كل مشهد منهما؛ فيخسر الزيف ويذهب جفاء، ويرسخ الحق ويبقى ثابتاً. إنَّه مشهد يحمل إعجازاً بيانياً في العرض والأداء وتناسق الصور وتقابلها.[١] والمشهد بما فيه من الصورتين المتقابلتين يهدف إلى إثارة محور الطمع في فضل الله للتحريض على البذل والإنفاق، وإثارة كذلك لمحور الخوف من الخسارة للتحريض على البعد عن الرياء وإبطال الصدقة بالمن والأذى[٢].

- وقبل هذه الآيات يعرض التعبير القرآني صورة فنية فيها تناسق فني بتقابل أجزائها بعضها مع بعض، يمكن أن يُعدَّ تناسق فني في الصورة الداخلية، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[٣]، فهذه اللوحة الفنية تتقابل فيها العناصر المكونة للمشبه بالعناصر المكونة للمشبه به، وهذا ما يعرف بالتشبيه المركب، فعملية الانفاق تقابلها عملية الزرع، والإخلاص في الانفاق يقابله النبت الجيد وهو القمح وسنابله، ومضاعفة الأجر فيه، وتنمية الله له تقابلها إنبات سبع سنابل من حبة واحدة، ثم في كل سنبلة مائة حبة، فالحبة أنتجت سبعمائة حبة وكذلك الحسنة تضاعف إلى سبع مائة ضعف[٤]، واللوحة الفنية تهدف بأسلوب التصوير إلى إثارة الطمع في

---

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١/ ص٣٠٨-٣٠٩.

(٢) انظر: الميداني، أمثال القرآن، ص٨٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٤) وهذا مصداق لما رواه ابن عباس –رضي الله عنهما– عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– أنَّه قال: (إنَّ اللهَ كتب الحسناتِ والسَّيِّئاتِ ثمَّ بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعمَلْها كتبها اللهُ له عنده حسنةً كاملةً، **فإن هو همَّ بها وعمِلها كتبها اللهُ له عنده عشرَ حسناتٍ إلى سبعِمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ**، ومن همَّ بسيِّئةٍ فلم يعمَلْها كتبها اللهُ له عنده حسنةً كاملةً، فإن هو همَّ بها فعمِلها كتبها اللهُ

فضل الله[1]، واللوحة تحمل تناسقاً فنياً داخلياً في صورة واحدة، وليس في صورتين متقابلتين، ثم يأتي التذييل هنا ليكمل هدف الصورة وغايتها، فالله واسع بفضله وكرمه، عليم بإخلاص القلب أو عدمه.

▪ ثانياً: التناسق الفني في الإيقاع:

➢ من التناسق الفني في الإيقاع ما في سورة (النبأ)؛ ذلك أن الفاصلة القرآنية لها أثرها البارز في الإيقاع والجرس، فالسورة تبدأ بنظام في الفواصل مختوم بالواو والنون، أو الياء والميم في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾[2]، ثم يتغير نظام الفواصل على صورة مختلفة عما سبقه في الآيات التي تتحدث عن مكونات الطبيعة ودلالتها على الخالق سبحانه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾[3]، وهذا التغيير في نظام الفاصلة ليس لمجرد التنويع فحسب، بل لأنَّه لما انتقل إلى نسق معنوي جديد ناسب ذلك أن ينتقل إلى نظام في إيقاع الفاصلة مختلف عن سابقه[4]، وهذا فيه ما لا يخفى من تنبيه السامع، وتحفيز ذهنه للمعنى المراد.

➢ وقريب منه ما في سورة النازعات، فقد ابتدأت السورة بفاصلة تناسب القسم: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾[5]، ثمَّ إذا بنظام الفاصلة القرآنية يتغير تبعاً لتغير النسق المعنوي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾[6]، ولمَّا انتقل النسق المعنوي

له سيِّئةً واحدةً). رواه الإمام البخاري، في كتاب٨١: (الرقاق)، باب٣١: (من همَّ بحسنة أو سيئة)، الحديث رقم(٦٤٩١)، ج٤/ص١٨٩، ورواه الإمام مسلم، في كتاب١: (الإيمان)، باب٥٩: (إذا همَّ بحسنة كتبت، وإذا همَّ بسيئة لم تكتب)، الحديث رقم(١٣١)، ج١/ص١١٨.

(١) انظر: الميداني، أمثال القرآن، ص٤٥ وص٨٦.

(٢) سورة النبأ، الآيات: ١-٥.

(٣) سورة النبأ، الآيات: ٦-١٦.

(٤) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص١١٠.

(٥) سورة النازعات، الآيات: ١-٥.

(٦) سورة النازعات، الآيات: ٦-١٤.

إلى قصة موسى –عليه السلام– اختلف نظام الفاصلة تبعاً لذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾﴾(١)، ثم انتقل إلى نسق جديد فيه الاستدلال بمكونات الطبيعة فاختلف نظام الفاصلة تبعاً لذلك فقال –عز من قائل–: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾(٢)، ثم عاد نظام الفاصلة إلى ما يشبه نظامها في مقطع قصة موسى –عليه السلام– مع فرعون فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾(٣)؛ لما بين النسقين من تناسب، فالأول: فيه عاقبة المؤمن والكافر في الدنيا، والثاني: فيه عاقبة المؤمن والكافر في الآخرة، وفي ختام السورة عاد إلى نظام في القافية شبيه بالذي كان عليه في مقطع آيات الطبيعة، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾(٤)، وبين المقطعين من التناسب ما يدعو لتشابه القافية، فالأول: فيه بدأ الخلق، والثاني: فيه منتهاه، وفي ذلك تناسق فني فريد.

وتناسق الإيقاع في هذه السورة –سورة النازعات– لا يأتي من نظام الفاصلة فحسب، بل إن ذلك يظهر في سرعة الحركة، وقصر الموجة، وقوة المبنى: في المقطعين الأولين؛ بما ينسجم مع جو القسم وجوابه من سرعة النبض، وشدة الارتجاف، ثم في المقاطع التالية تأتي الحركة وانية، والموجة رخية متوسطة الطول، تنسجم مع الجو القصصي وما تليه، فجاء أسلوب الإيقاع متناسباً في كل حالة مع الجو الذي سيق فيه. وذلك تناسق فني واضح لا نحتاج لإدراكه إلى قواعد موسيقية، أو مصطلحات فنية.(٥)

■ ثالثاً: التناسق الفني بوحدة الرسم:

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ١٥-٢٦.

(٢) سورة النازعات، الآيات: ٢٧-٣٣.

(٣) سورة النازعات، الآيات: ٣٤-٤١.

(٤) سورة النازعات، الآيات: ٤٢-٤٦.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص١١١-١١٢.

➢ إذا كان التشخيص بارزاً في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما سبق بيان ذلك، فإنَّ في الآيتين جانباً آخر من التصوير، وهو ما يمكن تسميته "وحدة الرسم"، فالصورة الأولى: صورة مخلوقات خرجت من حال الموت إلى حال الحياة، فالجو العام هو جو الإحياء المرتسم في الأجزاء التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾[(١)]، لذا فإنَّه في هذا الموضع جاء بوصف الأرض بأنها هامدة ليتسق مع هذا الجو.

أمَّا الصورة الثانية: فهي صورة مخلوقات عظيمة عابدة لله من ليل ونهار، وشمس وقمر، إلى أرض ونبات، والجو العام الذي يرتسم في أجزاء هذه الصورة جو العبادة، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[(٢)]، وهنا جاء وصف الأرض بأنَّها خاشعة ليتسق مع جو العبادة، فكان لكل تعبير وحدة رسم متسقة مع سياقه، وهذا يدل على أن تنوع الألفاظ ليس لمجرد التنويع فحسب، بل له دلالة قاطعة على أن التصوير عنصر أساسي في التعبير القرآني.[(٣)]

➢ ومن التناسق الفني ووحدة الرسم في الصورة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[(٤)]، ففي هذه الصورة يعرض التعبير القرآني عدداً من النعم التي امتنَّ بها على عباده، وأجزاء هذه اللوحة فيها ما يلوذ الناس به، ويحتمون فيه، أو يستظلون بظله، ويستترون به من البيوت، والجبال،

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

(٢) سورة فصلت، الآيات: ٣٧-٣٩.

(٣) انظر: المرجع نفسه، ص١١٧-١٢٠.

(٤) سورة النحل، الآيات: ٨٠-٨١.

والأكنان، والسرابيل، ولأنَّ هذا الجو العام الذي سيقت فيه هذه النعم فإن وحدة الرسم اقتضت أن يُعرض عنصر وفائدة في الأنعام تتسق مع هذا الجو، وهو ما جُعل للناس في جلود الأنعام وأصوافها وأوبارها مما يتخذونه بيوتاً وأثاثاً يستخفون حمله في ظعنهم وإقامتهم. بينما في صورة أخرى عُرضَ عنصرٌ من فوائد الأنعام غير ما سبق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾(١)، فلما كان الجو العام في هذه الصورة يرسم مشهد الأشربة واستخراجها ذكر من الأنعام لبنها السائغ، لتتسق الصورة وتكتمل وحدة الرسم في جميع أجزائها، ليس ذلك فحسب فهناك تناسق دقيق بين هذه الأشربة، قد لا يُتنبه إليه إلا بمزيد من التدبر، فهذه الأشربة هي: اللبن، والسَكر والعسل، وكلها تجتمع في صفة واحدة هي مخالفة هذه الأشربة لطبيعة وهيئة ما استخرجت منه، فاللبن يستخرج من بين فرث ودم، والسَكر يستخلص من ثمرات النخيل والأعناب، والعسل من الأزهار، والمنظر العام منظر زراعي حيواني.(٢) دقة وإحكام في التصوير تشهد بأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

➢ سبق عرض مشهد لصورة المرائي والمخلص في نفقته، والتناسق الفني في تقابل الصورتين، غير أن في المقطع نفسه مع ما قبله وما بعده يُلحظ لونٌ آخر من التناسق، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾(٣)، فالتناسق

---

(١) سورة النحل، الآيات: ٦٦-٦٩.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١١٧-١٢٠.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ٢٦١-٢٦٦.

الفني يشمل المشاهد جميعاً ولا يقتصر على كل مشهد بمفرده، ذلك أنها جميعاً تعرض في محيط متجانس، فالحبة التي تنبت سبع سنابل، ثم الصفوان الذي عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً، ثم الجنة التي بربوة فأصابها وابل فآتت أكلها ضعفين، ثم الجنة من النخيل والأعناب التي أصابها إعصار فيه نار فاحترقت .. إنَّ هذه المشاهد لها "وحدة رسم" في أجزاء كل صورة منها، ثم يُلحظ أنَّ جميعها داخلة في محيط واحد تنسجم فيه كل هذه المشاهد مع بعضها، وذلك هو المحيط الزراعي، حتى الوابل والطل والإعصار داخلة فيه، فكل مشهد اشتمل على تناسق فني في داخله، ثم هذه المشاهد جميعاً يربطها تناسق فني في محيط واحد، فالمحيط الزراعي يُكوّن وحدة تجمع كل هذه المشاهد.(١)

▪ رابعاً: التناسق الفني في إطار الصورة:

➢ قد تأتي مكونات الطبيعة لتكمل الإطار أو النطاق للصورة، فيظهر التصوير القرآني في تناسق فني بديع بين المشهد والصورة مع الإطار، مع إيقاع موسيقي ينساب مع ذلك كله، كما في سورة (الضحى)، قال تعالى:﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾(٢)، فجاء القسم بالضحى، وبالليل إذا سجى؛ ليكون الإطار منسجماً مع جو الحنان واللطف والرحمة والرضا، ولم يكن القسم بالنهار على إطلاقه بما فيه من كدِّ المعاش، ولا بالليل على إطلاقه بما فيه من ظلام ووحشة، فالضحى الرائق، والليل الساجي يتناسب مع الجو الذي تبثه السورة في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾(٣)، فكانت الطبيعة في صورة هذا القسم تعطي إطاراً لهذا التصوير الفني بتناسق فني مع جميع مكونات الصورة.(٤)

➢ وقد تكون مكونات الطبيعة ترسم إطارين في التصوير القرآني؛ لأنَّ الصورة بداخله لها لونان، وذلك مثل سورة الليل، فإنَّ الصورة الفنية فيها لها لونان: أسود وأبيض، ففيها الذي أعطى واتقى، والذي بخل واستغنى، والأول ييسر لليسرى، والثاني ييسر للعسرى، كما أن فيها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى، وفيها الأتقى الذي سوف يرضى، لهذا جاءت الصورة ولها إطاران متقابلان، يرسمهما القسم بالليل والنهار، وبالذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١/ ص٣١٠.

(٢) سورة الضحى، الآيات: ١-٢.

(٣) سورة الضحى، الآيات: ٣-١١.

(٤) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص١٢٦.

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾[1]، ولم يكن القسم بالليل إذا سجى كما في سورة الضحى، بل بالليل إذا يغشى، ويقابله القسم بالنهار إذا تجلى، ثم بالذكر والأنثى، فيتناسب ذلك مع الجو العام للصورة الذي يضم الشيء وما يقابله، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١ ﴾[2]، فاكتملت الصورة بهذين الإطارين بما لهما من لونين متباينين، وجاء الإيقاع أعلى مما هو في سورة الضحى في غير عنف أو قسوة؛ لأن الجو فيها للسرد والبيان وليس للهول والتحذير[3]، وبذلك يكتمل التناسق الفني فيها بإعجاز بياني يدركه من تدبَّر آيات الله وسوره الكريمة.

▪ خامساً: التناسق الفني في مدة العرض:

➢ من آفاق التناسق الفني للتصوير في آيات الطبيعة التناسق في مدة العرض للصورة والمشهد، وهذا أمر له أهميته في الأثر للصورة، وتأثيرها في المتلقي، فهناك مشاهد تمر مراً سريعاً، وبعضها يطول حتى قد يخيل للمتلقي أنه لن يزول؛ وذلك لتحقيق غرض خاص في المشهد يتسق مع الغرض العام. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾[4]، فالمشهد يهدف لتصوير قصر الحياة الدنيا، وسرعة زوال بهرجها الذي افتتن به الناس،، ولتحقيق هذا الغرض تم تصوير المشهد بالتعبير عنه بثلاث جمل قصيرة متتابعة: (ماء أنزلناه من السماء- فاختلط به نبات الأرض- فأصبح هشيماً تذروه الرياح).

ثمَّ إنَّ العطف بالفاء وما يفيده من الترتيب والتعقيب[5] فيه تسريع للمشهد على قصره، ليس ذاك فحسب، بل هناك أمر آخر وهو اختصار المراحل: فالماء النازل من السماء لا يختلط بالأرض فينبت النبات، ثم يختلط الماء مرة أخرى بالنبات لينمو، وإنَّما يختلط بنبات الأرض مباشرة، وذلك كله يسهم في جعل المشهد سريعاً؛ ليتحقق الغرض منه وهو سرعة زوال المشبه وهي الحياة الدنيا،

---

(١) سورة الليل، الآيات: ١-٤.

(٢) سورة الليل، الآيات: ٥-٢١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٢٧-١٢٨.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

(٥) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج١/ ص٣٢٤-٣٢٦.

ومع قصر هذه الجمل وسرعة عرضها فإنَّه قد ذُكر فيها أطوارُ النبات الأساسية كلّها، فاجتمع في هذا التعبير الصدق والدقة والجمال.(١)

➢ وفي مثال آخر قريب جداً من سابقه، "فالمشبه" و"المشبه به" هما هما في المثالين، والغرض من كل مشهد هو هو: فكلاهما يهدفان إلى تصوير سرعة زوال الحياة الدنيا، إلَّا أنَّ بينهما اختلافاً يسيراً في مدة العرض للمشهد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا ﴾(٢)، ففي هذا المشهد أطال عرض شريط الحياة الدنيا –كما يراها المغتر بها– فهي لعب، ولهو(٣)، وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، ثم في "المشبه به" ذكر تفاصيل لم تذكر في المثال السابق–في سورة الكهف– من إعجاب الكفَّار(٤) بنبات الغيث، وكذلك بيان اللون (مصفراً)، وإنَّ كان هذا المشهد أطول من سابقه فإنَّه قد عُرض عرضاً سريعاً كذلك، ذلك لأنَّ الغرض من هذا التصوير إعلام الناس أنَّ هذه الحياة الدنيا التي يستطيلون أمدها، إنَّما هي قصيرة زائلة، لا تستحق منهم أن يخسروا الآخرة الباقية من أجلها، فما هي إلَّا كغيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج، فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً، ويلحظ في هذا المشهد استعمال حرف العطف (ثمَّ) الذي يفيد التشريك في الحكم والترتيب والمهلة في الزمن(٥)، إنَّ بين المشهدين –على تشابههما– فارقاً يسيراً، وكل مشهد منهما جاء متناسقاً مع الغرض الذي سيق له على تقاربٍ بين الغرضين، منسجماً مع النسق الذي جاء فيه، في تناسق فني يعجز الخلق عن دقته وإحكامه.(٦)

ومن لطيف التناسق في تشبيه الدنيا بالماء: أنَّ الماء إذا أخذ منه الإنسان على قدر حاجته انتفع به، فإن أخذ فوق ذلك تضرر؛ وكذلك الدنيا، كما أنَّ الماء إذا حاول المرء أن يطبق عليه بيده ليحفظه لم يُحصِّل منه شيئاً؛ وكذلك الدنيا.(٧)

➢ أمَّا المشاهد المطولة فإنَّ ما عُرض في المشاهد القصيرة في ومضة سريعة يعرض في موضع آخر بترسُّل ومهل وتؤدة؛ لأنَّ الغرض مختلف فتطول مدة العرض بما يناسب الغرض منه، ومثال ذلك نزول الماء الذي عرض في سورة الكهف في ومضة سريعة: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾،

---

(١) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص١٢٨-١٢٩.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٣) الفرق بين اللهو والعب: أن اللهو للقلب، واللعب للجوارح. انظر: ابن القيم، فوائد الفوائد، ص١٨٣.

(٤) قيل: الكفار في هذه الآية المقصود بهم الزُّراع، لأنَّ الكفر في اللغة يأتي بمعنى الستر والتغطية، ومنه الزارع لأنه يغطي البذور تحت التربة. انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٥/ ص٢٦٧.

(٥) قال ابن هشام: (وفي كلٍّ منها خلاف..). انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج١/ ص٢٢٩.

(٦) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص١٣٠.

(٧) انظر: الزركشي، البرهان، ج٣/ ص٤٧٤. وانظر: السيوطي، الاتقان، ج٤/ ص١٥٣٨.

فيعرض في موضع آخر بمدة تطول لتستغرق ما سبقه وما لحقه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[1]، فقد جيء في هذا المشهد بالمراحل السابقه لنزول الماء من إرسال الرياح، وإثارتها للسحاب، وبسطه في السماء، وجعله كسفاً يخرج الودق -أي: الغيث[2]- من خلاله، فيصيب به من يشاء من عباده، ثم ذكر ما لحق نزول الماء من استبشار الناس به، ليس ذلك فحسب، بل وصف حال الناس كيف كان قبل نزوله، وذكر أثر تلك الرحمة ونبه إليها، فقال عز من قائل: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[3]، وإذا كان غرض المشهد في سورة الكهف يقتضي السرعة في العرض لبيان سرعة زوال الدنيا، فإن الغرض في هذا المشهد مختلف عنه، فالغرض هنا بيان النعمة الإلهية على الخلق، ولفت نظرهم إليها، وهذا يقتضي أن تكون مدة العرض أطول ليتملَّى المتلقي مشاهد الصورة، ويتأملها بذهن صافٍ وقلب حاضر، فجاءت مدة العرض في متناسقة متناسبة مع غرض المشهد.[4]

➢ وليس بعيداً عن هذا قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾[5]، وفي هذا المشهد تصوير لنزول الماء دون ذكر لاختلاطه بالأرض والنبات، ومع ذلك أخذت مدة العرض له أكثر من مدة العرض لنزوله واختلاطه بالأرض والنبات ثم تحول النبات إلى هشيم تذروه الرياح، ذلك لأنَّ الغرض من عرض المشهد بيان القدرة وإثبات المنة، فاقتضى ذلك طول مدة العرض له، بدأ المشهد من إزجاء السحاب، ثم التأليف بينه، ثم جعله ركاماً ورؤية المطر يخرج من خلاله، ثم عاد لوصف السحاب وتشبيهه بالجبال، وأضاف ذكر البرد، ووصف البرق، وسناه الذي يكاد لشدته يذهب بالأبصار، وهذا كله ينسجم مع بيان القدرة والامتنان من المولى سبحانه.

➢ وفي موضع آخر يُعرض نزول الماء من السماء بتفاصيل تطيل مدة المشهد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٨.

(٢) قال الراغب الأصفهاني: (الودق قيل ما يكون من خلال المطر، كأنه غبارٌ وقد يعبر به عن المطر). انظر: المفردات في غريب القرآن، ص٥١٧.

(٣) سورة الروم، الآيتان: ٤٩-٥٠.

(٤) انظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص١٣٣.

(٥) سورة النور، الآية: ٤٣.

﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾[1]، يُعرض المشهد هنا في تمهل وبطء، مع استعمال العطف بحرف التراخي (ثمَّ) ثلاث مرات، فما عُرض في سورة الحديد في ثلاث جمل: (كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً)، نراه يُعرض هنا في خمس جمل، كل جملة تعدُّ مشهداً يمكن الوقوف عليه، ويمكن كذلك رسم صورة له في الذهن: (أنزل من السماء ماء- فسلكه ينابيع في الأرض- ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه- ثم يهيج فتراه مصفراً- ثم يجعله حطاماً).

وهذه المشاهد تكتمل لتصور المشهد العام العريض كاملاً بكل هذه التفاصيل، وفي هذا المشهد إضافة تفاصيل دقيقة لأطوار الزرع لم تذكر هنالك -في سورة الحديد- ومما أضيف: أن الله يسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به الزرع، وكذلك ذكر اختلاف ألوانه، وفي ذلك فسحة لتخيل تلك الصور والمراحل والألوان، ليحقق الغرض من هذا المشهد وهو بيان النعم الإلهية وتذكرها.[2]

ويُلحظ في هذا المشهد أنَّ أغلب الأفعال أُسندت إلى الله -جل جلاله-: (أنَّ الله أنزل- سلكه-يخرج به- يجعله حطاماً)، بينما في سورة الحديد كانت الأفعال تسند إلى الزرع: (يهيج- يكون حطاماً)، ذلك أن الغرض هناك بيان حقارة الدنيا وسرعة زوالها فناسبه إسناد الفعل إلى الزرع، بينما في هذا الموضع الغرض امتنان الله -جل في علاه- على عباده فالأنسب نسبة الأفعال إليه سبحانه؛ ليلفت العباد إلى عظيم فضله: (إنَّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب). فالموضوع واحد ولكن الأغراض مختلفة، فجاء التصوير متناسقاً منسجماً مع كل غرض؛ ليُحدث الأثر المنشود في كل مشهد وصورة على أكمل وجه.

➢ صورة أخرى للزرع جاءت في وصف أصحاب النبي الكريم محمد -صلى الله عليه وسلم- وتشبيههم بالزرع المستوي على سوقه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾[3]، وفي هذا المشهد تُعرض أربع مراحل للزرع: (كزرع أخرج شطأه- فآزره- فاستغلظ- فاستوى على سوقه) ثم يزيد على ذلك بوصفه بأنَّه: (يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار)، والذي يلحظ هنا: أنَّ العرض يسير في نسق التطويل ولكنَّ الأجزاء المكونة للمشهد العام تتم بسرعة متعاقبة، يظهر ذلك في العطف بالفاء، ويلحظ أيضاً: أن هذا الزرع لا يكون حطاماً أو هشيماً، ولا تذروه الرياح أبداً، ذلك قد يناسب المواضع الأخرى، أمَّا هذا الموضع فلا تناسبه هذه الخاتمة للمشهد، بل يبقى خالداً ثابتاً في

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٣٤.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

موضعه، وتبقى مدة العرض هنا دائمة، لأنَّ ذلك جاء لتصوير حال أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن تبعه.(١)

وسرعة انتقال المراحل مقصودة، كما أن ثبات المشهد في خاتمته مقصودة، لأنَّ المشبَّه وهم المؤمنون من أصحاب النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– سريعو الاستجابة لله ولرسوله، كما أنهم موصوفون بالثبات على دين الله لا ينكصون عنه على أعقابهم ولا يرتابون فيه، كما وصفهم المولى –سبحانه– بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ ﴾(٣).

***

هذه أهم آفاق التصوير الفني التي وجدتها في آيات الطبيعة، وبقي آفاق للتصوير لم يجد الباحث تطبيقات عليها في آيات الطبيعة، فاكتُفي بذكرها في فاتحة كل مبحث.

***

(١) انظر: المرجع السابق، ص١٣٤-١٣٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

الفصل السادس

السياق في آيات الطبيعة

- المبحث الأول: مفهوم السياق القرآني وفوائده وخصائصه وضوابطه.

- المبحث الثاني: السياقات القرآنية في آيات الطبيعة.

- المبحث الثالث: إدماج السياقات واشتراكها في آيات الطبيعة.

- المبحث الرابع: اختلاف التعبير القرآني باختلاف السياق.

الفصل السادس
السياق في آيات الطبيعة

• المبحث الأول: مفهوم السياق القرآني وفوائده وخصائصه وضوابطه.

▪ أولاً: السياق لغةً واصطلاحاً:

الساق: ما بين الكعب والركبة، وسميت بذلك؛ لأنَّ الماشي ينساق عليها.. ويقال: ولدت المرأة ثلاثة بنين على ساق: متتابعين لا جارية بينهم.. والمنساق: التابع والقريب.. وتساوقت الإبل: تتابعت، والسياق: المهر، يقال: ساق إليها الصداق سياقاً، لأنَّ أصل الصداق عن العرب الإبل، وهي تُساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرها.. والسياق: نزع الروح، يقال: فلان في السياق أي النزع.(١)

قال ابن فارس: (السين والواو والقاف أصل واحد: وهو حدو الشيء. يقال ساقه يسوقه سوقاً، والسَّيقة: ما استيق من الدَّواب، ويقال سقت إلى امرأتي صَداقها، وأسقته، والسُّوق مشتقة من هذا لما يساق إليها من كل شيء).(٢)

وقال ابن منظور: (فلانٌ يَهُتُّ الحديث هَتًّا إذا سَرَدَه وتابَعه.. ويقال للرجل إذا كان جَيِّدَ السِّياق للحديث: هو يَسْرُدُه سرْداً، ويَهُتُّه هَتًّا).(٣)

قال الزمخشري: (ومن المجاز: ساق الله إليه خيراً، وساق إليها المهر.. وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مَساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سَوقِه: على سرده).(٤)

قال الشاطبي (المتوفى سنة ٥٩٠هـ) –رحمه الله–: (المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، والذي يكون على بالٍ من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية، وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها... ولا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره؛ وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف. فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة(سوق)، ج١٠/ ص١٦٦. وانظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (سوق)، ج٣/ ص٣٦٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة (سوق)، ج١/ ص٥٧٨.

(٣) لسان العرب، مادة(هتت)، ج٢/ ص١٠٣.

(٤) أساس البلاغة، مادة (سوق)، ج١/ ص٤٨٤.

إلى مراده، فلا يصح الاقتصار على بعض أجزاء الكلام دون بعض...)[١]، والشاطبي هنا استعمل المساق وهو يقصد السياق بنوعيه: سياق النص، وسياق الموقف[٢]، كما أنَّه -رحمه الله- في هذا النص يشرح مفهوم السياق، ويبين ثمرته.

وعرف السجلماسي[٣]-رحمه الله- السياق بأنَّه: (ربط القول بغرض مقصود على القصد الأول)[٤].

ويقسم بعض الباحثين السياق إلى قسمين؛ **سياق صغير**: ويقصد به الجوار المباشر للكلام، ما قبله وما بعده مباشرة، ويهتم بدراسة تفاعل الكلمات وتأثير بعضها في بعض. **وسياق كبير**: وحيزه أكبر من سابق الكلام ولاحقه، ليشمل الفقرة أو الخطاب جملةً، وقد يتعدى ذلك إلى جملة المعطيات التي تحضر المتلقي بموجب مخزونه الثقافي والاجتماعي، فيشمل سياق النص وسياق الموقف.[٥] **ويمكن تسميته السياق المباشر والسياق غير المباشر**، فهو أدق من تسميته بالصغير والكبير، أو من الممكن تسميته السياق العام والسياق الخاص.

ومن كل ما سبق يمكن تعريف السياق القرآني اصطلاحاً بأنَّه: **(تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية؛ لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى... دون انقطاع أو انفصال).**[٦]

▪ ثانياً: الفرق بين النظم والسياق والمناسبة:

هناك بعض المصطلحات التي قد يُتوهم أنها مترادفة، وهي مما يرد كثيراً في كتب التفسير، ومن ذلك النظم والسياق، والمناسبة. كما أنَّ عدداً من المفسرين يعبرون عن السياق بالنظم، وإن كان أغلبهم يميز بينهما، ولكنه يأتي به من قبيل التجوز في العبارة، ومن المفسرين مَن يفرق بين

---

(١) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبدالله دراز، دار الفكر العربي، القاهرة-مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ج٣/ ص٤١٣.

(٢) انظر: ردة الله الطلحي، دلالة السياق، سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطباعتها(٣٣) بجامعة أم القرى، مكة المكرمة- السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ص٤٧.

(٣) لم يعرف تاريخ ولادته ولا وفاته، ولكنه من علماء القرن الثامن الهجري، وقد استُدل على ذلك بقوله في آخر كتابه أنه انتهى من تأليفه سنة ٧٠٤هـ. انظر: القاسم الأنصاري السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط-المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م، ص٥٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص١٨٨.

(٥) انظر: ردة الله الطلحي، دلالة السياق، ص٥٤.

(٦) المثنى عبدالفتاح محمود، نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية، دار الأوائل للنشر، عمان-الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص١٥.

هذين المصطلحين، ومنهم شيخ المفسرين الإمام الطبري، فيقول في ترجيحه لأحد الأقوال: (وإنَّما اخترنا ذلك من سائر الأقوال التي ذكرناها؛ لأنَّه أصحُّها معنىً، وأحسنها استقامة على معنى كلام العرب، وأشدها اتساقاً على نظم الكلام وسياقه)(١)، فهو يعطف أحدهما على الآخر، و العطف يقتضي المغايرة.

وقد اقترنت نظرية النظم بالإمام عبدالقاهر الجرجاني، فهو من قَعَّدَ ونظَّر لها بصورة وافية، وهو يؤكد في أكثر من موضع من كتابه (دلائل الإعجاز) بأن النظم هو (توخي معاني النحو)، ومن ذلك قوله: (ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنَّك ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك).(٢) **وهذا أقل ما يمكن أن يشرح نظرية النظم عند الإمام عبدالقاهر؛ لأنّها تتعدى إلى معنى أبعد من ذلك ليشمل السبك المعجز بوجه عام،** ومن هذا يمكن القول بأنَّ النظم هو علاقة اللفظ بالمعنى، أو علاقة الألفاظ بالمعاني، والنظم هو ما يجعل الألفاظ في تناسب وتناسق مع المعانى.(٣)

ومن التعريف السابق للسياق اصطلاحاً فإنَّ السياق يهتم بعلاقة المعنى بالمعنى، فهو ينظر في علاقة المعاني بالمعاني السابقة لها، والمعاني اللاحقة بها. وإذا كان النظم علاقة اللفظ بالمعنى، أو علاقة الألفاظ بالمعاني، فإن السياق علاقة المعنى بالمعنى.(٤)

أمَّا المناسبة فوظيفتها الكشف عن وجوه الربط بين الآيات والمقاطع التي لا يظهر وجه ارتباطها بما قبلها وما بعدها، ولمعرفة ذلك نرجع إلى السياق حتى يُبيّن لنا ارتباط المعنى السابق بالمعنى اللاحق. **ومن ذلك فإن النظم يخدم السياق من حيث هو علاقة اللفظ بالمعنى، والسياق يخدم المناسبة لبيان وجوه الربط بين المقطع والآخر، أو بين السورة والسورة.**(٥)

وقد أَلَّف بعض العلماء كتباً في التفسير على أساس المناسبة ومن ذلك كتاب: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) للإمام برهان الدين البقاعي، قال في مقدمة الكتاب: (وبعد فهذا كتاب عجاب، رفيع الجناب، في فن ما رأيت من سبقني إليه، ولا عوّل ثاقب فكره عليه، أذكر فيه -إن شاء الله- مناسبات ترتيب السور والآيات، أطلت فيه التدبر وأنعمت فيه التفكر لآيات الكتاب..)(٦)، ويشرح مراده بالتناسب فيقول: (فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٥/ ص٥٠٦.

(٢) دلائل الإعجاز، ص٤٥٤.

(٣) انظر: المثنى عبدالفتاح، نظرية السياق القرآني، ص١٨.

(٤) المرجع نفسه، ص١٩.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) نظم الدرر، ج١/ ص٣.

البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال... هذا العلم غاية في النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو).[١]

ومن الأمثلة على التناسب: ما بين سورة الفيل وسورة قريش وهما متواليتان، وقد ابتدأت سورة قريش بقوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾[٢]، فابتدأت بلام التعليل، قيل: لارتباطها الوثيق بسورة الفيل التي بيّنت مصير "أبرهة" وجنده من إرسال الطير الأبابيل، وجعلهم كالعصف المأكول، لمّا اعتدوا على البيت العتيق، وكان ذلك دفاعاً عن البيت، وامتناناً على قريش، وحمايةً لرحلاتهم الاقتصادية، حتى رُوي أن بعض قطاع الطريق إذا وجدوا في القافلة رجلاً من الحرم تركوا القافلة وقالوا: فيها حرمي، لا يصيبنَّكم ما أصاب أصحاب الفيل.[٣]

إنَّ هذه المصطلحات (النظم – السياق – المناسبة) يستعملها الكثير من المفسرين والدارسين بعضها في موضع بعض، إمَّا من باب التجوز في العبارة كما تقدم، وإمَّا باعتبار أنها مترادفة، وهذا قليل.

▪ ثالثاً: فوائد السياق القرآني:

إنَّ إدراك السياق القرآني والاهتمام به أمر مطلوب، بل قد عدَّه بعض العلماء شرطاً من شروط المفسر[٤]، وهو أيضاً استجابة للأمر الرباني بتدبر هذا الكتاب العزيز، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾[٥]. فأخذ السياق بعين الاعتبار له أثره البالغ في فهم المعاني، وتأويلها التأويل الصحيح.

والعلماء قديماً وحديثاً قد أوردوا جملة من فوائد السياق، ومن أولئك الإمام ابن القيم –رحمه الله– فقد نبَّه إلى فوائد السياق في قوله: (السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوّع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن

(١) المرجع نفسه، ج١/ ص٥.

(٢) سورة قريش، الآيتان: ١-٢.

(٣) ولِما بين السورتين من الارتباط فقد عدَّها بعض العلماء سورة واحدة، واحتجوا بقراءة عمر –رضي الله عنه– لهما في ركعة واحدة دون الفصل بينهما بالبسملة، وبأنَّ أبي بن كعب –رضي الله عنه– جعلهما سورة واحدة في مصحفه، والجمهور على أنّ كل سورة منهما مستقلة عن الأخرى، ومسألة: (أن اللام تعليل لما في سورة الفيل) مسألة خلافية بين العلماء، منهم من ردها ومن هم من قبلها. انظر في ذلك: الطبري، جامع البيان، ج٢٤/ ص٦٤٧، وانظر: الزمخشري، الكشاف، ج٦/ ص٤٣٥-٤٣٦، وانظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٢٢/ ص٢٦٣، وانظر: تفسير الفخر الرازي، ج٣٢/ ص١٠٣-١٠٥.

(٤) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، الكتاب الإسلامي، بيروت–لبنان، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص٥١٦. (الطبعة الأخيرة من الكتاب).

(٥) سورة النساء، الآية: ٨٢.

الدّالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته؛ فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾(١)، كيف تجد سياقه يدُلُّ على أنَّه الذليل الحقير؟!)(٢). وهذا الكلام القيم من ابن القيم يؤكّد على أهمية السياق، وهو -رحمه الله- قد سدَّ الباب على أصحاب التفاسير الفاسدة والزائفة، كما أنَّه قد ترك الباب مفتوحاً لتنوع الدلالة ما دامت تستند إلى تفسير صحيح مقبول.(٣) ويمكن إجمال أهم فوائد السياق التي لها ارتباط بالبلاغة القرآنية في الأمور الآتية:

١) توجيه المتشابه اللفظي:

إنَّ التدبّر في السياق يكشف لنا سر التوافق والتغاير فيما تشابه لفظه، وأمثلة ذلك في كتاب الله في أكثر من موضع، وقد مضى في المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة ما يغني عن إعادته هنا.(٤) ومن ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(٥)، وفي ختام سورة فاطر قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾ ﴾(٦). إنَّ الآيتين بينهما اتفاق عام في معظم الألفاظ، ولكنَّ التعبير القرآني في سورة فاطر عبر بعموم الكسب، فالكسب قد يكون عدلاً وقد يكون ظلماً، أمَّا في سورة النحل فقد عبر بخصوص الظلم. ومَردُّ ذلك إلى سياق كل آية؛ ففي سورة النحل سبق الآية الحديث عن ظلم عقدي من الشرك ونسبة البنات إلى الله، وظلم اجتماعي من وأد البنات فالسياق كله عن الظلم فناسب التعبير بخصوص الظلم، أما سورة فاطر فالآية سبقها الحديث عن أحكام عامة من كفر وفسق ومعصية وظلم فناسب السياق فيها التعبير بعموم الكسب.(٧)

٢) التنوع الدلالي والترجيح الدلالي:

إنَّ اللفظ الواحد قد يحتمل عدة دلالات، وهذا ما يُنتج التنوع الدلالي، ثم من بعده يأتي الترجيح الدلالي، ومن المعلوم أنَّ القرآن الكريم منه ما هو قطعي الدلالة، ومنه ما هو ظني الدلالة، وما كان ظني الدلالة فالاجتهاد فيه مستساغ مقبول، وهو نوعان؛ **الأول:** ما كان يحتمل عدة

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٢) بدائع الفوائد، ج٤/ ١٣١٤.

(٣) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، (الطبعة الأخيرة)، ص٥١٨.

(٤) انظر: الفصل الثالث من هذا البحث، فقد تم تخصيصه للمتشابه اللفظي في آيات الطبيعة.

(٥) سورة النحل، الآية: ٦١.

(٦) سورة فاطر، الآية: ٤٥.

(٧) انظر: المثنى عبدالفتاح، نظرية السياق القرآني، ص١٦٥.

دلالات ولا يوجد ترجيح بدليل معتبر لأحدهما على الآخر، فهذا ما يطلق عليه **التنوع الدلالي، والثاني:** ما كان فيه ترجيح بدليل معتبر لدلالة أو وجه على الدلالات أو الوجوه الأخرى فهذا هو **الترجيح الدلالي.** وهذا له علاقة بالسياق! ذلك أنَّ السياق إذا كان فيه ما يدل على ترجيح دلالة فقد أفادنا في ذلك بالترجيح الدلالي، وإذا لم يكن في السياق ما يرجح إحدى هذه الدلالات فإن هذا يعطينا فائدة أخرى، وهي حمل النص على أكثر من معنى، وهذا فيه إثراء لغوي، وهو من مميزات التعبير القرآن، وهو ما يعرف بالتنوع الدلالي(١)، و(النصُّ إذا دلَّ على معنيين صحيحين لا يتنافيان حُمل عليهما جميعاً)(٢).

٣) تخصيص العام:

إنَّ السياق قد يؤدي إلى إخراج اللفظ العام من عمومه إلى تخصيصٍ يقتضيه هذا السياق، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾(٣)، فالظلم في الآية جاء عاماً، و سياق الآية يخصصه بالشرك، والآيات السابقة لها تدلُّ على ذلك، قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾(٤). قال الإمام الشاطبي: **(إن سياق الكلام يدلُّ على أنَّ المراد بالظلم أنواع الشرك على الخصوص، فإن السورة من أولها إلى آخرها مقررة لقواعد التوحيد، وهادمة لقواعد الشرك)**(٥). وهذا التخصيص قد جاء عن النبي –صلى الله عليه وسلم– في حديث رواه البخاري ومسلم(٦)، فالحديث جاء مؤكداً أو متساوقاً مع سياق الآيات، ومن لم يبلغه الحديث فإنه قد يستغني بالسياق في تخصيص عموم الظلم بالشرك في هذه الآية.

٤) دفع التكرار المعنوي:

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص١٨٣ وما بعدها.

(٢) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ج٢/ ص٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٤) سورة الأنعام، الآيات: ٨٠ – ٨٢.

(٥) الموافقات، ج٣/ ص٢٧٦.

(٦) عن عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: لمَّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (إنَّه ليس بذلك، ألا تسمعون إلى قولِ لقمانَ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. رواه البخاري ومسلم. انظر: صحيح البخاري، كتاب٨٨: (استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم)، باب٣٢١: (إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة)، الحديث رقم: (٦٩١٨)، ج٤/ ص٢٧٨. وانظر: صحيح مسلم، كتاب١: (الإيمان)، باب٥٦: (صدق الإيمان وإخلاصه)، الحديث رقم: (١٢٤)، ج١/ ص١١٤.

إنَّ إعادة المعنى الواحد بألفاظ متغايرة –دون حاجة تدعو إلى ذلك– يُعدّ عيباً من عيوب التأليف، والقرآن الكريم منزه عن كل عيب، وإن النظر في السياق القرآني يدفع هذا التكرار، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)﴾(١)، من المفسرين من ذهب إلى أن الفرقان في الآية مقصود به القرآن(٢)، ذلك يقتضي أن يكون في الآيتين تكرار معنوي؛ لأنَّه قال في الآية السابقة: (وأنزل عليك الكتاب)، وهو القرآن، وإنزال الفرقان معطوف على إنزال الكتاب والعطف يقتضي التغاير، ومن هنا فالصواب أنَّ الفرقان في هذه الآية مقصود به غير القرآن، قيل: فرقان بين الحق والباطل في أمر عيسى –عليه السلام– وهو قول أورده الطبري مروياً عن محمد بن جعفر بن الزبير(٣)، يقول الرازي في ذلك: (وأمَّا حمله على القرآن فبعيد من حيث إنَّ قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ عطف على ما قبله، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، والقرآن مذكور قبل هذا، فهذا يقتضي أن يكون هذا الفرقان مغايراً للقرآن)(٤). ومثل هذا يدرك بالاهتمام بالسياق القرآني.

هذه فوائد السياق القرآني التي لها علاقة بالجانب البلاغي للقرآن الكريم، وللسياق القرآني فوائد أخرى متعلقة بالتفسير، مثل نقد الروايات في ضوء السياق، ودفع الأوهام من خلال السياق، وغيرها(٥)، فلم يأتِ الحديث عنها ليس تقليلاً من أهميتها، ولكن لعدم ارتباطها بالبحث.

▪ رابعاً: خصائص السياق القرآني:

يمكن اختصار أهم الخصائص التي يتميز بها السياق القرآني من غيره من السياقات في ثلاث خصائص هي:

١) السياق القرآني يضبط فهم المتلقي:

إنَّ نظريات القراءة الحديثة تعلي من شأن المتلقي إلى درجة يصبح فيها المتلقي مشاركاً في إنتاج النص، كما أنَّ هناك مدارس نقدية تؤمن بنظرية "موت المؤلف"، بمعنى أننا لا نحتكم إلى مقصود المؤلف، وإنما نحتكم إلى فهم المتلقي، وكأننا نعدّ المؤلف بعد نشره للنص بمثابة الميت

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٣ – ٤.

(٢) الفرقان من أسماء القرآن بلا شك، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾[سورة الفرقان، الآية: ١]، ولكن هذا لا يعني أنَّه حيثما ورد كان المقصود به القرآن.

(٣) انظر: جامع البيان، ج٥/ ص١٨٢.

(٤) تفسير الفخر الرازي، ج٧/ ص١٧٤.

(٥) انظر: المثنى عبدالفتاح، نظرية السياق القرآني، ص٢٣٧ وما بعدها.

الذي لا يمكن سؤاله عن مقصده(١). إنَّ هذه النظريات إن صحَّ أن نطبقها على النصوص الأدبية فإنَّه لا يمكن بحال من الأحوال أن تطبق على نصوص القرآن الكريم، والمسألة في ذلك محسومة؛ فالقرآن حاكم على غيره، وغيره محتكم إليه.

إنَّ السياق القرآني ضابط لفهم المتلقي، ولا يجوز أن يكون للمتلقي مطلق الحرية في تفسير النصِ القرآني دون الرجوع إلى أصول التفسير وقواعده، والسياق القرآني له حاكمية على المفسر، ومعيار هذه الحاكمية مقصد السورة، أو مقصد المقطع، أو مقصد الآية، وسلامة المعنى أو سقامته يحددها السياق.(٢) ومن أمثلة ذلك ما سبق الحديث عنه من الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾(٣)، على قضية دوران الأرض، مع أنَّ السياق لا يوافق ذلك.(٤)

٢) السياق القرآني غير قابل للتفكيك أو التعضية:

من المدارس الحديثة المدرسة التفكيكية، والتي يمكن تعريفها بأنها: (سعيٌ حثيثٌ خلف تناقضاتِ النصِ الداخلية ومعارضاتهِ. ويمكننا أن نسميها بالنشاط التهديمي)(٥). هذه فكرة إن أمكن تطبيقها على نصوص بشرية فإنَّه لا يمكن أن تطبق على النصِ القرآني؛ لأنَّه لا تناقض فيه ألبتة، فهو كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.(٦)

إنَّ النصَّ القرآني متصف بالإحكام، وهذا الإحكام لا يقبل التفكيك، ولكن يقبل التفصيل لأحكامه أو موضوعاته، كما قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾(٧)، والمفصل لهذه الآيات أو الأحكام هو الله تعالى وحده، الذي صدر عنه هذا النص أو أنزله، والتفصيل فيه يكون بأحد الوحيين، والسياق القرآني أيضاً غير قابل للتفكيك أو التعضية، فالله – جلَّ جلاله– ذم أولئك القوم الذين جعلوا القرآن عضين، قال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

---

(١) انظر: مصطفى حسن سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق – سوريا، ٢٠٠١م، ص٦٠.

(٢) انظر: المثنى عبدالفتاح، نظرية السياق القرآني، ص٥٤ وما بعدها.

(٣) سورة النمل، الآية ٨٨.

(٤) انظر: الفصل الأول: (مقدمات في الإعجاز البياني)، المبحث الثاني: (بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي). ثالثاً: (ضوابط التفسير العلمي).

(٥) انظر: مصطفى سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، ص٩٠.

(٦) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٧) سورة هود، الآية: ١.

﴿٩٣﴾[(١)]، قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: (جزَّءوه فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه... فجعلوه أعضاءً كأعضاء الجزور)[(٢)]، قال الشيخ ابن سعدي -رحمه الله-: (أي أصنافاً، وأعضاء، وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهوونه)[(٣)]، وقال الراغب الأصفهاني: (عضُون جمعٌ، كقولهم: ثِبُون وظِبُون في جمع ثُبَة وظُبَة، ومن هذا الأصل العَضْوُ و العِضْوُ، والتعضية تجزئة الأعضاء... وروي: "لا تعضية في الميراث" أي: لا يفرق ما يكون تفريقه ضرراً على الورثة، كسيف يُكسر بنصفين ونحو ذلك)[(٤)]. **والتعبير بالتعضية** في الآية دون ما سواها كالتجزئة أو التفرقة له دلالة على طبيعة النصّ القرآني، فالتفرقة والتجزئة يصلح استعمالها مع الأشياء التي لا يضرها ذلك مما ليس فيه روح تزهق بسبب التفريق بين أجزائه، **أمَّا التعضية فهي تفريق أعضاء ما له روح**، وهذا الاستعمال لهذه الكلمة فيما يخص النص القرآني يدلُّ على أن هذا الفعل **يزهق روح النص**[(٥)]، وقد وصف الله - جل جلاله- القرآن الكريم بأنه روح من أمره، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[(٦)]، قال ابن عطية -رحمه الله-: (والروح في هذه الآية: القرآن وهدى الشريعة، سماه (روحاً) من حيث يحيي به البشر والعالم، كما يحيى الجسد بالروح، فهذا على جهة التشبيه)[(٧)]، قال الدكتور عدنان زرزور- حفظه الله- معقباً على هذا: (والنص القرآني ببنائه المحكم، ونسقه المعجز، ونظمه الباهر، تسري بين ثناياه "روحٌ" عميقة من التركيب والترتيب، وإن شئت قلت: في ضوء هذه الآية: "روح من أمر الله" **وهذا على جهة الحقيقة**. وإنَّ أي تفسير يهدم هذا النسق والنظم سوف يزهق هذه الروح).[(٨)]

فالقرآن الكريم ذو سياق متصل، كل آية مرتبطة بما قبلها وما بعدها، وكل مقطع متناسب مع ما قبله وما بعده، بل إنَّ كل سورة بينها وبين السورة السابقة لها واللاحقة بها رابط ينظمها، قال الإمام الرازي -رحمه الله-: (إنَّ القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة، يصدق بعضها بعضاً، ويبيّن بعضها معنى بعض، ألا ترى أنَّ الآيات الدالة على الوعيد مطلقة، ثمَّ إنَّها متعلقة بآيات التوبة، وبآيات العفو..)[(٩)]، وذلك علمٌ يفتح الله فيه على من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ

(١) سورة الحجر، الآيات: ٨٩ - ٩٣.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج١٤/ ص١٣٠.

(٣) عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الريان، بيروت-لبنان، ب ط، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٧٠٥.

(٤) المفردات في غريب القرآن، مادة (عضه)، ص٣٣٨.

(٥) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، (الطبعة الأخيرة)، ص٥١٦-٥١٨.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٧) المحرر الوجيز، ج٥/ ص٤٤.

(٨) علوم القرآن، (الطبعة الأخيرة)، ص٥١٨.

(٩) تفسير الفخر الرازي، ج٣٢/ ص١٠٤.

دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾﴾[1]، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ وحدة السياق غير ممكنة في القرآن كله.[2]

٣) مرونة السياق القرآني وحيويته:

السياق القرآني يمتلك مرونة وحيوية تمنح المجتهد فرصة لإعمال عقله -وفق ضوابط الاجتهاد وشروط التفسير، ومن ذلك ما سبق الحديث عنه في فوائد السياق القرآني من التنوع الدلالي، فالنص الواحد قد يحتمل عدة معانٍ كلها صحيحة صريحة، فهو يمنح أكبر قدر ممكن من المعاني. والإحكام الذي وصف الله تعالى به كتابه الكريم لا يتنافى مع تنوع الدلالات، وهذا التنوع لا تناقض فيه ولا تعارض، أو لا ينشأ عنه تناقض أو تعارض.[3]

▪ خامساً: ضوابط السياق القرآني:

إنَّ مرونة السياق القرآني لا تسمح بالفوضوية في التفسير، أو بالخروج عن حدود فهم النصِّ، فلابد أن يكون للسياق ضوابطه وأسسه التي تضبطه وتحدده، ولكل فنٍّ أو علم ضوابطه التي تحدد اتجاهه، وتضبط مساره، وكلما اتضحت هذه الضوابط كلما امتلك هذا العلم استقلالية ووضوحاً، حتى يصبح الخروج عن هذه الضوابط أمراً غير مستساغ، وضوابط السياق القرآني ذات علاقة وثيقة بأصول علم التفسير، أو بالتفسير المقبول أو الصحيح، وأهمها ما يأتي:

١) الضابط الأول: دلالة النقل:

والمقصود به كل ما صحَّ نقله عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من تفسير وبيان لآية بعينها، سواء كان ذلك من تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنة، فمن الأول: ما رواه الشيخان عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: لمَّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[4]، شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: أيُّنَا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إنَّه ليس بذلك، ألا تسمعون إلى قولِ لقمانَ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾)[5]، ففسر الظلم بالشرك.[6]. ومن الثاني:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٢) انظر: المثنى عبدالفتاح، نظرية السياق القرآني، ص٥٨.

(٣) انظر: المرجع نفسه، ص٧٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٥) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٦) سبق تخريجه، انظر: فوائد السياق من هذا المبحث.

ما رواه الإمام مسلم عن عقبة بن عامر –رضي الله عنه– قال: سمعتُ رسولَ اللهِ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ– وهو على المنبرِ يقول: (﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾(١) ألا إنَّ القوةَ الرميُ. ألا إنَّ القوةَ الرميُ. ألا إنَّ القوةَ الرميُ)(٢).

وإنَّ تَبيين القرآن هي مهمة النبي –صلى الله عليه وسلم– بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾(٣)، وقد أفرد شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: "مقدمة في أصول التفسير" فصلاً بعنوان: "في أن النبي –صلى الله عليه وسلم– بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن" قال فيه: (يجب أن يُعلم أنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– بيَّن لأصحابه معاني القرآن، كما بيَّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ يتناول هذا وهذا)(٤). والمقصد من هذا أنَّ دلالة النقل هي من أهم أركان التفسير، والتفسير من أهم أركانه: عدم الخروج عن السياق.(٥)

٢) الضابط الثاني: دلالة اللغة:

إنَّ الله –سبحانه وتعالى– قد أنزل هذا القرآن بلسان العرب ولغتهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾(٦)، وإنَّ دلالات المفردات وقواعد أو نحو التركيب ضابطٌ للتفسير، وكذلك ضابط للسياق.

واللفظ الواحد في القرآن الكريم قد يكون له دلالات متعددة، وقد تختلف هذه الدلالات بحسب السياق، وهذا السياق لابد أن يكون له ضابط من دلالة لغة العرب التي نزل بها هذا القرآن، وقد يكون للفظ معنى مشهور معروف لدى اللغويين، ومعنى غير مشهور، والذي يتبادر للذهن أولاً هو المعنى المشهور، ومما يصرف الدلالة من المعنى المشهور إلى المعاني الأخرى هو سياقات اللفظة القرآنية. ومن ذلك كلمة (الضرب) فإنها تأتي بمعنى الضرب باليد، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾(٧)، أو الضرب بالسلاح، كما قال

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٢) رواه مسلم، انظر: صحيح مسلم، كتاب٣٣: (الإمارة)، باب٥٢: (فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه)، الحديث رقم: (١٩١٧)، ج٣/ ص١٥٢٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٤) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص٣٥.

(٥) انظر: المثنى عبدالفتاح، نظرية السياق القرآني، ص١٢٨.

(٦) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ – ١٩٥.

(٧) سورة النساء، الآية: ٣٤. قال العلماء: يضربها ضرباً غير مبرّح، قال عطاء قلت لابن عباس–رضي الله عنهما–: ما الضرب غير المبرّح؟ قال: بالسواك ونحوه. انظر: الطبري، جامع البيان، ج٦/ ص٧١٠–٧١٢.

تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾[1]، وتأتي بمعنى السير في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[2]، وتأتي بمعنى الوصف، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3]، وتأتي بمعنى الذكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾[4]، وتأتي كذلك بمعنى البيان، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[5]، فهذه خمسة معانٍ للفظة واحدة، والذي يدلنا على المعنى المراد هو السياق القرآني، وهذا السياق مضبوط بضابط هو دلالة اللغة، فكل هذه المعاني الخمسة واردة في لغة العرب معروفة عنهم، قد بينها العلماء في كتب الأشباه والنظائر وغيرها.[6]

٣) الضابط الثالث: دلالة العقل والحس:

دلالة العقل والحس –أو صريح العقل وسليم الحس– لها أهمية في فهم السياق القرآني؛ لأنَّ الكلام لا يجوز أن يُحمل على معنى يخالف العقل أو الحس، وهذه الدلالة تُسقط كلَّ معنى يحمله لفظ يخالفها أو إن هو خالفهما، فإذا دلَّ صحيح العقل وسليم الحس على استحالة فهم النص على حقيقته وجب تأويله[7] حسب ما يتفق معهما، والمعتبر في دلالة العقل والحس (هي الدلالة التي يتفق عليها العقلاء، ويقطع بها أصحاب الألباب، فلا يجادل فيها مجادل، ولا يماري فيها ممارٍ).[8]

ولكنَّ هذا الضابط يحتاج إلى موازنة دقيقة بين الإفراط فيه والتفريط به، والإمام الغزالي –رحمه الله– (المتوفى سنة ٥٠٥هـ) له كلام جيد في هذا يقول: (وأنَّى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر... وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل

---

(١) سورة محمد، الآية: ٤.

(٢) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٣) سورة النحل، الآية: ٧٤.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٥٧.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.

(٦) انظر: المثنى عبدالفتاح، نظرية السياق القرآني، ص١٣١.

(٧) وقد توسع الإمام الغزالي –رحمه الله– في التأويل، حتى كاد ألَّا يردَّ منه شيئاً، وأورد درجات للتأويل، وأعقبها بقانون التأويل، فقال: (فقد عرفت اتفاق الفرق على هذه الدرجات الخمس في التأويل، وأنَّ شيئاً من ذلك ليس من حيز التكذيب، واتفقوا أيضاً على أنَّ جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر، والظاهر الأول هو **الوجود الذاتي**، فإنَّه إذا ثبت تضمن الجميع، فإن تعذر **فالوجود الحسي**، فإنَّه إن ثبت تضمن ما بعده، فإن تعذر **فالوجود الخيالي أو العقلي**، وإن تعذر **فالوجود الشبهي المجازي**، ولا رخصة للعدول عن درجة إلى ما دونها إلا بضرورة البرهان)، وقد شرح المقصود بتلك الدرجات ومثل لها قبل نصه هذا. انظر: محمد بن محمد الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق: محمود بيجو، بدون دار النشر ومكانه، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٤٧.

(٨) المثنى عبدالفتاح، نظرية السياق القرآني، ص١٤٢.

واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر... فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغني إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء، فالمعرض عن العقل مكتفياً بنور القرآن مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور).(١) إنَّ هذا النص يربط بين الضابط الأول والضابط الثالث فالمطلوب الجمع بينهما، دون الاقتصار على أحدهما وإهمال الآخر، والجمع بينهما ممكن غير متعذر.

***

وهناك ضوابط أعمُّ من السياق فهي ضوابط تشمل التفسير بشكل عام، ولكنها ذات صلة بالسياق ولها أهمية في ضبطه، مما يجب ملاحظتها، والاهتمام بها، وعدم إهمالها، ومن ذلك: **العلم بأسباب النزول** مما صح نقله عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وعن أصحابه –رضي الله عنهم–، فإنَّ العلم بها مما يعين على فهم المعنى الذي لأجله سيقت الآيات، ولا يتعارض السياق المعنوي مع السياق الزمني لنزول الآيات القرآنية، ومن متعلقات السياق أيضاً **العلم بالمكي والمدني**، فلا يخفى على القارئ المتدبر لكتاب الله اختلاف الأسلوب والسياق بين آيات المكي وآيات المدني، فلكل منهما سياقه الذي يستدعيه طبيعة المقصد. فالمكي اعتنى بالعقيدة الصحيحة، وإثباتها للمنكرين، وتثبيتها للمؤمنين، ونبذ كل ما ينافيها، والمدني اعتنى بالتشريع وأحكامه، ولكلٍ منهما السياق الذي يتناسب معه، والعلاقة بين المكي والمدني مع السياق علاقة تبادلية فالسياق يدل على المكي والمدني، والمكي والمدني يعين على فهم السياق.(٢)

ومنها **معرفة جو السورة**، والمقصود بجو السورة: **المعنى الذي يسيطر عليها من المطلع إلى الختام**، إنَّ كل سورة لها جو يسود فيها من بداية السورة حتى نهايتها، ولكن اكتشاف هذا الأمر ليس بالأمر السهل فهو يحتاج إلى إنعام النظر، ومزيد التأمل، وكلما كانت السورة أطول كلما كان اكتشاف ذلك أشق، وليس المقصود من جو السورة موضوعها، وإنما أسلوبها، أو ما عُبّر عنه بحركة المعنى، ومن الأمثلة على جو السورة ما يتضح للقارئ المتدبر لكتاب الله من جو سورة القمر، وسورة المرسلات على سبيل المثال. إن إدراك ذلك يعين على فهم السياق وضبطه.(٣)

---

(١) محمد بن محمد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق: موفق فوزي الجبر، دار الحكمة، دمشق– سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٢١-٢٢.

(٢) انظر: المثنى عبدالفتاح، نظرية السياق القرآني، ص١٥٣.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٥٧.

هذه أهم ضوابط السياق القرآني، وبه يُختتم هذا المبحث، وهو ييسر الدخول للمباحث الآتية التي تبحث في السياق القرآني في آيات الطبيعة..

***

• المبحث الثاني: السياقات القرآنية في آيات الطبيعة.

يلحظ القارئ لآيات الطبيعة أنَّها –في الغالب– لا تخرج عن أحد سياقات ثلاثة، فإمَّا أن تأتي في سياق الخلق وإبداع الخالق –سبحانه– لمكونات هذه الطبيعة، أو تأتي في سياق تسخير هذه المكونات للإنسان وانتفاعه بها، أو تأتي في سياق الاستدلال بها على الله، واليوم الآخر، وسائر قضايا القرآن الكريم ومقاصده، وهذه هي السياقات العامة لآيات الطبيعة –حسب ما ظهر والله أعلم– والتعبير القرآني الكريم في هذه السياقات جميعاً يوازن بين "**الوفاء بالمعنى مع الاقتصاد في اللفظ**" ومع مراعاة السياق، فالألفاظ فيها تعبر عن أصح المعاني حسب ما يتناسب مع السياق من الكلام السابق والكلام اللاحق، في سلك من الألفاظ بديع، ونظم من المعاني بليغ، **ولا يقدر على هذه الموازنة أحد من البشر بالغاً ما بلغ في الفصاحة والبلاغة، فإن جنح إلى جانب فإنه يحيف على الآخر**(١)، **وهذه تعدُّ سمة من سمات الإعجاز البياني في القرآن بوجه عام، وفي آيات الطبيعة بوجه خاص،** وهذا المبحث يعرض هذه السياقات الثلاثة مع أمثلة على كل واحدٍ منها:

▪ أولاً: سياق الخلق والإبداع:

الخلق في كلام العرب على وجهين؛ أَحدهما: الإِنْشاء وابتِداع الشيء على مِثال لم يُسبق إليه، وكل شيء خلَقه الله فهو مُبْتَدِئه على غير مثال سابق؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾(٢)، والآخر: التقدير، قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٣)، معناه: أَحسن المُقدِّرين.(٤)

إنَّ التأمل في مخلوقات الله تعالى، والتدبر في كيفية خلق الله لها، وإبداع صنعه فيها أمرٌ مطلوب من كل عاقل، وقد حثَّ القرآن الكريم على ذلك في مواضع متعددة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾(٥). وإنَّ سياق

---

(١) انظر: محمد عبدالله دراز، النبأ العظيم، ص١٠٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٤) وانظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (خلق)، ج١٠/ ص٨٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

الخلق والإبداع أول السياقات تبادراً إلى الذهن عند الحديث عن آيات الطبيعة، فهو السياق الذي يتحدث عن نشأة هذا الكون وبدايته بما يحتويه من أجزاء ومكونات صغيرة أو كبيرة.

➢ ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢)﴾[1]. فقوله تعالى: (بناها)، وقوله: (دحاها) يدلّان على أنَّ هذه الآيات جاءت في سياق الخلق، تحدثت الآيات فيه عن بدء الخلق، وهذه الآيات جاءت بعد قصة موسى مع فرعون، وإهلاك الله لفرعون بعد تكبره عن الحق، وطغيانه على الخلق، ومناسبة سياق الخلق هنا بيان القدرة، وقد ابتدأ المقطع بذلك فقال –عز من قائل–: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، ففي ذلك بيان لقدرة الله سبحانه على إنشاء هذا الكون العظيم، لذا فإنَّه لا يعجزه أحد في السماوات ولا في الأرض، وفي ذلك تنبيه للإنسان أنَّه مهما بلغت قدرته وقوته ينبغي له ألَّا يتعالى على الحق أو أن يطغى، فإن الله مقتدر عليه، ثم جاءت الآيات التالية لهذا السياق تتم هذا المعنى ببيان عاقبة الطغيان وعاقبة التقوى، ثم بيان أنَّ مردَّ الخلق جميعاً إلى الله، وذلك بقيام الساعة، وأنَّ الحياة الدنيا لم تكن إلا كعشية أو ضحاها.

➢ ومن سياق الخلق والإبداع: قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١) فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (١٢)﴾[2]، في هذه الآيات جاء الحديث عن مراحل الخلق والتكوين للسماوات والأرض وما بينهما، والحديث عن هذه المراحل يدلُّ على أن الآيات هنا قد جاءت في سياق الخلق، وهذه المراحل يمكن بيانها على النحو الآتي:

١) خلق السماوات والأرض في ستة أيام.
٢) تم خلق السماوات والأرض بشيء من التدريج: خلق الأرض في يومين، خلق الجبال فيها وتقدير الأقوات في يومين آخرين، وخلق السماوات سبعاً في يومين.
٣) كانت السماء دخاناً، فجعلها الله سبع سماوات طباقاً.
٤) جعل النجوم والكواكب في السماء الدنيا، زينة وحفظاً.

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ٢٧-٣٢.

(٢) سورة فصلت، الآيات: ٩-١٢.

٥) السماوات والأرض مطيعتان لله، منفذتان لأمره.[١]

يربط الإمام الرازي –رحمه الله– بين هذه الآيات وما سبقها فيقول: (اعلم أنَّه تعالى لما أمر محمداً –صلى الله عليه وسلم– في الآية الأولى أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ ﴾[٢] أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية، وذلك بأن بيَّن كمال قدرته وحكمته في خلق السماوات والأرض في مدة قليلة، فمن هذا صفته كيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية؟ فهذا تقرير النظم)[٣]، وقد سبق القول بأن بعض العلماء والمفسرين يستعملون كلمة النظم ويقصدون بها السياق، وهذا مثال لذلك، فالرازي هنا يقصد السياق ولكنه عبر عنه بالنظم، وذلك من باب التجوز في العبارة [٤].

وإذا كان الإمام الرازي قد وضح مناسبة سياق الخلق وبيان القدرة في هذه الآيات بما قبله، فإن الزمخشري –رحمه الله– يوضح مناسبة هذا السياق بما بعده من قوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾[٥] فيقول: (فإن أعرضوا بعد ما تتلوا عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته، فحذرهم أن تصيبهم صاعقة...)[٦].

وجو السورة –سورة فصلت– منسجم مع هذا السياق أتمّ الانسجام، فالسياقات الداخلية تنسجم مع السياق العام للسورة، ذلك أنَّ (قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هي التي تعالجها هذه السورة، الألوهية الواحدة، والحياة الآخرة، والوحي والرسالة، يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخُلق الداعية. وكل ما في هذه السورة هو شرح لهذه الحقائق، واستدلال عليها، وعرض لآيات الله في الأنفس والآفاق..)[٧].

➢ يأتي في سياق الخلق والإبداع الحديث عن عظمة الخلق الدالِّ على عظمة الخالق سبحانه، ويكون ذلك مضمناً في **آيات القسم** بمكونات الطبيعة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧

(١) الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص٤٠١.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٦.
(٣) تفسير الفخر الرازي، ج٢٧/ ص١٠٢.
(٤) ورد بيان ذلك في المبحث الأول من هذا الفصل، انظر فقرة: الفرق بين السياق والنظم والمناسبة.
(٥) سورة فصلت، الآية: ١٣.
(٦) الكشاف، ج٥/ص٣٧٣.
(٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥/ص٣١٠٥.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾[١]، والقسم هنا ولفظ (بناها)، و(طحاها) كلٌ ذلك يدلُّ على أنَّ هذه الآيات جاءت في سياق الخلق.

➢ **إنَّ الآيات التي تحدثت عن أهوال يوم القيامة يمكن بوجه من الوجوه أن تكون داخلة في سياق الخلق والإبداع؛ ذلك أنَّ تلك الآيات تعطي حالة معاكسة لما كان عليه بدء الخلق،** فكما سارت مكونات الطبيعة على نواميس كونية سنَّها الله لها بقدرته -جل وعلا-، فإنَّ تلك النواميس تختل بقدرته أيضاً -سبحانه وتعالى- ووفقاً لمشيئته. إنَّ مكونات الطبيعة لها صورة في الحياة الدنيا غاية في الإبداع، على هيئة تصلح للانتفاع، يراها الإنسان فتقوده إلا كامل الاقتناع بأن الله هو الخالق البارئ المصور -سبحانه- المستحق للعبادة والشكر، ثمَّ إنَّ القرآن الكريم يأتي في مواضع أخرى فيخبر عن هذه المخلوقات، ويصورها بصورة غير الصورة التي عُهدت عنها، فالأرض تبدل غير الأرض والسماوات؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝٤٨﴾[٢]، ذلك هو سياق أهوال يوم القيامة، إنَّه يوم عظيم تتغير فيه الموازين ويضطرب فيه كل شيء، إنَّها زلزلة عظيمة كما أخبر عنها تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾[٣].

➢ والأرض التي وصفها التعبير القرآني في مواضع بأنَّها قرار، وبساط، وفراش، يأتي عليها يوم تدك فيه دكاً، بل تحمل المخلوقات العظيمة كالأرض والجبال فتدك دكةً واحدةً، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤﴾[٥]، فالأرض في يوم القيامة تميد بأهلها بعد أن كانت قراراً ومستقراً، فتدك دكاً دكاً: أي دكاً بعد دك فكرر عليها الدك حتى عادت هباء منبثاً.[٦]

➢ وأخبر الله -سبحانه- عن الأرض يوم القيامة، فقال-عز من قائل-: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾[٧]، في ذلك

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ١-١٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الحج، الآيتان: ١-٢.

(٤) سورة الفجر، الآية: ٢١.

(٥) سورة الحاقة، الآية: ١٤.

(٦) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٦/ ص٣٧٣.

(٧) سورة الزلزلة، الآيات: ١-٤.

اليوم العظيم تحرك الأرض تحريكاً شديداً، وأصل الزلزال والزلزلة من الزلل: وهو زلق القدم، فيقال: زلت به القدم، أي زلق، ولما كان المعنى شدة الزلل ضُعّف الفعل، فقالوا: زلزال؛ "والزيادة في المبنى زيادة في المعنى". والتأكيد بالمفعول المطلق في قوله: (زلزالها)؛ لأنَّ الأرض تزلزل قبل يوم القيامة -كما يُرى ذلك في مشارق الأرض ومغاربها- ولكن زلزالها الشديد الذي يعمها جميعاً هو ما يكون يوم القيامة عندها تحدث أخبارها. كما أنَّ في ذلك موافقة لسائر رؤوس الآيات بعدها، فحسن ذلك[١]، كما أنَّ إضافة الزلزال إلى ضمير الأرض فيه تناسب مع ما بعدها من إخراج الأرض أثقالها، وتحدثها بأخبارها، وفي ذلك بيان لهول وعظمة ذلك الزلزال؛ فالفرق واضح بين قولنا: أكرمت زيداً كرامةً، وأكرمت زيداً كرامته[٢]. وقد جاء الفعل مبنياً للمجهول: (زُلزلت)، وهي ظاهرة بيانية كثيراً ما تأتي في الآيات التي تتحدث عن يوم القيامة، فلا يسند الفعل إلى فاعله مع العلم به، بل يُصرف الحدث عن محدثه، ذلك أنَّ التعبير القرآني يلفت المتلقي للتركيز على الحدث.[٣]

➢ وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥﴾[٤]، في هذه السورة اقترن ذكر حال السماء وحال الأرض في أهوال يوم القيامة، فالسماء التي أخبر عنها سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾[٥]، وقال عنها سبحانه: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦﴾[٦]، روى ابن جرير -رحمه الله- عن سفيان -رحمه الله- في معنى قوله تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ قال: من شقوق[٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾، أي: ليس فيها شقوق، أو فتوق، أو صدوع[٨]، فهي مبنية بإحكام فقد رفع سمكها فسواها. ولكنَّ هذه السماء في يوم القيامة تنشق، وتنقاد لأمر ربها، وحق لها أن تسمع[٩]، عندها ستفتح

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٤/ ص٥٥٨. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٤٩١.
(٢) انظر: عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة- مصر، الطبعة السابعة، ب ت، ج١/ ص ٨٣.
(٣) انظر: المرجع نفسه، ج١/ ص ٨٠-٨١. وانظر: عائشة عبدالرحمن، إعجاز القرآن البياني، ص٢٤٢.
(٤) سورة الانشقاق، الآيات: ١-٥.
(٥) سورة الملك، الآيات: ٣-٥.
(٦) سورة ق، الآية: ٦.
(٧) الطبري، جامع البيان، ج٢٣/ ص١٢١.
(٨) انظر: المرجع نفسه، ج٢١/ ص ٤٠٨.
(٩) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٦/ ص٣٤٢.

فتكون أبواباً، وتكون كالمهل، وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾[1]، سأل نافع بن الأزرق ابن عباس –رضي الله عنهما– عن قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾، فقال: (منصدع من خوف يوم القيامة)[2]. واستشهد بقول الحطيئة:

طبَاهنَّ حتى أَعوصَ الليل دونَها * أفاطِيرُ وَسْمِيٍّ رَواءٍ جُــذورُها**[3]

➢ أمَّا الأرض فقال عنها تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥﴾، ومَدُّ الأرض بإزالة جبالها ونسفها، حتى تغدو بارزة كالأديم إذا مُدَّ استوى وزال كل انثناء فيه، وقيل: مَدُّ الأرض من مَدَّ بمعنى أَمَدَّ أي: زِيْدَ في سعتها حتى تتسع لوقوف الخلائق عليها في يوم الحساب[4]، ويشفع لهذا المعنى ما رُوي عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم– أنَّه قال: (إذا كان يوم القيامة مَدَّ الله الأرض حتى لا يكون لبشرٍ من الناس إلا موضع قدميه...)[5]. وهذا المَدُّ مختلف عن المَدِ الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ۝١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾[6]؛ لأنَّ مَدّها في يوم القيامة بإزالة جبالها كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ۝١٠٧﴾[7]، فهنا إزالة ما كان يرسيها فلا ترى في الأرض اعوجاجاً أو نتوءات، بينما في بدء الخلق أعقب المدُّ في الأرض بإلقاء الجبال الرواسي فيها، حتى لا تميد بأهلها قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥﴾[8]. إنَّ الجبال التي كانت تثبت الأرض، وترسيها، تُفتت يوم القيامة وتبس بساً، والبس: هو تفريق الأجزاء المجتمعة

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١٨.

(٢) انظر: الاتقان، للسيوطي، ج٣/ ص٨٨٦–٨٨٧، وانظر: عائشة عبدالرحمن "بنت الشاطئ"، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق–دراسة قرآنية لغوية وبيانية، ص٥٠٥.

(٣) طباهن: دعاهن، أعوص: اشتد، الأفاطير: أول النبت، والوسمي: مطر الربيع. وقد جاء البيت على هذا النص في كتاب بنت الشاطئ، وفي ديوان الحطيئة على النحو الآتي: **طباهُنَّ حتى أطفلَ اللّيلُ دُونَها *** نفاطيرُ وسميٍّ رواءٌ جُذورها**
انظر: ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٠٤.

(٤) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٣١/ ص١٠٥.

(٥) رواه الطبري في جامع البيان، انظر: ج٢٤/ ص٢٣٢.

(٦) سورة الحجر، الآيات: ١٩–٢٠.

(٧) سورة طه، الآيات: ١٠٥–١٠٧.

(٨) سورة النحل، الآية: ١٥.

وتفتيتها، فتكون الجبال كالهباء[1] المفرق[2]، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾[3]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾[4]، وجيء معه بالفعل الماضي إشارةً لتحقيق وقوعه وكأنَّه قد أصبح في الماضي، ولم يأتِ بالصيغة نفسها في الأرض بل جاء بالمضارع فقال: ﴿تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ لأنَّ رجف الأرض معروف -وإن كان في ذلك اليوم أعظم-، أمَّا تصيير الجبال كثيباً مهيلاً فهو أمر غير معروف فناسب تأكيده وتحقيق وقوعه بصيغة الماضي[5]. ذلك يوم عظيم تشيب منه رؤوس الولدان، كما أخبر عنه -عز وجل-: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾[6]. والجبال التي يركن إليها الإنسان في الشدائد لا تغني عنه شيئاً، فلا عاصم في ذلك اليوم العظيم من أمر الله، إنَّها تنسف نسفاً، فتصبح قاعاً صفصفاً، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾[7]، إنَّ الله -عز وجل- ينسف الجبال نسفاً، فيدع أماكنها أرضاً ملساء مستوية، لا زرع فيها ولا نشز أو ارتفاع.[8]

➢ جاء تشبيه الجبال في يوم القيامة بالعهن في موضعين من كتاب الله، في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾[10]، والعهن: هو الصوف الملون، ونفشه مده حتى ينتفش بعضه على بعض[11]، وفي السورتين شُبِّهتْ الجبال بالعهن، ولكن في سورة المعارج اكتُفِي بالتشبيه دون

---

(١) الهباء: قيل: التراب الذي تطيره الريح، فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم، وقيل: ذرات دقيقة لا تكاد ترى بالعين، إلا إذا كانت في مسار خيوط الشمس المنبثقة من كوة أو نحوها. وانظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (هبا)، ج١٥/ ص٣٥٠-٣٥١.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧/ ص٢٨٤.

(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٤-٦.

(٤) سورة المزمل، الآية: ١٤.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٩/ ص٢٧٢.

(٦) سورة المزمل، الآية: ١٧.

(٧) سورة طه، الآيات: ١٠٥-١٠٧.

(٨) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١٦/ ص١٦٣.

(٩) سورة القارعة، الآيات: ١-٥.

(١٠) سورة المعارج، الآيات: ٨-١٠.

(١١) وانظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (عهن)، ج١٣/ ص٢٩٧. وانظر: مادة (نفش)، ج٦/ ص٣٥٧.

وصف المشبه به، أمَّا في سورة القارعة فقد وُصِف المشبه به، فقال تعالى: ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾، وهذا من جمال التعبير القرآني، وذلك من عدة أوجه منها[1]:

١) أنَّه لمَّا وُصِفَ المشبه في الآية التي سبقتها في قوله: ﴿كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ ناسب أن يأتي في التالية موصوفاً كذلك، بينما في سورة المعارج الآية التي سبقتها لم يُوصَف المشبه، فقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾، فناسب ألَّا يوصف في الآية التالية لها، فقال: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾، فهذا تناسق بين أجزاء السياق.

٢) أنَّ وصف اليوم الآخر في سورة القارعة أشد هولاً، وأكثر تفصيلاً، فناسب ذلك أن يُفصِّل بوصف المشبه به.

٣) أنَّ تشبيه الناس بالفراش فيه تشبيه للأحياء بالأحياء، وتشبيه الجبال بالصوف فيه تشبيه للجمادات بالجمادات، وذلك من التناسق الفني البديع.

٤) أنَّ النفش يتناسب مع ذكر القارعة؛ لأنَّ القرع: هو الضرب بالعصا[2]، وهو من وسائل نفش الصوف.

٥) كما أنَّ تشبيه الجبال بالصوف الملون يتناسب مع ما أخبر الله به عن الجبال من أنَّها ألوان، قال تعالى:﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧﴾[3]، فكان التشبيه بالصوف الملون متناسقاً منسجماً مع ذلك.

٦) يضاف إلى ذلك تناسب الفاصلة بين المهل والعهن، وبين المبثوث والمنفوش.

إنَّ وصف حال الجبال يوم القيامة جاء على أكثر من صورة، والذي يظهر –والله تعالى أعلم– أنَّها تكون على مراحل، فتدك الجبال دكاً فتصبح قطعاً، وتنسف نسفاً، ثم تصبح كثيباً مهيلاً كالرمل، وتكون أشبه بالعهن المنفوش، ثم تبس بساً فتفتت، وتصبح كالهباء المنبث، والله تعالى أعلم–.

إنَّ الجدير بالإشارة والتأكيد هنا: أنَّ سياق الخلق والإبداع في الأعم الأغلب يأتي لبيان القدرة المستوجبة لكمال التعظيم للخالق جلَّ شأنه، فالخلق العظيم يدل على قدرة الخالق العظيمة.

▪ ثانياً: سياق التسخير والانتفاع:

---

(١) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ج٢/ ص٦١٧. وانظر: فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص١٩٨.

(٢) وانظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (قرع)، ج٨/ ص٢٦٣.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٧.

التسخيرُ: التذليلُ، وكل ما ذلَّ وانقاد أَو تهيأَ لك على ما تريد، فقد سُخِّرَ لك. وسَخَّرَهُ تسخيراً: كلفه عملاً بلا أُجرة، وكذلك تَسَخَّرَه. وسخَّره يُسَخِّرُه سِخْرِيّاً، وسُخْرِيّاً. وسَخَرَه: كلفه ما لا يريد وقهره. وكل مقهورٍ مُدَبَّرٍ لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر؛ فذلك مسخَّر. وقيل: السُّخريُّ بالضم من التسخير، والسِّخريّ بالكسر من الهُزْء. وقد يقال في الهزء: سُخري وسِخري، وأَما من السُّخْرَة فواحده مضموم، وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾(1)، فهو سُخرياً وسِخرياً، والضم أَجود. سِخْريّاً من سَخِر إذا استهزأ، وقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾(2)، أي: عبيداً وإماء وأُجراء، والتسخير: سوقٌ إلى الغرض المختص إما قهراً أو بإرادة المسخَر.(3) قال ابن فارس: (السين والخاء والراء أصلٌ مطّرد مستقيم يدلُّ على احتقار واستذلال، من ذلك قولنا: سَخَّر الله –عزَّوجَلَّ– الشيء، وذلك إذا ذللَه لأمره وإرادته... ويقال رجل سُخْرة: يُسَخَّر في العمل، وسُخْرة أيضاً، إذا كان يُسْخَر منه، فإن كان هو يفعل ذلك قلت سُخَرَة، بفتح الخاء والراء، ويقال: سُفُنٌ سواخِرُ مَوَاخِرُ، فالسَّواخر: المُطِيعة الطيِّبة الرِّيح، والمواخر: التي تمخَر الماءَ تشُقّه، ومن الباب: سَخِرت منه، إذا هزئت به.. وفي كتاب الله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾(4)).(5)

➢ من مِنَّة الله –سبحانه – أن سخَّر الأرض، وجعل للناس فيها معايش؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(6)، ومن امتنانه عليهم أن خلق لهم ما في الأرض جميعا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾(7). و الله –جلَّ جلاله– في أكثر من موضع في كتابه العزيز يَمتَنُّ على عباده –وله المنة من قبل ومن بعد– بتسخير ما في السماوات والأرض لهم؛ لينتفعوا بما خلق الله لهم، وليهتدوا إلى صراطه المستقيم، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: ١١٠.

(2) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (سخر)، ج٤/ ص٣٥٢. وانظر: الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة (سخر)، ص٢٢٧.

(4) سورة هود، الآية: ٣٨.

(5) معجم مقاييس اللغة، مادة (سخر)، ج١/ ص٥٩٢.

(6) سورة الأعراف، الآية: ١٠.

(7) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾﴾[1]، فهذا نصٌّ صريح في تسخير ما في السماوات وما في الأرض لعباده، قال الزجاج: (تسخير ما في السماوات الشمس والقمر والنجوم، ومعنى تسخيرها للآدميين: الانتفاعُ بها في بلوغِ مَنابِتِهم، والاهتداءُ بالنجوم في مسالكهم، وتسخيرُ ما في الأَرض: تسخيرُ بِحارِها وأَنهارِها ودوابِّها وجميعِ منافِعِها)[2].

➢ وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾﴾[3]، لذا فأن سياق التسخير من السياقات الواردة بكثرة في آيات الطبيعة؛ فالتسخير والانتفاع غاية من غايات خلق الله -عزَّ وجلَّ- لهذه المخلوقات والكائنات، وذلك يذكر تصريحاً أو ضمناً في كثير من آيات الطبيعة.

➢ ومن الآيات التي جاء التصريح فيها بلفظ التسخير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[4]، كما جاء التصريح بلفظ التسخير في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾﴾[5]، وفي هذا الموضع تكرر لفظ التسخير أربع مرات، مع الفلك، ومع الأنهار، ومع الشمس والقمر، وكذلك مع الليل والنهار، ومعنى تسخير الفلك: تسخير ذاتها بإلهام الناس كيفية صنعها، وتهيئة الريح لسيرها في البحر، وتسخير الأنهار: خلقها على كيفية تُمكن الناس من الانتفاع بما فيها من سقيا وغيرها، وتسخير الشمس والقمر: انتفاع الخلق بضيائهما، وحساب أوقاتهم بحركتهما الدائبتين [6]، وتسخير الليل والنهار: بما بيَّنه في مواضع أخرى من ابتغاء فضل الله والمعاش في النهار، والراحة والسكون في الليل. قال ابن

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، ج٤/ ص١٩٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٦٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٥.

(٥) سورة إبراهيم، الآيتان: ٣٢-٣٤.

(٦) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣/ ٢٣٥-٢٣٦.

عاشور –رحمه الله–: (فجملة ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ تعميم بعد خصوص، فهي بمنزلة التذييل لما قبلها... وجملة ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ تأكيد للتذييل، وزيادة في التعميم).[1]

➢ وجاء تكرار لفظ التسخير كذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾[2]، ويقترن لفظ التسخير مع البحر في أكثر من موضع كما في هذه الآيات –ويندر أن يجوع قوم أو يفتقروا وهم على شاطئ البحر– وقد اقترن لفظ التسخير بالبحر كذلك في قوله تعالى: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)﴾[3]، وفي هاتين الآيتين تكرر لفظ التسخير، كما تكرر قوله: (لكم)، وجاء فيها قوله: (لتبتغوا من فضله)، وكذلك جاء التذييل بقوله: (ولعلكم تشكرون)، وكلُّ هذا يدلُّ على أنَّها جاءت في سياق التسخير والانتفاع.

➢ وإذا لم يأتِ التصريح بلفظ التسخير في هذا السياق فإنَّها تتضمن مفردات تدل عليه، كابتغاء الفضل من الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)﴾[4]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾[5].

➢ ويأتي كثيراً في هذا السياق بيان أنَّ هذا الصنيع لهذا الكون (لكم) أيُّها الناس، فيدلُّ ذلك على أن السياق سياق التسخير والانتفاع، جاء هذا وسابقه في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)﴾[6]، كما جاء لفظ (لكم) مرتين في

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) سورة النحل، الآيات: ١٢-١٦.

(٣) سورة الجاثية، الآيتان: ١٢-١٣.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

(٥) سورة فاطر، الآية: ١٢.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٦٦.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1]، كما تكرر في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3]، كما جاء لفظ (لكم) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾[6]، وفي قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾[7]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[9]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ٨٠-٨١.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ١٧-٢٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.

(٥) سورة طه، الآية: ٥٣.

(٦) سورة الفرقان، الآيات: ٤٧-٤٩.

(٧) سورة النمل، الآية: ٦٠.

(٨) سورة يس، الآية: ٨٠.

(٩) سورة غافر، الآية: ٦٤.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾[2]، وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾[3]، وجميع هذه المواضع جاءت في سياق التسخير والانتفاع.

➢ وجاء لفظ (لكم) تعقيباً على جملة من مكونات الطبيعة مبيناً سبحانه أنَّ ذلك متاع للناس ولأنعامهم، في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾[4]، فإنَّ الله سبحانه وتعالى (لمَّا عدد النعم في "الإنسان" نفسه: أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه... إنَّ الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره..)[5].

➢ ومن أمثلة هذا السياق: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾[6]، فقوله سبحانه: (بما ينفع الناس)، وقوله: (السحاب المسخر) يدلان على أنَّ هذه الآية جاءت في سياق التسخير. **إنَّ مجرد وجود لفظ التسخير ليس دليلاً كافياً للقول بأنَّ الآية في سياق التسخير،** ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾[7]، فقد جاء لفظ التسخير في هذه الآية، ولكنّها في سياق الاستدلال وليست في سياق التسخير، وسيأتي بيان لهذه الآية.[8]

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١٠-١٤، وقد جاء التصريح بالتسخير في هذه الآيات كذلك.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٣) سورة نوح، الآيات: ١٥-٢٠.

(٤) سورة عبس، الآيات: ٢٤-٣٢.

(٥) الزمخشري، الكشاف، ص: ٣١٦ و ٣١٨.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٧) سورة الزمر، الآية: ٥.

(٨) انظر: المبحث الرابع من هذا الفصل: اختلاف التعبير القرآني باختلاف السياق، ثانياً: التعبير عن الليل والنهار واختلافه باختلاف السياق.

وإذا كان سياق الخلق والإبداع أغلب ما يأتي لبيان القدرة المستوجبة لكمال التوحيد لله **فإنَّ سياق التسخير والانتفاع الأغلب الأعم فيه أن يأتي لبيان النعمة والامتنان على العباد**، المستوجب لكمال الشكر، والحمد لصاحب الفضل سبحانه.

▪ ثالثاً: سياق الاستدلال والإقناع:

ترد آيات الطبيعة في القرآن الكريم كثيراً في سياق الاستدلال والإقناع، وبخاصة فيما يتعلق بإثبات الوحدانية، وأنَّ الخلق والملك والأمر لله وحده، وإثبات الوحدانية من أعظم مقاصد القرآن الكريم، وتساق لأجل إثبات ذلك الحجج، والأدلة المنطقية العقلية التي تدرك بالتأمل والتدبر، والأدلة المشاهدة التي تدرك بمجرد النظر بقلب حاضر، وسمع شهيد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]، والله العزيز العليم -سبحانه- قد بثَّ في الأرض آيات ودلائل، ولكن لا يعقلها إلا العالمون، قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

➢ ومن الآيات التي كثيراً ما تأتي في سياق الاستدلال تلك التي تتحدث عن إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، كقوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾[3]، وهذا سياق طويل جاءت فيه أجزاء ومكونات عديدة من الطبيعة، وتجتمع هذه المكونات في قضية واحدة هي إثبات القدرة على البعث، والاستدلال ببدء الخلق على إعادته،

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٠.

(٣) سورة الروم، الآيات: ١٩-٢٧.

والإعادة أهون من البدء، وكلاهما هين عليه سبحانه، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي السياق ألفاظ عديدة تدلُّ على أنه سياق الاستدلال، ومن ذلك قوله: (وكذلك تخرجون).

➢ ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، فهذه الآية جاءت في سياق الاستدلال على تمام الملك مع كمال القدرة، وقد جاءت استدلالاً للآية السابقة له من قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]، فالآية تخبر عن تمام ملك الله، فيعز ويذل من يشاء، وكل الخير بين يديه، وذلك لا يكون إلا مع كمال القدرة، فجاءت الآية التالية لها استدلالاً على ذلك، بأنَّ من كمال قدرة الله وملكه للكون أنَّه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويرزق من يشاء، وهذه صفات ليست إلا لله، لا يقدر عليه غيره سبحانه، حتى أنَّ المشركين يقرّون بذلك، وهو ما يعرف بتوحيد الربوبية: توحيد الله بأفعاله سبحانه.

➢ وقريب منه الآيات التي يأتي الحديث فيها عن إحياء الأرض بعد موتها؛ لأجل إثبات إحياء الخلق بعد موتهم، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ﴾[3]، والتعقيب بعد هذه الآيات بقوله: (إن ذلك لمحيي الموتى) يدلُّ على أنَّها جاءت في سياق الاستدلال.

➢ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾[4]، فالتعقيب بقوله: (كذلك تخرجون) يدلُّ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الروم، الآيات: ٤٨-٥٠.

(٤) سورة الزخرف، الآيات: ٩-١١.

مثل سابقه على أنَّها جاءت في سياق الاستدلال، على أنَّه قد أُدمج مع سياق الاستدلال سياقُ التسخير في هذه الآية، وسيأتي الحديث عن الإدماج في المبحث التالي.

➢ ومن آيات الطبيعة التي جاءت في سياق الاستدلال قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾(١)؛ لأنَّ هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾(٢)، وفي ذلك إشارة خفية للمؤمنين، وبشارة لمن يطمع في حياة قلبه بعد قسوته، بأنَّ الذي يحيي الأرض بعد موتها هو كذلك يحيي القلوب بعد قسوتها، فتخشع لذكر الله، فاستدلَّ على هذا بذلك.

➢ ومما جاء في هذا السياق قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾(٣)، فهذه الآيات جاءت في سياق الاستدلال، **فآيات الطبيعة التي تبدأ باستفهام في أغلبها تكون في هذا السياق: سياق الاستدلال والإقناع.** وقد افتتحت السورة بسؤال تشويقي، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٥﴾(٤)، واختلف المفسرون في المراد بالنبأ العظيم قيل: القرآن، وقيل: البعث(٥)، وقال ابن عاشور -رحمه الله-: (وسوق الاستدلال بقوله: (ألم نجعل الأرض مهادا) إلى قوله: (وجنات ألفافا) يدلُّ دلالة بينة على أنَّ المراد بالنبأ العظيم الإنباء بأنَّ الله واحد لا شريك له)(٦)، ولكنَّ سياق الآيات بالتعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠﴾(٧) يؤيد قول من فسر النبأ العظيم بأنه يوم البعث، والله أعلم بمراده.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٧.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٣) سورة النبأ، الآيات: ٦-١٦.

(٤) سورة النبأ، الآيات: ١-٥.

(٥) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٤/ ص٥-٦.

(٦) التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص١٠.

(٧) سورة النبأ، الآيات: ١٧-٢٠.

والآيات التي تحدثت عن عبودية الكائنات في الطبيعة يمكن أن تدخل في سياق الاستدلال بوجه من الوجه، ذلك أنَّ الهدف المقصود في الغالب من إيرادها الاستدلال على وجوب عبودية الثقلين، فاستُدِلَّ بانقياد هذه المخلوقات العظيمة وطاعتها لله على وجوب طاعة وانقياد جميع المخلوقين له سبحانه. والعبودية تتضمن كمال الحب مع كمال الذل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة).[1] وهناك مَن فَرَّق بين العبودية والعبادة، فجعل العبودية: الرضا بما يفعل الربّ، والعبادة: فعل ما يرضى به الرب، وهو ما عبَّر عنه القرآن الكريم بقوله:﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[2]، والمعنى العام الذي يجمع العبادة والعبودية: هو الخضوع والانقياد والطاعة لله تعالى.[3]

➢ ومن الآيات في عبودية الكائنات: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾[4]، و"مَن" للعاقل فقد تختص بالثقلين من إنسٍ وجنٍ، كما يشمل الملائكة، وفي موضع آخر جاءت "ما" التي تعمّ غير العاقل في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩﴾[5]، وقد صرحت آيات بسجود غير العاقل، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨﴾[6]، فالآيات التي تخبر عن سجود الطبيعة تارة تكون بما يدلّ على العاقل "مَن"، وتارة أخرى يكون بما يدلّ على غير العاقل "ما"، وذلك له علاقة بالسياق الذي جاءت فيه، فيكتمل التناسق والتناسب في التعبير القرآني، ذلك أنَّه في سورة الرعد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾، والطوع والكره يدلّ على الاختيار، والعاقل هو من يختار القيام بالفعل طائعا، أو مستكرها عليه[7]، فناسب إيثار التعبير بما يدل على العاقل "مَن". أمَّا في

---

(١) انظر: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، العبودية، تحقيق: علي حسن عبدالحميد، دار الأصالة، الإسماعيلية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص١٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٣) انظر: فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، مكتبة الضياء، جدة–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص١٩.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٥) سورة النحل، الآية: ٤٩.

(٦) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٧) قد يُعترض على هذا بأن الله سبحانه وتعالى قال مخاطباً السماوات والأرض: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت، الآية: ١١]، ولكنَّ هذا لا يدل على أنَّ السماء والأرض من العقلاء، وإلا لاعتبرناهما من المكلفين؛ لما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٧٢].

الآية من سورة النحل فإنها قد جاءت في سياق العموم، يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[١]، فقوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ كلمة "شيء" تدلّ على العموم للعاقل وغيره، كما أنَّ كلمة "دابّة" عامة ولكنَّ أغلب استعمالها في غير العاقل، فمن هذين الوجهين كان الأنسب استخدام "ما" لأنَّها أعمّ، وما تدلّ عليه أكثر مما تدلّ عليه "مَن"، ومما يدلّ على أنَّها أعمّ قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾[٢]، والذي سواها هو الله سبحانه وتعالى.[٣]

ومن لطائف التعبير القرآني الكريم أنَّه إذا أسند فعل السجود إلى العاقل "مَن" أتبعه بذكر غير العاقل، وإذا أسنده إلى غير العاقل "ما" أتبعه بذكر العاقل، ففي سورة النحل: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، فأتبعه بالملائكة، وفي سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾، فأتبعه بالظلال، والظلال أقرب لكونها غير عاقلة، وكذلك في سورة الحج أتبعه بالشمس والقمر والنجوم والدواب: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾.[٤] وفي الآيات المذكورة إثبات لسجود الكائنات كلها أجمع لله، وفيه إثبات لعبوديتها لله –جلَّ جلاله– أما الكيفية فلا يعلمها إلا الله[٥].

➢ ومن عبودية الكائنات التسبيح قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[٧]، وهذا التسبيح كما أخبر العليم الخبير بأننا لا نفقه تسبيحهم فكيفيته يعلمها الله، وقد يُطلع الله بعضاً من خلقه على ذلك، كما أسمع الله نبيه –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه –رضي الله عنهم– حنين الجذع إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله– في شرحه لهذا الحديث: (في الحديث دلالة على أنَّ الجمادات قد يخلق الله لها إدراكاً كالحيوان بل كأشرف الحيوان، وفيه تأييد

---

(١) سورة النحل الآيتان: ٤٨–٤٩.

(٢) سورة الشمس، الآية: ٧.

(٣) انظر: فاضل بن صالح السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، الشارقة –الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص١٠٠–١٠١.

(٤) انظر: المرجع نفسه، ص١٠٢.

(٥) انظر: فريد التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، ص٣٠٢.

(٦) سورة النور، الآية: ٤١.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

لقول من يحمل ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ على ظاهره)[1]، وكلام ابن حجر فيه إشارة إلى الخلاف الحاصل بين العلماء في هذا التسبيح هل هو على وجه الحقيقة أم أنَّه على غير حقيقته؟ فمِن مَن ذهب إلى أنه على سبيل المجاز الزمخشري، ففسره بأنه تسبيح بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته[2]. وفي قوله تعالى:﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[3]، قال جماعة من العلماء: بأنَّه على الحقيقة؛ وذلك أن داود –عليه السلام– كان إذا سبح الله سبحت الجبال معه، وقال آخرون: بأن التسبيح على سبيل المجاز؛ فجعلوا التسبيح على أنَّه تسبيح من رأى الجبال تسير مع داود–عليه السلام– تعجباً من عظيم خلق الله وقدرته، وعجيب قول من حمل سير الجبال مع داود –عليه السلام– على الحقيقة، ولم يحمل التسبيح عليها بل جعله من المجاز.[4]

➢ ومن عبودية الكائنات أنَّ الحجارة والجبال من أقسى وأصلب مكونات الطبيعة، ولكنَّ هذه القسوة تلين، بل تتصدع من خشية الله؛ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[5]، إنَّ الله –سبحانه وتعالى– يضرب للناس مثالاً على قياس الأولى، فإذا كان الجبل على صلابته لو أنزل عليه القرآن لخشع وتصدع من خشية الله، فالبشر الذين هم أبعد عن هذه القساوة ينبغي لهم أن تخشع قلوبهم لله فتخبت وتتوب إليه[6]، ولكنَّ أكثرهم كما أخبر عنهم –سبحانه–: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[7].

➢ إنَّ عبودية الطبيعة لله قد تأتي في سياق الخلق وبيان القدرة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[8]. كما قد تأتي في سياق التسخير والامتنان بالنعمة كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[9]، إلا أنَّ السياق العام الذي يجمع ذلك كله هو سياق الاستدلال والإقناع؛ لأنَّ عبودية الكائنات –في

(١) أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، حقق عدة أجزاء منه: الشيخ عبدالعزيز بن باز، رقَّم كتبها وأبوابها وأحاديثها: أ. محمد فؤاد عبدالباقي، دار السلام، الرياض– السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٦/ ص٧٣٧.

(٢) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٣/ ص٥٢٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

(٤) انظر: فريد التوني، عبودية الكائنات، ص٣٠٣.

(٥) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٦) انظر: المرجع نفسه، ص٣٠٥.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٨) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٩) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

الأعم الأغلب- تأتي في سياق دعوة الإنسان إلى الانسجام مع هذا الكون في عبوديته لله سبحانه، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ (إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس، وإلى اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته، فليس هنالك إلا هذا الإنسان الذي يخضع للناموس كرهاً في أغلب الأحيان)[1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ (ذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب الكوني المسبح بحمد الله، بينما البشر في جحود وفيهم من يشرك بالله، ومن ينسب إليه البنات، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه. والبشر أولى من كل شيء في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر، ولكنَّه يمهلهم، ويذكرهم، ويعظهم، ويزجرهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾)[2]. ولهذا كانت الآيات التي تحدثت عن عبودية الكائنات ضمن سياق الاستدلال والإقناع.

➢ **ومما يدخل في سياق الاستدلال والإقناع في آيات الطبيعة تلك الآيات التي تأتي لضرب المثل، لأنَّ الهدف منها الاستدلال على المشبه وإقناع المخاطب به،** ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥/ ص٣١١٤.
(٢) المرجع نفسه، ج٤/ ص٢٢٣١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.
(٤) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

ٱلْغُرُورِ ۝٢٠﴾[1]، وغيرها من الآيات في أمثال القرآن التي كانت الطبيعة فيها أحد طرفي التشبيه، فيستدل بصحة المشبه به على صحة المشبه.

إنَّ سياق الاستدلال والإقناع يأتي -في الأغلب- لإثبات قضايا التوحيد الكبرى، كإثبات الوحدانية، وإثبات البعث، ولعلَّ أوسع سياق في آيات الطبيعة هو سياق الاستدلال والإقناع، وغالباً ما يأتي مدمجاً مع السياقات الأخرى، فإذا كان سياق الخلق والإبداع يأتي لبيان عظمة الخالق، فهذا استدلال على وجوب كمال التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، وإذا كان سياق التسخير والانتفاع يأتي للامتنان وبيان فضل الله على خلقه، فهذا استدلال على وجوب الشكر لله وحمده على نعمه سبحانه، والمبحث التالي يبين شيئاً من ذلك.

***

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

• المبحث الثالث: إدماج السياقات واشتراكها في آيات الطبيعة.

الإدماج فنٌ من فنون البلاغة: (وهو أن يُدمج المتكلم إمَّا غرضاً في غرض، أو بديعاً في بديع، بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحد الغرضين أو أحد البديعين، والآخر مدمج في الغرض الذي هو موجود في الكلام)(١)، ويسميه بعض أهل البلاغة "المضاعفة"(٢)، وممن اهتم بالسياقات والإدماج فيها إمام مفسري المغرب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور -رحمه الله-.(٣)

إنَّ السياقات في آيات الطبيعة في أغلبها تأتي إمَّا بإدماج سياق في آخر، أو أن يشترك في موضع واحد أكثر من سياق، وقد سبق الحديث عن تقسيم السياق إلى قسمين سياق صغير وسياق كبير(٤)، وأكثر السياقات اشتراكاً سياق الاستدلال والإقناع؛ فيكون سياق الاستدلال هو السياق الكبير، ويكون سياق الخلق أو التسخير هو السياق الصغير، فيأتي سياق الخلق والإبداع للاستدلال على القدرة، واستحقاق الربوبية، والإقناع بالألوهية، وإثبات الأسماء والصفات، كما يأتي سياق التسخير والانتفاع للاستدلال به على أن المستوجب للعبادة، والمستحق للشكر هو صاحب هذه المنَّة الذي سخر الخلق كله لخدمة هذا الإنسان ونفعه.

ومن ذلك يأتي التداخل بين هذه السياقات في التعبير القرآني، غير أنَّ ذلك لا يعني استغلاق فهم السياق، وإنَّما هو سياق خاص يأتي لخدمة سياق أعمّ منه؛ فهذا من صور التكامل في النص والسياق القرآني. وإنَّ فهم السياق العام يتطلب قراءة متأنية في السورة، وذلك شرط في

---

(١) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص١٧٢.

(٢) قال أبو هلال العسكري في تعريف المضاعفة: (هو أن يتضمن الكلام معنيين: معنى مصرح به، ومعنى مشار إليه)، وهذا قريب جداً من تعريف الإدماج. انظر: الصناعتين، ص٤٢٣.

(٣) هناك بحث بعنوان: (الإدماج في القرآن الكريم -قراءة تحليلية بيانية نقدية في "تفسير التحرير والتنوير")، للدكتور المثنى عبد الفتاح محمود، تقوم فكرة البحث على دراسة الإدماج من زاوية تحليلية بيانية نقدية من خلال "تفسير التحرير والتنوير"، والبحث له هدفان اثنان؛ الأول: دراسة الإدماج دراسة علمية في "التحرير والتنوير"، والهدف الثاني: إبراز فن الإدماج في القرآن الكريم، وقد قام البحث على ثلاثة جوانب أساسية وهي: الجانب النظري، والجانب التحليلي، والجانب النقدي، والذي يعني الباحث بالدرجة الأولى لفت الأنظار إلى هذا الفن المنسيّ عند عموم الباحثين في الدراسات القرآنية عموماً، والبلاغة القرآنية على وجه الخصوص. ولم ييسر الله للباحث الاطلاع على البحث، ولكنَّ مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية التي يصدرها مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، نشرت ملخصاً له، تاريخ الدخول: (٢٨-٩-٢٠١٤م) على الرابط الآتي:

http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/jsis/homear.aspx?id=8&Root=yes&authid=1559#

وقد اطلع الباحث على رسالة بعنوان: (أثر السياق في توجيه المعنى في "تفسير التحرير والتنوير" -دراسة نحوية دلالية)، للدكتور إبراهيم إبراهيم سيد أحمد، تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة "عين شمس"، وقد طبعت الرسالة دار المحدثين، القاهرة- مصر، ضمن سلسلة الرسائل الجامعية (٨)، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م. ورسالة أخرى بعنوان: (السياق القرآني ودلالته على الترجيح في "تفسير التحرير والتنوير" للطاهر ابن عاشور) وهي رسالة تقدم بها: محمد إبراهيم الشمسان لنيل درجة الماجستر من جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية، وذلك عام ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

(٤) انظر: الفقرة الأولى في المبحث الأول من هذا الفصل.

التدبر الذي أمرنا الله به، وقد أوصى نبيه فقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[1]، أي: لتقرأه على الناس على مهل وتؤدة؛ فترتله وتبيّنه، ولا تعجل في تلاوته فلا يفهم عنك، وهذه حكمة من حكم تفريقه.[2]

▪ أولاً: إدماج السياقات الثلاثة واشتراكها:

➢ يمكن أن يوجد نصٌّ قرآنيٌّ قد أدمجت فيه السياقات الثلاثة المتقدمة جميعاً، وكل سياق يخدم ما قبله ويتكامل معه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[3]، إنَّ موضوع سورة النازعات الرئيس هو إثبات البعث والنشور، بدأها الله – تعالى– بالقسم ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، وقد عطف عليها أمور أخرى، والمقسم عليه أو جواب القسم محذوف تقديره: (لتبعثنَّ) بدلالة ما بعده[4]، ثم ناقش المنكرين للبعث الذين: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾، وردَّ عليهم بأنَّ ذلك أمر هيّن على الله، فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾، ثم جاءت بعد ذلك قصة موسى –عليه السلام– مع فرعون في جمل اعتراضية بين مناقشة منكري البعث وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، ومناسبة هذا الاعتراض والاستطراد أنَّ فيه تخويفاً من عاقبة المكذبين للرسل والمنكرين للبعث؛ ولذا قال بعد انتهاء القصة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾، وفي ذلك تسلية للنبي –صلى الله عليه وسلم–[5]، وفي ذكر قصة موسى مع فرعون بالأخص مناسبة أخرى، وهي أنَّ في هذه القصة شبهاً بيوم القيامة من حصول الأمور الخارجة عن العادات، وقهر الجبابرة، وتمكين الضعفاء.[6] بعد ذلك جاء سياق الاستدلال لإثبات البعث بعد بقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، ومع بداية سياق الاستدلال يدمج مع سياق الخلق والإبداع، فيبين القدرة على خلق السماء والأرض، وجاء الاستفهام على طريق التوبيخ والتبكيت[7]، وهو سؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة، وهي أنَّ السماء أشد خلقاً، ولهذا فقد استدل بخلق السماء والقدرة عليه بأنَّ خلق الناس أهون من ذلك، ومن ثمَّ فإعادة خلقهم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١٥/ ص١١٦، وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٥/ ص٢٣١.

(٣) سورة النازعات، الآيات: ٢٧-٣٣.

(٤) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٦/ ص٣٠٤.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٧٣.

(٦) انظر: نظم الدرر، للبقاعي، ج٨/ ص٣١٣.

(٧) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٣٠/ ص٣١.

وبعثهم أهون عليه[1]، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2]. وبعد هذا السياق الخاص من خلق السماء والأرض الذي أدمج مع السياق العام وهو سياق الاستدلال، تضمن سياقاً ثالثاً هو سياق التسخير والانتفاع، برز في إخراج ماء الأرض ومرعاها، وإرساء الجبال، وما إلى ذلك من النعم التي يمتن به سبحانه على عباده؛ ولذا قال بعدها: ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾، وهذه آية صريحة في الدلالة على التسخير والامتنان، قال ابن عاشور -رحمه الله- في مبدأ تفسيره لسورة النازعات: (وانعطف الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث بأنَّ خلق العوالم وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق، وأدمج في ذلك إلفاتاً إلى ما في خلق السماوات والأرض من دلائل على عظيم قدرة الله تعالى، وأدمج فيه امتنان في خلق هذا العالم من فوائد يجتنونها، وأنَّه إذا حل عالم الآخرة وانقرض عالم الدنيا جاء الجزاء على الأعمال بالعقاب والثواب)[3]. ومن ذلك فإنَّ هذا النص القرآني قد اشتركت فيه ثلاثة سياقات، وأدمج بعضها في بعض، وكان بينها تكاملٌ في أداء المعنى وتقرير المقصد، وسياق الاستدلال كان السياق الكبير الذي يحوي السياقين الآخرين.

➢ ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[4]، فالابتداء بالاستفهام الإنكاري على الذين كفروا، والاستفهام الثاني في التذييل بقوله: (أفلا يؤمنون) يدلُّ ذلك على سياق الاستدلال، والرتق والفتق للسماوات والأرض، وخلق الليل والنهار، والشمس والقمر، يدلُّ ذلك على سياق الخلق، وترسية الأرض بالجبال، وجعل الفجاج فيها، والتذييل بقوله: (لعلهم يهتدون) يدلُّ على سياق التسخير، فقد أدمجت السياقات الثلاثة في هذه الآيات.

➢ ومن إدماج السياقات الثلاثة: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٤/ ص٨٨، وانظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦/ ص٣٨١٦.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥٧.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٦٠.

(٤) سورة الأنبياء، الآيات: ٣٠-٣٣.

تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[1]، قال ابن عاشور –رحمه الله–: (انتقال من الاستدلال على انفراده تعالى بالإلهية بصفات ذاته إلى الاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته، وفي ضمن هذا الاستدلال إدماج الامتنان على الناس، والتعريض بكفر المشركين جلائل نعمه... وكان الاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة على الناس أقوى وأوضح من الاستدلال بتكوين أحدهما لو كان دائما؛ لأنَّ قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر كل يوم أظهر منها لو لم يخلق إلا أقواهما وأنفعهما؛ ولأنَّ النعمة بتعاقبهما دوما أشد من الإنعام بأفضلهما وأنفعهما؛ لأنَّه لو كان دائما لكان مسئوماً، ولحصلت منه طائفة من المنافع، وفقدت منافع ضده، فالتنقل في النعم مرغوب فيه ولو كان تنقلا إلى ما هو دون... ووصف الليل بـ"تسكنون فيه" إدماج للمنة في أثناء الاستدلال للتذكير بالنعمة المشتملة على نعم كثيرة، وتلك هي نعمة السكون فيه، فإنها تشمل لذة الراحة، ولذة الخلاص من الحر، ولذة استعادة نشاط المجموع العصبي الذي به التفكير والعمل، ولذة الأمن من العدو).[2]

➢ ومن اشتراك سياق الخلق وسياق التسخير مع سياق الاستدلال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۢ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3]، فالآيات ابتدأت بخلق السماوات، ثم انتقلت إلى الامتنان على الخلق بإنزال الماء من السماء، وإسكانه في الأرض، وإنشاء الجنات، وتسخير الأنعام وما فيها من منافع، وتسخير الفلك، هذه السياقات الصغيرة في هذه الآيات، أما السياق الكبير العام فهو سياق الاستدلال؛ لأنَّ هذه الآيات جاءت عقب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾[4]، فانتقلت الآيات من الاستدلال بخلق الإنسان إلى الاستدلال بخلق السماوات، ثم انتقلت الآيات إلى سياق التسخير للامتنان[5]، فاشتركت السياقات الثلاثة في هذا الموضع.

▪ ثانياً: إدماج سياق التسخير مع سياق الاستدلال واشتراكهما:

---

(١) سورة القصص، الآيات: ٧٠-٧٣.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠/ ص١٦٨-١٧٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ١٧-٢٢.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٢-١٦.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٦-٣٩.

➢ إنَّ اشتراك هذين السياقين وإدماجهما من أكثر ما يقع في سياقات آيات الطبيعة، ومن اشتراكهما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[١]، فالسياق هنا سياق التسخير والامتنان بهذه النعم، فتسخير الأرض حتى أصبحت كالفراش، وبناء السماء، وإنزال الغيث، وإخراج الثمرات، كل ذلك رزق للعباد، وسياق التسخير واضح بدلالة لفظ (لكم)، ثم سياق التسخير يشترك مع سياق الاستدلال؛ فهذه النعم التي سخرها الله للعباد تستوجب منهم الشكر، وعدم الكفر، ولذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فسياق التسخير والامتنان جاء ضمن السياق العام، وهو سياق الاستدلال، وكان الخاص منه يخدم السياق العام، والسابق واللاحق للآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾[٢]، فسبقها أمر بعبادة الله الخالق لهم ولآبائهم المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ثم جاء سياق التسخير للامتنان بنعمه عليهم، ثم أتبعه بعد ذلك بمناقشة المنكرين للرسالة، وتحديهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، فاشترك سياق التسخير مع سياق الاستدلال، وكان خادماً له.[٣]

➢ ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[٤]، قال ابن عاشور –رحمه الله– في مقدمة تفسيره لسورة يس، وبيانه لأغراضها: (... وتخلص إلى الاستدلال على تقريب البعث وإثباته بالاستقلال تارة وبالاستطراد أخرى، مدمجاً في آياته الامتنان بالنعمة التي تتضمنها تلك الآيات، ورامزاً إلى دلالة تلك الآيات والنعم على تفرد خالقها ومنعمها بالوحدانية إيقاظا لهم).[٥]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٢١–٢٣.

(٣) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢/ ص١١١.

(٤) سورة يس، الآيات: ٣٣–٤٠.

(٥) التحرير والتنوير، ج٢٢/ ص٣٤٣.

➢ ومن إدماج سياق التسخير مع سياق الاستدلال: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾(١)، فبناء السماء وتزيينها، ومدّ الأرض وترسيتها، وقوله: (رزقاً للعباد) تدل على سياق التسخير، والابتداء بالاستفهام(٢)، وقوله: (كذلك الخروج) دليل على سياق الاستدلال، فهذا إدماج للتسخير والاستدلال في سياق واحد.(٣)

➢ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾(٤)،هذه الآيات أدمج فيها سياق الاستدلال في سياق التسخير للامتنان.(٥) وهذا السياق خُتم بقوله تعالى: (متاعاً لكم ولأنعامكم)، وكذلك الآيات من سورة النازعات، ولكنَّه لم يرد مثله في سورة النبأ، مع اشتراك هذه المواضع في ذكر مكونات من الطبيعة، إلاَّ أنَّ التسخير في سورتي النازعات وعبس أظهر؛ فناسب اختتامه بذلك، والله أعلم.

▪ ثالثاً: إدماج سياق الخلق مع سياق الاستدلال واشتراكهما:

تقرر كتب العقيدة الإسلامية أنَّ من طرق القرآن الكريم في إثبات الوحدانية: الاستدلال بمخلوقات الله المبثوثة بين السماء والأرض، والتي لا ينكر عاقل أنَّ خالقها هو الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٥﴾(٦)، في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾(٧)، استدلال بالآيات الآفاقية والنفسية، استدلال بأفعال الله ومخلوقاته على

(١) سورة ق، الآيات: ٦ –١١.

(٢) يجوز أن يكون الاستفهام هنا تقريرياً، والنظر نظر المشاهدة، ويجوز أن يكون إنكارياً، والنظر نظر التفكر، انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٦/ ص٢٨٥.

(٣) المرجع نفسه، ج٢٦/ ص٢٩٣.

(٤) سورة عبس، الآيات: ٢٤–٣٢.

(٥) انظر: المرجع نفسه، ج٣٠/ ص١٣٤.

(٦) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

(٧) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

قضايا التوحيد[١]، وذكر إيجاد المخلوقات، وبيان بديع خلقها كثيراً ما يأتي في القرآن الكريم للاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى، وعلى تفرده بالربوبية والألوهية[٢].

➢ ومن إدماج سياق الخلق مع سياق الاستدلال قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾[٣]، فالآية جاءت في سياق الخلق والإبداع، وقد ابتدأت باستفهام إنكاري على كفر الكافرين، ففي ذلك إدماج لسياق الخلق في سياق الاستدلال، الذي جاء لإثبات الوحدانية للخالق الذي يملك القدرة العظيمة التي بيَّنها سياق الخلق، والسياقان يخدم أحدهما الآخر، **وهذا من التكامل في السياق القرآني، ويعدُّ سمة من سمات الإعجاز البياني في السياقات القرآنية في آيات الطبيعة.**

➢ ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) ﴾[٤]، فجاء سياق الخلق للاستدلال على تفرد الله –سبحانه وتعالى– بالخلق والأمر، فأدمج السياقان، فكان الاستدلال بدليل من مخلوقات الله التي يشاهدها الناس وتتكرر عليهم كثيراً.[٥]

***

---

(١) انظر: علي ابن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: د.عبدالله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج١/ ص٥١.

(٢) انظر: عبدالله بن فهد العرفج، جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة، دار التوحيد، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٨١.

(٣) سورة فصلت، الآيات: ٩– ١٣.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٢١.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٣/ ص٣٧٧.

- **المبحث الرابع: اختلاف التعبير القرآني باختلاف السياق.**

إنَّ المواضع التي تحدث فيها القرآن الكريم عن بدء خلق السماوات والأرض، أو عن تسخير ما فيهما للناس، أو الاستدلال بتلك الآيات على مواضيع القرآن الكريم المتنوعة، تبيّن تفاصيلَ غاية في الدقة والإحكام، وروعة في الفصاحة البيان، لم يسبقها –بهذه الدقة والبيان– نصٌّ من الكتب السماوية السابقة للقرآن التي اعتراها ما اعتراها من التحريف والتبديل، فضلاً عن النصوص البشرية التي يعتريها ما يعتريها من النقص والقصور، **ويمكن عدّ ذلك سمة من أبرز وأهم سمات الإعجاز البياني في آيات الطبيعة.**

وما تقدم بيانه في الفصول السابقة من هذا البحث، وخاصة ما ورد في فصل: الدقة والإحكام للمفردات والتراكيب، وفصل: المتشابه اللفظي، وكذلك فصل: التذييل مَرَدُّ ذلك في أغلبه إلى السياق القرآني، والأمثلة الواردة في تلك الفصول يمكن أن تكون داخلة في هذا المبحث، ولا حاجة لإعادة ذلك منعاً للتكرار بغير فائدة، **وفي ذلك سمة أخرى من سمات الإعجاز البياني في آيات الطبيعة وهي كثافة النص القرآني وغناه بجوانب متعددة من البيان والبلاغة،** وهذا المبحث يحاول الكشف عن اختلاف التعبير القرآني عن موضوع واحد في سياقات مختلفة ومن ذلك:

- **أولاً: التعبير عن السماوات والأرض واختلافه باختلاف السياق:**

١) السماوات والأرض في سياق الخلق والإبداع:

➢ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾(١)، الرتق والفتق من المتضادات، فالفتق: فتح الشيء وانفصال وتباعد أجزائه، والرتق: اتصاله وتلاصق أجزائه، قال ابن فارس: (الفاء والتاء والقاف أصلٌ صحيح يدلُّ على فتحٍ في شيء، من ذلك: فتَقت الشّيء فتْقاً)(٢)، وقال ابن منظور: (الرَّتْقُ: ضدّ الفَتْق.. الرَّتْقُ إِلحام الفَتْق وإِصلاحُه، رَتَقَه يَرْتُقُه ويَرْتِقُه رَتْقاً فارْتَتَق أَي التأَم)(٣)، والآيات في هذا السياق قائمة على الطباق والمقابلة، فبين السماوات والأرض طباق، وكذلك بين الرتق والفتق، ثم قال سبحانه بعد هذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة (فتق)، ج٢/ ص٣٣٩.

(٣) لسان العرب، مادة (رتق)، ج١٠/ ص١١٤.

يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾[١]، فأعقب بذكر الأرض وجبالها وفجاجها، والجبال والفجاج فتق في الأرض[٢]، وقابل هذه الآية بآية السماء وأنَّها سقف محفوظ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ليس فيه شقوق هو من الرتق؛ ففي ذلك مقابلة من وجه آخر، ثم جاء في الآية التالية لهما فذكر خلق الليل والنهار، وكذلك الشمس والقمر، وهذا طباق.

وقد استخدم لفظ الرتق والفتق في هذا السياق دون غيره مما هو قريب منه كالشق واللصق، أو الفصل والوصل؛ وذلك لما بين معاني هذه الألفاظ من الفروق، فالرتق: ضم شيء لآخر ليبدو شيئاً واحداً، ودلالة لفظ الفتق أقوى من دلالة لفظ الفصل، ويستعمل اللفظان في مهنة الخياطة، فالرتْق: ضم قطع الثوب بعضه لبعض على طريقة معينة يتم فيها تشكيل الثوب، وكذلك الفتق عودة القطع كما كانت قبل الرتق. واستخدام كلمة "الفصل" قد يُدخل قطعًا من هذه في تلك؛ لأنه سيكون مثل قص الأشياء بالمقص على استقامة واحدة.[٣] والفتق بين شيئين ملتئمين أحدهما متصل بالآخر، فإذا فرق بينهما فقد فتقا، وإن كان الشيء واحداً ففرق بعضه من بعض قيل: قُطع وفُصل وشُقَّ، ولا يُقال: فُتق.[٤]

وللمفسرين أقوالٌ في معنى الفتق والرتق في هذه الآيات، فقال ابن عباس –رضي الله عنه–: كانتا ملتصقتين، فرفع السماء ووضع الأرض. وقال مجاهد–رحمه الله–: فتقهنَّ سبع سماوات، بعضهنَّ فوق بعض، وسبع أَرَضِين[٥]، بعضهنَّ تحت بعض. وقال عكرمة–رحمه الله: كانتا رتقاً لا يخرج منهما شيء، ففتق السماء للمطر، وفتق الأرض للنبات. ورجَّح الإمام الطبري قول من قال: كانتا رتقاً من المطر والنبات، ففتق السماء بالغيث، والأرض بالنبات؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾.[٦]

ورجَّح الفخر الرازي –رحمه الله– قول ابن عباس –رضي الله عنه– فقال: (المعنى كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين، ففصل الله بينهما، ورفع السماء إلى حيث هي، وأقرَّ الأرض، وهذا القول يوجب أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء؛ لأنَّه تعالى لما فصل بينهما ترك الأرض حيث

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٣١-٣٣.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ ص٥٧.

(٣) انظر: رانية الجنباز: البلاغة في آيات عن خلق السماوات والأرض، مقال منشور على موقع الألوكة الشرعية، تاريخ الدخول: (١-١١-٢٠١٤م) على الرابط الآتي: http://www.alukah.net/sharia/0/64557

(٤) انظر: أبي هلال العسكري، الفروق في اللغة، ص٢٥١.

(٥) لم يرد في القرآن الكريم نص يفيد أنَّ الأرض سبعاً، بل لم ترد فيه بصيغة الجمع، وقد سبق بيان ذلك، انظر: الفصل الثاني من هذا البحث: (الدقة والإحكام للمفردات والتراكيب في آيات الطبيعة) المبحث الأول: عادات القرآن.

(٦) روى جميع هذه الأقوال ورجَّح بينها الطبري –رحمه الله– في تفسيره، انظر: ج١٦/ ص٢٥٤-٢٥٩.

هي وأصعد الأجزاء السماوية..)[١]، وهذا القول يتناسب مع النص من سورة فصلت في ترتيب مراحل الخلق، والإمام الرازي -رحمه الله- ينظر للمناسبة بين الآيات في هذا السياق والآية التي تسبقها من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٢]، فيوضح أنَّ هذه الآيات الدالة على القدرة التامة هي أدلة على تنزيه الله -سبحانه وتعالى- عن الشريك، فهي دالةٌ على الترتيب العجيب في العالم، ووجود إلاهين يقتضي وقوع الفساد، فهذه الدلائل تدل على التوحيد فكأنَّها كالتوكيد لما تقدم، ثم قال بعد ذلك: (فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها)[٣].

ويقول ابن كثير -رحمه الله- في تفسير الفتق والرتق: (يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم وقهره لجميع المخلوقات... ألم يروا أنَّ السماوات والأرض كانتا رتقاً أي: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصقاً متراكماً بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه عن هذه... وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء، وأنبتت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾)[٤].

ويقول سيد -رحمه الله-: (وتقريره أنَّ السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقتا، مسألة جديرة بالتأمل، كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاثمائة وألف عام، فالنظرية القائمة اليوم هي أنَّ المجموعات النجمية -كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر- كانت سديماً، ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية، وأنَّ الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت.. ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية تقوم اليوم وقد تنقض غداً وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية..)[٥]، ثم يقرر -رحمه الله- أنَّ القرآن الكريم لا يمكن أن يناقض حقيقة علمية ثابتة، ولكن لا ينبغي أيضاً أن نفسر القرآن على أساس النظريات العلمية التي لم تثبت علمياً بعد، وإنَّما هي محل النظر والتمحيص، ويؤكد بأن القرآن الكريم ليس كتاب نظريات علمية ولم يأتِ ليكون علماً تجريبياً كذلك، وإنما هو منهج للحياة كلها، جاء لهداية البشر ونزل رحمة للعالمين، وقد فك قيود العقل البشري من أسره لينطلق متأملاً ومتدبراً في آيات

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٢٢/ص١٦٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٩.

(٣) تفسير الفخر الرازي، ج٢٢/ ١٦١.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣/ ص١٦٨.

(٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤/ ص٣٢٧٥.

الله[1]، إنَّ سورة الأنبياء سورة مكية تعالج الموضوع الرئيس الذي تعالجه السور المكية: موضوع العقيدة، (وسياق السورة يعالج ذلك الموضوع بعرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها، فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون).[2]

عرض الإمام ابن عاشور –رحمه الله– أقوال العلماء قديماً وحديثاً في تفسير معنى رتق وفتق السماوات والأرض ثم قال: (والظاهر أنَّ الآية تشمل جميع ما يتحقق فيه معاني الرتق والفتق إذ لا مانع من اعتبار معنى عام يجمعها جميعاً، فتكون الآية قد اشتملت على عبرة تعم كلَّ الناس، وعلى عبرة خاصة بأهل النظر والعلم، فتكون من معجزات القرآن العلمية).[3] **وإيثار الألفاظ ذات السعة الدلالية سمة من سمات الإعجاز البياني في آيات الطبيعة، كما يبدو في هذه الآيات وغيرها من آيات الطبيعة أنَّ القرآن الكريم لا يعجز عن خطاب الإنسان في أي عصر، ولا يحمله أكثر مما يطيق.**

وقد تبيَّن في المبحث السابق أن هذه الآيات من سورة الأنبياء قد أدمجت فيها السياقات الثلاثة، إلاَّ أنَّ السياق الخاص الذي جاء فيه لفظا: (الرتق والفتق) كان سياق الخلق والإبداع.

- ومن التعبير عن السماء والأرض في سياق الخلق: قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾﴾[5]،فعبر عن السماء بالبناء وهذا يأتي في هذا السياق وفي غيره أيضاً، ولكنَّه في سياق الخلق أولى، والبناء مصدر سمي به المبنى، سواء كان بيتاً أو خيمة أو غيره، ولذا فإنَّ أبنية العرب: أخبيتهم، ومن ذلك قيل للرجل إذا تزوج بامرأة ودخل بها: "بنى على امرأته"؛ لأنَّهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديداً.[6]

أمَّا الأرض فعبَّر عنها بالطحو، والدحو، قيل: إنَّهما بمعنى واحد، وإنَّ بين الكلمتين إبدال؛ أبدلت الطاء من الدال، وذلك جائز[7]، قال ابن منظور في الطحو: (طَحَاه طَحْواً وطُحُوّاً: بسطه، وطَحَى الشيء يَطْحِيه طَحْياً: بَسَطَه أَيضاً.. والطَّحْو كالدَّحْو، وهو البَسْطُ، وفيه لغتان: طَحَا يَطْحُو،

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٧٦.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤/ ص٣٢٦٤.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ ص٥٦.

(٤) سورة النازعات، الآيات: ٢٧-٣١.

(٥) سورة الشمس، الآيتان: ٥-٦.

(٦) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج١/ ص٢١٥.

(٧) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (طحا)، ج١٥/ ص٤. وانظر: تفسير الفخر الرازي، ج٣١/ ص١٩٢.

وطَحَى يَطْحَي)[1]، وقال في الدحو: (الدَّحْوُ: البَسْطُ، دَحَا الأَرضَ يَدْحُوها دَحْواً: بَسَطَها)[2]، وقال ابن فارس في الدحو: (الدال والحاء والواو أصلٌ واحد يدلُّ على بَسْطٍ وتمهيد، يقال: دحا الله الأرضَ يدحُوها دَحْواً، إذا بَسَطَها)[3]، وقال في الطحو: (الطاء والحاء والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على البسط والمدِّ. من ذلك الطَّحْو وهو كالدَّحْو، وهو البَسْط.)[4].

وكثيرٌ من كتب التفسير، وكتب اللغة أيضاً؛ يجعلون الطحو والدحو بمعنى واحد: هو البسط، إلا أنَّ كل لفظ منهما له معانٍ تخصه عن الآخر، **فالفعل (دحا)** يأتي بمعنى: مدّ وبسط ووسع؛ كما يأخذ الخبَّاز رقاق الرغيف فيدحوه، ويأتي بمعنى رمى وأزال من المقر أو المكان؛ فيقال للاعب بالجوز: ابعد وادحه، أي ارمه من مكانه[5]، ويأتي بمعنى أزاح؛ يقال: دحا المطرُ الحَصَى عن وجْه الأرض؛ وهذا لأنّه إذا كان كذا فقد أزاحه عن الأرض، ومن هذا الباب أُدْحِيُّ النَّعام: الموضع الذي يُفَرِّخ فيه؛ لأنّه يَدْحُوه برِجْله ثم يبيض فيه، فالنّعامة ليس لها عُشٌّ[6]. **والفعل طحا فيه إماءة إلى الاستدارة أو الدوران حول الشيء؛** فالمُدوِّمَةُ الطَّواحي: هي النُّسورُ تَسْتديرُ حولَ القَتْلى[7]، ويقال: طحا بك هَمُّكَ يطحو، أذا ذَهَبَ بك في الأمر مذهباً بعيداً؛ كما قال الشاعر:

طَحا بكَ قلبٌ في الحِسانِ طَرُوبُ * بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشيبُ**[8]

وهذه المعاني منحت فرصة للمهتمين بالتفسير العلمي وإعجاز القرآن للاستشهاد بالآيتين على بعض الحقائق أو حتى النظريات العلمية.[9]

والتعبير بالدحو هو أقرب شيء لما أثبتته الحقائق العليمة الحديثة عن شكل الأرض البيضاوي[10]، كما أنَّه قد يكون فيها إشارة لدوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس؛ لأنَّ الأدحية: هي التي يبيض فيها النعام في الرمل، فالنعامة تدحو وتدفع الرمل برجليها ثم تبيض، وقد

---

(١) لسان العرب، مادة (طحا)، ج١٥/ ص٤-٥.

(٢) المرجع نفسه، مادة (دحا)، ج١٤/ ص٢٥١.

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة (دحو)، ج١/ ص٤٣٤.

(٤) المرجع نفسه، مادة (طحو)، ج٢/ ص٨٩.

(٥) انظر: الزمخشري، أساس البلاغة، مادة (دحو)، ج١/ ص٢٨١.

(٦) انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (دحو)، ج١/ ص٤٣٤.

(٧) انظر: لسان العرب، مادة (طحا)، ج١٥/ ص٤-٥.

(٨) البيت لعلقمة بن عبدة. انظر: ديوان علقمة بن عبدة الفحل، شرح أبي الحجاج الأعلم، تحقيق: لطفي الصقال، ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب-سوريا، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص٣٣.

(٩) يقول الدكتور منصور محمد حسب النبي: (دحا بمعنى: رمى من المقر، وهذا فعلاً ما حدث للأرض عند انفصالها من الشمس منذ ٤,٦ مليار سنة)، ولا يُعلم على ماذا استند في جزمه بأن هذا ما حدث فعلاً؟ انظر: منصور محمد حسب النبي: حركات الأرض بين العلم والقرآن، مقال منشور على موقع: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تاريخ الدخول (١-١١-٢٠١٤م) على الرابط الآتي: http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=120

(١٠) انظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص٢٨٦.

أعقب دحي الأرض بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، فقد يكون لعملية الدحو أثر في إخراج الماء والمرعى منها، والمداحي: حجارة صغيرة كالقرص يلعب بها، فتحفر حفرة وتدفع الحجارة ثم تدور، فإن وقعت في الحفرة كان اللاعب غالباً، وهذا الحجر المدحي له حركتان حركة حول نفسه، وحركة حول الحفرة حتى يقع فيها(١). **ومن هذا تبرز سمة من سمات الإعجاز البياني في آيات الطبيعة: هي التعبير عن المعنى بطريقة تصلح لجميع العصور المتعاقبة؛ فيفهمه كل عصر بحسب ما يهيئه له الله من العلم، فلم يصدم العصور السابقة بما لديهم من معطيات، ولا يتعارض مع العصور اللاحقة بما لديهم من مكتشفات.**

وقد ورد لفظ (الدحو) في سياق الخلق مدمجاً مع سياق الاستدلال، ومشتركاً مع سياق التسخير، وذلك في سورة النازعات وقد سبق بيانه في المبحث السابق، أمَّا لفظ (الطحو) فقد جاء في معرض القسم من سورة الشمس، وهو في ظاهره سياق الخلق والإبداع.

➢ ومن التعبير عن خلق السماوات والأرض: قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾(٣)، ومعنى فاطر السماوات والأرض: مبدعهما ومبتدئهما وخالقهما، وفَطَرَ الله الخلق يَفْطُرُهم: خلقهم وبدأهم، والفِطْرَةُ: الابتداء والاختراع.(٤) ورُوي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنَّه قال: ما كنت أدري ما (فاطر السماوات والأرض) حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها.(٥) وهذا تعبيرٌ مناسبٌ لسياق الخلق؛ لأنَّ سياق الخلق والإبداع يأتي لبيان القدرة كما سبق، ودلالة الكلمة (فاطر) تنسجم مع هذا، كما أنَّ إيثار صيغة اسم الفاعل دون صيغة الفعل تؤكد القدرة على الفعل، والتمكن منه، وقد جاءت بصيغة الفعل في بعض المواضع، ولكنَّها ليست في سياق الخلق، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾(٦).

٢) السماوات والأرض في سياق التسخير والانتفاع:

---

(١) انظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص: ٤٠٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) انظر: لسان العرب، مادة (فطر)، ج٥/ ص٥٦.

(٥) رواه الطبري –رحمه الله– في تفسيره، انظر: جامع البيان، ج٩/ ص١٧٥.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

➢ إنَّ التعبير عن هيئة السماوات والأرض في سياق التسخير والانتفاع له مفردات قد لا تستخدم في السياقات الأخرى، وهي مفردات وتعابير تتناسب مع هذا السياق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾(١)، والقرار: هو السكن، مصدر من قَرَّ بمعنى: سكن(٢)، فالله -جلَّ جلاله- قد خلق الأرض قارة غير مضطربة، ولو لم تكن كذلك لكان الخلق في عناء، ومن أسباب قرارها هذا أنَّ الله -سبحانه- قد أرساها بالجبال، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾(٣)، ومعنى أن تميد بهم أي: أن لا تميد، أو كراهية أن تميد(٤)، **وقد يفهم من الآية أنَّ حركة الأرض موزونة ليس فيها اضطراب.. بمعنى أنَّه عندما يتم اكتشاف كروية الأرض وحركتها؛ فإنَّ التعبير بالفعل: (تميد) يصح، أو يتساوق مع هذا**، وقد قدمت الأرض على السماء في هذه الآية ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾؛ لأنَّ التسخير فيها والانتفاع منها محسوس، والمقصود من الآية الامتنان بهذا التسخير.(٥)

ولما ذكر المسكن وهو الأرض، ذكر بعدها الساكن وهو الإنسان، فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾، فإنَّ الأرض لمَّا كانت قراراً جعل للإنسان فيها مستقراً؛ وقد بين ذلك رب العزة والجلال منذ أن أهبط آدم إلى الأرض؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾(٦)، ثم بعد ذلك ذكر تدبير ما به بقاء الساكن في المسكن، فقال: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾، فهذا من التناسب بين أجزاء هذا السياق(٧).

➢ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(٨)، يُذَكِّر الله -جل وعلا- في هذا السياق ببعض نعمهِ وآلائه من تسخير الأرض للناس، وأنَّه جعلها لهم فراشاً ينتفعون بها على هذه الهيئة(٩)، ومعنى جعلها فراشاً أنَّه سبحانه سخرها لهم ينامون ويتقلبون ويقعدون عليها كما يكونون

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٤.

(٢) انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٥/ ص٤٨. ولعله من ذلك سُمِيَ الشتاء القرّ: لأن الناس تسكن فيه أكثر من الصيف.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣١.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ ص٥٧.

(٥) انظر: المرجع نفسه، ج٢٤/ ص١٩٠.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٤.

(٧) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٦/ص٥٢٣.

(٨) سورة البقرة: آية ٢٢.

(٩) الطبري، جامع البيان، ج١/ص:٣٨٨.

على فُرُشِهم(١)، فمن هذا الوجه شابهت الفراش، وإذا كانت الأرض تقلهم فإنَّ السماء قد جعلها بناء يظلهم، وكما في الأثر عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- قوله: (أي سماءٍ تظلني وأي أرضٍ تقلني..)(٢). قال الزمخشري -رحمه الله- في هذه الآية: (ثم ما سوّاه -عزّ وجلَّ- من شِبه عَقد النكاح بين المُقلة والمُظلة بإنزال الماء منها عليها، والإخراج به من بطنها -أشباه النسل المنتج من الحيوان- من ألوان الثمار رزقا لبني آدم؛ ليكون لهم ذلك مُعتبراً... ونعمة يتعرّفونها، فيقابلونها بلازم الشكر).(٣)

➢ ومن صور التعبير عن الأرض في سياق التسخير: وصفها بأنَّها بساط، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾(٤)، وهو وصف قريب من الوصف الذي سبق، وفي الموضعين يحتمل كونه تشبيهاً بليغاً حذفت منه أداة التشبيه؛ فالتقدير: جعل لكم الأرض كالبساط، والبساط: ما يفرش للنوم أو الجلوس عليه، ووجه الشبه بين الأرض والبساط: تساوي أجزائها وتناسبها فلا تقض جنوب المضطجعين، ولا توجع أرجل الماشين، يعزّز هذا قوله بعدها: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، فكانت كالتعليل لجعلها بهذه الهيئة.(٥)

➢ وقد ورد وصف الأرض بالمهد والمهاد في ثلاثة مواضع من كتاب الله(٦)، ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾(٧)، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾(٨)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾(٩)، ويضاف إلى ذلك موضع رابع فيه مدح للخالق-سبحانه- بذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾(١٠). والمهد والمهاد كالفرش والفراش؛ فالمهد مصدر الفعل: مهد يمهد مهداً، والمهاد اسم الموضع(١١). وقيل:

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج١/ ص٢١٥.

(٢) وردت رواية هذا الأثر عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- في كثير من كتب التفسير، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [سورة عبس، الآية: ٣١]، انظر: تفسير ابن كثير، ج٤/ ص٤٢٨.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج١/ص:٢١٥.

(٤) سورة نوح، الآيتان: ١٩-٢٠.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ج٢٩/ ص٢٠٥.

(٦) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة: (مهد)، ص٦٧٧.

(٧) سورة طه، الآية: ٥٣.

(٨) سورة الزخرف، الآية: ١٠.

(٩) سورة النبأ، الآية: ٦.

(١٠) سورة الذاريات، الآية: ٤٨.

(١١) ذكر ابن جرير-رحمه الله-: أن عامة قرّاء المدينة والبصرة قرؤوها مهاداً في جميع القرآن. انظر: جامع البيان، ج١٦/ ص٨٤.

المهد مفرد والمهاد جمع، والمهد: كلمةٌ تدلُّ على توطئةٍ وتسهيلٍ للشّيء[١]. وفي الآيات امتنان من الله تعالى على عباده بتسخير الأرض لهم، فكأنَّها كالمهد للصبي، وهو ما يمهد له فينام فيه[٢]. ومنه قوله تعالى عن عيسى –عليه السلام–: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾[٣]، ولعلَّ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[٤] فيه تفسير لجعل الأرض للناس مهداً، وفي الآية من سورة الذاريات: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ تفسير للمهد بالفرش ضمناً.

➢ ومن التعبير عن الأرض في سياق التسخير: وصف الله تعالى للأرض[٥] بأنَّها كفات، ورد ذلك في موضع واحد[٦] في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾[٧]، وفي السياق استفهام إنكاري تقريري، وقد سبقه استفهام مثله في قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[٨]. والكفت: الجمع والضم، فمن نِعم الله على خلقه أن جعل لهم هذه الأرض تجمع على ظهرها خلقاً لا يحصى من الأحياء، وتضم في بطنها أعدادًا غير محصورة من الأموات[٩]، ولا يحصي عدد هؤلاء الأحياء وأولئك الأموات إلا الله العليم الخبير.

➢ ومن ذلك: وصف الأرض بأنَّها ذلول، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[١٠]، فأخبر –سبحانه وتعالى– ممتناً على عباده أنَّه سخَّر لهم الأرض، فجعلها أرضاً ذلولاً سهلة منقادة، ولم يجعلها أرضاً مستعصية ممتنعة يصعب المشي عليها أو الزرع فيها أو الانتفاع بها. وهذا تشبيهٌ لها بالجمل أو الناقة الذلول التي تنقاد حتى للطفل

---

(١) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة: (مهد)، ج٢/ ص٤٩١.

(٢) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٦/ ص٢٩٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٦.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨١.

(٥) لا يقصد بالوصف هنا الإعراب وإنما المعنى، فلا يكون إعراب (كفاتاً) في الآية صفة؛ إذ الصفة تتبع الموصوف في التعريف والتنكير، وإنما هي مفعول به ثانٍ لجعل لأنه بمعنى التصيير، وكذلك الكلام في الأوصاف الأخرى من هذا المبحث. انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج٨/ ص١٨٣.

(٦) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (كفت)، ص٦٠٥.

(٧) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٥–٢٦.

(٨) سورة المرسلات، الآية: ٢٠.

(٩) انظر: الألوسي، روح المعاني ج٢٩/ ص١٧٤.

(١٠) سورة الملك، الآية: ١٥.

الصغير[1]، وقد سبق الحديث عن هذه الآية في فصلٍ سابقٍ[2]. ومما يمكن إضافته هنا: أنَّ هذا الوصف إمَّا أن يكون تشبيهاً بليغاً حذفت منه أداة التشبيه، وإمَّا أن يكون استعارة مكنية؛ فشُبهت الأرض بالجمل المركوب أو الناقة، وحذف المشبه به وأُبقي شيء من لوزمه وهي صفته في قوله: (ذلولا)[3]. ولمَّا شبهها بالجمل أو الدابَّة المنقادة جاء الأمر بعدها بقوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾، والمنكب: ملتقى الكتف والعضد، فعبَّر بالمناكب عن أطراف الأرض، وفي ذلك تخييل للاستعارة، وذلك لزيادة بيان تسخير الله –جلَّ وعلا– الأرضَ للناس[4]، والتسخير والامتنان بيّنٌ في الآية الكريمة، فالآية فيها دلالة على أقصى درجة التمكن من التسخير والانتفاع.

➢ ومن ذلك شقُّ الأرض قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾[5]، وفي هذا السياق امتنان من الله على الإنسان الذي قال عنه ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾، فأمره بالنظر في طعامه ليرى أنواع النعم التي أنعم الله بها عليه قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾، من إنزال للماء، وتسخير للأرض بشقها، والإنبات فيها بنباتٍ شتى، ثم بيّنَ أنَّ ذلك متاعٌ للناس ولأنعامهم حتى تجيء الصَّاخَّة. قال ابن عاشور –رحمه الله–: (فالتقدير: فلينظر الإنسان إلى طعامه، وتهيئة الماء لإنمائه، وشق الأرض وإنباته، وإلى انتفاعه به وانتفاع مواشيه في بقاء حياتهم)[6].

➢ ومن بيان هيئة السماوات والأرض في سياق التسخير: ورفع السماء، ونصب الجبال، وسطح الأرض، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾[7]، وفي الآيات جاء الفعل مبنياً للمجهول للعلم بالفاعل، ولتعظيم الخالق –سبحانه–، وفي ذلك أيضاً دعوة للتفكر في الخلق، والتوصل منها إلى صفات الخالق –كالقدرة– المستوجبة لإخلاص العبادة له سبحانه. ومعنى سُطحت: أي أنَّ الله –جلَّ

---

(١) انظر: ابن القيم، بدائع التفسير، ج٤/ ص٤٩٤، وانظر: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، فوائد الفوائد (مرتبة ومبوبة)، رتبها علي الحلبي، دار ابن الجوزي، الدمام–السعودية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص: ١٨١.

(٢) انظر: الفصل الثاني (الدقة والإحكام للمفردات والتراكيب)، المبحث الثاني (التكثيف في آيات الطبيعة)، ثانياً: (جوامع الكلم في آيات الطبيعة).

(٣) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٢٩/ ص١٤.

(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٩/ ص٣٢.

(٥) سورة عبس، الآيات: ٢٥–٣٢.

(٦) المرجع نفسه، ج٣٠/ ص١٣٠.

(٧) سورة الغاشية، الآيات: ١٧–٢٠.

جلاله– قد سوَّاها فجعلها مستوية ممهدة مهيئة للانتفاع بها حسبما يقتضيه صلاح أمور الناس، فكانت ممهدة للمشي والجلوس والاضطجاع[1].

➢ ومن ذلك: تزيين السماء وحفظها، ومدُّ الأرض، وجعل معايش للناس فيها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾[3].

إنَّ مَدَّ الأرضِ قد يكون أنسب تعبير يتوافق مع الحقيقة العلمية الثابتة من أنَّ الأرض كروية الشكل، فالمدُّ البسط وأنسب شكل له هو الشكل الكروي؛ لأنَّ الإنسان يرى الأرض ممدودة مبسوطة أمام ناظريه أنَّى اتجه، فلا يكون فيها نقطة بداية ولا نقطة نهاية، ولا يصل معها إلى حافة ينتهي معها هذا المدُّ[4]. وذلك لا يتنافى مع سطح الأرض في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[5]؛ لأنَّ الكرة إذا كانت في غاية العظمة كان كل جزءٍ منها كالسطح[6]. فلا تعارض في ذلك.

➢ والله –جلَّ جلاله– كما زيَّن السماء الدنيا بالكواكب، فقد زين الأرض بأمور شتى، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾[7]، قال ابن عاشور –رحمه الله– في تفسير هذه الآية: (وقد جاء نظم هذا الكلام على أسلوب الإعجاز في جمع معانٍ كثيرةٍ يصلح اللفظ لها من مختلف الأغراض المقصودة، فإن الإخبار عن خلق ما على الأرض زينةً يجمع الامتنان على الناس، والتذكير ببديع صنع الله إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبه النفوس من الزينة والزخرف، والامتنان بمثل هذا كثير)[8].

---

(١) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج٣٠/ ص١١٧، وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٣٠٦.

(٢) سورة الحجر، الآيات: ١٦–٢٠.

(٣) سورة ق، الآيتان: ٦–٧.

(٤) انظر: صلاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص٤٠٧.

(٥) سورة الغاشية، الآية: ٢٠.

(٦) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٣١/ ص١٥٩.

(٧) سورة الكهف، الآية: ٧.

(٨) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٥/ ص٢٥٧.

➢ ومنه إخبار الله –تعالى– أنَّه منذ خلق الأرض قد بارك فيها فقال –عزَّ من قائل–: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾(١)، وهذا نصُّ عام في الأرض جميعاً، وقد خُصَّت بعض أجزاء هذه الأرض بمزيدٍ من البركة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾(٢)، وكقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾(٣). إنَّ صفة البركة في الأرض تختزل كثيراً من الصفات التي تقدمت فمن بركتها(٤):

١) أنَّه يودع فيها من الحَب فتخرجه أضعافاً مضاعفة عما أُودع فيها.
٢) أنَّها تحمل الأذى على ظهرها، وتخرج من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواري كل قبيح، وتخرج كل مليح.
٣) أنَّ الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها.
٤) كما يخرج منها للناس طعامهم وشرابهم، متعاً لهم ولأنعامهم.
٥) أنَّها تستر قبائح العباد وفضلات أبدانهم وتواريها.
٦) أنَّها كفات تجمع على ظهرها عدداً لا يحصى من الأحياء، وتضم في بطنها أعداد لا تحصر من الأموات. فكل ذلك من البركة التي أودعها الله في هذه الأرض.

٣) السماوات والأرض في سياق الاستدلال والإقناع:

➢ من آيات الطبيعة التي تأتي في سياق الاستدلال والإقناع: تلك الآيات التي تثبت القدرة على إحياء الموتى بما يراه الناس ويشاهدونه بأبصارهم، فالأرض الميتة التي لا حياة فيها، ينزل الله عليه الغيث فإذا هي تحيا مزدهرة، تأخذ زينتها، ولكنها ما تلبث أن تموت مرة أخرى، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾(٥)، فيأتي مثل هذا السياق للاستدلال على قضية البعث والنشور. إنَّ التعبير عن حياة الأرض وموتها في هذا السياق يأتي بطرق متعددة، فمرة يأتي بطريقة الإخبار، كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ

(١) سورة فصلت، الآية: ١٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١.
(٤) انظر في ذلك: ابن القيم، بدائع التفسير، ج٤/ ص٤٩٥.
(٥) سورة النحل، الآية: ٦٥.

ﭐلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩﴾[1]، وأخرى يأتي بطريقة السؤال للمكذبين، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾[2]، وثالثة يأتي بلفت الأبصار إلى آيات الله، كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾[3]، أو بلفت النظر إلى آثار رحمة الله سبحانه، كقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾[4]، وقد يأتي بالأمر بالعلم، كقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾[5] قال ابن جرير –رحمه الله– عند تفسيره لهذه الآية: (وكما يحيي هذه الأرض الميتة بعد دروسها، كذلك يهدي الإنسان الضَّالَّ عن الحقِ إلى الحقّ.. قد بيَّنّا لكم الأدلة والحجج لتعقلوا)[6]؛ لأنَّ هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾[7]. وكل هذه الطرق المتعددة جاءت في سياق الاستدلال على أنَّ من يقدر على إحياء الأرض بعد موتها، ويميتها بعد حياتها قادر على إحيائكم بعد أن يكتب عليكم الموت، فهذا دليل مشاهد.

- ومن التعبير عن الأرض في سياق الاستدلال: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٥﴾[8]، جاءت هذه الآية في سياق الاستدلال على

---

(١) سورة الروم، الآية: ١٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٣.

(٣) سورة يس، الآيات: ٣٣ – ٣٦.

(٤) سورة الروم، الآية: ٥٠.

(٥) سورة الحديد، الآية: ١٧.

(٦) الطبري، جامع البيان، ج٢٢/ ص٤١١.

(٧) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٨) سورة الحج، الآية: ٥.

إثبات البعث، فابتدأت بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾، ثم جاء بدليلين يستدل بهما على البعث، الأول: خلق الإنسان ومراحل تكونه إلى نهاية أجله، والثاني: حال الأرض بعد أن كانت هامدة ميتة يابسة فينزل عليها الماء، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج(١). وبين هذين الدليلين تناسب؛ فحال الإنسان كحال هذه الأرض التي خلق منها، ولذا لم يفصل بفاصل بين الدليلين، قال تعالى: ﴿ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥ ﴾(٢).

➢ وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ ﴾(٣)، فالتعبير القرآني يأتي بهذا السياق للاستدلال على قدرة الله –عز وجلَّ– على إحياء الموتى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾.

وهذه الآيات قد وردت في فصول سابقة، فجاء الحديث عنها في الفصل الثالث: المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة(٤)، وجاء في الفصل الخامس: التصوير الفني في آيات الطبيعة(٥)، وكذلك جاء في هذا الفصل –فصل السياق– **وهذا يدلُّ على غنى النص القرآني وتعدد جوانب البلاغة والبيان فيه.** وقد سبق القول في تلك المواضع أنَّ التعبير عن الأرض بهامدة أو بخاشعة لم يأتِ لمجرد التنويع في التعبير، فقد يشترك الهمود والخشوع في المعنى العام فحسب، ولكنَّ كلّ تعبير منهما كان متناسباً مع الجو العام الذي جاء فيه، فلا يغني هذا عن هذا ولا العكس. فوصف الأرض بـ(هامدة) جاء في سياق البعث والإحياء والإخراج، أمَّا وصف الأرض بـ(خاشعة) فقد جاء في سياق العبادة والخشوع والسجود، فكان الوصف بالخشوع للأرض أنسب وأجمل من وصفه بالهمود في هذا الموضع، وسياق وصف الأرض بالخشوع قوله تعالى:﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ٣٨ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ ﴾(٦).

ومما يمكن إضافته هنا ولم يذكر في الفصول السابقة: أنَّ الآيات من سورة الحج أُتبع وصف الأرض (هامدة) بالإنبات قال تعالى:﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٤/ ص١٧٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٤) انظر: المبحث الأول (اختلاف الآيات المتشابه في المفردات)، خامساً: اختيار اللفظ بإبدال كلمة بكلمة.

(٥) انظر: المبحث الثاني (التخييل الحسي)، ثانياً: التخييل بالحركة، والمبحث الثالث (التناسق الفني)، ثالثاً: التناسق الفني بوحدة الرسم.

(٦) سورة فصلت، الآيات: ٣٧-٣٩.

﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾. فزِيد فيها على اهتزازِ الأرضِ والإرباءِ الإنباتَ، وذلك متسق مع سياق الإحياء، أمَّا في سورة فصلت فلا محل فيه للإنبات والإخراج فاكتُفِيَ فيه بالاهتزاز والإرباء؛ لأنَّه لا يتناسب مع سياق العبادة كما كان متناسباً مع سياق البعث والإحياء والإخراج، فاكتفى في هذا الموضع بالاهتزاز والإرباء.(١)

➢ ومن أوصاف الأرض في سياق الاستدلال: أن يجعلها تأخذ زخرفها وتتزين، ولكن هذا الزخرف وهذه الزينة غير دائمة، ومثلها في ذلك مثل الحياة الدنيا، التي ما هي إلا ظلٌ زائلٌ، جاء وصف الأرض بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾(٢). والاستدلال بقِصر الحياة الدنيا –بالنسبة للحياة الآخرة– بحياة الأرض وموتها كثيرٌ في كتاب الله، والقصد من وراء ذلك –والله أعلم بمقاصده– هو أن الناس يغفلون عن قصر حياتهم الدنيا، فيذكرهم بأمر مشاهد محسوس لهم، وهو حياة الأرض، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾(٣). جاء الإخبار عن الحياة الدنيا في هذه الآية بأنَّها "زينة"، وكذلك أخبر عن الأرض في الآية السابقة من سورة يونس فقال عنها –عز وجلَّ–: أنَّها أخذت زخرفها وازّيّنت. وهذا التعبير فيه تشبيه للأرض بالعروس التي تتزين وتكون في كامل زينتها، والتزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء(٤).

▪ ثانياً: التعبير عن الليل والنهار واختلافه باختلاف السياق:

➢ التعبير عن الليل والنهار يأتي بلفظ (الخلق) في سياق الخلق والإبداع، وقد يكون سياق الخلق مدمجاً معه سياق آخر كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾(٥)، وقد أدمجت السياقات الثلاثة –الخلق والتسخير والاستدلال– في هذا الموضع،

---

(١) انظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص:١١٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٤) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج١٧/ ص٧٦.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

والعبرة في هذه الآية بإيجاد الليل والنهار نفسهما، وكذا إيجاد الشمس والقمر نفسهما، وليست العبرة في هذا الموضع بإيجادهما على صورة معينة، أو حالة خاصة؛ لذا فقد عبر عن ذلك بفعل الخلق، ولم يعبر بفعل الجعل أو غيره[١].

➢ وفي سياق الاستدلال يأتي التعبير عن الليل والنهار بالفعل (يولج) كما في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾[٢]، وهذه الموضع وإن ذكر فيه لفظ التسخير إلا أنَّ السياق ليس سياق التسخير؛ وإنَّما تسخير الشمس والقمر هو استدلال على القدرة، وقد جاء هذا بعد إثبات القدرة على الخلق والبعث، وأنَّه ليس إلا كنفس واحدة، واستدلّ على ذلك بإيلاج الليل في النهار والعكس، واستدل بتسخير الشمس والقمر وجريان كل لأجله، وأُتبع ذلك بالتذييل بصفة الخبرة المتضمنة لكمال العلم. وجاء لفظ الإيلاج أيضاً في سياق الاستدلال في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾[٣]. ومعنى الإيلاج: الإدخال[٤]، وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل: تغييب الليل في النهار، وتغييب النهار في الليل بإقبال هذا وإدبار ذاك، وأنَّه يزيد في كل واحدٍ منهما بقدر ما ينقص من الآخر، وذلك دليل كمال القدرة[٥].

وقد يأتي لفظ (الإيلاج) لليل في النهار في سياق الاستدلال المشترك مع سياق التسخير كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾[٦].

➢ ومن التعبير عن الليل والنهار في سياق الاستدلال: تكويرهما على بعضهما، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ ص٥٩.

(٢) سورة لقمان، الآيتان: ٢٨-٢٩.

(٣) سورة الحديد، الآيات: ٤-٦.

(٤) قال ابن فارس: (الواو والام والجيم: كلمة تدل على دخول شيء)، انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (ولج)، ج٢/ ص.

(٥) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢٦/ ص٢٤٤.

(٦) سورة فاطر، الآيتان: ١٢-١٣.

وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾[1]، ففي ذلك استدلال على القدرة والقهر؛ فهذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾[2]، فالواحد القهار مستغنٍ عن الصاحبة والولد، ومن دلائل قهره وعزته خلقه –سبحانه وتعالى– للسموات والأرض بالحق، وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وتسخير الشمس والقمر. فأصبحت جملة (هو الله الواحد القهار) رابطة لما قبلها بما بعدها؛ فهي تذييل لآية نفي الولد عن الله سبحانه، وهي تمهيد للاستدلال على معنى الوحدانية والقهر بخلق السماوات والأرض وتكوير الليل على النهار والعكس، وتسخير وجريان الشمس والقمر، ففي ذلك دلالة على كمال القدرة وكمال الاستغناء.[3]

والتكوير: الجمع واللف واللي، ومنه تكوير العمامة: إذا جمعت وأديرت على الرأس.[4] والتعبير عن حالة الليل والنهار بالتكوير فيه تمثيل للأرض بالرأس وتعاقب الليل والنهار عليها بالعمامة عندما تكور على الرأس، ولفظ التكوير مأخوذ من الكرة، ويستدل أصحاب التفسير العلمي بالآية على كروية الأرض[5]، والمفسرون القدماء فسروا التكوير هنا بأنَّ المراد منه الزيادة في كل واحدٍ منهما بقدر ما ينقص من الآخر، أو إقبال أحدهما وإدبار الآخر، وهذا المعنى صحيح؛ لأنَّه إذا غيّب الليل النهار عندما يطرأ عليه أو العكس فإنه يشبه الشيء إذا لُفَّ عليه شيء آخر فغيّبه عن الأنظار، وكل واحدٍ منهما يكرّ على الآخر كروراً متتابعاً، فأشبه ذلك تتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض[6]، فهذا اللفظ (التكوير) قد اتسع لعلم جميع العصور، وفُسِرَّ تفسيراً صحيحاً حسب معطيات كل عصر. **إنَّ التعبير بالتكوير في هذه الآية والإيماء به عن مثل هذه المعاني التي يتسق فهمها مع كل عصر دون تعارض لصريح النص مع صحيح العلم يعدُّ سمة من سمات الإعجاز البياني في آيات الطبيعة، ولا يمكن لأحدٍ أن يأتي ببيان يتسم بمثل هذا إلا أن يكون تنزيلاً من حكيم خبير.**

➢ ومن التعبير عن الليل والنهار في سياق الاستدلال: تقليب الليل والنهار، ففيه دليل على كمال القدرة، قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾[7]، وهذه الآية قد جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٣/ ص٣٢٨.

(٤) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (كور)، ج٥/ ص١٥٦.

(٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٣/ ص٣٢٩.

(٦) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٥/ ص٢٨٩.

(٧) سورة النور، الآية: ٤٤.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾(١)، وذلك كله استدلال على كمال قدرته سبحانه، لذا فقد ذيلت بقوله: (إنَّ الله على كل شيء قدير).(٢)

➢ ومن التعبير عن الليل والنهار في سياق الاستدلال: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾(٣)، فهذا استدلال على أنَّ الخلق والأمر لله سبحانه، والتغشية والغشيان والإغشاء: التغطية والغَمُّ(٤)، ومنه الغاشية وهو اسم من أسماء يوم القيامة قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾(٥)، فمعنى يغشي الليل النهار: يغطيه، ولم يأتِ التعبير هنا كما في الإيلاج والتكوير، فلم يقل: يغشي الليل النهار ويغشي النهار الليل؛ لأنَّ الآية مسوقة للاستدلال على سعة التصرف في المخلوقات، وتصوير إغشاء الليل النهار فيه دلالة على قوة التمكن من تغيير أعراض المخلوقات العظيمة، فذكر تسليط الظلمة على النور وتغطيتها له، كما قد استدل بهذا –في التفسير العلمي– على أن الكون تغشاه الظلمة إلاَّ الغلاف الجوي المحيط بالأرض، فإنه تنعكس فيه الإضاءة إذا واجهها.(٦)

ويجوز أن يكون الاقتصار على: (يغشي الليل النهار) دون إتباعها بعكسها: (ويغشي النهار الليل) من باب الإيجاز؛ لأنَّ الليل والنهار يصحّ أن يكونا مفعولين لفاعل الإغشاء، فكانت دلالة التعبير بهذا الوجه: يغشي الليل النهار ويغشي النهار الليل، بمعنى أن كلاً منهما يغطي الآخر، ولم يأتِ مثل هذا الإيجاز في حالة التكوير والإيلاج؛ لأنَّ جملة: (يولج الليل في النهار) لا تغني عن جملة: (ويولج النهار في الليل)، وجملة: (يكور الليل على النهار) لا تغني عن جملة:

---

(١) سورة النور، الآيات: ٤٢-٤٥.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٣/ ص ٢٩١-٢٩٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٤) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (غشي)، ج١٥/ ص١٢٦.

(٥) سورة الغاشية، الآية: ١.

(٦) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨/ ص١٦٦، ج٢٣/ص٣٢٩، وانظر: ثريا محمد: مظاهر الإعجاز العلمي في الغلاف الجوي، مقال منشور على موقع: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تاريخ الدخول: (١-١١-٢٠١٤م)، وذلك على الرابط الآتي: http://www.quran-m.com/firas/arabicold/print_details.php?page=show_det&id=1647

(ويكور النهار على الليل)؛ وذلك لتعلق حرف الجر (في) بفعل الإيلاج، تعلق حرف الجر (على) بفعل التكوير.[1]

➢ واستخدم التعبير بتغشية الليل النهار في سياق الاستدلال المدمج مع سياق التسخير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[2].

▪ ثالثاً: التعبير عن الريح والرياح واختلافه باختلاف السياق:

سبق بيان أنَّ من عادات القرآن إفراد الريح في سياق العذاب، وجمعها في سياق الرحمة، ولا حاجة لإعادته[3]، وما يمكن إضافته هنا: أنَّ الريح أو الرياح جاءت بأوصاف متنوعة وفقاً للسياق الذي وردت فيه، ومن ذلك وصفها بالعقيم، أو الصرصر، أو العاصف، أو القاصف، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾[7]، وآيات العذاب بالريح هي في سياق الاستدلال؛ لأنَّها تأتي للاستدلال على كمال الإحاطة والقدرة لله سبحانه وتعالى، وأنَّ من أهلك الأمم السابقة قادرٌ على إهلاك المعاندين والمكذبين.

وقد جاء وصف الرياح بأنَّها مبشرات، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾[8]، وجعلها بشرى للعباد

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨/ ص١٦٧.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣.

(٣) انظر: الفصل الثاني من هذا البحث: (الدقة والإحكام للمفردات والتراكيب في آيات الطبيعة)، المبحث الأول: (عادات القرآن)، ثانياً: عادات القرآن في إفراد الكلمة وجمعها.

(٤) سورة الذاريات، الآية: ٤١.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٦) سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٦٩.

(٨) سورة الروم، الآية: ٤٦.

كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ۝٤٨﴾[1]، ووصفها بأنَّها ذاريات، ومرسلات كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١﴾[3]، على قول من قال من المفسرين بأنَّ المقسم به في هذه الآيات الرياح[4]، والغالب في هذه الأوصاف أنَّها تأتي في سياق التسخير لأنها بمعنى الرحمة، وقد يدمج معه سياق الاستدلال على القدرة أو العظمة كما في أقسام القرآن[5].

روى ابن كثير عن عبيد الله بن عمرو قال: (الرياح ثمانية: أربعة منها رحمة، وأربعة منها عذاب، فأما الرحمة: فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات، وأما العذاب: فالعقيم والصرصر وهما في البر، والعاصف والقاصف وهما في البحر، فإذا شاء -سبحانه وتعالى- حركه بحركة الرحمة فجعله رخاءً ورحمةً وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً، وأودعه عذاباً أليماً، وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصراً وعاتياً ومفسداً لِما يمر عليه).[6]

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ١.

(٣) سورة الرسلات، الآية: ١.

(٤) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٢١/ ص٤٧٩، وانظر: ج٢٣/ ص٥٨٠-٥٨٣.

(٥) المقصود بأقسام القرآن: جمع (قَسم) بفتح القاف، وليس جمع (قِسم) بكسر القاف.

(٦) تفسير ابن كثير، ج٣/ ص٤٠٨.

▪ **رابعاً: التعبير عن الماء النازل من السماء واختلافه باختلاف السياق:**

سبق كذلك الحديث عن تسمية الماء النازل من السماء مطراً في مواضع العذاب، وتسميته غيثاً في مواضع الرحمة(١)، **ويضاف على ذلك هنا أنَّ مواضع العذاب هي من سياق الاستدلال، ومواضع الرحمة هي من سياق التسخير.**

➢ ومن صور التعبير عن الماء النازل من السماء في سياق الاستدلال: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾(٢)، وقد عبَّر عنه في هذا الموضع بالودق، والودق: القطر، ومن خلاله يعني من خلال السحاب(٣)، وقيل: البرق، والمعنى الأول أولى، وهو الذي عليه جمهور المفسرين(٤)، وقيل هو خاص بالقطر إذا كان ضعيفاً، وهو مصدر في الأصل، يقال: ودق يدق من باب: وعد(٥)، ولعلَّ تسميته بالودق؛ لأنَّه يأتي من السماء، قال ابن فارس: (الواو والدال والقاف: كلمةٌ تدلُّ على إتيانٍ وأنَسَة)(٦)، وفي اللسان: (ودَقَ إلى الشيء وَدْقاً ووُدُوقاً: دنا)(٧). وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو من إزجاء السحاب، والتأليف بينه، ونزول الماء، وما يصحب ذلك من البرق والبرد(٨)، والآية جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾(٩)، فاستدلّ على قوله: (لله ملك السماوات والأرض) بهذه الدلائل الظاهرة المشاهدة.

➢ ويأتي وصف الماء النازل من السماء بأنَّه مبارك في بعض المواضع، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ

(١) انظر: الفصل الثاني من هذا البحث: (الدقة والإحكام للمفردات والتراكيب في آيات الطبيعة)، المبحث الأول: (عادات القرآن)، أولاً: عادات القرآن في اختيار كلمة دون مرادفها.

(٢) سورة النور، الآية: ٤٣.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج١٧/ ص٣٣٧.

(٤) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج٢/ ص٢٧١.

(٥) انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج٥/ ص٢٩١.

(٦) معجم مقاييس اللغة، مادة (ودق)، ج٢/ص٦٢٥.

(٧) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ودق)، ج١٠/ ص٣٧٢.

(٨) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٢٦٠.

(٩) سورة النور، الآيات: ٤٢-٤٥.

﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾[١]، وقد أدمج سياق الاستدلال مع التسخير في هذه الموضع، ووصفه بهذا في هذا السياق واضح الدلالة.

➢ وقد يختلف التعبير عنه وإن كان المعنى متقارباً لاختلاف السياق في كل واحد منهما، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۢ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾[٢]، وفي معنى قريب منه قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾[٣]، فالآيتان تتحدثان عن ذهاب الماء، وعدم قدرة الناس على الاستفادة منه، والآية من سورة المؤمنون جاءت في سياق التسخير، وفيها إنذار وتهديد بسلب هذه النعمة، أمَّا الآية من سورة الملك فقد جاءت في سياق الاستدلال، والاعتبار بقدرة الله تعالى على سلبها، ولمَّا كان مقام الإنذار والتهديد يتطلب عبارة أبلغ في الإيعاد، جاءت في آية سورة المؤمنين خصائص تناسب ذلك المقام، ومن ذلك[٤]:

١) أنَّ آية سورة المؤمنون على الجزم، وهذا أدَّلُ على تحقيق ما أوعد به وإن لم يقع، أمَّا آية سورة الملك فالمعنى على الفرض والتقدير.

٢) التوكيد بـ (إنَّ) واللام في سورة المؤمنون، ولم يأتِ توكيد مثله في آية سورة الملك.

٣) في آية سورة المؤمنون قال: (ماء) فجعله مطلقاً، أما في سورة الملك قال: (ماؤكم) فأضافه إليهم، والإذهاب في الأولى للماء بشكل عام، أمَّا في الثانية فالإذهاب خاص بالماء المعين، والأول إنذار بما لم يصب الناس ابتلاء به قط، أما الثاني فإنه قد يقع، والإنذار بأمر لم يقع أشد مما قد حصل مثله، وكل ذلك يجعل آية سورة المؤمنين أبلغ في التهديد.

٤) الإنذار في آية سورة المؤمنون يقتضي هلاك الناس جميعاً، أما آية سورة الملك فلا يقتضي ذلك.

٥) تنكير (ذهابٍ) يفيد المبالغة، كما أنَّ الذهاب بالماء يعني عدم بقائه، أما أن يكون غوراً فإنَّه قد يكون باقياً.

---

(١) سورة ق، الآيات: ٩-١١.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

(٣) سورة الملك، الآية: ٣٠.

(٤) ذكر العلماء والمفسرون ما يقرب من الثلاثين وجهاً في المقارنة بين هاتين الآيتين، وأنَّ آية سورة المؤمنون أبلغ في التهديد من آية سورة الملك لأن المقام فيها هو ذاك. وقد أدمجتُ ما رأيته مشتركاً أو متقارباً وجعلتُه وجهاً واحداً، كما حذفتُ ما تكرر، وأعرضتُ عما رأيتُ فيه تكلفاً، ولعلي قد فهمته على غير مراده. انظر في ذلك: الزمخشري، الكشاف، ج٤/ ص٢٢٣، وانظر: الألوسي، روح المعاني، ج١٨/ ص١٩-٢٠، وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٣٠-٣٢.

٦) أنَّ الذهاب جاء مسنداً إلى الله سبحانه في سورة المؤمنون؛ فقال: (وإنَّا على ذهاب به)، أمَّا في سورة الملك فجاء الإسناد إلى الماء؛ فقال: (أصبح ماؤكم غوراً)، كما أنَّه في الأولى قد أخبر عن نفسه سبحانه، أما في الثانية فقد أمر نبيه أن يقول ذلك: (قل أرأيتم)، وإخباره عن نفسه أبلغ في التهديد.

٧) في سورة المؤمنون جاء الضمير (إنَّا) بالجمع؛ لإفادة التعظيم.

٨) وفي قوله (قادرون) دلالة على كمال القدرة على الفعل، وقد جاء بالجمع كذلك للتعظيم ومناسبة الضمير قبله.

٩) الجار والمجرور (به) فيه دلالة على أنَّ: ما يمسك الله فلا مرسل له من بعده.

١٠) في سورة المؤمنون لم يعقبه إطماع كما في سورة الملك، ففيها إطماع مفهوم من قوله تعالى: (فمن يأتيكم بماء معين).

١١) الجار والمجرور: (على ذهاب به) قُدم على متعلقه: (لقادرون)؛ لأنَّ المقدم فيه إفادة الإيعاد؛ وإلاَّ فإنَّ ترتيب الجملة -في غير القرآن- أن يقال: (وإنَّا لقادرون على ذهابٍ به).

١٢) في آية سورة المؤمنون الجملة اسمية: (إنا على ذهاب به لقادرون)، والاسم فيه الدلالة على الثبات والاستمرارية، وذلك أبلغ في التهديد والإنذار، وفي آية سورة الملك الجملة فعلية: (أصبح ماؤكم غوراً)، وفي ذلك دلالة على الصيرورة والانتقال.

١٣) الآيتان فيهما دلالة على الإذهاب بالماء، ولكنَّه في آية سورة المؤمنون مصرح به، وفي سورة الملك مفهوم من الاستفهام.

١٤) أنَّ جهة الإذهاب في سورة المؤمنون غير معينة، أمَّا في سورة الملك فالجهة معينة بأنَّها إلى الأسفل، وذلك لما يدلُّ عليه لفظ (غوراً)، وعدم تحديد جهة الإذهاب أبلغ في التهديد والإنذار.

١٥) أنَّ الإيعاد المصرح به في آية سورة المؤمنون مضمن بإيعاد آخر أشد منه، وهو الإيعاد بالإبعاد عن رحمة الله؛ لأنَّ (ذهب به) يستلزم مصاحبة الفاعل المفعول، وذهاب الله –سبحانه وتعالى– عنهم ذهاب رحمته وفضله.

وما ذُكر من وجوه بلاغة آية سورة المؤمنون في مقام التهديد والإنذار لا يقتضي أنَّ آية سورة الملك خالية من وجوه البلاغة في مقامها الذي جاءت فيه، ولمَّا أورد ابن عاشور تلك الوجوه اعتذر للعلماء في عدم ذكرهم لوجوه البلاغة في آية سورة الملك، وفسَّر فعلهم بما يدلُّ على علو

كعبه في العلم والأدب، فقال –رحمه الله–: (عني هؤلاء النحارير ببيان التفاوت بين الآيتين، ولم يتعرض أحدهم للكشف عن وجه توفير الخصائص في هذه الآية دون الآية الأخرى مما يوازنها، وليس ذلك لخلو الآية عن نكت الإعجاز، ولا عجز الناظرين عن استخراج أمثالها؛ ولكنَّ ما يبيِّن من الخصائص البلاغية في القرآن ليس يريد من يُبينه أنَّ ما لاح له ووفق إليه هو قصارى ما أودعه الله في نظم القرآن من الخصائص والمعاني، ولكنَّه مبلغ ما صادف لَوحُه للناظر المتدبر، والعلماء متفاوتون في الكشف عنه على قدر القرائح والفهوم، فقد يفاض على أحد من إدراك الخصائص البلاغية في بعض الآيات، ولا يفاض عليه مثله، أو على مثله، في غيرها. **وإنَّما يقصد أهل المعاني بإفاضة القول في بعض الآيات أن تكون نموذجا لاستخراج أمثال تلك الخصائص في آيات أخرى)**.[١]

***

كان هذا الفصل محاولة للكشف عن إعجاز القرآن الكريم في سياقه من خلال آيات الطبيعة، وكيف أنَّ السياق القرآني يحكم التعبير فيه، فالآية تتناسب مع ما سبقها وما لحق بها، والمقطع من السورة يأخذ بزمام ما قبله وما بعده، وكل سورة لها رابط يربطها بالسورة التي تليها والسورة التي تسبقها؛ إنه تنزيلٌ من عليم حكيم.

***

(١) التحرير والتنوير، ج١٨/ ص٣٢.

خاتمة

بالنتائج والتوصيات

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فقد تم إنجاز هذا البحث بفضل من الله ومنة، ويمكن أن تتلخص أهم النتائج في الأمور التالية:

أولاً: أنَّ القرآن الكريم لا يعجز عن خطاب الإنسان في أي عصر، ولا يحمله أكثر مما يطيق، ويظهر ذلك في إيثار الألفاظ ذات السعة الدلالية مما لا يتعارض فيها صريح النص مع صحيح العلم، فتحمل دلالات توافق بين التفسير في زمن تنزّل القرآن والتفسير الذي يأتي في المستقبل الأيام، أو ما يمكن تسميته التفسير الآني والتفسير المستقبلي.

ثانياً: أنَّ الإعجاز البياني في القرآن أجمعه، وفي آيات الطبيعة بوجه خاص يتسم بالدقة والإحكام لمفرداته وتراكيبه، بصورة ليس لها نظير، مما يُعجز البشر أن يأتي بمثل ذلك.

ثالثاً: أنَّ الألفاظ والتراكيب في آيات الطبيعة تتميز بالتكثيف؛ فيحمل اللفظُ معانيَ متعددة مع صدق الدلالة والبلاغة والبيان فيها، وللقرآن فيها عادات يحسن بالمهتم به أن يدركها.

رابعاً: المتشابه اللفظي في آيات الطبيعة منه ما هو في إيثار لفظ على لفظ، ومنه ما هو من إيثار تركيب على تركيب، ومردُّ ذلك في كل موضع إلى السياق الذي جاء فيه.

خامساً: التذييل في آيات الطبيعة يخدم مقاصد تلك الآيات، ويرتبط بالسياق الذي جاءت فيه، فيتمم المعنى أو يؤكده، ويأتي التذييل بأسماء الله تعالى وصفاته في آيات الطبيعة دلالة على أنَّ الخلق العظيم يسوق المتلقي إلى الخالق العظيم سبحانه.

سادساً: التعبير القرآني يبثُّ الحياة في مكونات الطبيعة فيجعلها تنبض بالحياة؛ وذلك باستخدام أسلوب التصوير الفني في أغلب آيات الطبيعة.

سابعاً: **آيات الطبيعة تأتي في أحد سياقات ثلاثة،** إمَّا سياق الخلق والإبداع، أو سياق التسخير والانتفاع، أو سياق الاستدلال والاقناع، ومما يستنتج من ذلك:

أ) أنَّ سياق الخلق والإبداع يأتي لبيان القدرة المستوجبة لكمال التعظيم للخالق جلَّ شأنه، وسياق التسخير والانتفاع يأتي لبيان النعمة والامتنان على العباد، المستوجب لكمال الشكر، وسياق الاستدلال والإقناع يأتي لإثبات قضايا التوحيد الكبرى.

ب) أنَّ تلك السياقات قد تشترك، وقد يدمج بعضها في بعض، وذلك ينتج تكاملاً في السياق القرآني، وهذا يضاف إلى سمات الإعجاز البياني في آيات الطبيعة، والسياقات القرآنية بوجه خاص.

ج) أوسع سياق في آيات الطبيعة هو سياق الاستدلال والإقناع، وغالباً ما يأتي مدمجاً مع السياقات الأخرى؛ فإذا كان سياق الخلق يأتي لبيان عظمة الخالق، فهذا استدلال على وجوب كمال التوحيد، وإذا كان سياق التسخير والانتفاع يأتي للامتنان، فهذا استدلال على وجوب حمده سبحانه على نعمه.

د) السياق القرآني له أهمية بالغة في فهم معاني القرآن الكريم ومقاصده، وإهمال النظر فيه يفوت خيراً كثيراً، بل قد يوقع في الزلل والخطأ في التفسير.

ثامناً: سمات الإعجاز البياني في آيات الطبيعة، وهي موجودة ضمناً في كل فصول البحث، وقد جاء التصريح بها في آخر فصل منه حتى لا يُستعجل في قطف الثمرة، وهذه السمات منها ما هي خاصة ومنها ما هي إضافية، ومن تلك السمات:

أ) أن التعبير القرآني في آيات الطبيعة يأتي بطريقة يدرك منها كل عصر بحسب ما يهيئه له الله من العلم، فلم يصدم العصور السابقة بما لديهم من معطيات، ولن يتعارض مع العصور اللاحقة بما لديهم من مكتشفات، وقد تكون هذه السمة خاصة بآيات الطبيعة دون غيرها من آيات التكليف، أو آيات القصص القرآني؛ لأنَّ آيات الطبيعة فيها إشارات إلى قوانين وسنن سوف يتم الوقوف عليها واكتشافها بعد عصر التنزيل.

ب) ومن سمات الإعجاز البياني في القرآن الكريم بوجه عام، وفي آيات الطبيعة بوجه خاص: الوفاء بالمعنى مع الاقتصاد في اللفظ ومراعاة السياق.

ج) آيات الطبيعة تبيّن تفاصيلَ غاية في الدقة والإحكام، وروعة في الفصاحة البيان، يعجز البشر أن يأتوا بمثل هذه الدقة والبيان.

د) كثافة النص القرآني وغناه بجوانب متعددة، فنجد في النص الواحد أنواعاً شتى من البلاغة والبيان.

أمَّا ما يمكن ذكره من توصيات: فإنَّ الباحث بعد أنَّ أمضى في هذا البحث ما يربو على السنتين –بين جمع للمصادر والمراجع وجمع للمادة وتحريرها– قد رأى الموضوع جديراً بأن تفنى فيه الأعمار، وتبذل فيه الأموال، فليس أشرف للمسلم من خدمة كتاب الله، وبيان جوانب إعجازه، وإنه ليرجو من الله أن ييسر له أو لغيره إتمام موسوعة تسمى: (موسوعة الإعجاز البياني للقرآن الكريم) تُضم فيها أقسام متعددة بحسب التنوع في المواضيع القرآنية؛ فتجعل على النحو الآتي: الإعجاز البياني في آيات الإنسان، والإعجاز البياني في آيات التكليف والتشريع، والإعجاز البياني في آيات اليوم الآخر والثواب والعقاب، ويجعل منها موضوع هذا البحث أيضاً: الإعجاز البياني في آيات الطبيعة.

إنَّ هذا القرآن الكريم معجزة خالدة يبين الله بها للخلق صدق نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم– على مر العصور، ويدعوهم للإيمان بدينه القويم وصراطه المستقيم، وهو كتابٌ لا تفنى عجائبه إلى يوم القيامة، ولا يستأثر عصر بالكشف عن أسراره دون العصور اللاحقة، وكم ترك السابق للاحق من مجال، ولكن الكشف عن هذه العجائب يتطلب تأملاً طويلاً، وفتوحاً يفتح الله بها على من يشاء من عباده، إنه هو الفتاح العليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، وعلى آله، وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

قائمة المراجع والمصادر

- القرآن الكريم. (مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبي–مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف–بإشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية).

- إبراهيم إبراهيم سيد أحمد، أثر السياق في توجيه المعنى في "تفسير التحرير والتنوير" –دراسة نحوية دلالية، دار المحدثين، القاهرة–مصر، ضمن سلسلة الرسائل الجامعية (٨)، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- إبراهيم بن السري الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.

- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية–الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، إستانبول–تركيا، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

- إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبدالله دراز، دار الفكر العربي، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

- أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ب ط، ب ت.

- أحمد بن جمال العمري، مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، دار المعارف، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت.

- أحمد بن الحسين البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، تحقيق: عبدالعلي عبدالحميد حامد، دار الرشد، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

- أحمد بن الحسين المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، شرحه وضبطه: علي العسيلي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- أحمد سيد محمد عمار، نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي الحديث، دار الفكر، دمشق– سوريا، ب ط، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، العبودية، تحقيق: علي حسن عبدالحميد، دار الأصالة، الإسماعيلية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، دار عالم الكتب، الرياض–السعودية، ب ط، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
- أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، حقق عدة أجزاء منه: الشيخ عبدالعزيز بن باز، رقَّم كتبها وأبوابها وأحاديثها: أ. محمد فؤاد عبدالباقي، دار السلام، الرياض– السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- أحمد عمر أبو حجر، التفسير العلمي للقرآن في الميزان، دار المدار الإسلامي، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.
- أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- أحمد بن فارس بن زكريا، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- أحمد محمد الخراط، والإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف–الشؤون العلمية، المدينة المنورة–السعودية، ب ط، ١٤٢٦هـ.
- أحمد محمد دعسان، التكثيف البلاغي في القرآن الكريم–جزء عمّ دراسة أسلوبية، دار المأمون، عمّان–الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- أحمد بن محمد الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، ب ط، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

- أحمد بن المنير الإسكندري المالكي، الانتصاف من الكشاف، المذيل في حاشية الكشاف للزمخشري، تحقيق: عادل عبدالجواد وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

- إسماعيل ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق هيئة بإشراف الناشر، مكتبة المعارف، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م.

- إسماعيل ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، راجعه ونقحه: الشيخ خالد محمد محرم، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- امرئ القيس بن حجر الكندي، ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه: الأستاذ مصطفى عبدالشافي، شرحه حسن السندوبي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الخامسة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

- بدر الدين ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: د.عبدالجواد خلف، (سلسلة منشورات جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي–باكستان) توزيع دار الوفاء، المنصورة–مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- بدوي طبانة، معجم البلاغة، دار المنارة، جدة –السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- بسيوني عبدالفتاح بسيوني، من بلاغة النظم القرآني، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

- تماضر بنت عمرو، ديوان الخنساء، دار صادر، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.

- ثابت بن جابر، ديوان تأبط شراً، تحقيق: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.

- جرول بن أوس، ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير، شرحه: تاج الدين شلق، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- حبيب بن أوس الطائي، ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- الحسن بن عبدالله العسكري، الفروق في اللغة، تحقيق: جمال عبدالغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- الحسن بن عبدالله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت–لبنان، ب ط، ب ت.
- ردة الله الطلحي، دلالة السياق، سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطباعتها(٣٣) بجامعة أم القرى، مكة المكرمة– السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- روز غريب، تمهيد في النقد الحديث، دار المكشوف، بيروت– لبنان، ب ط، ١٩٧١م.
- زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، دمشق–سوريا، طبعة خاصة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ب ت.
- السيد الجميلي، الإعجاز العلمي في القرآن، دار الهلال، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة–مصر، ب ط، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

- سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة–مصر، الطبعة العاشرة، ٢٠١٠م.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة–مصر، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
- سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، القاهرة–مصر، الطبعة السابعة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- سيسل دي لويس، الصورة الشعرية، ترجمة: أحمد نصيف الجابي وآخرون، منشورات وزارة الثقافة والإعلام–الجمهورية العراقية، ب ط،١٩٨٢م.
- شذى جرار، موازنة بين مذهبي الباقلاني والجرجاني في كتابيهما إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز، منشورات أمانة عمان، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- صلاح عبدالفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- صلاح عبدالفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، دار القلم، دمشق–سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- صلاح عبدالفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الفرقان، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف، القاهرة–مصر، الطبعة الثالثة، ب ت.
- عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة–مصر، الطبعة السابعة، ب ت.
- العباس بن الأحنف، ديوان العباس بن الأحنف ، تحقيق: عاتكة الخزرجي، دار الكتب المصرية، القاهرة–مصر، ب ط، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.
- عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة–مصر، الطبعة الخامسة، ب ط، ب ت.
- عباس محمود العقاد، الفصول، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة– مصر، ب ط، ٢٠١٣م.

- عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، نهضة مصر، القاهرة–مصر، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٩م.
- عبدالحق ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م
- عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية–الشؤون العلمية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة–السعودية، ب ط، ١٤٢٦هـ.
- عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق: احمد مختار الشريف، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق–سوريا، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى بك وآخرين، دار التراث، القاهرة–مصر، الطبعة الثالثة، ب ت.
- عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، قطف الأزهار في كشف الأسرار، تحقيق: أحمد محمد الحمادي، إدارة الشؤون الإسلامية–وزارة الأوقاف، دولة قطر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب للعلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م
- عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ–١٩٩١م.
- عبدالرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني، أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، دار القلم، دمشق–سوريا، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- عبدالرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، دار القلم، دمشق–سوريا، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

- عبدالرحمن بن محمد الأنباري، الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، بدون رقم الطبعة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، اعتناء ودراسة: أحمد الزعبي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت–لبنان، ب ط، ب ت.

- عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الريان، بيروت–لبنان، ب ط، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- عبدالعال سالم مكرم، المشترك اللفظي في الحقل القرآني، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- عبدالعزيز بن علي الحربي، الشرح الميسر على ألفية ابن مالك، دار ابن حزم، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

- عبدالعزيز بن محمد السحيباني، جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

- عبدالعزيز بن ناصر الجليل، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها–دراسة تربوية للآثار الإيمانية والسلوكية لأسماء الله الحسنى، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

- عبدالعظيم بن عبدالواحد ابن أبي الإصبع العدواني، بديع القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، دار نهضة مصر، القاهرة– مصر، ب ط، ب ت.

- عبدالعظيم المطعني، المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع عرض وتحليل ونقد، مكتبة وهبة، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت.

- عبدالفتاح لاشين، صفاء الكلمة من أسرار التعبير في القرآن، دار المريخ، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- عبدالقاهر الجرجاني، الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز والقول في الصرفة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة–مصر، ب ط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة–مصر، ب ط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- عبدالكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين–دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.

- عبدالكريم محمود يوسف، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم غرضه وإعرابه، مكتبة الغزالي، دمشق–سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

- عبدالله بن عبدالعزيز المصلح، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه، ب ن، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

- عبدالله بن عقيل الهمداني، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة–مصر، الطبعة العشرون، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- عبدالله بن فهد العرفج، جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة، دار التوحيد، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

- عبدالله بن محمد ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

- عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تفسير غريب القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ب ط، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

- عبدالله بن يوسف ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، ب ط، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

- عبدالله بن يوسف ابن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى وبلّ الصدى، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، ب ط، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

- عبدالله بن يوسف ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: حسن حمد، وإميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

- عبدالمتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة–مصر، بدون رقم الطبعة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- عبدالملك بن محمد الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

- عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية–المكتبة العلمية، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت.

- عثمان بن جني، المذكر والمؤنث، تحقيق: طارق نجم عبدالله، دار البيان العربي، جدة–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- عدنان زرزور، علوم القرآن وأعجازه وتاريخ توثيقه، دار الأعلام، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

- عدنان زرزور، علوم القرآن، الكتاب الإسلامي، بيروت–لبنان، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، (الطبعة الأخيرة).

- علقمة بن عبدة الفحل، ديوان علقمة بن عبدة الفحل، شرح أبي الحجاج الأعلم، تحقيق: لطفي الصقال، ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب–سوريا، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

- علي بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: عبدالله التركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، الطبعة الحادية عشر، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

- علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

- علي بن إسماعيل الأندلسي (ابن سيده)، المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ب ط، ب ت.
- علي بن ربن الطبري، الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد –صلى الله عليه وسلم–، تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات (قاموس لمصطلحات وتعريفات علم الفقه واللغة والفلسفة والمنطق والتصوف والنحو والصرف والعروض والبلاغة)، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت.
- عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، شرحه وقدم له: عبد أ.علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- عمر بن علي بن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ب ط، ب ت.
- عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- عمرو بن بحر الجاحظ، رسالة حجج النبوة (ضمن مجموعة رسائل الجاحظ)، تحقيق: علي أبو ملحم، دار الهلال، بيروت–لبنان، الطبعة الأخيرة، ٢٠٠٢م.
- عمرو بن بحر الجاحظ، رسالة خلق القرآن (ضمن مجموعة رسائل الجاحظ)، تحقيق: علي أبو ملحم، دار الهلال، بيروت–لبنان، الطبعة الأخيرة، ٢٠٠٢م.
- عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب العثمانية، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجبل، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- عنترة بن شداد العبسي، ديوان عنترة شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- عيسى بلاطة، إعجاز القرآن عبر التاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- فاضل بن صالح السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، الشارقة –الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- فاضل بن صالح السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، عمان–الأردن، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- فاضل بن صالح السامرائي، الجملة العربية تأليفها وأقسامها، دار الفكر، عمان– الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.
- فاضل بن صالح السامرائي، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- فاضل بن صالح السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، عمان–الأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، مكتبة الضياء، جدة–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- القاسم الأنصاري السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط–المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.
- القاسم بن علي الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبدالمنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ب ط، ب ت.
- قيس بن الملوح، ديوان "مجنون ليلى" رواية أبي بكر الوالبي، تحقيق: يسري عبدالغني، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

- كعب بن مالك، ديوان كعب بن مالك، تحقيق: سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد–العراق، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية مشكلات الحضارة، تقديم: محمد عبدالله دراز ومحمود شاكر، دار الفكر، دمشق–سوريا، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.
- المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: علي بن حسن الحلبي الأثري، دار ابن الجوزي، الدمام–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- المثنى عبدالفتاح محمود، نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية، دار الأوائل للنشر، عمان–الأردن، الطبعة الأولى،١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- محمد إبراهيم الشمسان، السياق القرآني ودلالته على الترجيح في "تفسير التحرير والتنوير" للطاهر ابن عاشور، جامعة أم القرى، مكة المكرمة–السعودية، ب ط، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، جمع وتحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت.
- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الروح–في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء، تقديم وتعليق: محمد علي القطب وبرهان الدين البقاعي، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، ب ط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (القصيدة النونية)، عني بها: عبدالله بن محمد العمير، دار ابن خزيمة، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، بدائع التفسير، جمعه يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الدمام–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق: علي العمران، إشراف: الشيخ بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة–السعودية، ب ط، ب ت.
- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، فوائد الفوائد (مرتبة ومبوبة)، رتبها علي الحلبي، دار ابن الجوزي، الدمام–السعودية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق: الشيخ عرفان بن سليم الدمشقي، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، مع شرح وتعليق: خليل عبدالكريم، سينا للنشر–الانتشار العربي، القاهرة–مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩م.
- محمد بن إسحاق ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت–لبنان، ب ط، ب ت.
- محمد بن إسحاق بن خزيمة، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، تحقيق: عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان، دار الرشد، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- محمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، اعتنى به: حبيب محمد طه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسننه وأيامه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
- محمد الأمين الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- محمد بركات حمدي أبوعلي، دراسات في الإعجاز البياني، دار وائل، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبدالله التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

- محمد حسن عبدالله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت.
- محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام (تحقيق)، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة–مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م
- محمد بن صالح ابن عثيمين، القواعد الفقهية، دار البصيرة، الاسكندرية–مصر، ب ط، ب ت.
- محمد بن صالح ابن عثيمين، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، تحقيق: أشرف عبدالمقصود، مكتبة السنة، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- محمد بن صالح ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، محمد بن صالح ابن عثيمين، دار الهداية، تعز–اليمن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- محمد بن صالح ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، دار ابن الجوزي، الدمام – السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.
- محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ب ط، ١٩٨٤م.
- محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت.
- محمد عبدالعزيز النجار، ضياء السالك إلى أوضح المسالك، مكتبة ابن تيمية، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت.
- محمد بن عبدالعظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- محمد بن عبدالله الأصبهاني "الخطيب الإسكافي"، درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطباعتها(٣٠)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

• محمد بن عبدالله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة –مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

• محمد بن عبدالله بن مالك الأندلسي، ألفية ابن مالك، مكتبة ابن تيمية، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

• محمد بن عبدالله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة، الدوحة–قطر، بدون رقم الطبعة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

• محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، ب ط، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

• محمد بن عمر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ–١٩٨١م.

• محمد صدقي البورنو، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، الرسالة العالمية، الطبعة الرابعة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

• محمد بن فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى:١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

• محمد بن القاسم الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار الشؤون الثقافية العامة–آفاق عربية، بغداد–العراق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

• محمد بن القاسم الأنباري، المذكر والمؤنث، تحقيق: محمد عبدالخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث بوزارة الأوقاف المصرية، القاهرة–مصر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

• محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ب ط، ١٩٩٧م.

• محمد بن محمد ابن الجزري الدمشقي، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع، دار الكتب المصرية، بيروت–لبنان، ب ط، ب ت.

- محمد بن محمد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق: موفق فوزي الجبر، دار الحكمة، دمشق- سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- محمد بن محمد الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق: محمود بيجو، بدون دار النشر ومكانه، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح ابن ماجه، مكتبة المعارف، الرياض-السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، دار الصديق، الجبيل-السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف سنن أبي داوود، مؤسسة غراس، الجهراء-الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- محمد نورالدين المنجد، الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق-سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- محمد بن يزيد المبرد، المذكر والمؤنث، تحقيق: رمضان عبدالتواب وصلاح الدين الهادي، دار الكتب، بدون مكان النشر، ١٩٧٠م
- محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان وسُمي (أسرار التكرار في القرآن)، دراسة وتحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة–مصر، ب ط، ب ت.
- محمود بن عبدالله الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، ب ط، ب ت.
- محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل عبدالجواد وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار ابن كثير، دمشق–سوريا، الطبعة السادسة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- مراد هوفمان، الإسلام كبديل، مكتبة العبيكان، الرياض–السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- مساعد بن سليمان الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، الدمام–السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- مصطفى حسن سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق –سوريا، ٢٠٠١م.
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- منذر عياشي، القرآن والتلقي من الإعجاز والمجاز إلى الأسطورة والخرافة، عالم الكتب الحديث، إربد–الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

- منير المسيري، دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة تحليلية، مكتبة وهبة، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم -دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة-، مكتبة مدبولي، القاهرة-مصر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م.
- ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: د.محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، ب ط، ب ت.
- نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المكتب الإسلامي، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق، مؤسسة الرسالة، لبنان-بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، عالم الكتب، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

***

➢ والمجلات العلمية والدوريات:

- أحمد مطر العطية: حروف الجر بين النيابة والتضمين، **مجلة التراث العربي** (مجلة فصلية محكمة) تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد الثاني عشر بعد المئة، السنة الثامنة والعشرون، ذو الحجة١٤٢٩هـ/ كانون الأول٢٠٠٨م.
- إسماعيل عز الدين: العدالة الاجتماعية في الإسلام، **مجلة الثقافة**، العدد الثامن، سبتمبر ١٩٥٢م.
- حجاج أنور عبدالكريم: التناوب في المعنى بين حروف العطف- دراسة في القرآن الكريم، **مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها**، العدد الثاني عشر، شهر ربيع الثاني لعام ١٤٣٥هـ/ فبراير ٢٠١٤م.
- زيد بن علي مهارش: صور من المشترك اللفظي في القرآن الكريم وأثرها في المعنى، **مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية**، العدد الرابع والخمسون، محرم ١٤٣٣هـ.

- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم(١-٢)، **مجلة المقتطف**، فبراير ١٩٣٩م.
- عدنان زرزور: بين مفهوم المعجزة وإعجاز القرآن "نظرات نقدية"، **حولية كلية الشريعة** والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد السابع عشر، عام ١٩٩٩م.
- علي الطنطاوي: على هامش المناظرة بين خلاف وقطب، **مجلة الرسالة**، السنة الثالثة عشر، العدد الثامن والأربعون بعد الستمائة، تاريخ ٣ ديسمبر ١٩٤٥م.
- المثنى عبد الفتاح محمود: الإدماج في القرآن الكريم –قراءة تحليلية بيانية نقدية في "تفسير التحرير والتنوير"، **مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية**، يصدرها مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، المجلد التاسع والعشرون، العدد التاسع والتسعون، ٢٠١٤م.
- محمد ذنون الراشدي: إشكالية زيادة المبنى ودلالتها على زيادة المعنى- دراسة تطبيقية على السين وسوف في القرآن الكريم، **مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية**، بجامعة الموصل، المجلد الثامن، العدد الرابع، ٢٢-١-٢٠٠٩م.
- محمد رجب بيومي: رد على مقال (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، **مجلة الرسالة**، السنة العشرون، العدد: السادس عشر بعد الألف، ٢٢ ديسمبر١٩٥٢م
- نجيب محفوظ: كتاب التصوير الفني في القرآن، **مجلة الرسالة**، السنة الثالثة عشر، العدد السادس عشر بعد الستمائة، تاريخ ٢٣ أبريل ١٩٤٥م.

***

➢ <u>المراجع الالكترونية من الانترنت:</u>

- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

ww.quran-m.com

- موقع إرشيف: (archive.org):

www.archive.org

- موقع الألوكة الشرعية:

www.alukah.net

- موقع الدرر السنية (مرجع علمي موثق على منهج أهل السنة والجماعة)–الموسوعة الحديثية:
www.dorar.net/hadith
- موقع الكحيل للإعجاز العلمي:
www.kaheel7.com
- موقع المكتبة الشاملة:
www.shamela.ws
- موقع المكتبة الوقفية للكتب المصورة PDF:
www.waqfeya.com/index.php
- موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة:
www.eajaz.org
- موقع رابطة أدباء الشام:
www.odabasham.net
- موقع صيد الفوائد:
www.saaid.net
- موقع ملتقى أهل التفسير:
www.vb.tafsir.net
- مدونة فتحي بودفلة:
www.rebbat.blogspot.com/2010/07/1.html
- موقع (Youtube) برنامج (لمسات بيانية) على قناة الشارقة الفضائية:
www.youtube.com

***

Abstract

Scholars have differed about the Inimitability of the Holy Quran aspects; but they are almost agreed about its existence. The challenging aspect of the inimitability is absolute eloquence since the Holy Quran can give speech to human in all eras; and at the same time it is not exaggerative. In spite of the science development, the widening of the human perceptions and the finding out of modern discoveries in the universe, the nature and man, the Holy Quran didn't clash with any proved scientific fact and also mentioned indicators giving clear indications that it is from Allah; whereas its vocabularies and meanings are abundance and its connotations are variegated. It neither shocked the ancestors' realization nor contradicted with the science of people came after the revelation of the Quran. The inimitability of its good style was obvious because no one can express in this manner except the Lord of mankind, glorified and exalted be He. The nature verses are one of the Quranic verses in which this matter manifests. The ratio of these verses isn't few in the comparison with the Holy Quran subjects and verses because of their significance to the major purposes of the Holy Quran. The Quranic expression is a speech distinguished by accuracy; and the proficiency of vocabulary and structures, as well as it transmits life by describing the nature components, using an artistic simile style. The inimitability of its eloquence appears explicitly in the Quranic context. It has been shown through this survey that the Quranic contexts in the nature verses consists of three contexts which are: the creation context, the exploitation context and the reasoning context. It is certain that Quran miracles doesn't have an end and nobody or era can appropriate the knowledge of its secrets and discovering its cores as Allah demonstrates, whatever He wants, to whoever He wants and nobody can object to his orders.

UNIVERSITY OF BAHRAIN

College of Arts

Department of Arabic Language and Islamic Studies

The Rhetorical Infallibility in the Quranic Verses of Nature

A Thesis Submitted in Partial Fulfillment of the Requirement for the (Master) Degree in (Arabic Language and Literature)

Submitted by

Hassan Fathi Ahmad Al-Shehri

University Number: 20104439

Supervised by:

Prof. Adnan Muhammad Zarzour

(Professor)

University of Bahrain

Kingdom of Bahrain

December/2015